المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

ألكسندر بيلانوجوف

سفير فى بلد الأهرام

من ذكريات دبلوماسى

ترجمة وتقديم: على فهمى عبد السلام
مراجعة: أوليج إيفانوفيتش فومين



1282



كانت عندى كل البواعث لأن أشعر وأنا أغادر القاهرة أننى قد قمت بواجبى جيدًا، فقد تركت مصر التى قدر لى أن أحضر إليها لأعمل سفيرًا فيها لأول مرة فى حياتى. وقد كانت البداية ليست فقط ناجحة، ولكنها أوصلتنى إلى طريق عمل أصعب وأكثر متعة- إلى مقدمة خشبة المسرح الدبلوماسى، التى كانت تمثله هيئة الأمم المتحدة وستظل تمثله. وأنا أشعر الآن بالامتنان لحسن ضيافة مصر ولزملائى الدبلوماسيين السوڤييت، ولباقى العاملين فى الهيئات السوڤييتية بجمهورية مصر العربية؛ لتأييدهم ومعاونتهم لى. وأنا سعيد بأننى كنت مشاركًا معهم فى بدء العملية التى أدت إلى علاقات ناضجة وقوية بين موسكو والقاهرة على أساس من الاحترام و الثقة و الصداقة والمنفعة المتبادلة. وأتمنى بأمانة أن تظل كذلك دائمًا.

سفير فى بلد الأهرام
(من ذكريات دبلوماسى)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٢٨٢
- سفير فى بلد الأهرام (من ذكريات دبلوماسى)
- ألكسندر بيلانوجوف
- على فهمى عبد السلام
- أوليج إيفانوفيتش فومين
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة كتاب:

ПОСОЛ В СТРАНЕ ПИРАМИД

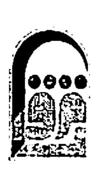
Из воспоминаний дипломата

Александр Белоногов

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

سفير فى بلد الأهرام
(من ذكريات دبلوماسى)

تأليـــــف : ألكسندر بيلانوجوف
ترجمة وتقديم : على فهمى عبد السلام
مراجعـــــة: أوليج إيفانوفيتش فومين



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

بيلانوجوف، إلكسندر.
سفير فى بلد الأهرام (من ذكريات دبلوماسى)
تأليف: إلكسندر بيلانوجوف؛ ترجمة وتقديم: علـى فهمـى عبدالسلام؛ مراجعة: أولـيج إيفـانوفيتش فـومين. ط١ – القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٨
٤٥٢ص؛ ٢٤ سم
١– مصر – وصف ورحلات.
أ- عبد السلام، على فهمى (مترجم ومقدم)
ب- فومين، أوليج ايفانوفيتش (مراجع)
ج- العنوان ٩١٦،٢

رقم الإيداع: ١٤٥١٧/٢٠٠٨
الترقيم الدولى: 0 - 821 – 437 -977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافـاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

أهدي هذا العمل

للمستعربين العاملين

بوزارة الخارجية السوفيتية والروسية

(أ. بيلانوجوف)

المحتويات

تقديم المترجم

ترتبط مصر وروسيا بعلاقات قديمة لا يمكن نسيانها، عبَّر عنها المستشرق، الصحفى، الخبير بشؤون الشرق الأوسط "أناتولى زاخاروفيتش يجورين"، فى أحد أبواب كتابه "مصر فى عصرنا الحديث"، الذى صدرت ترجمته فى إطار "المشروع القومى للترجمة"، تحت عنوان "صفحات مصرية فى التاريخ الروسى". وأستعين هنا بملخص لما ورد بهذا الكتاب؛ لتوضيح عمق العلاقات بين هذين البلدين.

"بدأت فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين علاقات لا يمكن نسيانها بين مصر وروسيا. فقد حضر بلا استثناء إلى مصر كل سفراء روسيا الذين اعتمدوا، فى ذلك الوقت، فى الإمبراطورية العثمانية. وكان كل هؤلاء من رجال الدولة قد وجهوا نظر قيصر روسيا إلى البلد البعيد "مصر"، لكن القريب إلى القلب، الذى كان يمر بفترة قاسية، ليست الأحسن فى تاريخه. وكان الدبلوماسيون الروس المنفذون لرغبة القيصر مباشرة فى بلد الأهرام، الذين تم اعتمادهم بها، هم: المستشار "أ.إ.ليكس" القنصل العام لروسيا فى مصر من عام ١٨٦٦ إلى ١٨٨٢. وقبله كان "أ.إ. لاجوفسكى" من عام ١٨٦٢ إلى ١٨٦٣، ثم فى الفترة ١٨٦٣-١٨٦٦ "ف.ن. خيتروفو". ومن عام ١٨٨٧ حتى ١٩٠٢، رأس الدبلوماسيين مستشار الدولة الأول "ب.ب.ماكسيموف". ومن أبريل ١٩٠٥، مستشار الدولة "أ.أ. سميرنوف"، الذى مثل مصالح روسيا فى مصر حتى نهاية عام ١٩٢٦.

وتعبر تركيبة البعثة الدبلوماسية الروسية فى مصر عن اتساع العلاقات الدبلوماسية. ففى عام ١٩٠١، كانت الصورة كما يلى: وكالة وقنصلية عامة فى القاهرة (١٦ شارع عماد الدين)، ونائب قنصلية فى القاهرة أيضا (٢ شارع المغربي)، وقنصلية فى الإسكندرية (٦٨ شارع رشيد). وبالإضافة إلى هاتين الهيئتين الرئيستين، كان يوجد قنصل فى بورسعيد (فى عام ١٩٠١ كان "جنريخ برونى")، ونائب قنصل فى السويس (نيقولاس كوستا)، ونائب قنصل فى دمياط

(سلامة رازوق)، ورئيس فرع قنصلية فى المنصورة (عزيز جريس)، ورئيس وكالة قنصلية فى الزقازيق (بازانيللا)، ووكالة قنصلية فى طنطا (إسكندر عبد الله)، وفى أسيوط (إليا بشاى)، وفى جرجا (سرجيوس بطرس)، وفى قنا (أ.ستيفانوس)، وفى الأقصر (السيد عياد)، وفى سوهاج (جرجس بك بطرس)، وفى بنى سويف (عاذر روفائيل)، وفى المنيا (بشرى حنا).

ولم يتجه إلى مصر فى ذلك الوقت كبار رجال الدولة من حاشية القيصر فقط، لكن أيضا شخصيات من المجتمع الروسى، ومن السائحين والحجاج. فعلى سبيل المثال فى نوفمبر عام ١٨٩٠، زار مصر ابنا القيصر "ألكسندر الثالث"- نيكولاى (الذى أصبح، فيما بعد، اعتبارا من ١٨٩٤ قيصر روسيا)، وجيورجى.

ثم زار مصر فى عام ١٨٩٨، أخو "ألكسندر الثالث"، وفى نفس العام، زار روسيا الشاب الذى أصبح فيما بعد الخديوى "عباس (الثاني) حلمي"، ومعه شقيقه "محمد على"، بناء على دعوة من قيصر. وفى صيف عام ١٩٠٠، زار "عباس الثاني" مدينة أوديسا. أما فى عام ١٩٠٩، فقد عبر الأمير "محمد على" كل روسيا فى طريقه إلى اليابان، مستخدما طريق "ترانس سيبيريا". وفى صيف عام ١٩١٠، قام برحلة إلى وسط آسيا والقوقاز.

وقد أدت العلاقات السياسية النشطة، ومن بعدها العلاقات التجارية مع مصر، إلى جذب انتباه الأدباء والفنانين الروس إلى مصر. ويمكن أن نستدل على ذلك من مؤلفات: "بوشكين"، و"ليرمنتوف"، و"جريبايدوف"، و"دوستويفسكى"، و"دوبرولوبوف"، و"جومتشاروف"، و"تولستوى"، و"تشيخوف"، والعديد من الكتاب، والشعراء، والصحفيين، والعلماء، وصفوة رجال المجتمع الآخرين. وفى القرن التاسع عشر، انتشرت الأعمال والمذكرات المختلفة عن الرحلات إلى مصر فى الجرائد والمجلات المختلفة، مثل: "مذكرات وطنية"، "الإنسان المعاصر"، "نشرة بحرية"، "مقدم الأخبار الروسى"، "مكتبة للقراءة"... إلخ. وقد درس الروائى الشهير "ليف تولستوى" فى جامعة "كازان"، بقسم "الأدب العربي- التركي"، وتعلم اللغة

العربية وتاريخ إفريقيا، وتعرف على كتب عن الشعوب العربية وتاريخهم وثقافتهم. ولم يعجب "تولستوى" كتاب "رحلة حول العالم"- تأليف الفرنسى "جاك أراجو"- الذى أحدث دويا عند نشره فى ذلك الوقت (١٨٤٤-١٨٤٥)، حيث لم يلمس الروائى الروسى فى هذا العمل "الاحترام المستحق لشعوب الشرق". ولم تعجبه أبدا رحلة "أراجو"، وكتب فى مذكراته "إنها مشبعة بالثقة بالنفس الفرنسية فى كل جوانبها العلمية والأخلاقية". فإن الكاتب الفرنسى كان مولعا بما هو غير مألوف، لكنه لم ينظر فى عينى أى مصرى؛ لذلك فقد تم انتقاده فى بلد الأهرام أيضا.

وفيما بعد، عرفت المراسلات بين كل من "ل.ن. تولستوى" والشخصية المصرية المرموقة - مفتى الديار المصرية "الشيخ محمد عبده"، الذى تزعم فى الفترة الأخيرة من حياته تيار التحديث المتعلق بتجديد مفاهيم الإسلام.

ويمكن أن نتذكر أيضا عالم المصريات "فلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف" (١٨٥٦-١٩٤٧)، وهو يعتبر من النجوم التى تحتل المكانة الأولى فى علم المصريات. فبعد مرور أكثر من خمسين عاما على وفاة "فلاديمير سيميونوفيتش"، فى مدينة "نيس" بفرنسا، فى ٩ أغسطس ١٩٤٧، ما زال يعتبر هذا العالم أعظم الخبراء المتميزين فى اللغة المصرية القديمة. وقد كتب "جولينيشيف" أكثر من خمسين عملا علميا، أغلبها ترجمات لوثائق مصرية قديمة وتعليقات عليها. وقد أسس قسم "علم المصريات" فى جامعة القاهرة، حيث تلقى العلم الكثير من العلماء العظام. وتمثل المجموعة المعروضة بالقاعة المصرية فى "متحف بوشكين بموسكو"، تقريبا، مائة فى المائة من المقتنيات الخاصة "بجولينشيف".

ويشهد تفاعل المصريين مع أحداث ثورة عام ١٩٠٥ فى روسيا على قوة الروابط المصرية - الروسية فى بداية القرن العشرين. فقد ظهر خبر "ثورة فى روسيا"، تقريبا، فى كل الجرائد، حيث تمت تغطية أحداث عام ١٩٠٥ بالتفصيل. وقد تم جمع التبرعات فى كل من القاهرة والإسكندرية "لضحايا الاضطرابات فى روسيا". وفى نفس هذا العام ١٩٠٥، تم تأسيس لجنة فى مصر "لمساعدة ضحايا

الاضطرابات فى روسيا"، جمعت ١٦٠٠ جنيه إسترلينى فى الفترة حتى بداية عام ١٩٠٧، تم إرسال ١٠٠٠ جنيه منها إلى الصندوق المركزى فى لندن، وخصصت ٦٠٠ جنيه للقادمين إلى مصر مطرودين من روسيا. وفى خلال أعوام الثورة الروسية الأولى، تم فى مصر إنشاء لجنة "من أجل روسيا الحرة"، و"الصندوق الروسى للمساعدة المتبادلة"، ولجنة "خزينة التضامن مع المهاجرين الروس". وقد نظمت هذه اللجان حفلات، و"ياناصيب"، وعروضًا مسرحية خيرية، لجمع التبرعات. وبلغ حجم التبرعات رقما كبيرا،. كما نظمت اجتماعات للتضامن، منها اجتماعات نظمت فى يومى ١٩ و٢٠ يناير ١٩٠٥ فى الإسكندرية، شارك فيها أكثر من ٥ آلاف فرد. وقد احتجت المظاهرات على تسليم الثوار الروس المهاجرين للقنصلية الروسية، ثم تم حرق العلم الملكى والقيصرى عند سفارتى بريطانيا وروسيا. كما نشطت فى مصر فى الفترة ١٩١١-١٩١٤، نقابة بحارة أسطول البحر الأسود التجارى "رجيستراتسيا".

وقد كتب عضو الحركة الشعبية الروسى "س.ي. إيلباتفسكى"، الذى زار مصر فى عام ١٩٠٦، يقول: "أنا أعرف كم كان هناك تأثير قوي لعاصفة الثورة الروسية على مصر، وعلى كل الشرق". وللأسف كانت رغبته أن يكون ذلك صحيحا، لكن لم يكن الوضع على هذا الشكل فى حقيقة الأمر، فلقد وجدت دون شك علاقات بين المجتمعات الديموقراطية والتحررية فى البلدين، وقد ظهر ذلك بوضوح فى القرن التاسع عشر. واستمر من كان يدير أمور الحكم يتابعون بدقة مناخ السياسة الكبرى. وقد شاركت الجيوش المصرية فى "حرب القرم" ضد روسيا (١٨٥٣-١٨٥٦)، وفى الحرب الروسية- التركية (١٨٧٦-١٨٧٧). وقد عمت السعادة فى مصر عند هزيمة روسيا فى حربها مع اليابان فى عام ١٩٠٥. وكانت هذه معركة ضد قوة عظمى، معركة الشرق ضد الغرب، وقد انحازت روسيا فيها إلى الجانب الغربى، وقد كان ذلك جنوحًا زائدًا لروسيا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وفى نفس الوقت، استقبلت مصر العديد من السياسيين ورجال الثقافة، والعديد من السفراء الروس الذين، دون شك، أثروا بشكل ما على ما كان يحدث فى هذا البلد. وقد بدأت أول مجموعات من المهاجرين الروس فى الوصول إلى الإسكندرية فى أوائل عام ١٩١٩، وتم إسكانهم فى مدينة من الخيام فى "التل الكبير"، فى منتصف الطريق بين القاهرة والإسماعيلية. وقد عاشت فى هذا المعسكر ابنة المؤلف الشهير "أ.شيريكوف" منذ شبابها، وكتبت فيما بعد عن ذلك كتابًا كاملاً. وفى العشرينيات من القرن الماضى، نقلت قوات الاحتلال الإنجليزى مكان إقامة المهاجرين الروس، فتم إسكانهم فى ثكنات خشبية بمنطقة "سيدى بشر"، شرق مدينة الإسكندرية. وكان هذا المكان عبارة عن مدينة كاملة لسكن رجال الجنرالات الروس "دنيكين" و"فرانجل"، الذين عاشوا خلف سور من الأسلاك الشائكة. وقد علق سكان المعسكر علم روسيا، المكون من ثلاثة ألوان، على مدخله. وتم تحويل مبنيين إلى كنيسة. وأنشئت ثلاث مدارس، وصالة ألعاب رياضية، ومسرح، وتم تكوين فرقة موسيقى خفيفة، وفريق غنائى مكون من ٤٠ فردًا، قدم حفلاته فى الإسكندرية. كما وجدت "دار حضانة" خاصة، وفريق من الكشافة، بل إنه تم أيضا إصدار مجلة "نا تشوجبينى"(أى فى الغربة). وقد صفى الإنجليز المعسكر الروسى بسيدى بشر فى مايو ١٩٢٢، وعاد عدد من الروس (حوالى ١٣٠) إلى روسيا فى نهاية عام١٩٢٠. أما الآخرون، فقد استقروا فى مصر، وانصهروا فى الحياة المحلية. وكانت مجلة "زا تشوجينى" تعتبر سجل يوميات تاريخية، كتب فيه عن كل المناسبات السعيدة، وغير السعيدة، للمستعمرة الروسية. وعلى سبيل المثال، فقد كان العرض الأخير بمسرح سيدى بشر هو مسرحية "كفيتكو – أسنوفانينكو"، المسماة " عسكرى المراسلة شيلمنكو– دينشيك"، التى عكست الحالة النفسية للمستعمرة.

وقد استقر المهاجرون الروس الذين تركوا معسكر "سيدى بشر" فى القاهرة، وفى الإسكندرية، وفى بورسعيد. وقد تجمعوا فى القاهرة حول القنصل العام

الروسى السابق "أ.أ. سميرنوف"، الذى امتنع عن خدمة السلطة السوفييتية، ورفض تنفيذ أوامر "اللجنة الشعبية للعلاقات الخارجية"، فتم طرده من وظيفته فى ٩ ديسمبر ١٩١٧. وبعد حصول مصر على الاستقلال الصورى فى ٦ أكتوبر ١٩٢٣، قررت القاهرة عدم الاعتراف بالممثليات الدبلوماسية والقنصلية الروسية السابقة، والتوقف عن دفع الراتب الشهرى لسميرنوف وأعوانه. لكن بقى أ.أ.سميرنوف حتى موته الزعيم غير الرسمى "للمستعمرة البيضاء" الروسية فى مصر.

وتم فى عام ١٩٢٨ إنشاء مكتب لشئون المهاجرين الروس فى وزارة الداخلية المصرية. وقد رأس هذا المكتب أحد رجال "أ.أ.سميرنوف"، العقيد السابق فى جيش القيصر "سكورياتن". وقد فقد المهاجرون الروس جنسيتهم، وتم إعطاؤهم بطاقات شخصية خاصة، وسمح لهم بالحصول على الجنسية المصرية. لكن بقى عدد قليل منهم أصبحوا مواطنين مصريين؛ لأن الكثير منهم توفوا قبل الستينيات أو سافروا إلى أوروبا، بحيث أصبح من الممكن، فى نهاية القرن العشرين، اعتبار أنه ليس هناك وجود للمستعمرة الروسية.

أما فى الإسكندرية، فقد تجمع الروس حول ممثلية الكنيسة الروسية الأورثوذوكسية، والقنصلية العامة التى احتلت حيًا كاملاً فى وسط المدينة. وعمل الكثير منهم أطباء، وموظفين بالميناء، وفى المطاعم، أو سائقى سيارات أجرة. وقدم بعضهم عروضا فى النوادى الليلية، أو كونوا فرقا فنية جوالة حتى توفوا.

على أية حال، عاش فى مصر عدد من المبدعين الذين لم يمكنهم الاستفادة من مواهبهم فى روسيا. وكان أحدهم الرسام "إيفان بليبين"، الذى حضر إلى مصر من ميناء "نوفوروسيسك"، على متن السفينة "ساراتوف". وكان قد بلغ فى ذلك الوقت ٤٥ سنة. فحصل على مبلغ مقدم من أحد اليونانيين الأغنياء، واستأجر منزلا فى وسط مدينة القاهرة، وبدأ يعمل، وكان يسافر إلى مختلف أنحاء بلد الأهرام فى فترات الراحة، ثم انتقل فى صيف ١٩٢٤، للسكن فى الإسكندرية، وفى يناير

١٩٢٥، نظمت له جمعية محبى الفن معرضا خاصا له ولزوجته الفنانة "أ.ف. شيخوتيخينايا - بوتوسكايا". وقد ذهبت، تقريبا، كل الأعمال التى عرضت فى هذا المعرض إلى أمريكا، وإلى اليونان، كما ذكر"م.ن.بوتوسكى" ابن "إيفان ياكوفليفيتش" بالتبنى فى كتاباته، فيما بعد. وقد قيمت الصحافة السكندرية هذا المعرض تقييما كبيرا. وكانت من ضمن الأعمال التى نفذها "بيليبين" فى مصر "بانوهات" زخرفية فى قصور اليونانيين الأغنياء، بالإضافة إلى المناظر الطبيعية والبورتريهات. كما كان يرسم رسومًا للزخرفة، وملابس لفرقة الباليه الخاصة بالبالرينا المشهورة "أنا بافلوفا"، التى قدمت عرض باليه "ن.ن. شيريبنينا"، الشهير "بقصة روسية"، على مسرح أوبرا القاهرة. وفى أغسطس عام ١٩٢٥، انتقلت عائلة "بليبين" من الإسكندرية إلى باريس، بعد قيامها بجولة طويلة أخرى فى صعيد مصر. وقد قام "بليبين" برسم عدة أيقونات للكنيسة الأورثوذوكسية السورية بالإسكندرية، ولكنيسة البشارة، بناء على طلبيهما، على سبيل الوداع. ونقش على هذه الأيقونات الحروف الأولى من اسمه، ورمز ورشته الذى يمثله ميزان.

ومما لاشك فيه أن الروابط بين الأدباء والمفكرين والفنانين والشعراء فى كل من روسيا ومصر قديمة وراسخة بدرجة كبيرة، وهى تثرى كلاً من الثقافة الروسية والعربية. وقد سردنا هنا فقط بعض الأمثلة التى تؤكد ذلك. لكن يوجد مجال آخر ظهر فيه هذا التفاعل بتميز خاص ومفيد.

لذلك فإن جذور العلاقات الروسية المصرية ترجع إلى ماضٍ بعيد لكل من البلدين. وهذه العلاقات تشمل الجوانب السياسية والاقتصادية والروحية التى لم تنقطع أبدا، بل إنها حصلت على دفعة جديدة فى عام ١٩٤٣، عندما بدأ الاتحاد السوفييتى علاقة دبلوماسية مع مصر الحرة. وقد بلغت هذه العلاقة أقصى مدى لها بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، التى قضت على النظام الملكى، ووصول الضباط الأحرار إلى الحكم، بزعامة "جمال عبد الناصر".

وعلى سبيل المثال، فقد ناقش "الخولى أمل متولى حميد إبراهيم"، فى عام ١٩٩٥، رسالة للدكتوراة موضوعها "التحول الثقافى فى مصر والعلاقات السوفييتية - المصرية فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر(١٩٥٢- ١٩٧٩)" بمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية. وقد قدم فى هذه الرسالة دراسة عميقة لدور ممثلى الثقافة الروسية فى تأسيس وتطوير السيرك والباليه المصريين والاتجاهات الوطنية الأخرى.

ومما لاشك فيه أن عناصر التحديد الطبقى، وتأثير النظرة السياسية الاجتماعية، وظهور النظرة الشخصية، قد أعاقت ممثلى المجتمع الروسى عن تقبل وتحليل الواقع الشرقى، وتمييز الخيال الشرقى عن الواقع. لكن بشكل عام، يمكن أن نؤكد أن الديموقراطية، والمجتمع الثقافى الروسى، بالإضافة إلى مساندة المضطهدين، والاحتجاج على الظالمين، هو الذى وصّل، كما يؤكد ليف تولستوى ورواد الثقافة الروسية، إلى التضامن الكامل، ومساندة الشعوب الشرقية فى معركة التحرير. ويعتبر التقييم العالى للحضارة العربية، وخاصة المصرية، وما أضافته إلى كنوز الحضارة العالمية، من خصائص التعامل والتلامس مع الشرق والعالم العربى.

أما فى عصرنا الحديث، فقد مرت العلاقات بين روسيا، التى كانت ضمن جمهوريات الاتحاد السوفييتى السابق، ومصر بمراحل مختلفة من التقارب والتباعد فى عهد الرئيس "جمال عبد الناصر"، ومراحل من الأزمات الحقيقية بين البلدين فى عهد الرئيس "محمد أنور السادات"، حتى أنها قد تجمدت، بل يمكن أن نقول إنها وصلت إلى حد القطيعة، بطرد السفير السوفييتى من مصر، ومن قبله الخبراء الروس. ثم مرت هذه العلاقات بمراحل تطبيع العلاقات وإعادتها، بعد وفاة الرئيس "السادات"، وتولى الرئيس "حسنى مبارك" رئاسة مصر.

وقد تركت الأزمات التى حدثت فى عهد السادات مرارة فى قلوب المسئولين الروس، وجعلتهم ينظرون بعيون الشك إلى المسئولين المصريين الجدد. كما أن

الروح التى بثتها الأوساط المحيطة بالرئيس السادات، المعادية لكل ما هو روسى (أو سوفييتى)، قد مثلت عقبة حقيقية أمام إعادة العلاقات بين البلدين الصديقين.

ويشرفنى أن أقدم هذا الكتاب للقارئ العربى، حيث إن مؤلفه، ليس فقط شاهدا على العصر، فى المرحلة الهامة، التى تمثلت فى إعادة العلاقات بين الاتحاد السوفييتى (روسيا) ومصر إلى وضعها الطبيعى، بل إنه قد شارك فى تحريك الأحداث فى تلك الفترة، لأنه كان أول سفير يحضر إلى مصر بعد وفاة الرئيس "السادات"، بعد عودة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين الصديقين.

ويقدم المؤلف، فى هذا العمل، سردا للأحداث التى مرت فى هذه الفترة، كما أنه يقدم تحليلا وتقييما، من وجهة نظره، لشخصيات كبار المسئولين المصريين، وغيرهم من الشخصيات، الذين قابلهم، وتحليلا لسياسة الاتحاد السوفييتى (روسيا) ومصر فى تلك الفترة.

وأتمنى أن يكون هذا العمل مفيدا وشيقا، من حيث تقديم "الرأى الآخر" للقارئ العربى، سواء أتفقنا أم اختلفنا مع ما جاء به.

مقدمة المؤلف

تعد ممارسة السياسة الخارجية والدبلوماسية أحد أكثر مجالات العمل تشويقًا، خاصة منذ اقتناعى بذلك بعد أن أمضيتُ ٤٤ سنة من العمل فى مجال الدبلوماسية السوفييتية، ثم الروسية. وإذا كان - من الممكن - بدء كل شىء من جديد، لكنتُ بلا تردّد دخلت طريق العمل الدبلوماسى مرة أخرى. وفى هذه الحالة، سيكون أكثر سهولة أن أحاول تصحيح شىء ما فى الطريق الذى سارتْ عليه حياتى، مقارنةً بما قد كان منها. لكنى على أية حالٍ.. لم يكن فى القصد أبدًا استبعاد فترة المرحلة المرتبطة بمصر من ذلك الطريق. وأعدّ أنه من حسن حظى عملى سفيرًا فى هذا البلد العظيم.

أقول ذلك، وأنا لا أقلّل أبدًا من شأن المراحل المهمة بالنسبة لى من خلال عملى دبلوماسيًا، ومنها أولاً عملى نائبًا لوزير خارجية الاتحاد السوفييتى، وممثّلاً دائمًا للاتحاد السوفييتى فى الأمم المتحدة، وممثّلاً له بمجلس الأمن، وسفير روسيا فى كندا. حيث لم أضطر فى أى يوم للشكوى من مسار حياتى الدبلوماسية، فقد كانت موفّقة تمامًا، رغم عدم خلوها من الصعاب وبعض اللحظات المرّة. لكن كانت مصر أول بلد أعمل به سفيرًا. وكل بداية لها قيمة لا تزول بمرور الزمن. لكن ليس ذلك السبب الوحيد لكى أبرز عملى فى مصر بشكل خاص.

لقد جاءنى هذا العمل فى فترة صعبة وحرجة فى علاقات بلادنا مع مصر، بل من الممكن أن نقول كانت هذه لحظة تحديد مصير تلك العلاقات. فعندما عُيِّنتُ للعمل فى القاهرة، كانت قد مضتْ ثلاث سنوات لم يكن لنا فيها سفير هناك. وعليه، فقد كانت العلاقات السوفييتية - المصرية، فى ذلك الوقت، فى أدنى مستوى لها، بعد مرور عشر سنوات من حكم السادات لمصر. فقد دخل السادات تحت مظلة الحماية الأمريكية، ولم ينقلب علينا نحن فقط بهذه الطريقة، لكنه خرج أيضا من صف العالم العربى. خاصة بعدما فكّك الساداتُ - على عدة مراحل - بنيةَ

العلاقات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، وجميع العلاقات الأخرى مع الاتحاد السوفييتي، تلك التى تأسست فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، فى عهد ناصر .

وكانت آخر أعمال السادات المعادية للسوفييت - التى تمكّن من تحقيقها قبل أن يغتاله الأصوليون المصريون بإطلاق النار عليه - هى طرد "ف. ب. بولياكوف"، سفير الاتحاد السوفييتى من مصر. فلم تكن ترغب مختلف القوى الموالية للسادات فى مصر - أو الولايات المتحدة الأمريكية، التى كانت تسعى للقضاء على الوجود السوفييتى فى الشرق الأوسط - فى تطبيع العلاقات بين مصر والاتحاد السوفييتى. وانتظر رئيس مصر الجديد "حسنى مبارك" ثلاث سنوات، قبل أن يتخذ قرارًا بالإقدام على الخطوة الأولى التى تبدو بسيطة، وهى تبادل السفراء مع الاتحاد السوفييتى، وكان علىَّ أن أفهم المركز الذى يمثّله مبارك فى الحقيقة (حيث كان نائبًا لرئيس جمهورية مصر فى عهد السادات). وضرورة معرفة ماذا يستنشقه المحيطون به؟ وما نوايا وإمكانيات الرئيس الجديد؟ وكيفية التعامل معه لتنفيذ مختلف الأعمال؟ لكى نتمكن من البدء فى تنقية العلاقات السوفييتية المصرية من المشكلات الكثيرة المتراكمة، التى ظهرت آنذاك فى عهد السادات. وكان ذلك يمثّل نوعًا من التحدى لقدراتى كدبلوماسىّ. ولم يكن يخفى علىَّ أنّ العمل الذى أمامى صعب للغاية.

وأتحدث فى كتابى عن الكيفية التى حدث بها ذلك كله، وعن نوع ردّ الفعل الذى كان بسبب ظهورى فى القاهرة، وعن الكيفية التى سارت عليها لقاءاتى مع مبارك، وأعضاء القيادة المصرية الآخرين، وعن الصعوبات التى ظهرت فى خلالها، وأنواع التردد فى الموقف المصرى التى اضطررت للاصطدام بها، ومن الموضوعات التى تناولتها.. كيف وسّعنا تدريجيًا، خطوة خطوة، مجال التفاهم المتبادل بيننا؟ وكيف وصلنا إلى الثقة المتبادلة؟ وبحثنا الحثيث عن قرارات يتقبلها كلا الطرفين، وكيف تبلور تقييمى لمبارك الإنسان والسياسى؟ وعن الاقتراحات

التى قمت بإرسالها لقيادتى. على كل، أصبحت مصر، بشكل ما، امتحانا لنضوجى السياسي، مما يترك أثرا عميقا فى الذاكرة، ويكوّن علاقة خاصة بالبلد الذى يجرى فيه هذا الامتحان.

وأعتقد أنّ مذكراتى قد تكون مفيدة لكل مَنْ يهتم بشئون الدبلوماسية والسياسة الخارجية، أو بالتحديد بمصر والشرق الأوسط. فقد حالفنى الحظ فى أن أكون عند أصول هذه الحقبة، عندما تكونتْ أسس جديدة لشكل علاقات بلادنا بمصر "مصر مبارك"، الذى استمر حتى الآن، أكثر من عشرين سنة، فى رئاسة هذا البلد صاحب المكانة فى العالم العربى، الذى يعيش فيه ثلث إجمالى تعداد العرب. ويتوقف الكثير على الوضع داخل مصر، ومدى النجاح فى المحافظة على موقف مصر المعارض للتطرف الإسلامى الذى يشوه صورة الإسلام. فسوف يتوقف الكثير على ذلك، وكذلك من وجهة نظر مصالح روسيا فى الشرق الأوسط.

ويسرنى أن أشعر بأننى لم أخطئ فى تقييمى للرئيس مبارك ونظامه. وأنا لا أتناول فى كتابى الأحداث التى جرتْ بعد مغادرتى للقاهرة. فسوف يقوم بذلك، بطريقة أحسن، هؤلاء الذين شاهدوا هذه الأحداث بأنفسهم. لكننى لا أزال محافظًا على اهتمامى بمصر إلى الأبد، وفى الوقت نفسه، أكتفى بمتابعة ذلك من بعيد، وألاحظ برضاء تام أن العلاقات بين بلدينا أصبحت تكتسب صفة الدوام والمتانة. وقد تم التوصل لذلك، بلا شك، بفضل جهود الطرفين المضنية.

ومصر بلد مثير جدًا، فهى بلد فريد من نوعه فى جوانب كثيرة. لذلك لم أكتف، فى مذكّراتى، بالحديث عن الجانب الدبلوماسى فقط لنشاطى كسفير، يسعى إلى التعرّف على البلد الذى يعمل به، ودراسة مختلف مجالات الحياة به، وهذا جزء مهمّ من عمل السفير، بل قمت، أيضًا، بدراسة هذا البلد على قدر الإمكان، فسافرت فى مصر آلاف الكيلومترات لمشاهدته. الأمر الذى جعلنى أضيف إلى مذكراتى عدة أبواب، أعرض فيها انطباعاتى عن رحلاتى بها. وكذلك عن القاهرة، والإسكندرية التى تمكنتْ من التعرف عليها بصورة قريبة بقدر ما. وكل إنسان

يتقبل الأشياء بشكل خاص به. لذلك قد يكون هناك أمل، أن يحصل كل من زار مصر على شيء جديد من هذه الصفحات، فيراها الآن كما تراها عيناى. أما من لم تطأ قدمه بعد أرض مصر، فسوف يتحصل منها على كمية ما من التصورات المطروحة عن هذا البلد.

وقد حرصت، عن عمد، ألا أقترب فى كتابتى من حياة وأخلاق وعادات المصريين، وجوانب أخرى كثيرة من الواقع المصري؛ لأن كثيرًا من المؤلفين قد قاموا بذلك قبلي. وأنا أشك فى أنى كنت قد عزمت الكتابة عن ذلك بأسلوب أحسن. لذلك فأنا، ببساطة، أوجّه نظر القراء لكتابين غنيّين جدًا بالمعلومات، كُتبا بأقلام اثنين على معرفة تامة بمصر؛ إذ أقاما بها عدة أعوام. وهذانِ الكتابان بعنوان.. "مصر والمصريون" من تأليف "أ. م. فاسيلييف" (صدرت طبعته الثانية فى العام ٢٠٠٠)، و"ابتسامة أبى الهول" من تأليف "بيتر بيرمينوف" (الذى أعيد طبعه فى العام ١٩٩١). والكتاب الأخير مال قليلاً للتحدث عن التاريخ، خاصة فيما يخصّ العلاقات الروسية المصرية فى القرون الماضية.

وبكل أسف، لم يكتب مَنْ سبقنى من سفراء الاتحاد السوفييتى فى مصر مذكراتهم لسبب أو لآخر. وهناك فقط السيد "ف. م. فينوجرادوف"، الذى خصص لعمله فى مصر بابًا واحدًا فى كتاب عن سيرته الذاتية بعنوان "الدبلوماسية: الناس والأحداث" (تمت طباعته فى العام ١٩٩٨). وكتابى يملأ بشكل ما هذا الفراغ. وأتمنى ألا يتخلى الجيل الحالى والقادم من الدبلوماسيين الروس عن اهتمامهم بمصر، عندما يحين وقت تقديم ذكرياتهم. فإن ما يستطيع الدبلوماسيون أن يرووه عن الأحداث كمشاركين مباشرين فيها، لا يستطيع أى من الباحثين الوصول إليه، مهما بذلوا من جهد فى دراسة الأرشيفات، التى ستفتح أمامهم بعد مرور عدة عشرات من السنين.

ولم أعتمد أثناء عملى على ذاكرتى فقط؛ بل، أيضًا، على المواد المكتوبة التى احتفظتُ بها مصادر شتى، مثل بعض المذكرات فى مفكرات، ونتائج عليها

علامات عن مقابلات ومناسبات، ومقتطفات من الجرائد، ووثائق مختلفة، وصور، وخطابات من مصر أرسلتها، أنا وزوجتى، إلى أقاربنا. كما أن منْ عملوا معى من قبل فى القاهرة ساعدونى على تذكّر بعض الأحداث، وتدقيق المعلومات الخاصة بها.

وأهدى هذا الكتاب للمستعربين الذين يعملون بوزارة الخارجية، ممن لم أحظَ بشرف الانتماء لهم. لكنى كنت دائم التعامل معهم باحترام بالغ، وإحساس عميق بالعرفان والامتنان، مقابل تأييدهم ومساعدتهم.

الباب الأول

عن نفسى.. والطريق الذى قادنى إلى مصر

طريقى إلى الدبلوماسية

ولدتُ فى موسكو فى العام ١٩٣١، فى عائلة متوسطة الحال، عاشتْ نحو عشرين سنة بعد ميلادى فى شقق مشتركة مع أسر أخرى، قبل أن تنتقل أخيرًا - عند الاحتفال بذكرى موت "ستالين" فى العام ١٩٥٣ - إلى شقة تتكوّن من حجرة واحدة بملحقاتها. لم توفِّر لى الظروف المعيشية حياة الترف فى البداية، غير أنها عوضتنى، تمامًا، عن ذلك بحب وحنان والدى. كنتُ الطفل الوحيد لوالدى. وقد فهمت، فيما بعد، كيف ضحى والدى بالكثير من أجلى. قطعتْ الحرب طفولتى السعيدة الهادئة، وكذلك دروس اللغة الفرنسية التى كانت تعلّمها لى الفرنسية "تولوزي" التى جاءت بطريقة ما إلى موسكو. وقد عجّلتْ بنضوجى كما فعلت مع الكثيرين من زملائى، وأدت إلى اهتمامنا المبكر بقراءة الصحف. وقد كنتُ مكلفًا فى المدرسة بقراءة ملخّص للأنباء، كان يطلق عليه اسم (الإعلام السياسى). وغالبًا نما عندى منذ ذلك الوقت اهتمام بالشئون الدولية.

انتهتْ حياتى المدرسية فى العام ١٩٤٩. وفَتح لى حصولى على الميدالية الذهبية - التى كانتْ تمنح للمتفوقين فى دراستهم المدرسية - البابَ للدراسة الجامعية بأى معهد عالٍ أو جامعة. وقد ترددت لفترة؛ إذ لم أكن أدرى ما الذى يمكن أن أختاره.. فهل ألتحق بإحدى كليات دراسة العلوم الإنسانية بجامعة موسكو الحكومية؛ لأنها كانت تقع من منزلى على بُعد ١٥ دقيقة سيرًا على الأقدام؟ لكنى فضلت "معهد العلاقات الدولية" على سائر المعاهد والجامعات الأخرى، وكان فى

ذلك الوقت لا يحظى باحترام كبير، ولم يكن معروفا على نطاق واسع. ففى العام ١٩٤٨ تخرجتُ فيه أول دفعة، ولم يكن قد اكتسب السمعةَ التى حظى بها فيما بعد.

ما الذى جذبنى للالتحاق بمعهد "العلاقات الدولية" الحكومى بموسكو؟ كان سبب ذلك اهتمامى بالسياسة الخارجية، الذى تزايد عندى فى السنوات التالية للحرب. وقد أدت الأوضاع السائدة فى تلك الأيام إلى ذلك. من الصعب تصور ذلك حاليًا، لكن فى ذلك الوقت كانت الجرائد المركزية السوفييتية تخصص للأحداث الدولية مساحة كبيرة ومانشتات عريضة. وكان هناك اهتمام خاص باشتراك الاتحاد السوفييتى بهيئة الأمم المتحدة. وكانت تطبع فى الجرائد كلمات "مولوتوف"، و"فيشينسكي"، و"جروميكو"، وممثلينا الآخرين كاملة. بالطبع لم يكن ممكنًا أن أتصور، فى ذلك الوقت، أنه سيأتى يوم أصعد فيه بنفسى إلى منصة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، وأخطب فى مجلس الأمن. فقد كان ذلك يبدو غير قابل للتحقيق أبدًا. وقبل ذلك بعام كان ابن مدرِّسة، تعمل فى المدرسة نفسها التى كانت تدرِّس فيها والدتى اللغة الروسية والأدب الروسى، قد أصبح طالبًا بمعهد "العلاقات الدولية"، وقد زادتْ أحاديثه المليئة بالحماس وقوَّت رغبتى فى تجربة هذه السعادة بنفسى. كما كان للتوصية التى حصلتُ عليها – من قيادة الحى لمنظمة الشبيبة الشيوعية اللينينية لعموم الاتحاد السوفييتى – دورها فى التحاقى بذلك المعهد.

لم يخلُ الأمر من بعض التوتر.. فقد كادت اللجنة الطبية أن تستبعدنى بسبب معاناتى من قِصر النظر منذ ولادتى وارتدائى للنظارة. لكن مرّ ذلك على خير، وأصبحتُ طالبًا بذلك المعهد فى كلية القانون الدولى. ومرت سنوات الدراسة بيسر، وحصلت على تقدير امتياز فى جميع الامتحانات، عدا مرة واحدة. وقد أحببت فى الأعوام الأخيرة مادة التخصص "القانون الدولى" بدرجة كبيرة. وقد أدى ذلك إلى اعتماد لجنة توزيع الخريجين قرار قسم القانون الدولى بالاحتفاظ بى للدراسات العليا؛ للحصول على درجة الدكتوراه. لكن لم يكن مقدرًا لى أن أسير فى طريق العلم، فقد قرر الأشخاص أنفسهم الذين أوصوا بالتحاقى بالدراسات العليا قرارًا

آخر، مما كان سببًا فى تغيير قدرى، عندما ظهر من وجهة نظرهم اختيار أنسب، هو أن ألتحق بالعمل بوزارة خارجية الاتحاد السوفييتى فى مجال تخصصى، وهو قسم الاتفاقيات القانونية؛ حيث كان يعمل أساتذتى بالمعهد، الأستاذان الجامعيان السوفييتيان البارزان فى مجال القانون الدولى.. "ف. ن. دوردينيفسكى" و"س. ب. كريلوف". وأنا مدين لهما على وجه الخصوص؛ ليس فقط لأننى حصلت على "تصريح إقامة" بوزارة الخارجية فورًا بعد جلوسى على تختة المعهد، لكن، أيضًا، لاكتسابى مهارات العمل فى قسم الاتفاقيات القانونية الدولية. لقد نفعتنى تمامًا فيما بعد المدرسة الجادة، التى تعلمت بها هناك، عند عملى فى مختلف أقسام الإدارة المركزية بالوزارة أو الهيئات التى عملت بها فى الخارج. أما فيما يتعلق بالحصول على الدكتوراه، الدرجات العلمية، فلم أتجاوز الحصول على درجة الدكتوراه فى الحقوق، لكن قادتنى، الحياة إلى مسارات أخرى أوسع وأرحب.

النَّخْب الذى أصبح نبوءة!

أمضيت سنوات الدراسة بالمعهد الحكومى، عندما كانت تدرَّس فيه اللغات الغربية فقط، وقد ضُمّ إليه معهد الاستشراق فيما بعد. وقد كانت اللغة الأولى الأساسية التى درستها "الإنجليزية"، والثانية "الفرنسية". وبقى الوضع على ذلك طوال حياتى كلها؛ لذلك عندما عملت فى وزارة الخارجية لم أكن – وهو من أبسط الأمور – أستطيع أن أتصور مجىء يوم أطلب فيه بنفسى إرسالى إلى دولة عربية. ومع ذلك فقد كانت توجد لدى فى مكان ما بعقلى الباطن، فى إحدى الفترات، ذكرى تتعلق بدولة عربية محددة. قد يحدث ذلك عندما يحدِّثك أحد بأمر ما، فلا تتقبل أنت نفسك ما يروى بجدية؛ لأنه لا يوجد أى أساس عندك فيما يرويه لك، لكن لسبب ما يبقى هذا الأمر فى الذاكرة، ويظل يعبث بها، فى انتظار وقته المناسب.

كان ذلك ما حدث معى. فقد تكون الذكرى المذكورة آنفًا نتيجة لواقعة حدثت فى لندن خلال العام ١٩٦٦، حيث كنت أشغل – فى ذلك الوقت – منصب

السكرتير الأول بسفارتنا، وكنت أقوم بدورينِ فى وقت واحد.. فقد كنتُ مسئولاً عن العلاقة مع الصحافة، كما كنت أعمل ضمن مجموعة السياسة الخارجية، حيث كنت مسئولاً عن دول الكومنولث البريطانى وسياسة بريطانيا العظمى "شرق السويس" (هذا هو الاسم الذى أطلقه الإنجليز على سياستهم فى الشرق الأدنى والأوسط، وفى جنوب آسيا والمحيط الهادئ). وفى ذلك الوقت كنت أشاهد كثيرًا فى مختلف الاحتفالات الرسمية بالسفارة رجلاً وسيمًا، أشقر، قصيرًا، قوى البنية، فى بداية الأربعينيات من عمره، يلتف حوله الكثيرون ومنهم دبلوماسيّونا وضيوفنا. كان هذا الرجل الكاتب الإنجليزى المعروف "جيمس أولدريدج". وكنت قد قرأت روايته "الدبلوماسى" بشغف فى سنوات الدراسة. تلك الرواية التى أثارت ضجة؛ حيث تدور أحداثها فى كلٍ من موسكو وطهران، وقد تحدثتْ عن أشياء غير سارة فى سياسة بريطانيا تجاه إيران عامة، وأذربيجان الإيرانية بصفة خاصة.

كان جيمس مؤمنًا بالمبادئ اليسارية؛ لذلك خصصت له الصحف السوفييتية المركزية صفحاتها عن طيب خاطر. كما أصدرتْ دُور نشرنا مؤلفاته بطبعات كبيرة. وقد كان مواظبًا على الاشتراك فى مختلف الندوات الشعبية الدولية. وفيما بعد، تحديدًا فى فترة السبعينيات، مُنح جائزة لينين لتقوية السلام والصداقة بين الشعوب. وقد كان شخصية مشهورة جدًا، يتمتع بشعبية كبيرة فى سفارتنا. وكنت، أيضًا، على معرفة به، وكان الموضوع الرئيسى فى غالب أحاديثنا "الموقف السياسى من شرق السويس"، الذى كان الكاتب يعرف عنه الكثير، وقد يكون هذا السبب الذى جعله - وهو يقدّمنى إلى زوجته ذات الأصل المصرى - يُلقى إلىَّ بعبارة تؤكد خسارتى الكبيرة؛ بسبب عدم زيارتى لمصر إلى هذا الوقت، رغم دراستى للشرق الأوسط، حتى أنى لم أشاهد أبدًا قاهرته الحبيبة.. وأصبحت مصر موضوع حديثى مع تلك السيدة الجذّابة، قمحية اللون، ذات الشعر الداكن، التى كانت أول سيدة مصرية تحدثت معها فى حياتى.

وقد بلغت العلاقات السوفييتية المصرية – فى ذلك الوقت – قمة ذروتها؛ إذ كان يتقدم بناء السد العالى بأسوان بنجاح، كما كانت تنفذ، أيضًا، مشاريع أخرى عملاقة بالتعاون معنا، وكان يعمل آلاف الخبراء السوفييت بمصر. لذلك كانت الخلفية السياسية للحديث عن مصر مناسبة تمامًا، مما جعلها منعكسة على سمة كلامى. وفى الواقع لقد وصلت كلماتى إلى قلب محدثتى. على أية حال.. عندما عاد "جيمس" إلينا، وشاهد وجوهنا المنشرحة، سأل وهو يرفع كأسه عن النخب الذى سوف نشربه. فجاء ردّ زوجته باقتراح أن يكون النخب بمناسبة أن يكون أول تعيين لى، كسفير، بالقاهرة. فضحكنا وشربنا الكؤوس بودٍ فى تلك الليلة، ثم اكتسى وجه جيمس بالجدية، وقال لى: "هذا ما سيحدث، فكل ما تقوله زوجتى يتحقق". وبالطبع.. كانت تلك مزحة مجاملة فقط. وقد تقبلتها كذلك دون شعور سعيد؛ فهل يوجد سكرتير أول لا يريد أن يصبح سفيرًا؟!

فيما بعد، طفت على السطح الموضوعات المصرية أكثر من مرة فى أحاديثى مع جيمس؛ خاصة أن إحدى دور النشر الأمريكية قد طلبت من جيمس تأليف كتاب عن القاهرة؛ لذا فقد اختفى بين أرجاء وجنبات مكتبات لندن؛ بحثًا عن مادة الكتاب، كما ساعده فى ذلك سفره – قبل ذلك – عدة مرات للقاهرة. وقد طال هذا العمل؛ فقد تبين أن تأليف هذا الكتاب أصعب مما بدا عليه. لدرجة أنْ مازحته زوجته بسؤاله عما سيتحقق أولاً: هل سيظهر الكتاب إلى الوجود؟ أم سأصبح سفيرًا فى مصر؟ عمومًا سافرتُ فى العام ١٩٦٧ – بالطبع ليس إلى مصر – متوجهًا إلى موسكو، منهيًا مهمتى فى إنجلترا التى استمرت نحو خمس سنوات، مثّلت نهاية علاقتى بجيمس؛ إذ لم أتقابل معه بعد ذلك أبدًا، لكنى تذكّرت كل ما هو مرتبط به بعد عدة سنوات، عندما شاهدت على رفّ أحد منافذ بيع الكتب بـــ موسكو كتاب "القاهرة.. شخصية مدينة". ولقد قامت دار النشر "مالادايا جفارديا" (الحرس الشاب)، فى العام ١٩٧٠، بنشر الترجمة الروسية له. وكما هى العادة؛ لأنك على معرفة شخصية بالمؤلف، فإنك تستقبل عمله الجديد باهتمام خاص.

أصبح كتاب جيمس أولدريج بالنسبة لى اكتشافًا حقيقيًا؛ فقد كان معظم أفراد الشعب السوفييتى، وأنا منهم، على معرفة عامة فقط بتاريخ مصر القديمة. فإنهم يدرسونه فى المدرسة، وأحيانًا فى الجامعة. وبالإضافة إلى ذلك شاهدوا فيلمًا سينمائيًا عن "كليوباترا"، لعبتْ فيه "إليزابيث تيلور" الدور الرئيسى. لكن تبع ذلك فجوة عميقة في تصوراتنا عن مصر امتدت لألفى سنة، إذا لم نأخذ فى الاعتبار بعض الأوقات المتفرقة من التاريخ، المتعلقة بصفة خاصة بالحملة الفرنسية لنابليون بونابرت، أو بافتتاح قناة السويس. فبالنسبة لنا بدا كما لو أن مصر وُلدتَ من جديد فقط بعد اهتمام الرأى العام العالمى فور العدوان الثلاثى (الإنجليزى، الفرنسى، الإسرائيلى) على مصر فى العام ١٩٥٦؛ نظرًا لتأميمها قناة السويس. وقد تم إعلامنا بالأحداث التالية بطريقة كاملة جدًا؛ نتيجة لبداية نمو العلاقات المصرية السوفييتية، وانتقال مصر إلى الموضع الرئاسى الذى جعلها فى طليعة العالم العربى وحركة عدم الانحياز.

لقد عرفتُ معلومات كثيرة جديدة بالنسبة لى من كتاب جيمس أولدريج. فعلى سبيل المثال، لم أكن أتصور أن شعب مصر كان يعتنق المسيحية لعدة قرون، قبل فتح العرب لمصر، ودخول الإسلام على أيديهم، وأن أول تأسيس للأديرة المسيحية فى العالم كان فى مصر، وليس فى أى مكان آخر فى العالم، وأن القاهرة ظهرت فقط فى عهد العرب، وأنها كانت، فى البداية، حصنًا حربيًا، ثم سرعان ما تحولت بعد ذلك إلى عاصمة لمصر. كما عرفتُ كيف تمّ تعريب وأسلمة مصر، وكيف كان الطريق الذى سار عليه المصريون صعبًا، قبل أن يحصلوا مرة أخرى على استقلالهم، بعد فتح الرومان لبلدهم بألفى عام.

ولم يكن من الممكن أثناء قراءة مؤلَّف جيمس أولدريدج أن أشعر بشىء، إلا بشغف عارم بالقاهرة. لكن - حتى بعد ذلك - لم أفكّر فى القاهرة كمكان من الممكن أن أعمل به؛ فقد كانت اهتماماتى المهنية موجّهة لأماكن أخرى تمامًا.

كيف أدت كل الطرق إلى القاهرة؟

عند عودتى إلى موسكو تم تعيينى مستشارًا بالقسم الجديد، الذى بدأ إنشاؤه - من قبل - بوزارة خارجية الاتحاد السوفييتى، تحديدًا فى إدارة تخطيط أنشطة السياسة الخارجية. وفى هذه الإدارة أرسلتُ إلى قسم دول أمريكا، وكُلِّفتُ بالعمل فيه، حتى صرت مسئولاً ومختصًا بشئون الولايات المتحدة. وقد كانت كل معرفتى بالواقع الأمريكى - حتى ذلك الوقت - تتلخص فى ثلاثة أشهر قضيتها فى نيويورك؛ لحضور دورة الجمعية العمومية للأمم المتحدة فى العام ١٩٥٧. وكان علىّ فيها أن أستغرق فى العمل فيما يخصّ الموضوعات المتعددة المتعلقة بعلاقاتنا الثنائية مع الولايات المتحدة الأمريكية؛ نظرًا للصراع والتنافس فى مختلف المناطق، التى تصادمت فيها المصالح السوفييتية والأمريكية. وهى قد تصادمت فعليًا، تقريبًا، فى كل مكان. وقد استحوذ عملى الجديد على كل اهتمامى لسنوات طويلة.

وكانت إدارة تخطيط أنشطة السياسة الخارجية قد أنشئت؛ لكى تكون مركزًا لقدح الفكر؛ إذ يجب على الدبلوماسيين والعلماء والعاملين فى المخابرات السياسية والحربية، المكلّفين بمأموريات، أن يبذلوا جلّ جهدهم. وكان قد روعِى فى الهيكل الذى اعتمده المكتب السياسى لتلك الإدارة وجود أقسام أمريكية، وأوروبية، وآسيوية، وأفريقية - شرق أوسطية. وكان يجب أن تكون هذه الإدارة وزارة خارجية مصغّرة، لكنها لا تتعامل مع الموضوعات الوقتية، بل تناقش الموضوعات المستقبلية الكبيرة. وقد كانت درجة رئيس القسم معادلةً لنائب وزير خارجية الاتحاد السوفييتى. وحتى يكون العمل فى هذه الإدارة مغريًا للعلماء، والجنرالات، وباقى كبار العاملين، فقد أدخلت - فى هيكلها الوظيفى - درجات لم تكن معروفة من قبل بوزارة الخارجية، مثل: وظائف كبار وقدامى المستشارين، بمرتبات كبيرة بشكل كافٍ. وكان يرأس هؤلاء رؤساء الأقسام، وكان أحدهم نائبًا لرئيس هذه

الإدارة. وقد انتهت خدمتى فى هذه الإدارة الفريدة بشغلى لهذه الوظيفة، بعد ١٥ عامًا من العمل بها.

كانت السنوات التى قضيتها فى تلك الإدارة أكاديمية حقيقية تعلمت فيها الكثير. وقد حدث ذلك أولاً منذ العمل فى أول إدارة متخصصة؛ حيث اضطُررت للتعامل مع مواضيع مختلفة السمات تمامًا، واكتسبت فيها - خاصة فى العلاقات الخارجية - معرفة وخبرة مناسبة. فقد كانت أشكال العمل مثل أشكال المستندات متنوعة، لكن غلب عليها إعداد الوثائق التقييمية والتحليلية، التى تقدّم اقتراحات للجنة المركزية للحزب الشيوعى. وبصفة عامة.. عملت إدارة تخطيط مناسبات السياسة الخارجية نشاطًا لإعداد المفاوضات على أعلى المستويات. وقد كان ذلك منطقيًا تمامًا؛ حيث كانت تعد دراسات لمختلف الموضوعات المستقبلية بناء على هذه المفاوضات. وبالإضافة إلى ذلك، كوّن العاملون فى إدارة تخطيط مناسبات السياسة الخارجية نواة رئاسات الوفود فى هذه المفاوضات الأساسية، مثل: المفاوضات مع الولايات المتحدة الأمريكية بخصوص خفض التسليح الاستراتيجى، ومفاوضات "فيينا"؛ لخفض حجم القوات المسلحة بوسط أوروبا، واللقاءات التى جرت فى أوروبا بخصوص الأمن والتعاون وغيرها.

وبالنسبة لى، كان الجانب الهام الآخر لعملى فى إدارة تخطيط الأنشطة السياسية الخارجية، يتلخص فى وجود من يمكن التعلم منه. فقد تركزت فيها بالتدريج قوى كبيرة. فقد كان يعمل بها كبار الدبلوماسيين ذوى الخبرات الضخمة، وبوجه الخصوص السفراء منهم. كما كان موظفو الصف المتوسط على مهارة عالية. ويكفى القول إن خمسة من نواب وزراء خارجية الاتحاد السوفييتى قد خرجوا من صفوف هذه الإدارة (بالإضافة إلى عدد من رؤساء الإدارات).

وكانت توجد فى عمل إدارة تخطيط أنشطة السياسة الخارجية حالات نجاح وفشل فى الوقت نفسه، لكن بقيت فى ذاكرتى الأيام التى قضيتها فى إدارة تخطيط مناسبات السياسة الخارجية كأيام بناءة مليئة جدًا بالعمل. كما أنها منحتنى الكثير

لفهم العلاقات بين مختلف ظواهر العمل الدولى، واكتسبت هناك الخبرة العملية اللازمة، برئاستى لقسمين بالإدارة على التوالى، ثم لجهازها بالكامل.

وقد كانت السلبية الوحيدة أنى بقيت فى مكان واحد بها لمدة أطول من اللازم، مع الأخذ فى الاعتبار أن المتبع فى وزارة الخارجية هو التتابع الدورى للعمل فى الجهاز المركزى مع العمل فى الخارج، لكن لم يحدث ذلك معى.. ففى البداية لم أكن أرغب فى السفر للخارج؛ لأسباب عائلية مختلفة، ثم لم تسمح لى الرئاسة بذلك فيما بعد. لكنى لم أغضب؛ حيث كنت أشغل منصبًا مهمًا جدًا، وكنت بدرجة سفير، كما أنى كنت عضوًا بالحزب الشيوعى بالوزارة، وسافرت كثيرًا فى مهمات مختلفة لدول متعددة. لكن كما يحدث للرجل العسكرى عندما يجلس كثيرًا فى مقر القيادة، فإنه يشتاق لأن يقوم بقيادة الفرق، أو الكتائب، أو الجيش كله بنفسه. فقد بدأت أحس، تدريجيًا، بالرغبة فى أن أحصل على سفارة ما، يفضل ألا تكون فى البداية على مسرح السياسة الدولية، لكنى اضطررت إلى أن أتسلح بالصبر. وأخيرًا جاء اليوم المشهود، وحصلت على موافقة للسفر. كما حُددت لى الدولة التى سأسافر إليها. وكان على أن أسافر إلى ما بعد المحيط، لكن ليس على الفور. فبدأت الاستعداد بحماس، وبالطبع كنت سأتوجه بسرور كبير إلى مكان تعيينى، لو لم يعاكس ذلك مصيبة هبطت عليَّ.

فجأة، ولسبب غير معلوم، أصبت بالربو، الذى بدأ يكتسب شكلاً متزايدا من الصعوبة. وقد كان حال الربو معى متغيرًا، فأحيانًا يتركنى، وأحيانا يرسلنى إلى سرير المرضى بمستشفى اللجنة المركزية. لكن كانت الضربة القاضية الفعلية تتمثّل فى الرأى الطبى النهائى، بأنه يحظر عليَّ السفر إلى ذلك البلد الذى كنت أستعد للسفر إليه، فقد كانت الرطوبة هناك عالية بدرجة زائدة بالنسبة لمن يعانى من الربو. وقيل لى: "الصحراء.. هى ملاذك". كان ذلك هو الرأى الطبى المستند إلى أمثلة عن مدى التأثير المفيد للسفر للعمل فى العراق أو مصر على مرضاهم السابقين. ومن ثم تركت المستشفى، وأنا فى حالة نفسية سيئة، فقد كنت، دائمًا،

أرى نفسي في الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي. أما الآن فأسأل نفسي، إلى أين؟ كان المنظر العام لا يسر، فإن عدد البلاد المناسبة لم يكن كبيرًا، وقد تم تغيير السفراء بها من زمن قريب.

وبالنسبة لمصر، فمنذ أعلن السادات أن سفيرنا غير مرغوب فيه، أصبحت العلاقات مجمدة تمامًا على مستوى المفوضين المؤقتين، كما لم تصدر أية مؤشرات من القاهرة تفيد بتغييرها لهذا الوضع. وهنا يجب أن أشير إلى أنه في ذلك الوقت لم يكن لدينا في (المملكة العربية السعودية، وقطر، والبحرين، والإمارات المتحدة، وعمان) بعثة تمثيل دبلوماسي. وقد عدت إلى عملي بعد المستشفى وأنا لم أقرر بعد الخروج من المستشفى كيف أتصرف.

ولكن ما حدث بعد ذلك كان كما لو أن السماء قد سمعت حديثي مع الأطباء في المستشفى، وعليه حدث ما يلي.. عدت بعد إجازة ثلاثة أسابيع إلى عملي في إدارة تخطيط مناسبات السياسة الخارجية. وكما هو متبع في هذه الحالات، بدأت في دعوة رؤساء الأقسام والمجموعات إلى مكتبي؛ لكي أعرف كيف يسير العمل في تنفيذ الخطط؟ وما التكليفات الإضافية؟ وما الجديد في مناطقهم؟ فجاءني زميل الدراسة "فالنتين كاساتكين" – المشرف على قسم "أفريقيا والشرق الأوسط" – ليرد على سؤالي عن الجديد، فيبلغني بأن القاهرة قد أصدرت توًا إشارة تفيد باستعدادها، في المستقبل القريب، لتبادل السفراء.. وهو أمر يحدث أحيانًا! وهذا دليل على دور القدر هنا.

وما كان بعد ذلك، حدث كما لو كانت عصى سحرية تحركه. ولم أتمكن من أن أقرر ما الذي يجب عليَّ عمله، فقد استدعاني النائب الأول لوزير الخارجية "ج.م. كورنيينكو" – الذي كان في ذلك الوقت مقررًا للشئون الأمريكية وشئون نزع السلاح، وكذلك شئون الشرق الأوسط. ولم أعد أتذكر ما كان سبب استدعائي، لكني سألته في نهاية الحديث عن تبادل السفراء مع مصر. فأكد ذلك، ثم سألني بدوره عن سبب اهتمامي بذلك. فأفصحت له عن كل شيء. وقد تعامل

ج.م.كورنيينكو مع ما حدث معى بتفهم كامل؛ حيث إنه كان يعرفنى من عدة سنوات، ووعد بنقل الصورة إلى الوزير. ولم يطل انتظار قرار الأخير؛ فلم تمضِ عشر دقائق حتى اتصل بى "كورنيينكو"؛ لإبلاغى بأن "جروميكو" قد وافق بالفعل على تغيير اتجاه تكليفى ليكون إلى القاهرة. لا يمكن بعد ذلك الشك فى أن قدر الإنسان محدد مسبقًا! فمنذ ولادتى كان مصيرى محددًا بالفعل، أن يكون أول تكليف لى، كسفير، فى مصر بالذات.

ويمكن أن أقول إنى نسيت تمامًا الربو بعد عدة أسابيع من وصولى إلى القاهرة، فهو لم يعلن عن نفسه أبدًا، ولو مرة واحدة، طوال فترة بقائى هناك. بالفعل قد أعطانى الأطباء نصيحة صحيحة تمامًا. حقيقة.. بعد ذلك عادت إلى الأزمات الربوية، لكن بشكل ضعيف يسمح بالحياة وبالعمل دون الالتفات إليها بشكل خاص.

الاستعداد للعمل التالى

واصلت العمل بكل همة فى إدارة تخطيط أنشطة السياسة الخارجية، حيث لم تكن هناك نية بعد لإنهاء عملى بها، وشرعت على الفور فى الوقت نفسه، فى دراسة المواد المتعلقة بمصر، والشرق الأوسط عامة، دراسة متأنية. ولم تكن هذه المنطقة مجهولة بالنسبة لى، رغم أنى لم أزرها من قبل. فقد كنت أعمل عدة سنوات فى شئون الولايات المتحدة، فى منصب رئيس القسم الأمريكى؛ لذلك كنت - سواء بإرادتى أو بدونها - أتعامل مع سياستها فى الشرق الأوسط. وعن طريق ذلك، كنت ملمًا بالوضع فى المنطقة، التى أصبحت منذ عشرات السنين حلبة للتنافس السوفييتى - الأمريكى النشط، وفى بعض الأحيان، تتحول ساحة للتعاون البناء بين الدولتين، وقد حدث ذلك عندما هددت أزمة الشرق الأوسط الدائمة بتحولها إلى حرب كبيرة، وجذب القوى العظمى إليها.

كما كنت فى فترة من عملى الدبلوماسى، ولمدة عام، رئيسًا للقسم الأفريقى - الشرق أوسطى، بإدارة تخطيط إجراءات السياسة الخارجية. وعندئذٍ استغرقت تمامًا، كما يجب، فى مشكلة الشرق الأوسط. ثم كنت مقررًا لعمل هذا القسم، بالإضافة إلى الأقسام الأخرى، بصفتى نائبًا لرئيس الإدارة؛ بحيث تصورت الوضع فى الشرق الأوسط، بصفة عامة، بدرجة جيدة. لكن كانت هناك مناطق بيضاء فى معلوماتى عن جغرافية المنطقة، رغم أنى كنت أعرف الكثير عن مصر، مقارنة بمعلوماتى عن أية دولة عربية أخرى. وكان ذلك يرجع أولاً للنمو الكبير للعلاقات السوفييتية - المصرية فى عهد "ناصر"، ثم إلى انهيارها المأساوى فى عهد "السادات".

وقد كان لإدارة تخطيط أنشطة السياسة الخارجية قاعدة معلومات جيّدة. فقد كانت ترد إليها تقارير جاهزة من كافة السفارات، بالإضافة إلى رسائلها السياسية، وتلك الرسائل التى تقدّم (معلومات، واستشارات أساسية، ومذكرات مناقشات). وكانت تصلها كل يوم كميات كبيرة من البرقيات المشفّرة. كما كانت ترد إليها، أيضًا، مواد كثيرة يتم تجهيزها فى الأقسام الأخرى بوزارة الخارجية. لذلك كانت إدارة تخطيط السياسة الخارجية مكانًا فريدًا، يمكن فيه دراسة أى مشكلة من المشكلات الدولية المهمة المطروحة، دون تضييع للوقت جريًا بين الأقسام والإدارات الأخرى بالوزارة. وقد استفدت من ذلك تمامًا، فبدأت بالمواد التى تخصّ مصر، ثم بدأت فى توسيع مجال الدراسة بعد ذلك. وعلى وجه الخصوص، أريد أن أذكر "فلاديمير بورفيريفيتش بولياكوف" بكلمة طيبة، وكان قد ترك منصب السفير السوفييتى فى مصر بناء على طلب السادات. وقد كان يعرف مصر بطريقة ممتازة؛ حيث إنه عمل بها عدة سنوات، وكان لفترة طويلة مستشارًا للسفير ف. م. فينوجرادوف، الذى كان قد تم إرساله سفيرًا إلى مصر بعد وفاة ناصر مباشرة. وقد تقابلت، أيضًا، مع فينوجرادوف؛ كى أتأكد من النقاط التى تهمنى. وكنت أذهب إليه - لهذا الغرض - فى القصر، الذى كان فى ذلك الوقت مقرًا لوزارة خارجية

جمهورية روسيا السوفييتية (كان فينوجرادوف فى ذلك الوقت وزيرًا روسيًا). وقد كان ف. م. فينوجرادوف بشوشًا، لكنه كان يتذكر فترة عمله فى القاهرة بلا حماس. وكان يمكن فهْم ذلك سيكولوجيا؛ حيث إن الأمور بينه وبين السادات لم تسر منذ البداية بنجاح. وقد قرأتُ، فيما بعد، كثيرًا مما سمعته منه فى الكتاب الذى نشر عن مذكراته.

وقد وجدت، أيضًا، فى قسم أفريقيا والشرق الأوسط استشاريين متميزين، من بينهم "أندريه نيكولايفيتش زيلينين"، الذى كان، قبل العمل فى إدارة تخطيط إجراءات السياسة الخارجية، يعمل فى جهاز المخابرات فى أربعة بلاد عربية، منها مصر. وقد كان متواضعًا، ولطيفًا جدًا، وقدّم لى الكثير من النصائح المفيدة.

وعندما بدأت فى دراسة المواد المتعلقة بمصر، ركزت، بالطبع، على العلاقات السوفييتية – المصرية. ورغم أن مصر أصبحت دولة مستقلة رسميًا فى العام ١٩٢٢، فإن العلاقات الدبلوماسية أقيمت بين موسكو والقاهرة فقط بعد عشرين سنة، أى فى العام ١٩٤٣. وكانت الحرب العالمية الثانية هى التى دفعت إلى ذلك، حيث شاركت مصر فيها إلى جانب التحالف المضاد لـــهتلر. لكن فى عهد "النظام الملكي" كانت العلاقات ذات طابع شكلى، فقد يكون القصر الملكى نفسه لم يستطع أن يسمح لنفسه بحرية التوجّه إلى السوفييت، وهو فى ظل السيطرة الاقتصادية الإنجليزية، وهيمنة الإنجليز على الأمور الأخرى. و قد كانت سياسة لندن بعد الحرب واضحة.. وليس من الخطأ أن نعتقد أن خطاب تشرشل فى مدينة "فولتن" أعلن عن بداية الحرب الباردة.

ورغم أن ذلك يبدو غريبًا، فإن حركة الانقلاب العسكرى التى تمت فى العام ١٩٥٢، بقيادة ناصر، لم تفتح على الفور صفحة جديدة فيما يخص العلاقات المتبادلة بين القاهرة وموسكو. فقد بقيت هذه العلاقات باردة ومحدودة حتى العام ١٩٥٦. وكان الجانبان مسئولينِ عن ذلك مسئولية كاملة. فمن ناحية.. لم يكن ناصر نفسه، ولا زملاؤه، يميلون فى ذلك الحين إلى سلطة السوفييت، وإلى

الاشتراكية كما هى. فقد كانوا منجذبين، مثل جميع أهل الصفوة المصريين السابقين، إلى الغرب – إلى كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية – رغم كل السلبيات التى امتدت على مدار سبعين سنة من السيادة الإنجليزية فى مصر. فقد كانوا يقدرون أنهم سوف يحصلون من الغرب بالذات على السلاح؛ لتسليح الجيش المصرى المتأخر، وكذلك على التمويل اللازم لبناء "سد أسوان" العالى، وإعادة بناء اقتصاد بلدهم. وقد جاءت لحظة ظهور الحقيقة لناصر فى العام ١٩٥٦، عندما أصبح من الواضح أخيرًا، أنه لن يحصل على السلاح، ولا على التمويل، من الغرب بشروط مناسبة له. وقد أدى الغرب بالفعل – رغم عدم رغبته فى ذلك – إلى استدارة "ناصر" بوجهه إلى الاتحاد السوفييتى.

ومن ناحية أخرى، كانت السفارة السوفييتية فى القاهرة تنظر إلى السلطة الجديدة بعين الشك؛ حيث دفعها إلى ذلك – كما أفهم – عدم الثقة من جانب الشيوعيين المصريين فى هذه السلطة. فقد كانوا يخشون الاضطهاد، وهم لم يخطئوا فى ذلك؛ فإن السلطة، وإن لم يكن ذلك قد حدث على الفور، قد زجت بهم فى السجون، وخرجوا منها فقط فى العام ١٩٦٤. ولم يكن من السهل على العاملين فى السفارة فهْم ما يحدث. لذلك فهم لم يلاحظوا فى الوقت المناسب الإمكانيات التى أصبحت تتفتح أمام السياسة السوفييتية الخارجية نحو المصريين. وقد ظهرت هذه الإمكانيات ليس فقط بسبب أخطاء الغرب، لكن، أيضًا، نتيجة للوطنية والقومية كمحركين لناصر ورفاقه. لكن لم يُظهِر كلٌ من الناصريين ودبلوماسيينا – الذين كانوا فى ذلك الوقت فى القاهرة – إرادةً كافية لإقامة علاقات مبنية على الثقة بين الجانبين، أو حتى مجرد اتصالات بسيطة. واستمر الأمر على ذلك لأربع سنوات كاملة.

ويبدو أن الذى غيّر الوضع شخص غريب، هو "دميترى تروفيموفيتش شيبيلوف"، السكرتير السابق فى ذلك الوقت للجنة المركزية، ورئيس تحرير جريدة "البرافدا" (الحقيقة). فقد سافر فى مايو ١٩٥٦، فجأة، إلى القاهرة، ونجح – بعد

عدة أيام من الانتظار - فى الحصول على لقاء مع ناصر. وقد وضع حديثهما الصريح الطويل الكثير من الأمور فى مكانها الصحيح، ومثّل بداية التحوّل الحاد لكل من موسكو والقاهرة بوجوههم نحو بعضهما البعض. وقد أصبح بعد ذلك "شيبيلوف" وزيرًا لخارجية الاتحاد السوفييتى، فى شهر يونيه من العام نفسه. وأنا لا أزال أتذكر أول اجتماع بوزارة الخارجية تم بمشاركته، حيث ألقى فيه كلمة طويلة كانت مخصصة أساسًا للأحداث الصاخبة فى الشرق الأوسط، والتى تتابعت بسرعة بعد زيارته للقاهرة. وقد بقى فى ذاكرتى كلٌّ من شكله الباهر على المنصة، وأسلوبه المميّز فى الحديث. ويمكن أن أقول، إنه قد وجّه لومًا لاذعًا للسفارة بالقاهرة فى كلمته.

والأحداث التى أقصدها.. هى قيام ناصر بتأميم قناة السويس فى نهاية يوليو ١٩٥٦، وبدء العدوان الثلاثى على مصر المتشكّل من (إنجلترا، وفرنسا، وإسرائيل)، وإنذار موسكو لهم بإنهاء هذا العدوان، وقد تزامن ذلك أيضًا مع عدم رضا الولايات المتحدة الأمريكية على العدوان الثلاثى، وكان من نتيجة ذلك سحب القوات الإنجليزية والفرنسية من منطقة القناة، وقد تحقّق ذلك فى ديسمبر ١٩٥٦، أما الإسرائيليون فقد انسحبوا فى شهر مارس اللاحق.

ومنذ ذلك الوقت حتى شهر سبتمبر ١٩٧٠ - عندما توفى ناصر فجأة - قدّم الاتحاد السوفييتى لمصر مساعدات، فى كثير من المجالات (السياسية، والحربية، والاقتصادية)، لعبَتْ دورًا كبيرًا، بلا مبالغة، فى أن تكون مصر بالفعل دولة مستقلة، تقف بثبات على قدميها سياسيًا واقتصاديًا. وقد كانت مصر تعد فى عهد ناصر قائدة العالم العربى. أما ناصر نفسه فلم يكن فقط بطلاً، لكنه كان، أيضًا، أحد أبرز زعماء الدول الأعضاء فى حركة "عدم الانحياز". وقد كان ذلك رغم بعض الفشل المعروف، الذى كان أكبره يتمثل فى هزيمة مصر فى حرب ١٩٦٧ مع إسرائيل، التى أدت إلى خسارة شبه جزيرة سيناء، وشلل قناة السويس.

وقد سهّل عليّ تماما دراسة فترة حكم ناصر، وكذلك دراسة ظاهرة ناصر نفسها، الكتاب المكتوب بذكاء "مصر.. عهد الرئيس ناصر"، الذى نشر بقلم "ا. ب. بلاييف"، و"ا. م. بريماكوف" عام ١٩٨١. وللأسف لم يتم عندنا حتى الآن نشر أى عمل مماثل عن فترة حكم السادات حتى العام ١٩٨٣. وقد اضطررت لدراسة مصر فى فترة السبعينيات بالكامل اعتماذا على وثائق وزارة الخارجية وروايات الشاهدين والمعاصرين لها. وقد كان مهمًا بالنسبة لى أن أعرف جيدًا هاتين المرحلتين.. أولاً: كى أتصور بأحسن شكل - بصورة محددة - سبب انهيار علاقاتنا مع مصر بهذه الصورة، وفى أية ظروف حدث ذلك. ثانيًا: كان ذلك ضروريًا كى أفهم ما أصبحت عليه مصر عند انتقالها لمبارك، بعد كافة تلك التغييرات العنيفة فى عهد السادات، وأقف على تلك الأمور التى حدثت فى حياة البلد السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وكان يجب أن يؤدى كل ذلك إلى مساعدتى على فهم أهم شىء بالنسبة لى، وهو ما الظروف الموضوعية الداخلية والخارجية التى وُضع فيها رئيس مصر الجديد؟ وما القوى التى تضغط عليه؟ ومدى حريته فى أداء أعماله؟ وماذا يمكن أن ننتظر منه؟ لكننى سوف أتناول ذلك فيما بعد. أما الآن، فسأتحدث عن السادات والخطوات التى اتخذها لتفكيك العلاقات السوفييتية - المصرية.

إرث "السادات" الثقيل!

تعرّف السادات، ابن الكتّاب الريفى، على ناصر قبل الحرب العالمية الثانية، عندما كان كل منهما لا يزال ملازمًا. وقد شارك منذ البداية مع ناصر فى تأسيس تنظيم "الضباط الأحرار" فى العام ١٩٣٨. لذلك فقد أصبح السادات، بعد القضاء على الملكية فى العام ١٩٥٢، ممَنْ شارك فى قيادة البلد. وكان معجبًا فى شبابه بكل من "هتلر" و"موسولينى". وقد اعترف بذلك فى سيرته الذاتية التى نشرها بعد ما أصبح رئيسًا، حتى ألقى الإنجليز القبض عليه فى سنوات الحرب؛ لارتباطه بالمخابرات الألمانية؛ لأن السادات كان يرغب فى استيلاء قوات "رومل" على

القاهرة. وبعد ذلك غازل أكثر من مرة جماعة "الإخوان المسلمين". هذه فقط بعض الملامح السياسية لشخصية السادات المركّبة الغامضة التى وضّحتِ الأحداث أنها ماكرة. فلم يكن من أعضاء الدائرة المقربة من أصدقاء ناصر، لكنه كان دائمًا يحاول أن يبقى بالقرب منه، وأن يبين تأييده الدائم لرئيسه. وقد أثمر ذلك فى العام ١٩٦٩، حيث عيّن ناصر السادات نائبًا لرئيس الجمهورية، بعد أن تعب من تنافس أتباعه على هذا المنصب. وعلى الغالب لم يكن أحد يتصور إمكانية جلوس السادات على مقعد الرئيس؛ حيث إنه لم يكن مقدرًا تقديرًا عاليًا تمامًا فى محيط ناصر. لكن كل شىء دار بطريقة أخرى.

وكان السادات لا يتجنب السفارة السوفييتية قبل أن يصبح رئيسًا. فكان كثيرًا ما يبين عرفانه وإخلاصه لأسلوب ناصر فى تقوية الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفييتى. فكانوا يستقبلونه استقبالاً حارًا فى السفارة، مثله مثل كل الشخصيات القيادية الأخرى بمصر. وعندما مات ناصر، فعل السادات كل شىء حتى لا يكون هناك أية ذرة شك عند أعضاء الوفد الرسمى الذى حضر الجنازة(وكان أ. ن. كوسيجين يرأس الوفد) فى أن كل شىء سيبقى فى عهد السادات كما كان فى أثناء حكم ناصر. ولم يكن هناك لعدة شهور تالية لهذا الحدث أى موقف يؤدى إلى الشعور بوجود ما يخل بمثل هذه التصريحات، التى أدلى بها السادات بنفسه فى مختلف اللقاءات مع ممثلى الاتحاد السوفييتى، وكذلك عن طريق الوفود المتعددة التى أرسلها إلى موسكو. وكان دائمًا ما يرأس هذه الوفود كبار الناصريين، ولم يكن هناك ما يستدعى الشكّ فى إخلاصهم.

لكن للأسف، كان كل شىء مخالفًا لذلك فى الواقع. فرغم أن السادات كان كثير الكلام محبًا للمظهر العلنى، فإنه لم يتميز بالشفافية من حيث آرائه الحقيقية. فقد كان يخفيها باقتدار. وفى الحقيقة، من الصعب معرفة متى اتخذ موقفًا سياسيًا وأيديولوجيًا مناهضًا للموقف الناصرى. وعلى الأرجح، حدث ذلك قبل موت ناصر بفترة طويلة. على أية حال.. كان أول هدف عملى بدأ ينفذه الرئيس السادات هو

إبعاد أكثر الشخصيات إخلاصًا لناصر عن السلطة تمامًا. وكان واضحًا أن الآخرين لم يقدروا قدرات السادات بحق قدرها للقيام بالانقلابات المفاجئة والأعمال الحاسمة، ولاستهدافه تشكيل نظام خاص به بأى ثمن، تكون له فيه سلطة غير محدودة. وقد أظهر السادات تمكّنه الكامل من تدبير الدسائس، فلم يتحرج من وضع أجهزة التنصت فى حجرات زملائه، أو من التنصت على محادثاتهم الهاتفية،.. وغير ذلك. واستطاع السادات أن يطمئن ويتلاعب بكل مَنْ كان من ضمن المنافسين المهمين، وخاصة المعارضين المحتملين لسياسته، وللتغييرين الاجتماعى والسياسى الذين ابتدعهما.

وكانت أول ضربة قام بها هى استبعاد أقرب المقرّبين لناصر، وهو "على صبرى"، من منصب نائب الرئيس فى مارس ١٩٧١. وفى ١٣ من مايو شاركه المصير باقى كبار الناصريين، الذين كانوا يمثلون العامود الفقرى الأساسى للحكومة وقيادة الحزب الذى أسسه ناصر، تحت اسم "الاتحاد الاشتراكى العربى". وقد وجد لهم على الفور بدلاء من الشخصيات التى اختارها مسبقًا. أما مَنْ استبعدوا من مناصبهم، من أنصار ناصر، فقد زُجّ بهم بسرعة فى السجون. وأصبح السادات يطلق على هذه التغييرات فيما بعد اسم "ثورة مايو"، ثم بعد ذلك أصبح يطلق عليها "ثورة التصحيح"؛ حيث تم تصحيح "أخطاء ناصر"، الذى حاول النظام الجديد تناسى اسمه.

وقد كان السادات ماكرًا جدًا؛ عندما حاول تخفيف تأثير "أحداث مايو" على "الكرملين"، - يجب ألا ننسى أنه كان يوجد هناك فى مصر ٢٠ ألفًا من العسكريين السوفييت - بعرضه على موسكو توقيع وثيقة بصفة مبدئية، تتلخص فى اتفاقية صداقة وتعاون بين الدولتين. وكان فى أثناء حكم ناصر قد تمّ عقد الكثير من الاتفاقيات المختلفة بين الحكومتين والهيئات المختلفة بهما، لكن لم تكن هناك اتفاقية سياسية أساسية مماثلة رغم أنه كان يوجد وقتها تفكير فى ذلك. وكانت حسابات السادات سليمة، فلم تكن موسكو تستطيع عدم قبول هذا الاقتراح؛ فإنه كان سيفسّر

الرفض بأنه تغير فى سياسة الاتحاد السوفييتى نفسها، بينما كانت موسكو تحاول المحافظة على العلاقات مع مصر وتقويتها بقدر الإمكان. وقد تم توقيع هذه الاتفاقية بعد أسبوعين من استبعاد الناصريين، فى ٢٧ من مايو ١٩٧١. وقد وقّعها - باسم الاتحاد السوفييتى - رئيس مجلس السوفييت الأعلى "ن. ف. بودجورنى". ولم يبخل السادات فى تجميل أهمية هذه الاتفاقية، عندما ألقى بعد عدة أيام خطابًا فى البرلمان، ووصف الصداقة مع الاتحاد السوفييتى "بأنها عامل مستديم" وأنها "خط استراتيجى"، ولم تمرّ على ذلك عدة أعوام إلا ويقول السادات إنه قام بتوقيع هذه الاتفاقية فقط "لطمأنة" الاتحاد السوفييتى، وفى إطار تصوراته عن الصراع على السلطة، قام السادات منفردًا فى العام ١٩٧٦، بإلغائها دون أن يتشاور أبدًا مع موسكو.

وقد تمكن السادات، بعد أحداث مايو ١٩٧١، من الإمساك بسرعة كبيرة بزمام الأمور بالكامل فى مصر. فعمل أحيانًا على مساعدة الاضطهاد، وأحيانًا يسّر تقديم المغريات المالية والوعود، فاستطاع أن يوفّر لنفسه حرية تصرف كبيرة، لكنها لم تكن مطلقة بعد. فقد كان يضايق السادات الوجود السوفييتى فى مصر، والهيبة التى كان يتمتع بها الاتحاد السوفييتى عند المصريين. لذلك لم يتوانَ فى تنظيم حملة للإساءة إلى الاتحاد السوفييتى وسياسته. وبدأت تنتشر فى الصحافة، بمباركة السلطات الحاكمة، أفكار تقول إن موسكو قد دفعت ناصر إلى عمل خطوات أدت إلى حرب ١٩٦٧ مع إسرائيل، ثم تقاعست عن إرسال قواتها، وبذلك لم تساعد مصر على تفادى وقوع الكارثة. وبدأ توجيه اتهامات للاتحاد السوفييتى بأنه لا يقدّم لمصر السلاح الكافى، وأن هذا السلاح ليس الأحدث، وأنه أقل فى النوعية من السلاح الذى يقدمه الأمريكان لإسرائيل. وبدأ أسلوب تعامل السادات ومَن حوله مع السفير السوفييتى يتغير؛ حيث كان هناك توتر؛ بحجة أننا لا نساعد بقدر كافٍ لتحقيق الشعار الذى طرحه السادات بجعْل العام ١٩٧٢ عام الحسم فى معركة تحرير سيناء (كان قد أُعلن ذلك من قبل فى العام ١٩٧١). وقد تذكّر

فينوجرادوف، وهو يحدثني عن ذلك الوقت، وعن تصرفات السادات، أن السادات كان يسأله تقريبًا فى كل لقاءاته معه، ودون أية مقدمات.. أين السلاح؟ رغم أن الاتحاد السوفييتى كان يفى بالتزاماته لمصر، وكان السلاح يورّد لها فى المواعيد المحددة، وبالكميات والنوعيات المحددة مسبقًا فى العقود. وكان هناك شعور بأن السادات - وهو يؤزّم الموقف - يعدّ الساحة، إن لم يكن لخلاف كامل (لم يكن مستعدًا له بعد)، فلخفض مستوى العلاقات معنا. وقد سعت موسكو لعدم تقديم حجج لذلك الغرض.

واستمر ذلك حتى منتصف العام ١٩٧٢، عندما قرر السادات، أن الوقت قد حان لتوجيه ضربة لإحدى أهم نقاط العلاقات السوفييتية - المصرية، إن لم تكن أهمها (التعاون العسكرى). وكان هذا التعاون قد بدأ منذ الخمسينيات ونما باضطراد؛ بسبب أوضاع موضوعية، طبقًا لرغبة المصريين أنفسهم. وقد وصل إلى أقصى مدى بعد فشل مصر العسكرى فى حرب ١٩٦٧. وبناء على طلبات ناصر الملحّة، لم يعوّض فقط الاتحاد السوفييتى بحماس الخسائر الكبيرة التى تكبدتها مصر، فى ذلك الوقت، من الطائرات والدبابات والمدافع وأنواع السلاح الأخرى والمعدات الحربية، بل إنه أخذ على عاتقه حماية المجال الجوى لمصر، فأرسل إليها ثلاث فرق من محاربى الدفاع الجوى. وقد دافعوا بنجاح عن القاهرة والإسكندرية وأسوان، وعن باقى الشريط الممتد على طول قناة السويس. واضطر الطيران الإسرائيلى إلى التوقّف التام عن غاراته المتلاحقة على مصر. ولقد عمل فى هذا البلد عدد كبير من الخبراء العسكريين، الذين نقلوا خبرتهم للمصريين، وعلموهم استخدام السلاح السوفييتى، وساعدوا على إنشاء إنتاج حربى وقاعدة للصيانة بمصر تقوم به بنفسها. كما عمل خبراؤنا العسكريون فى مختلف التشكيلات وفرق القوات المسلحة المصرية.

وقد كان الوجود العسكرى السوفييتى فى مصر طبقًا للاتفاقيات الرسمية بين الحكومتين، التى تضمنت اتفاقية العام ١٩٦٨ الأسس المنظّمة له. وقد وجهت

الضربة فى يوليه ١٩٧٢ لهذه البنية كلها، التى لعبت دورًا ضخمًا فى تقوية القدرة الدفاعية لـــجمهورية مصر العربية. فقد قرر السادات بقرار اتخذه وحده - دون أية مشاورات مبدئية مع الاتحاد السوفييتى - ضرورة مغادرة جميع العسكريين السوفييت أرض مصر فى أقرب وقت. وقد أبلغ السادات ذلك القرار للسيد فينوجرادوف فى يوم ١٧ يونيه، دون توضيح سبب اتخاذه لهذا القرار، بالإضافة إلى أنه لم يوجه له أية كلمة شكر على مشاركة العسكريين الروس المصريين أهوال حياة الحرب لعدة سنوات، وعلى أنهم دافعوا عن مصر وعضدوا من قواتها الدفاعية. وبذلك شطب السادات حقبة كاملة من تاريخ العلاقات السوفييتية - المصرية، بهدمه لأحد ركائزها المهمة من تحتها.

لماذا تصرّف السادات بهذه الطريقة؟! ولماذا بدأ بالجانب العسكرى بالذات؟! فى اعتقادى، إن ذلك كان، أولاً؛ لأنه خاف فى داخله من وجودنا العسكرى؛ حيث إن وجودنا لم يكن يتماشى مع فكر السادات (الخفى) بأن يضع نفسه تحت حماية الولايات المتحدة. فقد كان من الممكن أن تُكتشف تلك الاتصالات السرية - وأن تصبح معروفة للاتحاد السوفييتى - وغالبا فإنه عندما قرر خيانة الاتحاد السوفييتى، كان يقيسنا بمقاييسه الخاصة. ومن هنا جاءت الرغبة الحادة فى التخلص الفورى من الوجود العسكرى السوفييتى.

وقد أرسل السادات رئيس الوزراء عزيز صدقى إلى موسكو لتوضيح موقفه. فنقل الأخير القصة التالية: "أمامنا حرب مع إسرائيل لتحرير سيناء، وبلا شك يجب أن يخوض هذه الحرب المصريون أنفسُهم؛ لذلك يجب إنهاء مهمة العسكريين السوفييت فى مصر، خاصة أن كل العمل اللازم إعداده لعملية عبور القناة، وما سيتم بعد ذلك قد تم الانتهاء منه فعليًا".

وفى رأيى الخاص، يوجد فى ذلك جزء من الحقيقة؛ إذ بالفعل لم يكن علينا المشاركة المباشرة فى العمليات العسكرية التى كان يَعد لها المصريون منذ العام ١٩٦٧، وإلا كان من الممكن أن يشارك الأمريكيون، أيضًا، فى الحرب لو كانت

إسرائيل مهدّدة بالهزيمة. ولم تكن هناك حاجة لحدوث مواجهة مباشرة بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية لأسباب متعددة. لكن لماذا كان يجب بتر التعاون العسكرى من جذوره، وبهذا الأسلوب الفظّ المتعمد، دون تشاور، أو بتنبيه سابق بوقت كافٍ؟! فقد كان يمكن أن يتم ذلك بأسلوب مختلف، يشمل إيجاد شكل مناسب للإبقاء على وجود عسكرى سوفييتى محدد، سيكون مفيدًا تمامًا لمصالح مصر القومية؛ حيث كان أمامها اختبار عسكرى جاد. لكن كان للسادات خطط أخرى، لم يكن من ضمنها استمرار الوجود العسكرى السوفييتى فى مصر. وفى هذا الموقف أعطت القيادة السوفييتية أمرًا بخروج العسكريين السوفييت من مصر. وقد تمّ ذلك دون تأخير بواسطة السفن والطائرات. ولم يُخفِ البعض سعادتهم، لكن كانت توجد مشاعر أخرى لدى غالبية المصريين، ومنهم العسكريون؛ لأنهم كانوا مدركين أنهم يفقدون أصدقاء، وأنهم سيصبحون أضعف نتيجة لذلك.

وبدأت حرب تحرير سيناء بعد عام من ذلك فقط، تحديدًا فى ٦ من أكتوبر عام ١٩٧٣. فقد تم عبور القناة بنجاح. لكن لم يقم السادات بتطوير النجاح الذى تحقق، وأوقف الهجوم؛ حيث يبدو أنه رأى أن كل ما بعد ذلك سوف يتحقق له عن طريق وساطة الأمريكيين. لكنه أخطأ فى تقدير إصرار الإسرائيليين على إثبات مَنْ الأقوى للقاهرة. وكانت النتيجة أن الدبّابات الإسرائيلية بعد أن عبرت قناة السويس، وأصبحت فى الضفة الغربية، قد شكلت تهديدًا بتطويق الجيوش المصرية، وحصلت على إمكانية القيام بعملية هجومية على القاهرة مباشرة. فلم يبقَ للسادات إلا أن يتوجه إلى كلٍ من الاتحاد السوفييتى والأمريكيين لطلب المساعدة. ولم يمتنع الاتحاد السوفييتى عن ذلك، وأقام بسرعة جسرًا جويًا إلى القاهرة، لنقل السلاح والذخائر إليها. وكان لموسكو دور رائد فى اتخاذ مجلس الأمن للقرارين رقمى ٣٣٨ و٣٣٩، اللذين يطلبان بحزم من إسرائيل ضرورة إيقاف هجومها. وقد استجابت إسرائيل. لكن لم تمنع المساندة السياسية ولا العسكرية الحاسمة التى

قدمناها فى ذلك الوقت لمصر، أو زيارة "أ. ن. كوسيجين" للقاهرة فى أوج الأزمة، السادات عن تنفيذ خطته وأن يتحول إلى أمريكا.

فبمجرد توقّف العمليات الحربية لم يتبقَ أى أثر من تصريحات امتنان السادات لموسكو. ولم يطل انتظار تصرفاته التالية لدفع العلاقات السوفييتية – المصرية إلى الأسفل، إلى مدى أبعد مما هى عليه. وكان من الواضح تمامًا أن كل تصرف من هذه التصرفات يمثّل خطوة أخرى للتقرّب من الولايات المتحدة الأمريكية، أو كانت تتم على خلفيته، أو كانت بمثابة تسديد ثمن لواشنطن نظير المساندة السياسية التى قدمتها أو أية مساندة أخرى. وظهرت، أيضًا، العلاقة بين سياسة السادات والاتحاد السوفييتى، فى تلك الإجراءات التى اتخذها للقضاء على المعارضة اليسارية داخل مصر نفسها، بل على أى نقْد موجّه لسياسة الحكومة الداخلية والخارجية. لذا سأقدّم فيما يلى الخطوط الرئيسية، وتسلسل هذه الأحداث، كما ظهرت أمامى، عندما كنت أحاول أن أوضح لنفسى باقى مسار تفكيك السادات للعلاقات السوفييتية – المصرية.

فى العام ١٩٧٤.. تمّ الاتفاق بين مصر، وواشنطن، وإسرائيل؛ لنسف "مؤتمر جنيف" الخاص بحل مشكلة الشرق الأوسط، الذى كان يجب أن يُقام برئاسة مشتركة سوفييتية – أمريكية. وكان الهدف من ذلك استبعاد الاتحاد السوفييتى من المشاركة فى البحث عن حلٍ للأزمة العربية – الإسرائيلية.

فى العام ١٩٧٦.. قام السادات بإلغاء اتفاقية "الصداقة والتعاون" التى كانت منعقدة مع الاتحاد السوفييتى. وقد استبدل السادات رفضه للاتفاقية برفع واشنطن حظر توريد السلاح الأمريكى لمصر. وقد بيعت له كبداية ست طائرات نقل طراز "C-130".

فى أكتوبر ١٩٧٧.. يستدعى السادات، بأسلوب مسرحى، السفير المصرى من موسكو، ولا يعيده إليها مرة أخرى.

في ديسمبر ١٩٧٧.. بناء على طلب السادات، تُقفل القنصلية العامة للاتحاد السوفييتى فى الإسكندرية، وباقى القنصليات الأخرى فى كلٍ من بورسعيد وأسوان، وكذلك الأمر مع المركزين الثقافيّين فى القاهرة والإسكندرية.

فى يناير ١٩٧٨.. تمّ تنفيذ التوقّف الذى أعلن عنه السادات فى أكتوبر من العام ١٩٧٧ لمدة عشر سنوات، فيما يخصّ دفع الديون للاتحاد السوفييتى، والمتعلقة بقرض خاص لتوريد الأسلحة السوفييتية لمصر.

فى ديسمبر ١٩٧٨.. مصادرة مبنى يتكون من عشرين طابقًا، كانت السفارة السوفييتية قد بنته سكنًا للعاملين بها.

فى سبتمبر ١٩٨١.. أعلن السادات أن السفير السوفييتى ف. ب. بولياكوف المتواجد فى مصر، ومعه ستة آخرين من الدبلوماسيين، أشخاص غير مرغوب فيهم، وقام بتخفيض كبير لعدد العاملين بالسفارة السوفييتية، وأغلق الملحقية العسكرية لسفارة الاتحاد السوفييتى بمصر، والملحقية العسكرية المصرية فى الاتحاد السوفييتى، وألغى كل عقود الخبراء السوفييت المدنيين - الذين يعملون بمصر فى أعمال البناء ومشروعات التعاون الأخرى - وطالبهم بضرورة المغادرة من مصر، هم وأفراد أُسَرهم فى أسرع وقت. كما طرد من البلد اثنين من مراسلى وكالة "تاس" الإخبارية. وقام، من جانب واحد، بإعادة النظر فى الصفة القانونية للجهات التمثيلية السوفييتية العاملة بمصر، التى تمثّل الوزارات الاقتصادية والهيئات، مثل وزارة (الطيران المدنى، والأسطول البحرى، واقتصاديات الأسماك.. وغيرها)؛ حيث توقفوا عن اعتبارها ممثليات لهيئات رسمية بالحكومة السوفييتية، ونُظِر للعاملين بها على أنهم من فئة العاملين الأجانب البسطاء، وطُبقت عليهم الإجراءات السنوية للحصول على تصاريح للإقامة، وممارسة العمل المهنى من وزارتى الداخلية والعمل بجمهورية مصر العربية، كما تمّ حلّ جمعية "الصداقة المصرية - السوفييتية"، والزجّ برئيسها خلف القضبان.

وكانت النتيجة أنه بقى من أكبر جالياتنا فى الخارج على مدى التاريخ، التى كانت تمثّل - قبل ذلك - بمصر، عددًا محدودًا، يتمثّل فعليًا فقط فى العاملين بالسفارة، وبعض ممثليات الوزارات والهيئات السوفييتية، ومجموعة صغيرة من الصحفيين. وقد تمّ ذلك فى الوقت الذى أصبحت فيه السفارة الأمريكية بالقاهرة تمثّل أكبر ممثلية دبلوماسية للولايات المتحدة الأمريكية فى العالم، فقد عمل تحت مظلتها نحو ستمائة من العاملين المدنيين والعسكريين، كما تعدى تعداد المواطنين الأمريكيين الآخرين فى مصر عشرة آلاف فرد. هكذا بدأت تظهر فى الواقع نتائج سياسة "موازنة" علاقات مصر مع كلٍ من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية، التى كان يفضّل السادات مناقشتها فى أوائل سنوات حكمه.

وقد أصيبت، أيضًا، العلاقات التجارية والاقتصادية السوفييتية - المصرية بضرر بالغ. ففى العام ١٩٧٧، أمر السادات بوقف تصدير القطن إلى الاتحاد السوفييتى، الذى كان يمثّل السلعة الرئيسية التى يستوردها الاتحاد السوفييتى من مصر. وبالإضافة إلى ذلك، تمّ - بقرار عفوى غير محسوب العواقب - تغيير سعر صرف الجنيه المصرى فى الحسابات مع الاتحاد السوفييتى، فى العمليات التجارية والعمليات الأخرى، بصورة جذرية، مما سبب خسائر فادحة لنا.

وفى الحقيقة، لم يبقَ أى مجال من مجالات الاتصالات أو علاقات الأعمال بين جمهورية مصر العربية والاتحاد السوفييتى لم يتم إلغاؤه أو إضعافه بدرجة كبيرة؛ نتيجة لأعمال السادات. وقد توقف تمامًا تبادل الوفود الرسمية والبرلمانية والاجتماعية وغيرها، بعد أن كان حجمه كبيرًا فى الماضى، كما توقفت العلاقات الثقافية والعلمية المتبادلة بينهما.

بذلك، ونظرًا لجهود السادات، أصبحت العلاقات الرسمية، وغير الرسمية، بين الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية أخيرًا - فى رأيى - فى مستوى متدن تحت الصفر. وقد ساعد على ذلك أن عددًا كبيرًا من الهيئات المصرية دخلت بنشاط فى "حرب باردة" ضد الاتحاد السوفييتى؛ تنفيذًا لرغبة السلطات الحاكمة.

كما أن دخول القوات السوفييتية أفغانستان أعطى القاهرة مبررًا إضافيًا لزيادة درجة العداء. وقد زادت القوات الخاصة الموقف تعقيدًا حول السفارة والأماكن الأخرى التى كان يوجد بها قدر قليل من التواجد السوفييتى فى مصر. وبدا واضحًا فيما بعد تجنّب رجالنا، فى الأوساط المختلفة، خوفًا من الاضطهاد. ورغم ذلك - فكما تأكدت بنفسى فيما بعد - فإن سنوات حكم السادات لم تتمكن من تسميم مشاعر المصريين - عامة الشعب - ونزع معانى الامتنان والصداقة تجاه الاتحاد السوفييتى، والثقة فى سلامة نواياه نحو بلدهم، والأمل فى حدوث تحول إلى الأحسن فى العلاقات السوفييتية المصرية. وعليه، فقد بقى - بصفة دائمة فى ذاكرة الشعب - كلٌ من حجم وتنوع المساعدات التى قدمها الاتحاد السوفييتى لسنوات كثيرة لمصر، خاصة فى أحرج الأوقات، وكذلك مشاركته لها فى حمل السلاح. فلم يضع الجهد الذى بذله آلاف السوفييت بأمانة وإخلاص فى مصر هباء.

وقد وصف المصريون أنفسُهم شهر سبتمبر تحديدًا، عام ١٩٨١، بأنه "أسود"؛ فإنه لم يكن فقط ذروة لأعمال السادات المعادية للسوفييت، لكنه كان، أيضًا، نارًا اندلعت وعلا لهيبها القاسى على شعبه، وتمثّلت فى التخلص من أبرز الشخصيات (الدينية، السياسية، الاجتماعية، الإعلامية "وكذلك الصحفيين"...)، ومعهم كل من لم يؤيد اتفاق "السلام المنفصل" مع إسرائيل. وقد ألقى فى ذلك الشهر - سابق الذكر - القبض على أكثر من ألف وخمسمائة، من صفوة المصريين، وزجّ بهم فى السجون. وقد زاد الموقف توترًا قطع السادات العلاقات - التى كانت سارية - مع كافة دول العالَم العربى والإسلامى. ولم يطل انتظار العقاب. ففى ٦ من أكتوبر ١٩٨١، وفى أثناء العرض العسكرى، قامت مجموعة من الأصوليين المسلمين بقتل السادات رميًا بالرصاص، وإسدال الستار على حياته، وبخلاف ما حدث فى جنازة ناصر، الذى ودّعه إلى مثواه الأخير ملايين من المصريين بحزن حقيقى وأسف بالغ، فقد سار فى جنازة السادات فقط بضع مئات. ولم يبكِ الشعب على الرئيس المتوفَى.

قد يلومنى البعض من معاصرى القرن الحادى والعشرين، تحت تأثير التغييرات السياسية والاجتماعية فى بلدنا، على ما سردته أعلاه من جانب واحد عن السادات، لكن كتابى هذا لا يمثل دراسة تاريخية، بل مجرد مذكّرات. كما أنى أحاول نقل انطباعى عن هذه الشخصية، كما كان عندى فى الثمانينيات من القرن الماضى. وهو لم يكن من الممكن أن يختلف عما كان عليه فى ضوء تصرفات السادات نحو بلدنا، التى سردتها أعلاه. والخيانة - فلا يمكن أن يطلق اسم آخر على تلك التصرفات - لا تخرج مع مرور السنوات عن كونها خيانة؛ لذلك فأنا أعدّ السادات - فوق ما سبق - سياسيًا غدّارًا، ذا شخصية مؤذية فى الأعمّ الأغلب. وبالمناسبة، لم يقدره الأمريكيون كثيرًا رغم كل ما حصل عليه من واشنطن من مساندات سياسية؛ نتيجة لهروبه من معسكر إلى آخر. فقد حدد هنرى كيسنجر نفسه شخصية السادات بدقة.. فوصفه بأنه كان "مهرّجًا متفجرًا".

ومن الطبيعى، كما يبدو لى، أن يتقبّل الكارهون لكل ما هو سوفييتى - الذين يصفونه بأنه "لعنة وحرمان" - السادات كشخصية إيجابية، فضّلتْ أن تضع نفسها تحت الحماية الأمريكية، وبدأتْ فى تفكيك النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى ساد فى مصر فى عهد ناصر. أما أنا، فوجهة نظرى مختلفة. ومع ذلك، فأنا لا أعتقد أن كل ما فعله السادات سَيء بالضرورة، فقد كانت فى تصرفاته بعض الأشياء المفيدة، لكن كان عداؤه لبلدى - وسيبقى بالنسبة لى - علامة أساسية فى حكمى عليه.

سيد "مبارك".. مَنْ أنت؟!

عندما اتضح لى حجم الضرر الذى أصاب العلاقات السوفييتية - المصرية فى عهد السادات، فهمتُ أن الموقف لن يكون سهلاً لأول سفير سوفييتى فى مصر، فقد كان عليه أن يعيد العلاقات فى الكثير من المجالات. وقد كانت لدينا هذه الرغبة، لكن بقى الكثير غامضًا فيما يخص وجودها عند الجانب المصرى. ففى

أثناء استعدادى للعمل التالى، ركزت اهتمامى، بصفة أساسية، على رئيس مصر الجديد "محمد حسنى مبارك"؛ محاولاً أن أتوقع الخط الذى سيسير عليه تجاه الاتحاد السوفييتى، اعتمادًا على تحليل تصرفاته. وكانت المواد المتوفرة فى ذلك الحين لا تزال قليلة، لكن ما كان موجودًا لم يكن يدعو تمامًا للتفاؤل. فعند النظر لأول وهلة إلى مبارك - عندما أصبح رئيسًا - نجد إرساله للسفير المصرى إلى موسكو، وإعادته للسفير الروسى إلى القاهرة، بدا كأنه لن يكلف شيئًا. فإن ما فعله السادات من طرد بولياكوف كان تصرفًا سخيفًا، يصعب أن نجد له مثيلاً فى تاريخ العلاقات الدولية. وسيصاب القليل فى العالم بالدهشة فور معرفة أن هذا الحدث قد انتهى. لكن مبارك لم يقدم على ذلك، لماذا؟.. هل لم يرغب؟ أم لم يتمكن؟ أم هما معًا؟ وكان الكثير قد توقف على الإجابة الصحيحة لهذا السؤال، بما فى ذلك التوقعات المستقبلية.

عندما تحول اتجاهى إلى مصر، كان مبارك يجلس فى مقعد الرئاسة منذ عامين، لكن بقيت العلاقات السوفييتية - المصرية - طوال هذه الفترة - مجمّدة تقريبًا فى الحالة نفسها التى تركها إرث السادات. وكان لا يزال يوجد الكثيرون من المعادين للسوفييت فى وسائل الإعلام، خاصة فى صحيفة الحزب الحاكم، رغم أن الهجوم الشخصى على القادة السوفييت أمر قد اختفى، كما اختفى، أيضًا، الهجوم على غالبية القادة العرب، مما كان يعنى - على الأرجح - إيجاد تصحيح عام فى أسلوب الدعاية، وليس مجرد تأدّب مع قادة السوفييت. كما استمرت السفارة، والمبانى السوفييتية الأخرى، هدفًا لاهتمام المخابرات المصرية. وكانت التغييرات التى حدثت على مستوى العلاقات الثنائية قليلة جدًا، وما حدث منها كانت تمليه مصالح مصر الخاصة، التى كانت تتمثل، أساسًا، فى موضوعين: تأكيد تجاهل منع بيع القطن لنا، الذى بدونه كان سيصل حجم التجارة إلى الصفر، كما أن مصر كانت فى حاجة إلى منتجاتنا، كما طلبت القاهرة إعادة بعض مجموعات خبرائنا

المدنيين الذين بلغ عددهم نحو مائة فرد فقط، مثّلوا مَن لم يمكن الاستغناء عنهم أبدًا فى المصانع المصرية. وقد وافقت موسكو وحضر الخبراء إلى مصر.

أما الإشارة التى وصلت إلى موسكو عن استعداد مصر لتبادل السفراء فى وقت قريب، فلم يؤكدها أى شيء. مر شهر وراء الآخر، بينما كانت القاهرة صامتة تمامًا. ولم أكن مسرورًا بذلك، رغم أنه من ناحية أخرى، أعطانى فرصة كى أُحسِن الاستعداد لمهمتى المقبلة. على كلٍ، كنت مهتمًا بصفة خاصة بـــمبارك نفسه كسياسى وإنسان. ففى الدول التى تتمسك بالتقاليد مثل مصر، كان الكثير يعتمد على موقف الرئيس. والدليل على ذلك هو تأثير كل من ناصر والسادات، والأخير قد عيّن مبارك نائبًا للرئيس.. لكن لماذا؟ كنت كثيرًا ما أطرح على نفسى سؤالاً.. يا سيد مبارك.. من أنت؟ وأنا أفكّر فى الطريق الذى سوف يقود مصر إليه. لو كان تابعًا مماثلاً تمامًا للسادات فهذا شيء، لكنه لو كان إنسانًا مستقلاً بفكره، فذاك شيء آخر. لكن فى هذه الحالة، ما الذى يرنو إليه؟ وكيف يريد أن يرى بلده؟ ما شعوره الداخلى نحو دولتنا؟ عمومًا كانت الأسئلة المطروحة فى الذهن كثيرة، أكثر جدًا من الأجوبة. لكنى بحثت عنها بإصرار، محاولاً جمع ما أستطيع من معلومات من مختلف المصادر الممكنة.

وفى النهاية، توصلت إلى نتيجة تتلخص فى أن السادات، عند اختياره لمبارك نائبًا لــ "رئيس الجمهورية"، لم يفكّر غالبًا فيه كوريث له، فقد كان فى نيته أن يحكم مصر لسنوات طويلة أخرى، لكنه اختار مبارك لرغبته فى أن يكون لديه "رئيس لمجلس قيادة"، يكون دقيقًا حازمًا قادرًا على حسن التنظيم والإدارة، شريطة أن يكون شخصًا لم يمارس السياسة، ولم تكن لديه تطلعات سياسية واضحة، ولا يقوم بتدبير الدسائس، وقد كان السادات نفسه شخصًا غير منظّم ومندفعًا، وكان فى حاجة لشخص مختلف عنه تمامًا، فقد كان يعد نفسه سياسيًا عظيمًا، ولم يكن يرغب فى اقتسام المجال السياسى مع أحد. فكانت صفات مبارك، فى الواقع، تتمشى وهذه المتطلبات، كما أنه كان يحظى بنفوذ واحترام فى القوات المسلحة، وقد كان ذلك،

أيضًا، مهمًا للسادات؛ إذ حقق مبارك - المنتمى لأسرة متواضعة - نجاحًا كبيرًا فى مهنته العسكرية، وكان قبل تعيينه نائبًا لرئيس الجمهورية، فريقا أول، وقائدًا للقوات الجوية المصرية.

وقد كان مبارك، طيلة السنوات الخمس التى بقى فيها نائبًا لرئيس الجمهورية، كأنه الظل السياسى للسادات؛ حيث لا يمكن أن يكون خلاف ذلك فى دولة يسود فيها حكم الفرد. لكن لا يعنى هذا أبدًا أن مبارك، فى خلال هذه الفترة، لم يقو موقفه فى بنية السلطة بالدولة، وبين صفوة المجتمع المصرى. على أية حال.. فعندما اغتيل السادات، لم يحاول أحد أن يتخطى طريق نائب رئيس الجمهورية. فقد تم انتخابه - على الفور - رئيسًا للحزب الوطنى الديمقراطى الذى أسسه "السادات"، ثم عن طريق الانتخاب العام أصبح رئيسًا للجمهورية. وقد تم هذا الانتخاب فى يوم ١٣ من أكتوبر ١٩٨١، وحصل مبارك على ٩٨,٥% من جملة الأصوات المنتخبة.

وتمت محاكمة قتلة السادات وتنفيذ الأحكام فيهم، وطُبِّق قانون "الطوارئ" فى مصر منذ يوم اغتيال السادات. وغالبًا لم يتمكن الرئيس الجديد من التصرف بأسلوب آخر. فقد كان من الواجب السيطرة على الموقف بصورة عاجلة، دون الاستمرار فى طريق القمع، الذى استخدمه السادات فى سنواته الأخيرة بأسلوب سيئ، وهو ما انتهجه مبارك؛ محاولا القضاء على غضب الشعب. فتم بسرعة إطلاق سراح كل مَنْ زجّ بهم السادات خلف القضبان فى "سبتمبر الأسود"، كما سبق وصفه، ونالوا حريتهم. وأُعيد إصدار صحف ومجلات المعارضة، كما أصبح مبارك يلتقى بقادة المعارضة، وهو ما لم يكن يحدث فى عهد السادات. وبدأت إعادة النظر تدريجيًا فى الأوضاع، وملفات قدامى المسجونين السياسيين، وقد أطلق سراح رفاق ناصر - بصفة خاصة - ضحايا "ثورة مايو" التى قام بها السادات، رغم أنهم لم يعودوا إلى الحياة السياسية فيما بعد.

أقدَم مبارك على هذه الخطوات ذات الطابع الليبرالى، وعلى غيرها، مبينًا فى نفس الوقت للناصريين والقوى الأخرى المناهضة للسادات، أن السلطات لن تصبر على أى خروج منهم عن القانون. وقد كان ذلك متعلقًا، بالدرجة الأولى، بالمعارضة اليسارية الشرعية، المتمثّلة فى حزبى "التجمع الوطنى التقدمى"، و"العمل الاشتراكى". أما ما يخصّ الشيوعيين فقد بقوا، كما كانوا فى عهد السادات، يعملون فى الخفاء. ومن ناحية أخرى، سُمح فيما بعد - تحديدًا فى العام ١٩٨٤ - بإعادة تأسيس "حزب الوفد" اليمينى المعارض. وانتهت بذلك مرحلة إعادة تشكيل النظام السياسى، الذى أدى إلى استقرار نسبى فى البلد. وبالتدريج، أخذ مبارك فى تنفيذ تغييرات فى المناصب العليا بالسلطات الحكومية. فقد جدّد فى الحكومة، بشكل كبير، على مراحل، مجنبًا إياها الأعضاء الذين سمحوا لأنفسهم بالسرقة والفساد، الذى وصل فى عهد السادات إلى أحجام لم تحدث من قبل. وقد وصل التجديد، أيضًا، إلى رئاسات الحزب الحاكم. كما تمّ وضع حظْر على البرجوازية العميلة للغرب. وقد كان بعض كبار اللصوص يشعرون؛ بسبب علاقاتهم والفساد الطافح فى عصر السادات، بأنهم فى الحماية، وعليه قام هؤلاء بنهْب البلد دون أدنى خجل. كما لم يتردد مبارك فى محاكمة المتهربين من دفع الضرائب، والمتورطين فى جرائم الفساد المالية، ومنهم شقيق الرئيس المتوفَى "عصمت السادات"، وقريبه الآخر "رشاد عثمان"، الذى كان يعد أغنى أغنياء مصر. ورغم أن الأحكام التى صدرت ضدهما لم تتميز بالقسوة، إلا أنها أحدثت فى البلد ضجة، وأصبحت - إلى درجة ما - عظة لمن بقى ممن قاموا بالمخالفات المالية. وكان لهذه الإجراءات الموجهة لتصحيح الأوضاع الداخلية فى مصر، رد فعل حسن عند الشعب، بالإضافة إلى أنها جعلت القوى الموالية للسادات تأخذ حذرها، سواء فى جهاز الدولة أو فى مختلف المجالات الاقتصادية، التى حصلت فيها على أوضاع قوية خلال فترة حكْم السادات.

وظهرت بعض الإصلاحات فى مجال السياسة الاقتصادية، مثل: سياسة "الانفتاح"، الموسومة بسياسة "الأبواب المفتوحة"، التى أعلنها السادات والتى فتحت بوابة الاقتصاد المصرى على مصراعيها أمام رأس المال الغربى. ولكن التنشيط الذى حدث كان فقط فى الأعمال البنكية، وبناء المساكن باهظة الثمن والفنادق، وفى بعض مجالات الخدمات. وقد أعلن مبارك عن شعار "الانفتاح الإنتاجى"، محاولاً إعادة توجيه المستثمرين الغربيين، المنتجين للسلع الاستهلاكية، ففى عهد السادات لم يتم بناء أى مصنع كبير. ولكن لم يكن من الواضح بعد.. هل سيحقّق الشعار الجديد أى تقدم ملموس؟ لكن الهدف كان خيرًا.

واستمر القطاع العام كأساس لاقتصاد البلد؛ حيث كان يمثّل ٦٠% من الإنتاج القومى. وكان يمكن أن يفهم من بعض خطوات مبارك، التى تتمثل فى إعادة تخطيط التنمية الاقتصادية ونظام الإدارة السابق، أنه لم يكن يريد أن يأخذ على عاتقه الإسراع فى تصفية القطاع العام الذى سعى إليه السادات. لكن على الأرجح، كان الحديث يدور، على العكس، عن زيادة كفاءة عمله، والمحافظة على سيطرة الدولة على المشروعات الأساسية فى الصناعة والنقل. وظهر، أيضًا، أن مبارك لا ينوى أن ينقض على المكاسب الاجتماعية الأساسية لعهد ناصر، فيما يخص الإصلاح الزراعى، من حيث (تحديد ملكية الأرض الزراعية الإقطاعية، ومجانية التعليم، ودعم الدولة لعدد من البضائع الاستهلاكية الضرورية). فعندما حاول السادات فى العام ١٩٧٧، أن يخفض نسبة هذا الدعم بصورة كبيرة، ردّ الشعب بإقامة المتاريس فى أماكن مختلفة من القاهرة والمدن الأخرى، وقاموا بحرق أقسام الشرطة، وخرجوا فى مظاهرات كبيرة. وقد اضطر السادات للتراجع.

وكنت أستند إلى أن مبارك لم يكن ناصريًا، وإلا ما كان السادات ليختاره نائبًا لرئيس الجمهورية، ولكان قد طرده على الفور من الجيش. لكنى كنت أتمنى أن يتعامل الرئيس الجديد بموضوعية أكبر مع تقييم الطريق التاريخى، الذى سارت عليه مصر فى عهد ناصر. لذلك فقد منحنى الأمل أن مبارك وافق فى فبراير

١٩٨٣، على القاعدة السياسية الجديدة للحزب الحاكم، المسماة "إطار إيديولوجية الحزب الوطنى الديموقراطى"، فقد كان به تقييم أكثر عدلاً لعهد ناصر، مختلف عن تقييم السادات له. فلم يكن فى هذه الوثيقة أى تمجيد لعهد ناصر، لكن تم فيها توضيح أهمية المكاسب الثورية للشعب فى عقدى الخمسينيات والستينيات، وتم توضيح أهمية الإصلاح الزراعى، وتأميم قناة السويس، وبناء السد العالى، ومحطة توليد القوى الهيدروليكية بأسوان. كما أشير، أيضا، إلى بعض الوثائق التى تحدد أسس برامج العمل فى عهد ناصر، وبصفة خاصة "ميثاق العمل الوطنى". وقد كان ذلك يدل على بعض التغيير فى المفاهيم الإيديولوجية، على الأقل فيما يخصّ الماضى.

وبتحليل أداء مبارك فى مجال السياسة الداخلية، على قدر ما عملت بها، تزايد اقتناعى بأن أسلوب الرئيس الجديد يختلف عن أسلوب السادات، ورغم أنه لا يعادى علانيةً الرئيس الذى سبقه، لكنه ليس مقلدًا له. وبالإضافة إلى ذلك، كان العديد من خطوات مبارك موجّها بموضوعية للتخلص من أوضاع أتباع السادات. وظهر شعور بأن هناك معركة خفيّة فى الرئاسات المصرية حول الاتجاهات الرئيسية لسياسة الدولة الداخلية والخارجية، وأن مؤيدى المحافظة على حصانة السياسات - كما كانت فى عهد السادات - لم يخاطروا بالوقوف أمام مبارك، فتظاهروا بأنهم مع إصلاحاته، لكنهم كانوا يحاولون عرقلته باستخدام تأثيرهم الذى بقى فى كلٍ من الحكومة والوزارات، وعلى مستوى المحليات. لذلك كنت أفكر بهذه الطريقة. على أية حال.. وضعت آمالاً عريضة فى الرئيس، ومنحته عواطفى فى هذا الوضع المتعارض المفترض.

وبدتْ سياسة مبارك الخارجية، على خلفية التقدم فى السياسة الداخلية، كأنها مستمرة، مع بعض التغييرات البسيطة، كما كانت فى عهد السادات. وقد بحثت عن تفسير لذلك فوجدت أن الأسبقية الأولى عند الرئيس كانت للأوضاع الداخلية. وهذا يحدث تقريبًا - بصورة دائمة - عند انتقال السلطة من أيدٍ إلى أخرى، وعندما يلزم

تنظيم السلطة؛ بحيث تكون في يد الحاكم، باستبعاد شخصيات وتقريب أخرى، وتطويع العلاقات مع باقى فروع السلطة، والأحزاب، وضمان تأييد القوات المسلحة، والجهات الدينية، ورجال الأعمال، أو على الأقل جزء منهم، ثم فى النهاية تأييد الشارع فى المدن والقرى.

وكنت أضع فى الاعتبار وضعًا آخر مهمًا، وهو صعوبات الحالة الاقتصادية والمالية فى مصر، التى ورثها مبارك. فمن ناحية، كانت هناك ضغوط بسبب الديون، التى تزايدت فى عهد السادات لكلٍ من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية، ومن ناحية أخرى، بسبب الوضع المتدنى الذى تكوّن فى سوق النفط العالمى. وكان يوجد ارتباط ثلاثى لمصر بهذا الوضع.. أولاً: بتصدير بترولها الخاص للحصول على دخل، وثانيًا: بحجم البترول الأجنبى المنقول عبر قناة السويس، وثالثًا: بتحويلات المصريين العاملين مؤقتًا بعقود فى الدول العربية المنتجة للبترول. وقد تزامن استلام مبارك للسلطة مع هبوط حاد فى أسعار البترول، حتى وصلت إلى ١٣ أو ١٤ دولارًا للبرميل الواحد؛ مما أثّر بطريقة مباشرة فى مستوى دخل مصر من العملات الصعبة من هذه المصادر الثلاثة. لذلك كان على مبارك أن يجتهد فى التفكير فى كيفية الحصول على نقود؛ لتسديد الديون، ولسدّ الاحتياجات الأخرى، خاصة استيراد المواد الغذائية. من هنا كانت أهمية علاقات مصر مع الولايات المتحدة خاصة، ومع الغرب عامة، التى زادت فى مثل هذه الظروف؛ حيث إنه لم يتبق للقاهرة - بعد أن بصق السادات على كلٍ من الاتحاد السوفييتى والدول العربية عامة - أية مصادر للمساعدة إلا من الولايات المتحدة الأمريكية والغرب. وقد كانت وسائل تأثير واشنطن على القاهرة كبيرة جدًا. فكانت تتمثّل، بصفة خاصة، فى المنحة السنوية المالية لمصر، وقيمتها ملياران من الدولارات.. مليار منها استخدم لتوريد الأسلحة الأمريكية، والآخر استخدم جزئيًا لاستيراد المواد الغذائية، وجزئيًا لتمويل مختلف المشاريع.

وقد أدى منح الأولوية للأوضاع الداخلية لأسباب لها وزنها - حيث اتجه مبارك لتقوية وضعه الخاص؛ عن طريق استبعاد أتباع السادات من أجهزة السلطة، على الأرجح - إلى عدم رضاء واشنطن. فلم يعد يحصل رئيس مصر على موارد كافية؛ كي تكون له الاستقلالية نفسها في الشئون الخارجية.

فسرتُ بذلك، بالذات، الصمت شبه التام، الذى ساد فيما يخص الاتجاه نحو الاتحاد السوفييتي. وعندما توفي "ل. إ. بريجنيف" في نوفمبر ١٩٨٢، تم توضيح موقفنا من الرغبة في تطبيع العلاقات بحرص، لكن بوضوح، في أثناء المناقشات التي دارت مع الوفد المصرى الذى حضر للمشاركة في تشييع الجنازة. وقد تلخص رد الوفد المصرى فيما يلي "هذا الموضوع في مجال اهتمام رئاسة جمهورية مصر العربية، لكن لم يحن الوقت بعد". وبعد عدة أشهر، جاءت إشارة من القاهرة بأن تبادل السفراء سوف يتم في مستقبل قريب.

عند البحر.. في انتظار المناخ المناسب

في البداية، فهمت كلمات "مستقبل قريب" طبقًا لمعناها الحرفي، لذلك فقد بدأت في التعرف على المواد المتعلقة بـــ "مصر"، ومنطقة الشرق الأوسط بنشاط كبير. لكن عندما وصلت الأسابيع إلى شهر، ومر شهر ثانٍ، ثم ثالث، فهمت أن "مستقبلاً قريبًا" قد يكون له معنى ممطوط جدًا. وبعد ذلك، ومن خلال عملي في القاهرة، قدّرت تمامًا سبب حب مَن تحدثت معهم لتعبير "إن شاء الله" بهذا الشكل، وهو ما يعني "إذا أراد الله". فقد كانوا يستخدمون هذا التعبير مع كل وعد، كأنهم يقدّمون مفهومًا مسبقًا بأنه إذا لم يتحقق ذلك، فإن السبب لا يرجع إليهم أبدًا، لكن إلى رغبة الله. وكان عليَّ أنا، أيضًا، أن أتحلّى بالصبر، كما نصحني أعزائي المستعربون بوزارة الخارجية.

وهكذا، مر عام ١٩٨٣ كله. وقد عرض عليَّ نائب الوزير لشئون الكوادر "ف. ف. ستوكالين" - نتيجة لتَرمه معي - اختيار بلد من بين عدة بلاد، يمكن أن

يرسلنى إليها، كسفير، فور اختيارى لها. لكنى تشبثت بمصر، وقاومت الإغراءات التى ارتبطت بالبلاد الأخرى، رغم أن ذلك كان يضغط على أعصابى.

والأمر الوحيد الذى ساعد على تخفيف الضجر، كان فى ضرورة فهْم طبيعة العام ١٩٨٣، حيث كان متوترًا بشكل نادر فيما يخصّ العلاقات بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة، ولم يكن يستطيع مَن فى القاهرة ألا يراعى ذلك. فلأول مرة لم يذهب أ. أ. جروميكو لحضور اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة فى سبتمبر ١٩٨٣؛ لأن الولايات المتحدة الأمريكية لم تسمح بهبوط طائرة الوزير فى نيويورك. وهو ما لم يحدث أبدًا حتى فى أسوأ سنوات الحرب الباردة. ولم يخف الأمريكان أن هدفهم فى الشرق الأوسط كان يتمثل فى إخراج الاتحاد السوفييتى منه تمامًا؛ لتتسع الساحة أمامهم. وأصبحت "مصر السادات" مكافأة ثمينة جدًا، لكن وحيدة على هذا الطريق؛ لذلك لم يكن تطبيع العلاقات بين الاتحاد السوفييتى ومصر يتماشى أبدًا مع الخطط الأمريكية. ولم تكن تستطيع مصر أن تتفادى حصارًا اقتصاديًا خطيرًا، إذا حدث ذلك، فى ظل وصول التوتر فى العلاقات السوفيتية – الأمريكية إلى أقصى مداه.

وكنت أتصور أن مبارك لا يؤخّر تبادل السفراء عن قصد، لكنه كان يختار اللحظة التى يكون فيها الضرر بعلاقاته مع الولايات المتحدة الأمريكية أقل ما يمكن، والمناسبة من حيث الظروف الداخلية فى البلد. وكنت أعتقد أن مبارك يحتاج بالفعل لعلاقات كاملة مع موسكو كعنصر ضرورى ومؤثّر؛ لاسترجاع مصر لأوضاعها ولمكانتها الدولية. وكانت مصر قد استبِعدت من كل المنظمات العربية والإسلامية؛ بسبب اتفاقية السلام المنفردة مع إسرائيل، وقطعت تقريبًا كل الدول العربية علاقاتها بها. وكان استمرار الخلافات مع موسكو، فى ظل هذا الوضع، لا يعنى إلا زيادة عزلة مصر. ومن ثم كان تصحيح العلاقات مع الاتحاد السوفييتى مهمًا جدًا لصورة مصر فى حركة عدم الانحياز،وفى الأمم المتحدة، والهيئات الأخرى، التى كانت لا تزال عضوًا فيها. وكان الانحياز الكبير نحو

الولايات المتحدة الأمريكية قد أضرّ بهذه الصورة؛ ففى الثمانينيات لم تكن الدول النامية عامة تكنّ أى نوع من الحب للولايات المتحدة الأمريكية. لذا كنت متفائلاً تمامًا بأن النهاية بخصوص ضرورة تطبيع علاقاتنا مع مصر ستكون سعيدة. لكنى كنت أريد فقط أن يتم ذلك بسرعة.

وفى أثناء ذلك، توفى "ى. ف. أندروبوف" فى فبراير ١٩٨٤، فحضر إلى موسكو الوفد التالى المصرى؛ للمشاركة فى تشييع جنازته، برئاسة "ممدوح سالم"، رئيس "مجلس الشورى"، وهو يماثل مجلس الشيوخ. وقد استقبل الوفد نائب رئيس المجلس الأعلى للاتحاد السوفييتى "ف. ف. كوزنتسوف"، الذى كان لفترة طويلة سابقة نائبًا لوزير خارجية الاتحاد السوفييتى، وكان يعرف الموضوعات الدولية تمامًا؛ لذلك كان الحديث محددًا، خاصة عن الوضع فى الشرق الأوسط. كما تم تناول موضوع تبادل السفراء، لكن لم تكن هناك نتيجة جيّدة لذلك. واعترف سالم بالتأخير الذى حدث، وحوّل الحديث إلى موضوع آخر، فأعاد مرة أخرى الحديث فى موضوع كنا نعتقد أنه أقفل. ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه حدث أمر غير سار فى ذلك الوقت، وفى وقت غير مناسب. حيث كانت مجلة "نوفوى فريميا" (الوقت الحديث) قد نشرت فى أحد أعدادها فى العام ١٩٨٣، مقالاً أدى إلى اعتراض من جانب القاهرة؛ حيث استخدم تعبير "عصابة مبارك" فى نسختها الإنجليزية، بينما كان الحديث فى النسخة الروسية عن "مجموعة مبارك" وقد حدث ذلك فى وقت غير مناسب بعض الشىء. فكان على وزارة خارجية الاتحاد السوفييتى توضيح الأمر. وبالطبع وجد كوزنتسوف ما يقوله فى أثناء الحديث مع سالم، لكن موضوع تطبيع العلاقات أصبح مهملاً.

وكان يوجد، ضمن الوفد المصرى، نائب آخر لوزير خارجية جمهورية مصر العربية. وقد استقبله "ج. م. كورنيينكو"، ورئيس قسم الشرق الأوسط بوزارة الخارجية "بولياكوف"، وبالطبع كانا مهتمين بالموعد الذى ينتظر فيه تبادل السفراء. وقد صرّح المسئول المصرى أنه تم اتخاذ قرار من حيث المبدأ، بل كانت هناك نية

لإجراء التبادل قبل نهاية العام ١٩٨٣، لكنه لم يتم. وقد طلب أن يترك للجانب المصرى حق تحديد الوقت المناسب لطلب الموافقة الحكومية على تبادل السفراء. بمعنى آخر، تهرّب عضو الوفد المصرى من إعطاء إجابة محددة، لكنه طرح فكرة عدم انتظار تبادل السفراء، وقيام وزارتى الخارجية بين البلدين بالتشاور بخصوص حل مشكلة الشرق الأوسط، وأن يقوم بولياكوف بزيارة القاهرة بهذا الهدف. وقد أجاب نائب وزير خارجية جمهورية مصر العربية على سؤال.. أليس من الأيسر تبادل السفراء وبدء الحوار عن طريقهم؟ بأنه متمسك باختيار التشاور. لم يرضنا ذلك، وطلبت وزارة خارجيتنا وقتًا للتفكير. وقد اهتمت برأيى فى ذلك. وكنت أرى أن يذهب إلى هناك بولياكوف. فأولاً: كنت أرى أن ظهور بولياكوف فى القاهرة، التى كان قد طرده منها السادات، كان سيعنى شيئًا ما لنا وللمصريين أيضًا. وثانيًا: على أية حال.. سواء حضر بولياكوف إلى مصر أم لا، فلن يتم تبادل السفراء بالنسبة للمصريين، قبل اللحظة التى سيعتقدون أنها مناسبة. وثالثًا: سوف يسمح التشاور بمناقشة موضوع السفراء بطريقة أفضل.

وقد أكدت وزارة الخارجية للمصريين فى مارس على قبول دعوتهم. وبدأت فى أبريل المشاورات نفسها. وفى القاهرة قام بولياكوف، بالإضافة إلى لقاءاته مع المسئولين بوزارة الخارجية، بالحوار مع رئيس المكتب السياسى للرئيس "أسامة الباز" - سوف يظهر هذا الاسم كثيرًا فى الكتاب وستتاح لى الفرصة مرة أخرى كى أسرد بالتفصيل عن هذه الشخصية غير العادية، اليد اليمنى لـمبارك فى شئون السياسة الخارجية. وقد أكد الباز أن تبادل السفراء موضوع قد تم حسمه، لكن يجب الانتظار لحين الانتهاء من انتخابات مجلس الشعب فى مصر. فإذا تم ذلك قبل الانتخابات، فسوف تكون هناك ضجة، وسيتم التساؤل هل تدخلت السفارة السوفييتية فى المعركة الانتخابية المقبلة وأمور أخرى؟ وعاد بولياكوف بانطباع بدأ يظهر - من خلاله - الضوء فى نهاية النفق. وبالطبع ارتفعت روحى المعنوية.

وها هى الانتخابات قد جرت فى نهاية شهر مايو فى مصر، وحملت للحزب الحاكم - كما كان متوقعًا - نصرًا حاسمًا، ولم تصدر أية إشارة من القاهرة. فقررت وأنا أنتظر تطور الأحداث أنه قد حان الوقت المناسب لحصولى على إجازة، وإلا فقد لا أتمكن من ذلك فيما بعد. وبالفعل ذهبت مع زوجتى عن طريق التبادل بين وزارات الخارجية إلى رومانيا، وفى ذلك الوقت كانت توجد هذه الصورة من الخدمات لقضاء إجازات من العمل لقيادات وزارات خارجية دول المعسكر الاشتراكى. قضينا إجازتنا بمكان فى الجبال، وقام سفيرنا فى رومانيا "إزم. تياجلنيكوف" بالبحث عنى هاتفيًا فى يوم ٧ من يولية فى كل مكان، وأبلغنى أنه قد نشر فى هذا اليوم، فى كل الجرائد الرسمية السوفييتية، أنه قد تم تعيينى سفيرًا مفوضًا فوق العادة للاتحاد السوفييتى بجمهورية مصر العربية، بقرار من مجلس السوفييت الأعلى. وكان النشر نفسه يعنى أنه تمت الموافقة علىّ، أى أن كل الإجراءات قد تمت، وأنى أستطيع أن أستعد للسفر إلى مصر.

وقد عرفت عند عودتى إلى موسكو أن الأمور تطورت فى غيابى على النحو التالى.. استدعى الباز، فى منتصف شهر يونيه، القائم بالأعمال لدينا وأبلغه باستعداد مصر لتبادل السفراء، وطلب الموافقة الحكومية على قبول "صلاح حسين بسيونى"، وهو رئيس أحد الأقسام بوزارة الخارجية المصرية، وكان قد عمل قبل ذلك سفيرًا لـمصر فى كلٍ من الحبشة والمجر. وبعد ثلاثة أيام، وصل إلى القائم بالأعمال أمر لطلب اعتماد ترشيحى كسفير، ثم بعد أسبوع، قام بزيارة الباز ومعه إخطار بأن موسكو قدمت موافقتها على قبول بسيونى، وسمع الرد بأن مصر موافقة على ترشيحى. عندئذٍ تم الاتفاق على تاريخ إعلان الجانبين، فى الوقت نفسه، فى موسكو والقاهرة، عن هذه التعيينات. وهكذا فى الوقت الذى تنتظر فيه وقوع حدث ما لعدة أشهر أو سنوات، تفاجأ بحلّ كل شىء فى عدة أيام.

الاستعداد للسفر

بدأت المرحلة الأخيرة لاستعداداتى. وكان يوجد نظام جرت تجربته لإعداد السفراء الجدد فى الأقسام المختلفة بوزارة خارجية الاتحاد السوفييتى، وإطلاعهم على مجموعة التعليمات التى يجب أن يعرفها السفير، بصفته رئيسًا لهيئة موجودة خارج البلاد، ورئيسًا للجالية السوفييتية. وكان يتم التعرف على هذه المعلومات فقط بعد صدور قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعى بالاتحاد السوفييتى بالتكليف. ويحدث ذلك عادة عند سفرك لأول مرة كسفير، فيكون هدفك الأول أن تكون ملمًا تمامًا بهذه المعلومات؛ حتى يكون لديك تصور دقيق لحقوقك ومسئولياتك، وبالفعل درست ذلك. كذلك ذهبت إلى "إدارة الكوادر"؛ للاستفسار عن دور كل واحد فى السفارة.. مَن يعمل بوزارة الخارجية؟ ومن بجهة أخرى.. من أين جاء؟ ما هيكل العاملين بالسفارة؟ وإلى أى مدى تم استيفاؤه؟ ما شكل أقرب التغييرات والتنقلات للموظفين؟ وبينما كنت فى إجازة تم تعيين الوزير المفوض فى القاهرة مبعوثًا إلى القاهرة. وقد تم تحديد المستعرب "ميخائيل سيميونوفيتش تسفيجون"، من وزارة الخارجية؛ ليكون نائبًا لى، وكان قد عمل قبل ذلك فى الشرق الأوسط.. استعجلته فى السفر؛ حتى يستطيع أن يلمّ - ولو قليلاً - بالأوضاع هناك، قبل حضورى إلى القاهرة. وقد حدث تغيير آخر لا يقل أهمية عن سابقه، وهو تغيير مستشار شئون السياسة الخارجية. وأظننى أحسنت الاختيار بدعوتى مستشرقًا ماهرًا جدًا لشغل هذا المنصب، هو "ألكسى بوريسوفيتش بودتسيروب". وقد جعلتنى الظروف أعمل معه مرة ثانية فى نيويورك.

تعرفت فى إدارة المالية والعملات الأجنبية على سمات تمويل السفارة. وقد كانت العملة المصرية تستخدم فقط داخل البلد، وغير قابلة للتحويل. وبما أن "الروبل" كان هو، أيضًا، فى وضع مماثل، فقد كانت طريقة التمويل معقّدة لدرجة ما؛ حيث كانت تتم عبر الجنيه الإسترلينى الإنجليزى. وكان علىَّ أن أدرس جيّدًا ما الذى يمكن أن يفعله السفير، وما لا يمكنه كموزع للتمويل؟ وقد تبين لى أن ما

يمكنه فعله قليل جدًا، كما أن الميزانية السنوية للسفارة كانت متواضعة جدًا، وكان، أيضًا، الراتب صغيرًا.

وكان عليَّ أن أمر على إدارات وزارة الخارجية، وكذلك على رئاسات تلك الوزارات والهيئات، التى كانت لها مصالح فى مصر، مثل (وزارة التجارة الخارجية، وزارة الأسطول البحرى، وزارة الطيران المدنى، لجنة الدولة للعلاقات الاقتصادية، كذلك الإدارة الهندسية الرئيسية المسئولة عن توريد السلاح والمعدات الحربية.. وغيرها). وكما هو مفروض زرت مخابراتى (الإدارة العامة الرئيسية للكى. جى. بي.، والإدارة العامة للمخابرات فى أركان حرب الجيش السوفييتى)، وكان أكثر ما يهم هاتين المخابراتين الوجود الأمريكى فى مصر. وقد تحدث معى رئيس قسم العاملين فى الخارج، باللجنة المركزية للحزب الشيوعى بـالاتحاد السوفييتى "ستيبان فاسيليفيتش تشيرفونينكو" - سفيرنا السابق فى (الصين، وتشيكوسلوفاكيا، وفرنسا). وكانت له عقلية متزنة، كما يتمتع بخبرة كبيرة. وقد تعرّفت عليه فى باريس، التى سافرت إليها للقيام باستشارات سياسية مع الجهة الفرنسية المماثلة لإدارة تخطيط السياسة الخارجية؛ لذلك ربما كان الحديث فى مكتبه يتسم بدرجة أقل من الرسمية، عما يكون عليه عندما تكون المقابلة مع أشخاص غرباء عليَّ تمامًا. ولم أحصل من "تشيرفونينكو" فقط على تمنيات جيدة تتعلق بالسفر، لكنى حصلت، أيضًا، على نصائح غالية.

وقد حاولت أثناء زيارتى لرؤساء الوزارات والهيئات أن يكون حديثنا واضحًا قدر الإمكان، لكن غالبًا تناولنا موضوعات عامة، أيضًا، عن مصر وسياستها، ودرجة علاقتها بالاتحاد السوفييتى. وأحسست كيف كان الأثر السلبى المرتبط بالسادات موجودًا متأصلاً فى فكر زملائنا الرؤساء، أو على أية حال عند بعضهم. وكان من الواضح أن هذا الأثر السلبى يتعدى حدود العهد الذى حكم فيه السادات، وأنه كان يصبغ، أيضًا، العهد الذى تبع فترة السادات باللون الأسود، وكذلك المستقبل، وكأن الشعار المرفوع يقول: "لن يكون هناك تعاون جيد، ولا

يجب الأمل فى ذلك". فقد كان المتحدثون معى يعبّرون عن تقييمهم للوضع بهذه الكلمات أو بكلمات تشبهها. وكان هناك انطباع أنه ينظر إلى مصر باعتبارها عدوًا، أكثر منها شريكًا يمكن أو يجب أن يتم العمل معه. وكان ذلك محبطًا لى؛ لأن تصوراتى الخاصة كانت من نوع آخر، فإذا لم ننمِ بصبر استمرارية حجم التعاون، وإذا لم نقم نحن بمبادرات، فلن نحقق أى تقدم إلى الأحسن فى علاقاتنا مع مصر. أما التشدد بسبب الاستياء، فلن يمنحنا أى شىء. وكان الاستنتاج التالى، يظهر على الأرجح أنه سوف تستقبل اقتراحات السفير الخاصة بتنمية العلاقات الاقتصادية والعلاقات الأخرى مع مصر، بتحفّظ أو حتى بأسلوب بارد. فكان علىَّ أن أفهم أنه لن يكون الأمر سهلاً، ليس فقط مع المصريين، لكن، أيضًا، مع السوفييت. وقد كان الموقف مختلفًا تمامًا مع وزير الطاقة "ب. س. تيبوروجنى"، الذى كان محافظًا على رغبته فى الاستمرار فى التعاون مع المصريين فى مشروعات الطاقة، رغم أى شىء.

لم أسعَ إلى لقاء "ك. أ. تشيرنينكو" الذى كان السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعى بـــالاتحاد السوفييتى. وبدلاً من ذلك، قمت بزيارة اللجنة المركزية؛ للجلوس مع مساعده "أ. م. ألكسندروف أجنتوف"، لدراسة موضوعات العلاقات الخارجية. وقد كان الكلام معه فى صلب الموضوعَ مما أعاد الأمل إلىَّ؛ حيث اتفقنا فى الكثير من أرائنا. وقد وعد بأن يهتم بمتابعة الركن المصرى لسياستنا، إذا احتاج الأمر إلى التدخل؛ بحيث يسير الحال. وكنت أحتاج لذلك. وكان "ألكسندروف أجنتوف" يعرفنى جيدًا؛ لأنى اشتركت عدة مرات تحت رئاسته فى إعداد خطب للسيد "أ. بريجنيف" فى البيوت الصيفية "الداتشا"، التابعة للحزب الشيوعى السوفييتى.

وكان الحوار الأخير، قبل سفرى، مع "أ. أ. جروميكو" طويلاً لدرجة ما؛ لأن الوزير أخذ يتذكر زياراته للقاهرة، ولقاءاته مع ناصر فى موسكو. وإذا قمت بتلخيص التعليمات، كما فهمتها منه، فهى كما يلى: تقف العلاقة مع مصر عند

منعطف الطريق على المستوى السياسى. تعد القاهرة نقطة صعبة ومهمة؛ فقد تقاطعت هناك "مصالح" القوى العظمى والدول العربية وإسرائيل؛ لذلك يجب التروى، والتحلى بالصبر، وعدم الاندفاع. فغالبًا لن يمكن تحقيق تقدّم سريع فى العلاقات مع القاهرة. ويجب أن نكون هنا واقعيّين. فإذا كان المصريون قد انتظروا ذلك الوقت كله لتبادل السفراء، فهذا يعنى أنهم لن يكونوا مستعدين للقيام بالخطوة التالية على الفور، لكن يجب أن نذكرهم بالخطوات التى يحقّ أن ننتظرها منهم. فإن تبادل السفراء لا يمثّل بعد التطبيع الكامل، لكنه فقط يمثّل أحد عناصره، رغم أنه أمر مهم؛ إذ من اللازم دراسة مبارك كما يجب، وأن نفهم المنهج الذى يرغب فى تسيير أمور البلد عليه، وأى دور يجب أن نلعبه، إذ، حاليًا، ليست مكانة مصر بين العرب عالية، وكذلك بين الدول الإسلامية الأخرى وحركة "عدم الانحياز". ولا يناسب ذلك غالبًا مبارك. وبالنسبة لنا كلما كانت مصر أكثر استقلالاً، كلما كان ذلك أحسن؛ فقد أمسك بها الأمريكان بقوة. لكن من جهة أخرى.. ليست مصر "زرارًا" تمت خياطته لمعطف يمكن أن تسير به إلى أى مكان تريده. لذلك ليس كل شيء سهلاً بالنسبة للأمريكان فى مصر. ويجب النظر بانتباه إلى ما يفعلونه هناك. ويجب إقامة علاقات جيّدة، خاصة مع قيادة البلد. هذا وأخطرنا بكل ما تتضح أهميته وخطورته. ولا تتسرع فى الوصول إلى استنتاجات، لكن، أيضًا، لا تتأخر فى الوصول إليها، أو فى تقديم الاقتراحات عما يجب عمله بعد ذلك.

وكانت نتيجة هذا الحوار الاتفاق على ثلاث نقاط: وعد "جروميكو" بأنه سوف يستقبل بنفسه السفير المصرى، عند وصوله إلى موسكو، ثم يقوم بمقابلة وزير خارجية مصر فى نيويورك، أثناء الدورة القادمة للجمعية العمومية للأمم المتحدة، ثم وافق على حضورى إلى موسكو فى بداية العام التالى، وكان من المألوف حضور السفير الجديد بعد فترة معينة؛ لتقديم التقارير اللازمة، والحصول على استشارات.

وقد انشغلت بضعة أيام أخرى فى عمل التجهيزات اللازمة، وتسليم المستندات إلى إدارة تخطيط السياسة الخارجية، وعقد لقاءات وداع مع (زملاء العمل، والأصدقاء، والأقارب)، وأنهيت ذلك كله، ثم سافرت مع زوجتى "ناتاليا نيكولاييفنا"، فى يوم ١٨ من سبتمبر إلى القاهرة.

الباب الثانى

الخطوات الأولى والانطباعات الأولى

عادة كانت تستغرق رحلة طائرة "الأيروفلوت" من موسكو إلى القاهرة، فى تلك السنوات، نحو أربع ساعات، لكن فى هذه المرة كان الوضع مختلفًا. فقد تم تحويل طائرتنا إلى مدينة "يريفان"؛ كى تستقلها مجموعة من الأرمن المصريين العائدين، بعد قيامهم برحلة سياحية إلى "أرمينيا". وكانت النتيجة أننا هبطنا فى القاهرة بعد تأخير امتد لثلاث ساعات، ورغم ذلك كان عدد مستقبلينا كبيرًا جدًا. فبالإضافة إلى تقديم الزهور، ومظاهر الاستقبال والترحيب، وتحيات عشرات من الأيدى، كان ينتظرنا فى القاعة التى أخذونا إليها محررو الصحف المصرية، ومراسلو التليفزيون المصرى. وكان علىَّ أن أدلى بحديث صحفى على الفور. بصراحة لم أتوقع أن يكون استقبالنا من قِبل وسائل الإعلام بهذه الدرجة من الحرارة. وقد شعرت، هناك فى المطار، بأن عودة سفير الاتحاد السوفييتى إلى القاهرة تمثّل بالنسبة للمصريين، كما يقولون الآن، حدثًا مميزًا، وبالطبع أسعدنى ذلك.

استغرق الطريق من المطار إلى محل سكنى نحو أربعين دقيقة. وقد كنت جالسًا فى سيارة السفارة "المرسيدس" السوداء، التى قطعتُ بها فى "مصر"، فيما بعد، عدة آلاف من الكيلومترات، وأخذت أنظرُ بشغَف إلى القاهرة فى المساء، وجذبت عينى مناظر المدينة التى كانت تظهر عندما كنا نندفع فى الطرق، وكذلك المنازل وزحام الناس، وعندما توجهنا إلى وسط المدينة، كان يأخذنى منظر القاهرة بشوارعها المكتظة بالناس والسيارات وعربات "الكارو"، التى لا تزال فى الخدمة، رغم أنه كان يبدو أنّ على المدينة أنْ تنام فى تلك الساعة المتأخرة. لكن على عكس ذلك كانت المدينة تنبض بالحياة، كما لو كان المساء هو أنسب الأوقات كى

تتم عمليات البيع والشراء على الرصيف مباشرة، والدردشة والتجول لمشاهدة ما على الجانبين، دون أية عجلة للعودة إلى المنزل، كما تعودنا أن نفعل عندنا بعد العمل.

محل الإقامة والسفارة

أصبح الجسران الموجودان على فرعى النيل وراءنا، فانحرفنا إلى اليسار ودخلنا على الفور عبر البوابة. وتوقفت السيارة عند السلم المصنوع من الرخام الأبيض، الموصل إلى قصر أحمر على أبيض، مليء بتشكيلات من فوانيس الإنارة المعلقة، وفى جانبه الشرقى شرفات كبيرة وأخرى صغيرة كثيرة ونوافذ مزخرفة. قال لى تسفيجونو، وهو يدعونى بحركة يده كى أتبعه: "هذا محل إقامتك". استقبلونا وسلموا علينا، ولم أكن أعرف تمامًا مَنْ هم. صعدنا سلمًا، ودخلنا عبر بهْو صغير، فوجدنا أنفسنا فى قاعة واسعة مضيئة، ترتفع جدرانها إلى سقف تتدلى منه ثريا ضخمة. وتحت أقدامنا رخام أبيض لامع، وعلى طول الجدران أرائك ومقاعد من النوع المستخدم فى القصور. وقد تبين لى، فيما بعد، أن أغنياء المصريين كانوا يحبون امتلاكها؛ لأن محل الإقامة هذا كان ملكًا لأحد رجال البلاط الملكى قبل الثورة. وكانت هناك الكثير من الأبواب تفتح على القاعة. وشرحوا لنا أن هناك مجموعة من الحجرات المتتالية حول القاعة، يطلق عليها اسم "الحجرات الرسمية" بلغة السفارات؛ حيث لا يقيم فيها أحد، لكنها مجهّزة لاستقبال الضيوف فقط. وكان علينا أن نقيم فى الجناح التالى؛ حيث كانت توجد شقة السفير وحجرات الضيوف. وكان يوجد سلم متفرع عند منتصفه من الرخام الأبيض، يوصّل من القاعة إلى هذا الجناح، تاركًا على الحائط الخلفى للمنزل مكانًا كافيًا لزجاج ملوّن يصل ارتفاعه إلى عدة أمتار. وقد كان من طراز "أرت ديكو" المميز والمناسب لبداية القرن العشرين، تلك الفترة التى عاصرت بناء ذلك القصر.

تركت، أيضًا، الشقة التى أسرعنا بالصعود إليها انطباعا؛ ليس بسبب فخامتها (فقد كانت متواضعة تمامًا، إذا لم نأخذ فى الاعتبار وجود "بيانو" بها) بل بسبب عدد حجراتها، فنحن لم نعشْ، حتى ذلك الحين، فى مثل هذه الأبهة، كما لم يحدث ذلك، أيضًا، فيما بعد، لكن من المعروف "أن الإنسان يتعود على ما هو حسن بسرعة".

وكنا قد تعبنا فى ذلك المساء من عناء السفر، فلم نواصل مشاهدة بقية جنبات المنزل. أخرجنا أمتعتنا وتعشينا، ثم خلدنا للنوم. وكنا مصيبين فى ذلك؛ لأننا استيقظنا قبل الفجر على صوت المؤذِّن العالى الممتد، الذى كان يدعو المؤمنين لأداء صلاتهم الأولى فى هذا اليوم. لقد انتفضنا، أنا وزوجتى، من المفاجأة، رغم أننا كنا قد قرأنا عن ذلك، واستمعنا إلى مثل هذا الأذان فى الأفلام. وتبين أنه لا توجد أية مساجد بالقرب منا، لكن تم وضع مكبر صوت قوى على جدار أحد المنازل فى شارع جانبى أمام محل إقامتنا. وكان يتم كل يوم خمس مرات؛ لإعلام كل مَنْ حولنا بأنه لا يوجد فى الكون إله غير الله، وأن محمّدًا رسول الله. وبعد وقت قليل، تعودت أنا و"تاتاشا" زوجتى على هذه الكلمات الغريبة على الأذُن الروسية، وعلى هذه الطقوس، كما يتعود مَنْ يعيش بالقرب من خط السكة الحديدية على صوت القطارات، عند مرورها كل حين، الأمر الذى لا يجعلهم يتأذون من ضجيج القطارات وصفيرها فى المساء أو عند النوم، لكن فى البداية أثر علينا ذلك كثيرًا.

لم نستطع بعد ذلك أنْ ننام فى الليلة الأولى، فانتظرنا حتى بزغ الضوء بشكل كافٍ، وذهبنا لرؤية المنزل وما يحيط به. فوجدنا فى الطابق الأول غرفة مكتب على الطراز الإنجليزى، مغطاة بالخشب، وبها مكتب ضخم من الخشب المشغول، مماثل للمقاعد، كما لفتت أنظارنا كعوب جميلة لصفوف من الكتب، لكن ليس للكتب، إذ يختبئ مدخل آخر للغرفة. لكن كان من الواضح أن هذه الغرفة لا تستخدم للهدف الذى خُصّصتْ له؛ لأنه كانت توجد غرفة مكتب أخرى فى المنزل

للعمل، ولم تكن هناك حاجة للنزول إلى أسفل من أجل التعامل مع الأوراق. وبقى عندنا انطباع جميل عن وفرة "اللّوَحات" فى باقى الحجرات الرسمية. وكانت فى الغالب تمثّل مناظر طبيعية فى الشتاء. وقد اقتنعنا، بعد ذلك، أنها مناسبة تمامًا لهذا المكان. ففى المناخ الحار المصرى، كان لمجرد رؤية أماكن مغطاة بالثلج تأثير مرطب، كما توجد كذلك أشياء جذّابة لفتت أنظارنا مثل (ثرايا جميلة من "الكريستال"، وسجاد، و"بيانو"، وأثاث يلائم القصور). وكان ذلك كله على مستوى عالٍ، ولم تخفَ عن عين زوجتى الفاحصة بعض التلفيات، وبعد مرور سنة تمكنا من ترميمها كاملة كما يجب. وكانت تتصل بمجموعة من ثلاث قاعات استقبال جانبية، وغرفة طعام كبيرة بها مائدة طويلة متّسعة، يمكن أن يجلس إليها بسهولة نحو ثلاثين شخصًا. وباختصار يمكن القول إنه لو كان لدى السفارة نقود، فإن أماكن الترفيه أكثر من كافية.

وكانت تحيط بالقصر حديقة ورقاء، ويوصّل إليها درج آخر واسع من الرخام، ممتد من القاعة الرئيسية. ومن المفهوم أنه لم يكن من الممكن أن تكون الحديقة كبيرة جدًا فى ظروف وجودها فى المدينة، لكنها كانت مخططة جيّدًا ومعتنى بها، على يد بستانى مصرى، وهذا ما بدا لى فيما بعد، وكانت تنمو فيها أشجار نخيل مختلفة الأنواع، وكذلك أشجار ونباتات أخرى غير معروفة لدينا. كما كانت توجد بها مساحة كبيرة مغطّاة بنجيل جميل. وكانت توجد بها تشكيلات من الورد البلدى. وبصفة عامة، كانت الزهور مرصوصة بذوق فى أحواض متساوية الأضلاع. وأسعدنى وفرة الورود ولون النجيل الأخضر الفاتح. فقد كانت تمنح راحة إضافية، ومهابة للقصر نفسه. لقد سافرت كثيرًا حول العالَم، وشاهدت الكثير من محال إقامة سفرائنا، لكن كان يمكن مقارنة القليل منها فقط بهذا المكان، الذى كان علىَّ، أنا و"تاتاليا"، أن نعمل ونعيش به، حتى من حيث شكله الخارجى. ما أحب التأكيد عليه أن حديثى بالتفصيل عن محل الإقامة ليس من باب التفاخر؛ لكن لأن كل مباحثاتى مع سفراء الدول الأخرى والمصريين تمت به، بالإضافة إلى

أننى قابلت الرئيس "مبارك" هنا، ذات مرة، مع وفود كانت تزور "القاهرة". كما أدليت هنا بالأحاديث الصحفية. ويزيد على ذلك، أنه كانت تُقام هنا، فى الحديقة حيث الهواء الطلق، أهم حفلات الاستقبال، بمناسبة عيد ٧ نوفمبر، وبمناسبة الاحتفال بمرور أربعين عامًا على الانتصار فى الحرب الوطنية الكبرى مثلا.

وخلاف سكن السفير، الذى اقتنعت بأنه كان مناسبًا لمتطلبات المناخ، فإن مبنى السفارة لم يكن مميزًا، مع أنه كان موجودًا فى نفس مكان محل الإقامة، لكن تم بناؤه بسرعة فى عهد ناصر، طبقًا لتصميم سوفييتى، وكان مصممه هو "بوليانسكي"، كبير المهندسين المعماريين بموسكو. وكان ما يجذب النظر فى مبنى السفارة محددًا فقط فى الشكل الجميل لواجهاته. لكنه لم يكن مناسبًا توظيفيًا، فقد كان العمل فيه صعبًا؛ إذ كانت كل نوافذ مكاتب العمل موجّهة للجانب المشمس، ولعله لسبب ما، بينما كانت تطل الممرات على الجانب الآخر. لذلك فقد كان الجو، فى المكاتب، معظم العام، حارًا وخانقًا بشكل لا يُطاق. كما أدى لذلك، أيضًا، عدم مناسبة مواد البناء المستخدمة. فقد شُيِّد المبنى بالكامل من الخرسانة والزجاج، كما لم يكن يوجد نظام للتكييف المركزى.

وكانت واجهات السفارة، ومحل الإقامة، تطل على جهات متعاكسة. فالأولى كانت تطل على شارع "الدقّى"، أما الثانية فعلى كورنيش النيل. وقد كانا يحتلان، مع الحديقة، مساحة ثلثى مربع المبانى تقريبًا. أما الثلث الأخير فقد شُيِّد عليه فندق "شيراتون". وكان يوجد بجانبها وجانب حديقتنا منزل متعدد الطوابق، غير ظاهر، يستخدمه، كما يعتقد البعض، رجال المخابرات المصرية. وكانت مساحة حديقتنا محاطة من ثلاثة جوانب بسور معدنى، أما من ناحية الفندق، والجيران الآخرين، فبجدار حجرى عالٍ. وكانت توجد حولها من الخارج عدة أكشاك، يتناوب فيها الحراسة جنود آناء الليل وأطراف النهار.

ولم يكن شارع "الدقى" جذّابًا بمعماره فى تلك السنوات، فقد كانت المبانى مختلفة الارتفاعات، قليلة الطوابق. لكن فى عمق المبانى، والاتجاه الأقرب

للكورنيش، كان يوجد الكثير من القصور الفاخرة. وكان يعد هذا الحى أرستقراطيًا. ولم يكن من المصادفة أن اشترى السادات، عندما أصبح رئيسًا للجمهورية، فى هذا الحى بالذات منزلاً. وقد بقى هذا المنزل فى حيازة زوجة الرئيس بعد موته. وبقيت هناك أكشاك الحراسة، ومطار لهبوط المروحيات، وميناء خاص، على الكورنيش، تذكّرك بمالك المنزل السابق.

وأنا أتحدث عن السفارة اندفعت بعض الشيء إلى الأمام، لكن فى صباح يوم لا يُنسَى، صافٍ من السُّحب تمامًا، يتمتع بسماء زرقاء ذات شكل مدهش، وشمس ساطعة فوق النيل، فرضت لونها الفضى اللامع على صفحة الماء المترامية، كانت نفسى راضية جدًا عن كل ما رأيته، منتظرًا "تسفيجون"؛ كى نذهب معًا إلى العمل، فلم يكن يوجد أحد، تقريبًا، فى السفارة يعرف شكلى، وأولهم قادة الحراسة على المبنى، كما لم أكن أتصور، بعدُ، شكلَ توزيع الحجرات داخله.

وطبقًا للنظام المتبع منذ زمن بعيد، فإن يوم عمل دبلوماسيى سفارتنا كان يبدأ بما يسمى بالقراءة. فقد كان يتجمع الدبلوماسيون فى غرفة السفير، وكان هناك بعض الدبلوماسيين، الذين يطلعون مسبقًا على ما نشر بالصحف المصرية الصباحية، ويقدّمون تقريرًا عن المعلومات التى تستحق الاهتمام، المتعلقة بالموقف فى البلد خاصة، والعالم عامة. وكان يتم تغيير المتحدثين؛ بحيث يكون حمل الحضور المبكر إلى العمل موزعًا، تقريبًا، بالتساوى على الجميع. ولو لم تكن تُعقَد مثل هذه الجلسات، لكنت اضطررت لعقدها؛ لأكون على علم كافٍ بآخر الأحداث وأهم الأنباء، وكيف تناقلتها وسائل الإعلام العربية، والصحافة المصرية. وقد كانت جريدة "مايو" الجريدة الرسمية للحزب "الوطنى الديموقراطى" الحاكم، بينما كانت "الأهالى" خاصة بالحزب المعارض "التجمع التقدمى"، أما صحيفة "الشعب" فكانت تخص حزب "العمل"، وجريدة "الوفد" لحزب "الوفد"، وجريدة "الأحرار" لحزب "الأحرار الاشتراكى"، أما جريدة "الأمة" فكانت تحمل اسم الحزب اليمينى "الأمة"، وغيرها الكثير. أما الجرائد القومية العامة فكانت متمثلة فى (الأخبار، والجمهورية،

والأهرام). وكانت الجريدة الأخيرة هى الأقدم بينها؛ حيث تأسست فى العام ١٨٧٥، وأصبحت، تقليديًا، تمثّل لمصر نفس ما تمثّله جريدة "التايمز" بالنسبة لإنجلترا. ولم يكن من السهل على دبلوماسى واحد فقط أن يقوم، بمفرده، يوميًا، وبسرعة، بتصفح كل هذه الكمية الضخمة من الصفحات؛ لكى يتابع ما يظهر فى الصحافة المصرية فى مجاله المحدد؛ لذلك كانت جلسات القراءة تمثّل، من هذا المنطلق، مساعدة جماعية للكل عامة، ولكل فرد خاصة. وكان ذلك يساعدنى بصفة خاصة؛ لأنى لم أكن أعرف اللغة العربية، وكان من الواضح أنه لم يكن يكفى أن أعتمد، فقط، على الجرائد التى تصدر فى مصر باللغة الإنجليزية، مثل: "إجيبشن جازيت"، أو الأخرى الناطقة بالفرنسية، مثل: "بروجريه إجيبسيان"، و"جورنال ديجيبت".

وكانت تنتظرنى مفاجأة سارة فى جلسة القراءة فى هذا اليوم، فقد كانت كافة الصحف المهمة قد نشرت فى أعمدتها الأولى أخبارًا عن وصول السفير السوفييتى إلى مصر، وأرفقت بها الصور التى تم التقاطها فى المطار. ودل ذلك على الأقل أن السلطات المصرية التى كانت تملك الوسائل الكافية للتأثير على الصحافة، لم تلجأ لتفعيلها؛ لكى لا تظهر فيها أية سطور عن خبر وصولى إلى القاهرة. ولم يكن من الممكن أن يحدث ذلك عفويًا، أو نتيجة غفلة. فقد كانت مسألة تبادل السفراء مع موسكو موضوعًا دار حوله الكثير من صور الجدل والمناقشة، ليس داخل مصر وحدها، لكن، أيضًا، بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية. ولم تكن الأخبار المنشورة فى الصحف مصحوبة بأية تعليقات، غير أنها كانت كلها مكتفية بالجانب الإيجابي. وسوف أقدّم، على سبيل المثال المعبّر عن ذلك، الخبر الذى نُشر فى جريدة "الأهرام". فقد جاء به.. (وصل مساء أمس إلى القاهرة السفير الجديد للاتحاد السوفييتى "ألكسندر بيلانوجوف". وفور وصوله إلى مطار القاهرة، أعلن السفير أن تاريخ العلاقات السوفييتية المصرية يضم الكثير من الصفحات الخالدة. وقال السيد. بيلانوجوف: "إنه شرف لى أن أعمل سفيرًا لوطنى فى بلد معروفة

للعالم كله بحضارتها القديمة، وسوف أجتهد لعمل إضافة ملحوظة لموضوع تنمية علاقات الصداقة بين "مصر" و"اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية"). ولا يزال الكلام للخبر المنشور نفسه. (وقد استقبل السفير فى المطار مستشار إدارة البروتوكول بوزارة خارجية جمهورية مصر العربية "عبد المنعم السعودى"، وسفير الحبشة فى القاهرة، والعديد من سفراء الدول الاشتراكية). كما نُشرت بالجريدة صورة لى، أنا و"ناتاشا"، وهى تحمل "بوكيه" ورد كبير. وقد علمت فى جلسة القراءة، أنه قد تم عرض موضوع عن استقبالى فى المطار، وعن ردودى على الصحفيين، بنشرات الأخبار التليفزيونية. وقد تصورت أن ذلك كله يمثّل مؤشرًا جيّدًا.

ولقد خصصت الجزء الأكبر من يومى الأول لبحث مناقشات مع (رؤساء أقسام السفارة، والقسم القنصلى، والممثلية التجارية، والمستشار المالى، ورؤساء الهيئات السوفييتية الأخرى فى "مصر"). وكانت توجد عند كلٍ منهم موضوعات تحتاج لقراراتى كسفير. وقد اتخذت بعض القرارات على الفور. لكن لو كانت هناك إمكانية لإعادة الزمن قليلاً، كنت سأفضّل التصرف بصورة أشد حرصًا؛ حتى لا أكسر الحطب عن جهل. وتحدثت، أيضًا، مع "سكرتير" لجنة الحزب بالبعثة، مستشار السفير "أ. ف. فيسيلوف"، حيث كنت أرغب فى معرفة رأيه فى الوضع المستتبّ بين المجموعات، والحالة النفسية للأفراد، والمشكلات التى تؤرقهم. وقد اضطُررت أن استمر فى ذلك لوقتٍ متأخر.

وكان نظامُ العمل فى السفارة يراعِى خصائصِ المناخ المحلى. فكانت تمنح فترة راحة طويلة فى منتصف اليوم. لكن كان العمل أكثر. وقد تمت مراعاة سمة البلد الإسلامية، فتم تغيير أيام الإجازات الأسبوعية لتكون يومى "الجمعة" و"السبت".

أول زيارة لوزارة الخارجية

بدأتُ الاتصالات مع وزارة الخارجية، كما هو مفروض، بزيارة "محسن ديواني" مدير إدارة "البروتوكول". وقد قمت بها في أول يوم عمل. وأدار السفير ديواني، الذى كان متقدمًا فى العمر، وبدأ يكسو الشيب شعره، الحديث بنبرة وضح فيها حسن النوايا، كما أنه وعد بأن تقوم إدارته بكل ما هو ممكن، وتذكّر سنوات عمله فى "موسكو". وأهم ما قاله كان عن استقبال وزير خارجية "مصر" على الفور فى الغد؛ حيث يجب أن أسلمه نسخة من أوراق اعتمادى، وهى خطوة أخرى ضرورية فى سبيل اعتمادى كسفير، وقد أسعدنى هذا التطور السريع فى الأحداث، وأنه سوف يكون هناك لقاء مع الوزير. وبالنسبة لذلك، كما هو مناسب، فقد تمت المعاملة بالمثل، فقد كان جروميكو قد استقبل سفير مصر "بسيونى"، الذى كان قد وصل قبل أسبوع، وقد كان ذلك منطقيًا؛ لأنه لم يكن هناك سفير لمصر فى موسكو منذ سبع سنوات، أما السفير السوفييتى فقد غاب عن القاهرة لثلاث سنوات.

ولم تكن وزارة الخارجية، فى تلك الأيام، فى مكانها الحالى، أى لم تكن فى الضفة الشرقية المقابلة للنيل، لكنها كانت مركزة فى مبنيين، تفصل بينهما عدة كيلومترات. وكانت مكاتب الرئاسات العليا (الوزير، ووزير الدولة، والنائب الأول للوزير)، فى مبنى كبير قديم، تم تشييده على طراز القصور، يطل بزاوية على الميدان الرئيسى بوسط القاهرة، المعروف باسم "التحرير". وكان يستغرق الوصول من السفارة إلى ميدان التحرير عشر دقائق فقط، فكان يجب فقط عبور كوبريين وجزيرة "الجزيرة"، التى تفصل النيل هنا إلى فرعين. لكن لم تكن تسمح حركة المرور فى القاهرة، لشدة الزحام، بالتقدير المسبق للوقت الفعلى الذى ستستغرقه هذه الرحلة، فقد يصل إلى عشرين أو ثلاثين دقيقة. لذلك عندما كانت توجّه دعوات لمقابلة رئاسات وزارة الخارجية، كان السفراء يفضلون عمل حساب لذلك. وقد سرت أنا، أيضًا، على هذه القاعدة. أما الجزء الآخر من الوزارة، الذى كان يضم نواب الوزير ومختلف الإدارات، فكان يقع على نفس ضفة النيل الذى به محل

إقامتنا، على بعد كيلومتر واحد منه تقريبًا. وكان الوصول إليه أيسر، لكن كان غالبًا ما يتجه مساري وطريقي إلى التحرير.

وكان سفراء كافة الدول يتحركون، في القاهرة فقط، في سيارات تحمل علم دولهم. وأعتقد أن تلك العادة ظهرت جزئيًا؛ بسبب فوضى حركة المرور في شوارع المدينة، التي تسير فيها، في وقت واحد، السيارات الملاكي من جميع الأنواع، وأتوبيسات النقل العام، وآلاف من الحمير التي تجرّ عربات "الكارو"، التي سبق ذكرها، والمشاة الذين يعبرون الطريق أينما أرادوا. وكانت السيارة التي تحمل علمًا تحظى بالاحترام، وكان الجميع يحاولون عدم مضايقتها، وإن شئت قل تجنبها. وبما أني استرسلت في الحديث عن السيارات، فإني أضيف هنا أنه قد بقيت علامة من عهد "ناصر" لم يتم مسها تعبِّر عن احترام سفارتنا، التي ببساطة لم يلاحظها "السادات"، وهي أنه كان يوضع رقم خاص بكل سفارة، على يسار لوحة أرقام السيارات؛ وذلك ليكون من الأسهل على رجال الشرطة والقوات الخاصة الأخرى تحديد السفارة التي تنتمي إليها السيارة. وفي ذلك الوقت حصلت السفارة السوفييتية على رقم واحد. وقد بقي هذا الرقم خاصًا بها. وكانت سيارتي "المرسيدس" من الفئة المتوسطة، لكنها كانت مريحة وقوية. وهي قد أثبتت ذلك في أثناء التحركات اليومية العملية، ثم بعد ذلك في الرحلات الطويلة. وقد قادها، دائمًا، في أثناء عملي بالقاهرة، "يوري بيتروفيتش شوموف"، الذي كان ذكيًا ومنظّمًا جدًا، وبالطبع سائقًا لديه خبرة كبيرة.

وكانت أول زياراتي للمبنى القائم في ميدان التحرير في يوم ٢٠ من سبتمبر، حيث كان قد تم تعيين وزير الخارجية "أحمد عصمت عبد المجيد" في منصبه منذ شهرين فقط، لكن كانت خبرته الدبلوماسية كبيرة، فقد دخل إلى السلك الدبلوماسي منذ العام ١٩٥٠، وقبل أن يصبح وزيرًا مثّل بلدَه في هيئة الأمم المتحدة لمدة أحد عشر عاما، وكان، أيضًا، قبل ذلك سفيرًا لمصر بباريس. وعندما دخلتُ إلى مكتبه نهض من خلف المكتب لاستقبالي رجل في الستين من عمره،

شاب شعرُه تمامًا، لكنه كان قوى البنية، رائع المظهر، ذا وجه نابهٍ ينمّ عن الذكاء، وفوق ذلك يتمتع بتلك اللباقة الطبيعية فى المعاملة، التى تظهر عادة مع مرور السنوات فى الأشخاص المهذبين، الذين رأوا الكثير، وتمكنوا من السيطرة تمامًا، ليس فقط على نبرتهم الحسنة، لكنهم، أيضًا، مشبعين تمامًا بمفهوم وجوب احترام الآخرين. ويجب أن أقول، بكل أمانة، إن إظهار الفرح، وحسن الاستقبال للضيوف، سمة قومية عامة عند المصريين. وقد اقتنعت تمامًا بهذا الأمر؛ نظرًا لمئات الأمثلة على ذلك. لكن يوجد وجه آخر لهذه العملة، وهو موجود عند البعض ممن لا ينتمون إلى الدبلوماسيين المصريين، الذين لا يشعرون بالمسئولية، إلا قليلا، أو حتّى ممن ينتمون إليهم، فهُم فى سعيهم لإدخال السرور على الضيف؛ يمكن أن يقولوا لضيفهم فقط ما يعتقدون، طبقًا لفهمهم، أنه سوف يعجبه، ويفعلون ذلك بمصداقية تامة وبدوافع حسنة، وهم بذلك يتجنبون الجزء الآخر من الحقيقة. وقد نبع من ذلك التصور السائد أن المصريين شعب طيّب ولطيف، لكنه للأسف، فى الوقت نفسه، لا يتحمل مسئولياته تمامًا؛ فهم يطمئنونك، ويعدونك، لكنهم كثيرًا ما ينسَون وعودَهم.

وأنبه إلى أن ما ذكرته جاء عابرًا، وهو لا يتعلق أبدًا بعبد المجيد؛ فقد كان رجلاً دقيقًا تمامًا، يزن كل كلمة قبل أن يقولها، ويعرف قيمتها. ولقد فهمت ذلك تمامًا أثناء عشرات اللقاءات التى تلت اللقاء الأول.

وأتذكّر أنّ أول لقاء معه كان كما يلي.. عند دخولى مكتب الوزير، كان يوجد به عدة أشخاص. كانوا يعملون مصورين صحفيين، وقد انصرفوا على الفور بعد أن صوروا تصافحى باليد مع الوزير، وقمت بتقديم ملف به صورة أوراق اعتمادى. وقد بقى شخص واحد مصرى قصير القامة، نحيف، متوسط العمر، قدمه لى الوزير بصفته مدير إدارة دول أوروبا الشرقية بوزارة الخارجية د. "قنديل".

وبدأ عبد المجيد حديثه معبّرًا عن مدى رضا حكومة مصر، ورضاه هو شخصيًا، عن التبادل الحالى للسفراء، كما قال: "إن الطريق إلى ذلك كان أطول من

المفترض، لكن تم اجتيازه، وهذا شيء حسن". وقد أشار الوزير إلى "قنديل"، قائلاً: "إن عمل إدارته سوف يزيد الآن، لكن الجانب المصرى مستعد لذلك تمامًا. وإن تبادل السفراء يمثّل بداية جيدة لمرحلة جديدة". وقد أجبته بأنهم فى موسكو، أيضًا، راضون عن انتهاء هذه الفترة الصعبة فى العلاقات مع مصر، وأنهم يعدون تبادل السفراء خطوة أولى مهمة جدًا نحو تطبيع العلاقات السوفييتية المصرية. ويجب أن تتبع الخطوة الأولى خطوات جديدة، وكلما كانت أسرع كان أحسن. ونحن من جانبنا مستعدون لها. وهنا أوقفنى عبد المجيد بإشارة، ويبدو أنه لم يكن يرغب فى أن أنتقل إلى تحديدها، حيث قال: "أنا مدرك للخطوات التى تقصدونها، لكن لكل شيء وقته"، ثم بدأ يتحدث عن أنه قد تمت فى الماضى، خلال علاقاتنا السابقة، الكثير من الإنجازات الكبيرة التى يتذكرها المصريون ويقدرونها. لكن يجب ألا نلمسها الآن، وأن نتركها جانبًا، وأن ندير وجهنا نحو المستقبل.

ولقد أيدت الوزير فيما يخص المستقبل، فقلت: "إنى أنظر إليه متفائلاً، واثقًا من أن مصالح اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية ومصر موضوعية، وأن الكثير منها متماثل؛ لذلك يوجد أساس جيّد لدفعها إلى الأمام. ومع ذلك كنت أتمنى ألا يعوق هذه الحركة أى شيء". وبعد أن كرّر "عبد المجيد" أنه يفهمنى تمامًا، انتقل إلى أنه سوف يسافر قريبًا إلى نيويورك، وإلى أنه يأمل فى أن يتناقش هناك مع جروميكو، وأنه لم تقم أية اتصالات بين وزيرى البلدين منذ عدة سنوات. والآن وبعد تبادل السفراء، فالوقت مناسب تمامًا لتجديد هذه الاتصالات. وقد أجبته بأن جروميكو، أيضًا، يرى أنه حان الوقت لعقد هذا اللقاء، وأنه مستعد له. شكرنى عبد المجيد على الأنباء السارة، وأكد أنه سوف يكون مسرورًا بتسهيل أدائى لواجباتى كسفير بكافة الطرق المعنية المتاحة، وأنه قد أمر قنديل، وباقى رؤساء إدارات الوزارة بذلك. وقد أبقى عبد المجيد أهم الأمور لآخر لحظة، فقد قال لى وهو يودعنى متمنيًا لى تمام النجاح، إنى يمكن أن أقدّم أوراق اعتمادى للرئيس مبارك

بعد ثلاثة أيام، وأنه سوف يتم إبلاغى بكافة التفاصيل المتعلقة بذلك عن طريق إدارة البروتوكول.

وكان الصحفيون فى انتظارى عند بوابة وزارة الخارجية، وكانوا مهتمين بكيفية سير لقائى مع الوزير، وانطباعاتى عنه، وما تبع ذلك من موضوعات قد طرحت، وقد أجبت على كل أسئلتهم بصبر، محاولاً أن تكون نبرتى، التى ستحملها التقارير الصحفية، ذات طابع إيجابى واضح. وكنت أرى أن ظهور مثل هذه المعلومات فى الصحافة المصرية مهم جدًا، حتى يفهم القراء المصريون أن الموقف والعلاقات بين اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية ومصر قد تغير تمامًا، وأنه لم يعد هناك حظر على الاتصالات بين ممثلى بلدَيْنا. وأنه ليس هناك داعٍ لتجنب السوفييت خوفًا من ملاحقة السلطة؛ بسبب إتمام أى اتصال بهم غير مسموح به. ويجب أن أقول إن الدعاية المعادية الموجّهة ضد الاتحاد السوفييتى بحجم كبير لعدة سنوات فى مصر لم تَبقَ بلا آثار، فقد ظهرت حالة غير صحية أحاطت بالهيئات السوفييتية بمصر، وخاصة بالسفارة، حيث كان يتم تجنب رجالنا، وكان يجب التخلص بسرعة من هذا الفراغ الاصطناعى، وقد اجتهدت فى عمل ذلك من خلال الصحافة المصرية نفسها.

وقد سعدت بعد قراءتى فى الصحف المصرية، فى اليوم التالى، لمقالات عن هذا الحدث. فعلى سبيل المثال، كتبت جريدة "الأهرام"، التى تحظى باحترام بالغ وعدد كبير من القرّاء: "استقبل وزير الخارجية أ. عصمت عبد المجيد السفير السوفييتى الجديد فى القاهرة أ. بيلونوجوف، الذى سلمه نسخة من أوراق اعتماده. وقد أعلن السفير للصحفيين، أن العلاقات السوفييتية المصرية سوف تتطور أكثر فى المستقبل. وقد ذكر سيادته أنه سيسعد بلقاء الرئيس مبارك؛ لكى يقدّم له أوراق اعتماد سفير موسكو فى مصر. وقد وصف السفير حواره مع وزير الخارجية بأنه بنّاء، وأنه حوار أصدقاء، موضحًا أن هذا كان أول لقاء له مع الوزير، وأن هذا اللقاء قد ترك عنده انطباعًا جيدًا جدًا. كما أنه عبر عن أمله فى أن تتمتع العلاقات

السوفييتية المصرية، فى خلال فترة وجوده هنا، بالصراحة والتفاهم المتبادل. وقد أشار إلى أنّ لهذه العلاقات تاريخًا طويلاً". وقد صاحب النص عدة صور تبيّن شد كل منا، أنا و"عبد المجيد"، على يد الآخر. ألا يمثّل هذا المقال إشارة للشعب المصري؟ عمومًا فهمت من خلاله أن الأمور تسير كما ينبغي، فبدأت فى الاستعداد تمامًا، وتهيئة أوراقى للمقابلة مع "مبارك".

الاستعداد للمقابلة مع مبارك

كان بولياكوف قد نبهنى مسبقًا أنه لو ظهرت أية عقبة متعلقة بتسليم أوراق الاعتماد، فيجب أن أتعامل مع ذلك بهدوء؛ لأنه يمكن أن يطول الانتظار لشهر أو اثنين، إلى أن تتجمع مجموعة من خمسة أو ستة أو حتى عدد أكثر من السفراء الجدد. عندئذٍ يخصص فى برنامج الرئيس نصف يوم لاستقبال السفراء الجدد، يستقبل فيه كل سفير على حدة، طبقًا لترتيب تواريخ وصولهم إلى القاهرة. لذلك لا ينبغى فهْم التأخير الممكن على أنه يعنى شيئًا. كما أنه نصحنى بأن أراعى تمامًا قواعد البروتوكول المصرى، خاصة عندما يكون الأمر متعلقًا بالرئيس، وإلا فقد يلحق الضرر ليس بشخصى فقط، لكن، أيضًا، بالعمل الذى أصبحت منوطًا به.

ولكى يقنعنى؛ حكى لى عما حدث مع السفير الذى سبقه "ف. م. فينوجرادوف". وبعد عدة سنوات، قرأت عن ذلك فى مذكرات "فينوجرادوف" نفسه. وللدقة سوف أعتمد على كلماته هو نفسه، رغم أنه لم يرَ أية شائبة فى تصرفاته، طبقًا لقواعد البروتوكول الدبلوماسى غير المكتوب، كما يقول فينوجرادوف: "إنه كلما أسرع السفير الجديد، بعد وصوله، بتقديم أوراق اعتماده، كان ذلك إشارة للجميع، بأن العلاقة من جانب السفير على أحسن ما يكون". وصل فينوجرادوف إلى القاهرة بعد أسبوعين تقريبًا، من جنازة ناصر. واعتقد فينوجرادوف أن السادات من جانبه يماطل فى اعتماد الأوراق، فبدأ يضغط، رغم أن كلاً من نائب الرئيس ووزير الخارجية حاولا إقناعه بألا يعطى ذلك أهمية، كما يقول هو نفسه،

وقالا له ناصحَين: "أن يتعامل تمامًا كسفير مفوّض فوق العادة". لكن لم يأخذ السفير بالنصائح. ورغبة منه فى وضع الأمور فى مكانها، أعلن لنائب الرئيس أنه لا يستطيع البدء فى العمل فى مسئولياته، طالما لم يتم استلام أوراق الاعتماد منه. وكانت النتيجة أن "فينوجرادوف" قد ضغط بذلك للإسراع بهذه العملية، وبعد يوم واحد، كما كتب، أكد الرئيس أنه على استعداد لاستلام أوراق اعتماده.

لكن لم يكفِ ذلك لإرضاء سفيرنا.. ففى ذلك الوقت، كانت مراسم تقديم أوراق الاعتماد بسيطة، حتى أنه لم يكن من المتّبع فيها تبادل الخطب التقليدية، كما يتذكر فينوجرادوف، وبدلاً من تبادل الخطب كانت المراسم تراعى عقد لقاء ثنائى للرئيس مع السفير. لكن رأى السفير أن القاعة التى سوف تتم فيها مراسم تسليم أوراق الاعتماد مليئة بالناس، كما يوجد بها مصورو التليفزيون؛ لذلك لم يراعَ فيها قواعد البروتوكول المصرى، وبدأ فجأة يلقى خطبة سياسية، لم يكن بالطبع قد أخطر بها من قبل. وقد اضطر، كما كتب فينوجرادوف، الرئيس إلى الرد بخطبة مماثلة. واعتقد أن مثل هذا التصرف يمكن أن يسر أى رئيس جديد. على أية حال فهو تصرف لم يرضَ به السادات.

إن "الدبلوماسية" عمل حسّاس للغاية، خاصة فى الشرق؛ حيث يمكن الانزلاق حتى فى مراسم تبدو بسيطة، مثل انتقال حافظة مستندات من يد لأخرى. فضلاً عن الحديث مع رئيس الدولة بعد التسليم، وبالمناسبة فقد قام بالحديث مع فينوجرادوف رغم ذلك، لكن تعقدت الأمور بعدها. على أى، ها هو حديث سيدور بينى وبين مبارك، لكنى لم أكن أدري.. هل سيكون قصيرًا أم ممتدًا؟ لن يستطيع أحد أن ينبّئنى بذلك مسبقًا، لكنى عرفت من أقدم أعضاء السلك الدبلوماسى فى مصر، وهو سفير "البرازيل"، الذى قمت بزيارته قبل ذلك، بالإضافة إلى الزملاء العاملين بسفارات الدول الاشتراكية، أنه يستغرق فى العادة نحو ربع الساعة. ورغم ذلك، استعددت لحديث أطول من ذلك، خاصة أنى كنت أحمل رسالة شفوية من تشيرننكو، وكان علىّ أن أقدمها. وقد كانت هذه الرسالة ردًا على رسالة

الرئيس المصرى الشفوية للقيادة السوفييتية. وقد نقل بسيونى هذه الرسالة أثناء استقبال "جروميكو" له، حيث إنه، طبقًا لقواعد البروتوكول السوفييتى، لم يكن من المقرر له أن يقابل "تشيرننكو"؛ حيث كان معروفًا أن السفراء يسلّمون، فى ذلك الوقت، أوراق اعتمادهم لنائب رئيس مجلس الاتحاد السوفييتى الأعلى لاتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية المكلّف بذلك، أو فى بعض الحالات النادرة إلى النائب الأول لرئيس المجلس. وكان "جروميكو" عضوًا بالمكتب السياسى، وكان مركزه يعد أكثر رقيًا وأعلى منصبًا. لذلك فقد فضّل "بسيونى" نقل رسالة الرئيس عن طريق وزير الخارجية، وليس أثناء تقديم أوراق الاعتماد.

وقد تم إبلاغى من خلال المسئولين عن البروتوكول، أن تسليم أوراق الاعتماد سيتم بقصر "القبة"، وأنه سوف ترسل لى سيارة لحملى إلى هناك؛ لكى أصل قبل الساعة الثانية عشرة. وكانت المراسم لا تسمح بتواجد أحد آخر من السفارة، ورغم ذلك، فقد سألت المسئولين عن "البروتوكول" عن مدى إمكانية مصاحبة مترجم لى. وكان من المفهوم أن هذه المسألة تؤرّقنى، فقد كنت أرغب فى أن يتم أول حديث مع الرئيس بسلاسة قدر الإمكان، ولو من الناحية الفنية. وكنت قد اقتنعت بأن ما يخصّ معرفة اللغة العربية بسفارتنا كان جيّدًا؛ فلن يحمرّ وجهى أمام الرئيس؛ بسبب الترجمة. لكن للأسف، قوبل طلبى بالرفض، فقد أبلغت بأن الجانب المصرى سوف يوفّر الترجمة، كما هو متّبع؛ حيث إنه لا تُقدّم استثناءات بأى حال. وقد سألت، على أية حال، عن مدى إمكانية لجوئى لاستخدام اللغة الإنجليزية، إذا ظهرت فجأة الحاجة لذلك. وقد جاءت الإجابة: "فقط إذا فعل الرئيس ذلك"، وكنت أعرف أن "مبارك" يتحدث الإنجليزية بطلاقة، لكن هل كان يتذكر أى شيء من الروسية؟ لم يكن أحد يدرى فى السفارة الإجابة عن هذا السؤال. وقد تبين أن قلقى بسبب جودة الترجمة لم يكن بلا أساس. لكنى سوف أتحدث عن ذلك فيما بعد. أما الآن، فإنى أتحدث عن "مبارك".

كان "محمّد حسنى مبارك" فى ذلك الوقت فى عامه السابع والخمسين. لقد ولدنا، نحن الاثنان، فى شهر مايو، لكنه ولد قبلى بثلاث سنوات. فكَوْن عمرنا، أنا والرئيس، متساويًا تقريبًا أمر هدأ من روعى كثيرًا بشكل ما. لكن طريق حياة كل منا، والخبرة التى اكتسبها، مختلف بالتأكيد عن الآخر. ف "مبارك" التحق بالكلية الحربية فى العام ١٩٤٧، بعد إنهاء دراسته فى المدرسة الثانوية، ثم بمدرسة الطيران العليا، وحتى العام ١٩٧٥ كان كل عمله عسكريًا تمامًا. وقد خدم بسلاح الطيران المقاتل والقاذف للقنابل. كما كان لبعض الوقت مدرسًا ومدربًا بمدرسة الطيران نفسها، التى تعلّم بها هو نفسه. وفى الخمسينيات، التحق بدراسات الطيارين الحربيين بالاتحاد السوفييتى، وعاد مرة أخرى فى العام ١٩٦١، إلى الاتحاد السوفييتى، حيث التحق بدراسات تعلّم فيها الطيران بقاذفات القنابل طراز Ty-16، وقاد بعدها أسرابًا وألوية قاذفات قنابل. وقد درس مرة أخرى فى "موسكو" لمدة عامين متتاليين ١٩٦٤، و١٩٦٥، بأكاديمية "فرونزى" بموسكو. وبعد ذلك رأس قاعدة طيران وكلية الطيران الحربى، ثم بعد ذلك أصبح فى العام ١٩٦٩، قائدًا لأركان حرب سلاح الطيران المصرى، وحصل على أول رتبة "جنرال". وفى العام نفسه، بدأت علاقاته الشخصية بالسادات، الذى كان نائبًا لرئيس الجمهورية فى ذلك الوقت. وقد حدث ذلك فى السودان؛ حيث أرسلهما ناصر للقضاء على ثورة "القبائل" بجنوب السودان. وفى العام ١٩٧٢، عندما أصبح السادات رئيسًا للبلاد، عيّنه قائدًا لسلاح الطيران المصري. وقد قاد مبارك، بهذه الصفة، فى أثناء حرب أكتوبر، الغطاء اللازم لعبور قناة السويس، وكما هو معروف نجح فى هذا التكليف؛ لذلك حصل على أعلى وسام مصرى "نجمة سيناء". وفى العام ١٩٧٤، مُنح مبارك رتبة فريق طيّار. أما فى العام ١٩٧٥، فقد اختاره السادات نائبا لرئاسة الجمهورية حينها.

وقد استمر مبارك فى هذا المنصب وفيًا تمامًا، رغم أنه تبين فيما بعد أنه قد تكون له رؤية خاصة بالنسبة لبعض الموضوعات. وقد اكتسب مبارك خبرة كبيرة

فى شئون السياسة الداخلية والخارجية، طيلة وجوده فى منصب نائب الرئيس. حيث سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، والعديد من الدول (الأوروبية، والعربية، والأفريقية، والآسيوية). كما أنه رأس العديد من الوفود المصرية؛ لحل عدة مشكلات قائمة بين الدول.

وقد حاولت، وأنا فى موسكو، أن أتبين ما الأثر الذى تركه عند مَنْ تعامل معه، أثناء تدريبه وتعليمه فى مؤسساتنا التعليمية العسكرية؟ وكانت الآراء كلها إيجابية.. بين أنه (منظّم، دقيق، يهتم بدراسته، لم يتناول الخمر، لم يدخن،.. وغيرها الكثير). لكن لم يستطع أحد أن يقول بثقة: ما هى الانطباعات التى بقيت، فى ذلك الوقت، عند ضابط قوات الطيران الحربى المصرى عن بلدنا، وعن نظامنا، وبنيَتنا، وشعبنا. وعندما أصبح مبارك رئيسًا، لم يتقابل تقريبًا، مع أى من السوفييت. وكنت أعرف استثناءين اثنين فقط، فقد استقبل أحد علمائنا المستعربين "ج. شارباتوف"، وكذلك طبيب العيون الشهير "سفياتوسلاف فيودوروف"، الذى سافر إلى "مصر"؛ لحضور مؤتمر طبى، فيوجد بمصر الملايين ممَنْ يعانون أمراض العيون.

وكنت أريد، كما هو مفهوم، تكوين تصورى الخاص عن مبارك، وأن أجتهد بحيث لا يصبح أول لقاء معه هو الأخير، كما حدث مع جزء كبير من السفراء المعتمَدين فى مصر، فقد كان أحيانًا يكفى مستوى آخر لحل مشاكلهم، أو لم تكن هناك فرص مناسبة للقاءات منفردة مع مبارك، خاصة أن الرئيس نفسه لا ينظّم حفلات استقبال دبلوماسية، ولا يحضر الحفلات التى ينظّمها الغير، مما يحد، تمامًا، من فرص التعامل الشخصى لأعضاء السلك الدبلوماسى مع رئيس الدولة، حتى ولو لفترة قصيرة.

اللقاء الأوّل المهم

وجاء يوم ٢٤ من سبتمبر، الذى يمكن تسميته "اليوم الأحمر فى النتيجة"، بالنسبة للسفارة، وبالنسبة لى بصفة أساسية. فآخر مرة قدّم فيها سفير الاتحاد السوفييتى لرئيس جمهورية مصر العربية أوراق اعتماده كان منذ عشر سنوات كاملة. وبهذه المناسبة، ارتديت سترة السفارة الرسمية الخاصة البيضاء، التى تمت خياطتها، بصفة خاصة، فى ورشة وزارة الخارجية، ذات الياقة والأكمام المطرّزة بخيوط مذهّبة، وعلقت على صدرى الأنواط والنياشين التى أمتلكها، ووضعت مظروفًا به أوراق اعتمادى فى حافظة حمراء اللون، وترجمة مسبقة لنص رسالة تشيرننكو، ثم انتظرت موعد وصول السيارة. وفجأة سادت حولى جلبة؛ فعند عودتى من القصر، كان يجب أن يُنظّم احتفال "كأس شمبانيا"، فى محل إقامتى، دعى إليه كل دبلوماسى فى السفارة، ورؤساء بقية هيئاتنا، والمصريون العاملون بوزارة الخارجية، الذين كانوا مرتبطين، بصورة أو بأخرى، بالاحتفالية المرتقبة. وكنا قد استعددنا لهذا الاحتفال. كما لم يمر الحدث دون أخذ صور جماعية على سُلّم محل الإقامة. فهذه مناسبة غير عادية! وبالمناسبة، كانت درجة الحرارة فوق الثلاثين. وقد وضعتُ سترتى الجديدة التى تَبيّن أنها هى، أيضًا، ثقيلة وحارة مثل سترتى الرسمية السوداء، التى كنت أرتديها عند ذهابى إلى حفلات الاستقبال بالكرملين. وقد أحضرتها هى، أيضًا، معى إلى القاهرة؛ ليكون عندى ما أرتديه عند استقبال الضيوف، فى حفلات السفارة الخاصة بعيد ٧ نوفمبر، فى ذكرى ثورة أكتوبر ١٩١٧.

وقد تم توصيلى إلى قصر "القبة"، كما سبق ذكره، فى الموعد المحدد تمامًا. واستقبلنى رئيس تشريفات رئاسة الجمهورية، وموظف آخر بقصر الرئاسة، الذى أوصلنى إلى بسطة أمام القصر عبر سلّم. وكان درابزين هذه البسطة مزينًا بطِلاء بألوان علم مصر (الأحمر، والأبيض، والأسود)، إشارة مختصرة إلى علم مصر. وكان يظهر شكلها من بعيد كأنها منصّة. وأمامها فى الأسفل، كان يقف حرس

الشرف، والفريق الموسيقى العسكرى، الذى بدأ، أولاً، بعزف نشيدنا القومى، ثم النشيد المصرى. وبعد ذلك دُعيت إلى الداخل، وأوصلونى إلى قاعة، حيث كان ينتظرنى أربعة رجال مصطفين فى صف مستو فى صمت، وكان فى اليسار "ياور" الرئيس مرتديًا زى الفريق، وبعده وزير الدولة للعلاقات الخارجية "بطرس بطرس غالى"، الذى أصبح فيما بعد الأمين العام للأمم المتحدة، وبجانبه الرئيس "مبارك"، ثم فى الآخر كبير تشريفات الرئاسة. وكان قد شرح لى مسبقًا أين يجب أن أقف، وتقريبًا ما علىَّ أن أقوله باختصار شديد، وقد نفذت ذلك. وتبع ذلك تسليم أوراق اعتمادى إلى الرئيس، والسلام عليه باليد. وكانت المصافحة باليد قوية وطويلة لدرجة كبيرة؛ حتى يتمكّن مصورو التليفزيون والصحافة من تسجيل ذلك بشكل مناسب. ثم بعد ذلك، تخلخل الصف، وظهرت الابتسامات على وجوه المصريين التى كانت لتوها حجرية. ودعانى "مبارك"، بحركة مضيافة من يده، للدخول إلى القاعة التالية، حيث جلسنا فى مقاعد قريبة من منضدة منخفضة. وكانت كلتا القاعتين فاخرتين، ومجهزتين بذوق رفيع، وقد لاحظت بارتياح أن الحرارة لم تكن مرتفعة فيها.

ورغم عمر مبارك، لم ألاحظ عليه أى شيب، ولو بسيط، فى شعره الأسود القصير والمجعد قليلاً. ووجهه أسمر اللون قليلاً تعلوه النضرة. ونظرة عينيه السوداوين متنبّهة، لكنها ليست قاسية. وقد كان يجلس مستقيم القامة تمامًا. وكان من الواضح أن هذا الوضع لم يكن مصطنعا، لكنه طبيعى تمامًا؛ نتيجة للتربية العسكرية، وممارسة الرياضة. وكانت بذلته الأنيقة تعكس شكل جسمه دون أية مغالاة فى التزويق. وكان الرئيس لا يتحدث بصوت عال، لكن بوضوح تام، موضحًا كل المقاطع الصوتية. وفى بعض الأحيان كان يستخدم يديه للمساعدة، كما لو كان يقطع الجملة ويفصّل الفكرة، ثم يسوقها لك ليجهّز أخرى.

وإذا كان ما يتعلق بلغة حديث الرئيس سليمًا تمامًا، فلا يمكن أن نقول ذلك عن المترجم. فقد كان من الواضح أن مخزون الكلمات الروسية التى يعرفها غير

كافٍ، وكان لا يجيد صياغة الجُمَل. وقد اكتشف "مبارك" ذلك بسرعة، وأصبح يستخدم جملاً قصيرة، وينتظر بصبر حتى يتمكن المترجم من التعامل مع كل منها. وقد يكون المترجم لم يستخدم اللغة لفترة طويلة، وقد يكون، ببساطة، يهاب الموقف متوترًا فى حضور الرئيس. وفى بعض الأحيان، كان "مبارك" يقاطع المترجم، ويقول له شيئًا بالعربية، وكان المترجم، فى هذه الحالات، يعيد ترجمة الجملة، التى يصبح معناها مختلفًا بعض الشيء. وكان من الواضح أن مبارك يتابع الترجمة، وأنه يحاول تصحيحها، عندما كان يفهم أو يشعر بأن هناك شيئًا ما غير صحيح. وقد اتضح من ذلك أنه إذا كان "مبارك" قد نسى اللغة الروسية، فإنه لم ينسَها تماما. وفى خلال الحديث، حصلت على تأكيدات متتالية بذلك.

وقد تطور الحوار كما يلى، بدأه صاحب البيت، كما هو مفترض. حيث أبدى اهتمامه بحالتى الصحية وعائلتى، وبمدى إعجابى بالقاهرة، وبما تمكنت من مشاهدته حتى الآن. وبعد أن استمع إلى إجاباتى انتقل بسرعة إلى العمل. فأبدى رضاه عن عودة العلاقات (المصرية السوفييتية) إلى وضعها الطبيعى، وقد ظهرت عبارته كما لو كان قد تم التطبيع بالفعل قبل ذلك. وقد أكمل الرئيس: "أنا أعتمد على أن الاتحاد السوفييتى ومصر بلدانِ صديقانِ، وسوف أعمل على زيادة تقوية علاقاتنا الثنائية. وقد عبّرت عن أفكارى الأساسية بخصوص ذلك فى الرسالة التى نقلها السفير بسيونى إلى القيادة السوفييتية". وسألنى مبارك: "هل تعرف محتوى هذه الرسالة؟" وعند سماعه لإجابة إيجابية، أكمل كلامه: "إذًا ليست هناك حاجة لكى أعيده هنا. والآن، الكلمة لك يا سيدى السفير، ما الذى يعتقدونه فى موسكو؟" وقد كانت الإجابة هى الرسالة الشفوية التى أحضرتها له من تشيرننكو. وهى قد لاقت عند الرئيس رد فعل حماسى ومباشر. ويبدو أنه لم يتوقع ردّ الفعل السريع للكريملين، وكان راضيًا.

ملأت رسالة تشيرننكو صفحتين مكتوبتين على الآلة الكاتبة. وقد حُفظ نصها عندى، وسوف أسرده فيما يلى؛ لكى يصبح ما سيقوله مبارك أوضح. وكانت سمة

الرسالة السوفييتية مثل الرسالة المصرية، إذ كانت، بالدرجة الأولى، عامة لدرجة كبيرة. وبالإضافة إلى ذلك، كان بها مجموعة من الموضوعات التى ذكرها مبارك، والتى تمثّل بالنسبة لنا أهمية خاصة. ومن ناحية أخرى، قدمت تصوراتنا لبعض الموضوعات التى لمسها مبارك. وقد جاء فى الرسالة ما يلى: "سيدى الرئيس، يرسل لكم ك. أ. تشيرننكو تحيته وأطيب التمنيات. وهو، مثلكم، يعطى أهمية كبرى لأن يكون الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية ممثلين على المستوى الكبير، بواسطة سفراء فى كلٍ من موسكو والقاهرة على التوالى. وهذا القرار عمل سياسى له وزن كبير نحو استرجاع العلاقات (السوفييتية المصرية) الجيدة، التى كانت القيادة السوفييتية تؤيدها دائمًا. ونحن مستعدون للاستمرار فى تطبيع الموقف، الذى وجدت فيه علاقاتنا نفسها، طوال الفترة الأخيرة، ومستعدون لأن يتوالى تقدُمنا إلى الأمام على هذا الطريق، حتى لو كان ذلك فى البداية بخطوات قصيرة". (بكلمات أخرى، تبادل السفراء يمثّل خطوة أولى فقط، يجب أن تليه خطوات أخرى؛ حتى يمكن أن يعد التطبيع أمرًا مكتملاً، وكان هذا هو الموضوع الرئيسي، الذى كان علىَّ أن أنفذه وأن أطوره أ. ب.).

ثم جاء بعد ذلك، فى الرسالة، ما نصه: "بالطبع، نحن لا ننظر لكل شىء بطريقة واحدة، فنحن نتناول عددًا من المسائل بطرق مختلفة. لكن هذه الاختلافات لا يمكنها، ولا يجب، أن تحجب الواقع الموضوعي. حيث إن مواقف كلا البلدين بها الكثير من الأمور المشتركة والقريبة. وقبل كل شىء فإن الحديث يدور عن مناصرة بلدَيْنا لمبادئ الاستقلال، والتساوى فى الحقوق، والتعاون المفيد للجانبين، وعدم التدخّل فى شئون الدول الأخرى، كما أنهما مهتمان بالمحافظة على استمرار مسيرة السلام على كوكبنا. ونحن نعد أن الإشارة التى وردت فى رسالة السيد الرئيس عن نية مصر أن تحافظ بقوة على موقفها فى رفض السماح بوجود قواعد أجنبية، أو تقديم تسهيلات عسكرية على أرضها، تمثّل تأكيدا لهذه المناصرة من جانب مصر". (كان من المعروف أن الأمريكيين يمارسون ضغوطًا كبيرة جدًا

على مصر؛ لكى يحصلوا على مثل هذه القواعد، وعلى حقوق خاصة أخرى. أ. ب.). وكان مكتوبًا فى الرسالة أيضًا: "إننا مقتنعون تمامًا أنه توجد حاجة لجهود لا تهدأ؛ لإيقاف قُوَى العدوان والعسكر فى الشرق الأوسط، التى تحاوِل فرض سيادتها على العالَم، وتقود العالَم إلى مشارف حرب عالمية، ويُعتقد أنه توجد هنا الكثير من الموضوعات التى يمكن أن تكون محلاً لتبادل الآراء، وكذلك فى المستقبل، والتعامل المتبادَل، بصورة أو بأخرى، بين بلدَيْنا". (كانت هذه الكلمات أكثر من تلميح ل "الولايات المتحدة"، ولاستعدادنا للبحث عن التفاهم المتبادل مع "مصر"؛ للوقوف أمام "واشنطن". ولم يعلق "مبارك" على هذا الجزء من الرسالة بأى شكل. أ. ب.).

ثم انتقلت الرسالة إلى الموضوع التالى: "لقد تجمعت لدى الاتحاد السوفييتى ومصر خبرة كبيرة فى التعاون التجارى والاقتصادي، وفى المجالات الأخرى، تعرفون، يا سيادة الرئيس، ثمارها. ويوجد رأى فى الاتحاد السوفييتى يقول: "إنه حيث توجد مصالح مشتركة، يمكن، من حيث المبدأ، أن يكون الاستمرار بنجاح فى العمل". (كان ذلك رد فعل عام، لكنه كان بالضرورة غامضًا، حتى الآن، على تعبير مبارك عن رغبته فى أن تجدد موسكو توريد قطع غيار السلاح السوفييتى لمصر، لكن بشروط مالية، لم تكن مناسبة لنا أبدًا. فلنبحث عن المصلحة المشتركة، هكذا كان يجب أن يفهم هذا الجزء من الرسالة. وقد فهِم مبارك معنى الكلمة، وتفاعل معها. أ. ب.). هذا (أى إمكانية التعاون أ. ب.) يتعلق أيضًا بتلك المجالات المماثلة للعلاقات بين البرلمانَين، وتوسيع التبادل فى مجال (العلم، والتعليم، والثقافة، والمجالات الأخرى).

وانتهت الرسالة بما يلي: "سيدى الرئيس، يمكن أن تكون واثقًا بأن أية خطوات نحو تحسين العلاقات (السوفييتية – المصرية)، ولخلْق جو سياسى مناسب لتنميتها، سوف تلقى تفهّمًا وتأييدًا عند القيادة السوفييتية".

وقد أنصت مبارك باهتمام شديد، وكان يوقف المترجم، فى بعض الأحيان، ويبين لى أنه فهم ما قيل، وأننى أستطيع أن أستمر فى عرض الرسالة. وعندما أنهيتها، قدمت للرئيس نسخة النص التى معي، فعلى الرغم من أن رسالة "تشيرننكو" كانت تعد شفوية فقد كانت تمثّل مستندا مهمًا بدرجة كافية، يجب أن يدرس بأسلوب مناسب. وقد أكّد مبارك ذلك، قائلاً: "إنه سوف يتم تحليل هذه الرسالة بدقة"، ووصفها بأنها قيّمة جدًا. وكان يظهر من تعبير وجه الرئيس أن محتوى الرسالة عامة قد سرّه. لكنه رغم ذلك رأى ضرورة التعليق على بعض ما جاء فيها، وتدقيق موقفه من بعض الموضوعات.

وقد طرح مبارك فى البداية سؤالاً بخصوص القواعد. فقال: "إن مصر لن تقدّم أرضها أبدًا لأى أحد؛ لتكون قاعدة حربية، وكذلك لن تقدّم تسهيلات عسكرية خاصة. لكن هذا لا يعنى عدم إمكانية تسهيل خدمات أخرى لدولة أو أخرى. فعلى سبيل المثال، فإن "مصر" تمنح الطائرات السوفييتية إمكانية استخدام مجالها الجوى؛ للطيران إلى أماكن أبعد فى "أفريقيا"، أو إلى "العراق". لكن بالمثل، الأمريكيين يطيرون بحريّة إلى "المملكة العربية السعودية". وذلك لا يمثل تسهيلات عسكرية بأى شكل، لكنه تعاون طبيعى". وطلب منى ضرورة وضع ذلك فى الاعتبار.

وبعد ذلك، تناول الرئيس، بشكل موجز، العلاقات (السوفييتية المصرية)، فأعلن أن مصر تعترف بدور الاتحاد السوفييتى فى الشئون الدولية وتحترمه، بما فيها الشرق الأوسط. وهذا الدور كبير. وهو كرئيس يقدّر تمامًا العلاقة المحترمة بين الاتحاد السوفييتى ومصر، ويرى ضرورة العودة بالعلاقات معنا إلى التفاهم المتبادل والثقة. هذا هو الهدف، لكن الوصول إليه وزيادة التعاون، يجب أن يكونا بالتدريج وبهدوء. وقد أوضح مبارك أنه لا يؤيد الخطوات المتسرعة. (كان ذلك رده على مقولتنا عن الخطوات المستقبلية المطلوبة لتطبيع العلاقات). وبعد ذلك، ذكر مبارك شيئًا مهمًا، موضحًا لماذا يجب أن تكون الحركة إلى الأمام بالضرورة تدريجية، وأنه ليس من الممكن الحركة للأمام بسرعة؛ حيث إن أيام ناصر قد ولّت

منذ زمن بعيد، كما أن الوقت الحالى ليس عهد السادات، عندما انزلقت العلاقات إلى أسفل. كما أن الظروف الجديدة التى ظهرت تفرض، أيضًا، الأوضاع التى يمكن الوصول فى ظلها إلى النجاح فقط بالتدريج والتأنى.

وقال الرئيس إنه يحتفظ بأطيب الذكريات عن بلدنا، وتذكر الأشهر الستة التى قضاها فى "ريازان"، والأشهر التسعة التى قضاها فى أكاديمية "فرونزى". وتحدث مبارك عن نفسه: "أنا لست يساريًا، ولا يمينيًا، أنا مصرى، ومبدأى التعاون مع الجميع. وأنا مستعد أن آخذ من اليسار واليمين، إذا كان ذلك يمثّل مصالح "مصر". وأبرز فكره التالى، كما لو كان مرتبطًا بما قاله عن اليمين واليسار، لكن فى العلاقات مع "موسكو"، فأنا أفضّل أن أتعامل مباشرة دون أى وسطاء حزبيين. وأنتم تفهمون، أننى قبل أى شىء أقصد الحزب الوطنى التقدمى". هززت رأسى كعلامة على أن ذلك مفهوم. (كان السادات نتيجة للعلاقات، بالذات، مع الحزب الوطنى التقدمى، قد أدان سفارتنا فى العام ١٩٨١، وطرد مجموعة "الدبلوماسيين" من البلد، وأغلق مختلف الهيئات السوفييتية. وعندما أعطى الجانب المصرى فى العام ١٩٨٤، موافقته على تبادل السفراء، عبَّر عن أمله فى أن السفارة سوف تكون بعيدة عن الحزب الوطنى التقدمى). لكن كدّرنى بعض الشىء كون الرئيس رأى ضرورة أن يثير هذا الموضوع مرة أخرى.

وفى النهاية، تحدث مبارك عن أن أكثر ما يهمه، من وجهة نظره، هو الحصول على قطع غيار السلاح. وأشار إلى أنه توجد فى العلاقات بين بلدَينا، أيضًا، مشكلات، ذكر منها ديون "مصر" العسكرية للاتحاد السوفييتى، فقال: "يجب أن تفهموا أن مصر ليست الآن فى حالة تسمح لها بتسديد هذه الديون. ومن ناحية أخرى، يجب حل موضوع قطع الغيار. فهذه مشكلة حادة بالنسبة ل "مصر". وقد دعانا الرئيس للتفكير فى حلها بأن قدم بنفسه وصفته الخاصة: "يجب حلها باستخدام السوفييت للديون فى العمليات التجارية المستمرة". وكان قد ذكر هذه الفكرة فى رسالته للقيادة السوفييتية، أما الآن، فقد ذكر أنه لم يحصل على رد محدد مباشر

من موسكو حتى الآن. ولم أقم بالتعليق على موضوع قطع الغيار؛ لأنى كنت أعرف أنه تجرى مناقشة هذا الموضوع فى موسكو. وبالمناسبة، لم يكن ينتظر منى إجابة فورية. "هيا نلتقى معًا بعد شهر تقريبًا؛ لمناقشة كل شىء بالتفصيل"، أنهى الرئيس بهذه الكلمات هذا الجزء من حديثنا. وفى النهاية، تمنى لى النجاح، وطلب نقل تحياته وأجمل تمنياته لك. أ. تشيرننكو. وقد نطق مبارك الجمَل الأخيرة باللغة الروسية. وأوصلنى إلى باب القصر، وسلّم علىَّ باليد بقوة مودعًا إيّاى.

وسار معى، الآن، الأشخاص أنفسهم الذين كانوا فى استقبالى فى الطريق إلى السيارة التى كانت تنتظرنى. وعند هبوطى سلّم القصر، لاحظت أن الحرس والفريق الموسيقى لم يكونا هناك فى الأسفل. وقد أصبح من المفهوم لى سبب استغراق حديثنا أكثر من عدة دقائق بروتوكولية، بل أكثر من ساعة، فقد كنت آخر سفير قدم أوراق اعتماده فى ذلك اليوم. وقد عرفت فى اليوم التالى، من الصحف، أن المراسم قد بدأت فى القصر فى العاشرة، وأنه قد تمكن ستة سفراء من تقديم أوراق اعتمادهم قبلى (فساعتان لستة أفراد ليس كثيرًا، لكن أيضًا، ليس الاتحاد السوفييتى دولة عادية، هكذا كان تصرف المصريين طبقًا للتفكير السليم، وفى الوقت نفسه، دون أن يخالفوا بروتوكولهم).

وقد كنت راضيًا عن الكيفية التى سارت عليها كل الأمور، كما أعجبت بالرئيس نفسه. لكن ارتفاع حالتى النفسية التى عدت بها إلى محل إقامتى لم تكن مثالية؛ فكنت أعرف تمامًا أنه لا يزال علىَّ خوض صعاب عديدة، قبل أن تصل العلاقات (السوفييتية المصرية) إلى مستوى متسع.

التعرُّف على البعثة "الدبلوماسية" والعاملين فى السفارة

والآنَ، بضعة كلمات عن الناس الذين قُدر لى أن أعمل معهم.

كانت المجموعة العاملة فى السفارة تضم نحو أربعين دبلوماسيًا وعشرين من الفنيين. وكان عدد المنتمين لوزارة الخارجية يقل قليلاً عن نصف عدد

الدبلوماسيين. أما الباقون فكانوا موظفين ينتمون لمصالح أخرى. وكانت تعاملاتى مع الفئة الأخيرة، كسفير أساسى، فقط فى تلك الحدود التى كانت تحمل صفة المسئولية العامة بالسفارة؛ أى أنهم ساهموا فى إعداد بعض المواد الإعلامية، وقاموا بعمل نوبات فى السفارة، واستقبلوا وأرسلوا البريد الدبلوماسى، كما انضموا للعمل مع الوفود، وأدوا بعض الأعمال الأخرى، فى أقسام السفارة التى كانوا معينين بها. ويمكن أن أقول على الفور إنه لم يحدث أبدًا أن كانت هناك أية خشونة فى تعاملاتى مع هذا الجزء من الفريق، فقد عملوا بتآلف وانسجام، وعلى مستوى الحياة، بدا لى أنه لم يكن هناك فرق بين من هو تابع أو متبوع، باختصار شديد، كانوا يعيشون فى ودّ ومحبة وصفاء.

ولم أكن أعرف بالفعل أحدًا من مجموعة العاملين بوزارة الخارجية، سوى مستشار السفير "تسفيجون"، علمًا بأننى تعرفت عليه، فقط، عندما تم تعيينى فى هذا المنصب؛ لذلك فقد بدأت العلاقة مع مرؤوسى على صفحة بيضاء. وقد تآلفنا مع بعضنا البعض بسرعة، دون أية مشكلات. ومن ناحيتى اجتهدت لأن أكون معتدلاً مع الجميع، لكنى لا أستطيع أن أجزم أى رئيس كنت. قد يكون لم يعجَب بى أحد منهم، لكن فى وجودى كان على الجميع أن يعملوا أكثر مما كانوا يعملون فى السابق، فهذا واقع. لكن كان الوضع الجديد نفسه يتطلب ذلك، فقد فتح آمالاً جديدة. وعندما حضرت إلى السفارة فى البداية، وجدت فى السفارة جوًا من الضيق والتجمد؛ بسبب التنكيل الذى انهال من "السادات" على السفارة، وباقى الهيئات السوفييتية، ولم يكن فقط المصريون هم الذين أوصلوا تعاملاتهم مع العاملين بالسفارة إلى الحد الأدنى، لكن، أيضًا، العاملين أنفسهم لم يكونوا يحاولون، دون حاجة خاصةٍ، البحث عنهم. وكان علىَّ أن أكافح الخمول السائد، فلم يتبقَ منه أى أثر بسرعة. وكان من نتيجة ذلك، زيادة واضحة فى سيل المعلومات التى كانت تخرج من السفارة إلى المركز، عن مختلف شئون سياسة "مصر" الخارجية والداخلية، وكذلك عن مختلف الاقتراحات المقدمة لتنمية التعاون.

وكانت البعثة السوفييتية، فى ذلك الوقت، تضم بشكل غير عادى أعضاء من قوميات مختلفة، منهم الكثيرون من "القوقاز"، ومن وسط آسيا. ففى ذلك الموقف، كان يوجد دور للاهتمامات التقليدية بالعرب فى هذه المناطق، وبثقافتهم ولغتهم. وكانت جذور الكثير من المستعربين، ويتبعهم العاملون بوزارة الخارجية، تنتمى إلى تلك الأماكن بالذات. فأين كان يمكن أن يرغبوا فى استخدام قدراتهم وعلمهم، إن لم يكن فى مصر؟ ولقد بقيت عندى ذكريات طيبة عن جميعهم، (ومنهم المستشار "نوريك سوباتوفيتش ستيبانيان"، رئيس قسم السياسة الداخلية بالسفارة، و"إسرافيل جادجييفيتش فيكيلوف"، مترجمى الذى لازمنى تقريبًا طيلة الوقت، ورئيس القسم القنصلى بالسفارة فى الوقت نفسه، و"ياركين سيرجييفيتش ميرزاموخامدوف"، موظّف هذا القسم، و"تامرلان سيرجييفيتش جوكاييف"، ممثلنا بلجنة (التضامن بين دول آسيا وأفريقيا)، والسيد "عبد الرشيد عبد اللاييفيتش إيساخودجاييف"، والبقية الباقية من زملائى).

وقد كان جزء السفارة المنتمى لوزارة الخارجية قويًا فى مهنته، وليس فقط فيما يخص إعدادهم لفهْم اللغة. وكان الإحساس بذلك وإدراكه شيئًا سارًا، فإذا كنت تعرف أنه يمكن الاعتماد على الآخرين، فإن عملك يكون أسهل. وقد عمل معى فى السفارة بعض "الدبلوماسيين"، الذين أصبحوا فيما بعد سفراء، وهم ("أ. ف. فسيلوف"، و"أ. ن. جافريوشنكو"، و"ن. ف. كارتوزوف"، و"أ. ب. بودتسيروب"، و"ف. أ. تيتورينكو"، و"م. س. تسفيجون"). وقد تم تعيين "أ. ج. فكيلوف" سفيرًا لأذربيدجان فى القاهرة. وقد تكون هذه القائمة غير كاملة؛ حيث إننى لم أتمكن، بعد انهيار الاتحاد السوفييتى، من متابعة مصير كل من عملت معه فى مصر. وقد ظهر شباب وزارة الخارجية بمظهر طيّب هناك، ومنهم "فيكتور سميرنوف"، الذى أصبح، فيما بعد، أحد أحسن خبرائنا فى شئون إسرائيل، بالإضافة إلى كلٍ من ("أندريه سمورودين"، و"سيرجى كراسنوجور"، و"نيكولاى دياكونوف"). وأنا

لا أستطيع أن أذكّرهم كلهم هنا، وأهم شيء هو أننى لم أدخل فى مشكلات، وأنه لم تكن هناك أية مشاحنات، أو أحداث مؤسفة بين مجموعة السفارة متعددة القوميات.

وكان فريق الممثلية التجارية هو ثانى أكبر فريق من حيث العدد، أما الثالث فقد كان الجهاز الاستشارى الاقتصادى. وإذا كانت الممثلية التجارية جهازًا لوزارة التجارة الخارجية للاتحاد السوفييتى، فقد كان الجهاز الاستشارى الاقتصادى يتبع اللجنة الحكومية للاتحاد السوفييتى للعلاقات الاقتصادية بموسكو. وكانت الممثلية التجارية تقوم بالأعمال التجارية، بينما كان الجهاز الاستشارى الاقتصادى مسئولاً عن المشاريع الصناعية والزراعية التى يقوم بتنفيذها الاتحاد السوفييتى فى مصر، وتوريد المعدات وقطع الغيار اللازمة لها، وكذلك هو المسئول عن المسائل الفنية الأخرى.

ولقد حالفنى الحظ مع رئاسات هاتين الهيئتين. فعندما حضرت إلى مصر، كان الممثل التجارى فيها هو "إيفان سيميونوفيتش ماتيوخن"، الذى يتمتع بخبرة كبيرة فى عمله. وكان هو بالذات الذى عرفنى بالنظام المعقد الذى كان يستخدم، فى ذلك الوقت، بين الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية للحسابات التجارية، وطابع مصالحنا فى مصر، فى مجال الاستيراد والتصدير. وبعد عدة أشهر، حلّ محله "ألكسندر فاسيليفيتش كازانتسيف"، الرجل الطويل، البدين، الذى كان يختفى خلف مسلكه المهمل، وكان تاجرًا حذِقًا جدًا، وبالنسبة لى، أيضًا، خير شريك يُعتمد عليه فى إقامة العلاقات مع المصريين. ويمكن أن نقول، أصبحت موضوعات التجارة والحسابات التجارية مع مصر بسرعة، بالنسبة لى كسفير، عملاً دوريًا فى إقامة العلاقات مع القيادة المصرية. وبالنسبة للمستشار الاقتصادى" نيكولاى ألكسييفيتش شيفانكوف"، الذى ربطت بينى وبينه صداقة قوية، كان مجال العمل، بعد كل نزوات السادات، قد ضاق تمامًا، فلم نعد نبنى أى شيء جديد، بل كنا، فى الغالب، نقوم بتحديث مشاريع التعاون السابقة، وكنا نورد لها المعدات وقطع الغيار. وكان قد تم الانتهاء من ٩٨ مشروعًا، ولا يزال العمل مستمرًا فى

١٣ منها؛ حيث كان يعمل بها الكثير من الخبراء السوفييت. وكان أغلبهم يعمل بمجمّع "حلوان للحديد والصلب"، وبلغ عددهم نحو ٣٨ فردًا. وقد تمكنوا هناك بعد جهد كبير من إعادة تشغيل الأفران العالية. ويُجرى حاليًا بحث موضوع زيادة إنتاج الصلب بالمجمّع، بمقدار مليون طن فى السنة، وإعادة بناء مصنع الكوك والصناعات الكيميائية. وكان يعمل نحو ٢٣ خبيرًا فى أسيوط فى بناء مصنع أسمنت، ونحو ٢١ فى مصنع التبين للحراريات، ومجموعات أقل فى عدد من المشاريع الأخرى. وكانت المشاغل تكفى "شيفانكوف"، وزملاءه العاملين معه بالجهاز، رغم أن جزءًا كبيرًا من أحمال عملهم كانت؛ بسبب الحصول على الموافقات البيروقراطية مع المصريين وموسكو. وقد كنت أزور، بصورة دورية، هاتين الهيئتين: الممثلية التجارية، والجهاز الاستشارى الاقتصادى، لكن، عامة، كانت تُناقَش الأعمال فى السفارة؛ حيث كان يحضر إليها العاملون بالممثلية التجارية والجهاز الاستشارى الاقتصادى، تقريبًا، كل يوم. وكان كل منهم يعد فى القائمة "الدبلوماسية" كمستشار بالسفارة، حيث كان الوضع مماثلاً فى كل مكان فى الخارج.

وتعرفت بالتدريج، أيضًا، على كل الممثليات السوفييتية الموجودة فى القاهرة، وكان منها ("الأيروفلوت" وهى خطوط الطيران السوفييتية، و"الأنتوريست" وهى شركة السياحة السوفييتية، و"فنشترجوفبنك" وهو بنك التجارة الخارجية، و"سوفاكسبورتفيلم" وهى شركة تصدير الأفلام السوفييتية، و"مجدوناروودنايا كنيجا" الذى يمثّل الكتاب الدولى)، وكذلك على المدرسة التى كان يدرس بها أطفال موظفينا. وقد زرت بعد ذلك بقليل ممثليات جديدة، منها ("مينمورفلوت الاتحاد السوفييتي" وهى وزارة الأسطول البحرى السوفييتى، و"مينريبخوز" وهى وزارة اقتصاديات الأسماك). وكانت توجد الكثير من الهيئات، وكان لكل منها مشكلاته الخاصة به، وكان يعتمد رؤساؤها فى حلها على مساعدة السفارة. وكانت الأعمال، عامة، كبيرة ومزعجة. كما كانت توجد، أيضًا، فى "القاهرة" وكالة الأنباء

الإخبارية "توفوستى"، التى كانت تعمل رسميًا كقسم من السفارة، وكانت تصدر دوريتها، التى كانت توزّع عدة مئات منها على الهيئات المصرية، ومختلف دور النشر. وبالطبع كنت أضطر للنظر فى محتويات هذه الدورية.

كما أننى تعرفت، فى المطار، على الصحفيين السوفييت المحليين، فلم يبتعد اهتمام وسائل الإعلام السوفييتى عن القاهرة. ففى أثناء وجودى هناك، كان دائمًا ما يعمل مراسلو جرائد متعددة، منها ("برافدا" (الحقيقة)، و"أزفستيا" (الأنباء)، و"ترود" (العمل)، و"جوستليراديو" (التليفزيون والإذاعة الحكوميّان). وأحمد الله، تعالى، أن أيًا منها لم يحاول حتى أن يقدّم لى منتجاته لكى أفحصها. لكننا كنا نتقابل دوريًا، معًا، أو على انفراد. وكان ذلك يعتمد على الاهتمامات المشتركة. وكان أكثر من أتقابل معه هو "فلاديمير بيريسادا"، من جريدة "برافدا"، وهو صحفى موهوب، ومحدّث لطيف، وكذلك مع "ليونيد راسادن"، مراسل الإذاعة والتليفزيون الحكوميين. لكن يجب أن أقول إن مصر، فى ذلك الوقت، لم تكن هى المفضّلة لدى رؤساء الدعاية السوفييتية، وكانت تمر المواد الإيجابية عنها، أو حتى المحايدة لها، بصعوبة بالغة. وكان الأسهل نشر المواد السلبية، من مقالات عن الوجود الأمريكى فى مصر، والتدريبات المشتركة، والتأثير السلبى لاتفاقية "السادات" مع "بيجين"، فى معاهدة "كامب ديفيد"، على الوضع فى الشرق الأوسط،..، وكانت هذه المواد لا تستثير عند السلطات المصرية إلا الغضب، وكان على صحفيينا، وكذلك كان على السفارة، أن تكون طوال الوقت على يقظة؛ إذ قد يرتد هذا الغضب إليهم.

لقد أصبحت القاهرة، منذ عهد ناصر، إحدى الأماكن المهمة التى تتقاطع فيها الدبلوماسية العالمية. وفى أثناء وجودى هناك، كان يوجد بها نحو ٩٥ سفارة، لكن كانت البعثات الدبلوماسية فعليًا أوسع؛ حيث إنه كانت تعمل، تحت سقف الكثير من السفارات، أقسام لرعاية مصالح الدول العربية التى قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع مصر، بعد توقيع اتفاقية السلام المنفصلة مع إسرائيل. وكانت الحياة الدبلوماسية نشطة جدًا، كما كانت حفلات الاستقبال فى السفارة متتابعة، الواحدة تلو

الأخرى، بل كانت، فوق ما سبق، تقام حفلتان أو أكثر فى ليلة واحدة، وكان يحتفل بالأيام القومية، وأحيانًا بالمناسبات التاريخية، وذلك بحضور رؤساء الدول والحكومات، ووزراء الخارجية، والوفود الكبيرة، إلى مصر، كما كانت تُنظَّم، أيضًا، الحفلات البروتوكولية الأخرى، التى تقل عن ذلك حجمًا، من حيث مآدب (الغداء، والإفطار،..).

وبمجرد أن ظهرت في يوم ٢٥ من سبتمبر، فى الصحافة المصرية، الصور التى تبين تقديمى أوراق اعتمادى إلى مبارك، مما كان يعنى أننى أصبحت سفيرًا مفوضًا، بدأتْ تصلنى دعوات شخصية لي، والأكثر لى ولزوجتي، لحضور الاحتفالات المختلفة بالسفارات. وعامة، كنت ألبى هذه الدعوات؛ لأنها تعطى الفرصة للتعرف بشكل أسرع، ليس فقط على الدبلوماسيين، لكن، أيضًا، على مجموعة أوسع من المصريين، مثل (أعضاء الحكومة، وأعضاء البرلمان، ورجال الأعمال،..). وكانوا، الكل تقريبًا، يعرفون الفرنسية أو الإنجليزية، فلم يكن يوجد لدىَّ حاجز "اللغة". ولم يكن يتم تحاشينا، بل على العكس، لقد جذب ظهور السفير السوفييتى، بعد غياب ثلاث سنوات، الاهتمام. فلم أكن أشكو من الوحدة فى حفلات الاستقبال، وبالطبع كان من الصعب علىَّ، لفترة ما، تذكر كل الأشخاص؛ نظرًا للزيادة السريعة فى المعارف. لكن انضبطت الأمور تدريجيًا.

ولن يلغى حضور حفلات الاستقبال، الأمور المهمة الأخرى من برنامج السفير الجديد، مثل زيارات المجاملة لزملائى، حتى لو كنت قد تعرفت عليهم من قبل. وكان يصعب زيارة الجميع، وإلا كنت سوف استهلك لذلك زمنًا كبيرًا جدًا، كما لا يفعل أحد ذلك. وقد بدأت أولاً بزيارة سفراء الدول الاشتراكية، محاولاً ألا تكون هذه الزيارات فارغة، بل لتمنحنى صورة حالة علاقات كل دولة مع مصر، وديناميكيتها، ومستقبلها القريب. وكنت أطرح الأسئلة، وأجيب بنفسى على أسئلتى. وقد نتج الترتيب التالى من هذه الدورة، من خلال الأحاديث والكثير الذى تلاها (فقد كنا كثيرًا ما نلتقى): من بين الدول الاشتراكية نجد أن أكثر العلاقات السياسية

تطورًا كانت الممتدة بين مصر ورومانيا. وكان ذلك مفهومًا إذا دُرس خط "تشاوتشسكو" السياسى مع إسرائيل، واتفاقية "كامب ديفيد". وبعد ذلك، كان الترتيب كما يلى: (المجر، تشيكوسلوفاكيا، بولندة، ألمانيا الشرقية، بلغاريا)، أما علاقات مصر مع كلٍ من (كوبا، ومنغوليا، وفييتنام) فكانت، على الأرجح، ذات طابع شكلى.

وقد اجتهدت لكى أقيم علاقات تتسم بالصداقة والثقة مع كل سفراء الدول الاشتراكية. ونجحت فى ذلك، مع بعضهم، نجاحًا كبيرًا، ومع الآخرين بنسبة أقل، لكن، بالطبع، كان هناك، عامة، إحساس بانتمائنا لمعسكر واحد. وكانت تُقام، أيضًا، دوريًا لقاءات عمل لرجال الصف الثانى بالسفارات، ورؤساء أقسام القنصليات. وعامة، كان التعاون المشترك جيدًا، وكذلك تبادل المعلومات. وكان ذلك لا يتم من اتجاه واحد؛ فقد كانت تصل إلينا من سفارات إخواننا معلومات وآراء مهمة، وكانت أقرب العلاقات، بالنسبة لى، مع سفير تشيكوسلوفاكيا "سلافومير نوفاك"، الذى أصبح، بعد ذلك بقليل، أقدم "الدبلوماسيين" فى "القاهرة"، وكذلك مع سفير ألمانيا الشرقية "جانس يورجين فيينس"، وسفير منغوليا "س. دامباداردجا". كما ربطت الصداقة زوجاتنا.

ومن الطبيعى أن برنامج زياراتى للسفراء كان لا يتوقف فقط على اختياراتي، لكن، أيضًا، على إمكانيات زملائى فى السلك الدبلوماسي؛ فقد يكون أحدهم فى إجازة، وآخر مرتبط بسفر إلى جهة ما داخل البلد،..). وقد استمرت هذه الزيارات الدبلوماسية ثلاثة أشهر. وبعد أن زرت كل من خططت لزيارته توقفت عنها. ولم تتحْ أمامى فرصة رؤية غالبية السفراء بعد مغادرتى للقاهرة. لكن تلاقت مسارات حياتنا، مرة أخرى، مع ثلاثة منهم، هم ("جيوفانى مليولو".. سفير إيطاليا، الذى كنت أعرفه منذ أن كان سفيرًا فى موسكو، ثم عملنا معًا فى نيويورك، و"أ. جونسالفيس" سفير الهند، وكنت سعيدًا بأن أرحب به فى موسكو فيما بعد، عندما جاء إليها سفيرًا، وكنت وقتها نائبًا لوزير خارجية الاتحاد السوفييتي. وكنا كثيرا ما

نتذكر القاهرة، حيث تحدثنا عدة مرات عن الفروق الموجودة، وكان جونسالفيس يتحدث الروسية بطلاقة، وكان سعيدا باستخدامها معى. وأخيرا مع سفير كندا "مارك بيرون"؛ لأننى أمضيت جزءا من حياتى الدبلوماسية، قبل نهايتها، فى أوتاوا، ليس كسفير للاتحاد السوفييتي، لكن هذه المرة كسفير لروسيا، وقد كان يرأس القسم المسئول عن العلاقات معنا فى وزارة الخارجية.

وكانت علاقاتى جيدة مع كل السفراء المعتمدين فى القاهرة، عدا سفير الولايات المتحدة الأمريكية. فلم أقم بزيارته، لأنى أخذت فى الاعتبار الدور السيء الذى لعبه هو نفسه، ولعبه مجلس الدولة الأمريكى، فى تطبيع العلاقات السوفييتية المصرية. ولم يكن فى ذلك أسرار، فقد أعلن رئيس مجلس الدولة فى واشنطن علنا فى صيف ١٩٨٤، أن الإدارة الأمريكية قلقة من مستقبل تحسين العلاقات بين الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية، ومن تبادل السفراء المرتقب. وهو قد أكد، فى ذلك الوقت، أنه لا زال يحاول بالطرق غير الرسمية أن تتراجع القاهرة عن تبادل السفراء مع الاتحاد السوفييتي. ولقد حاول فليوتس أن يؤثر على القاهرة، عن طريق الدوائر الموالية للأمريكان فى مصر نفسها، لكنه لم ينجح فى ذلك.

وكان يوجد فى القاهرة سفيران نادرا ما يظهران للعامة، إلا محاطين بحراسة، هما السفير الأمريكى، والسفير الإسرائيلى. أما باقى أعضاء السلك الدبلوماسى فقد شعرت أنهم يشعرون بالأمان عامة. ورغم ذلك فإن بعض السفراء كانوا يتخذون بعض الإجراءات الإضافية الاحتياطية، فقد استقبلنى السفير الإيطالى "ميليودو" فى مكتبه، وأشار لى فجأة إلى النافذة قائلا: "أترى؟ لقد اضطررت، من باب الاحتياط، إلى تركيب زجاج مصفح، يقاوم اختراق الطلقات الموجهة له".

أما ما يخص إحساسى الخاص، فأنا لم أشعر بالحاجة إلى الحراسة، كما أنه لم يقترحها أحد علىَّ - لا الجانب الروسى ولا المصرى. وكان يتناوب الجلوس عند البوابة خمسة قومندانات. وكانت سيارتى عادية جدا. وعندما كنت أتوجه إلى مكان ما بالسيارة، كان يجلس معى فيها السائق، وفى بعض الأحيان، يكون معى

مترجم أيضا. وقد شاهدنا، أنا وزوجتى "ناتاشا"، معالم القاهرة العامة وحدنا. هل كانت هناك بالفعل خطورة؟ لا أدرى. وإذا لم نأخذ الحر المصرى، الذى لا يسر بالطبع، فى الاعتبار، فقد كنا نشعر، أنا وناتاشا، بالراحة تماما، تقريبا فى ظل كل الظروف الأخرى. وقد كتبت كلمة "تقريبا" هنا؛ حتى أنقل عدم الراحة التى كنا نعانى منها بسبب عدم إلمامنا باللغة العربية، وفقط لهذا السبب.

وكما يحدث، عادة، لأى سفير جديد، فقد كانت الأشهر الأولى لعملى فى القاهرة مشحونة جدا. وكان علىَّ أن أقوم بمختلف الأعمال، دون تأجيل أى منها: التعرف على أعضاء الحكومة ورئاسة البرلمان، وعلى المسئولين المهمين بوزارة الخارجية، وكذلك على دوائر الأعمال، وزيارة سفراء الدول الأخرى، واستقبال زياراتهم لى. وكان علىَّ، أيضا، التعرف على مشكلات الهيئات السوفييتية العاملة فى مصر، وحتى مجرد التعرف على رجالنا- كان عدد المكلفين بمهمات يزيد عن ٢٥٠ فردا، وكان يصل عدد المجموعة إلى أكثر من ٦٠٠ فردٍ، بالإضافة إلى أفراد أسرهم. وكان يجب النجاح فى تنفيذ كل ذلك فى وقت متواز مع العمل بالسفارة، ومنه تنفيذ تكليفات موسكو، وتجهيز البرقيات والمواد الأخرى من تقارير ومذكرات. وفى البداية، ببساطة، لم يكن يكفينى الوقت، حتى أننى شاهدت الأهرام العظيمة فقط بعد أسبوعين من وصولى، وفقط من خلال نافذة السيارة، عند سفرنا فى أيام الإجازة الأسبوعية إلى الإسكندرية؛ لكى نتعرف على أعمالنا بها. ثم أصبح الوضع أيسر فيما بعد، فقد ظهرت إمكانية تنظيم الوقت للتعرف، تدريجيا، على القاهرة وضواحيها، ثم السفر إلى أماكن أبعد. وقد كانت هذه صفحات ممتعة من جانب إقامتنا بمصر. وسوف أتحدث عنها فى الأبواب التالية.

أما الآن، فلن أحمل القارئ بحمل كبير، بعرض مناقشاتى التالية مع مبارك ومع المسئولين الآخرين، بل سوف أشركه فى انطباعاتى عن القاهرة.

الباب الثالث

فهم القاهرة

بمرور أسابيع وشهور حياتنا القاهرية، تعرفت تدريجيا على المدينة، وأصبحت أتفهم بصورة أحسن لماذا يطلق المصريون على بلدهم وعاصمتهم اسما واحدا هو "مصر"، رغم أن العاصمة لها اسم عربى خاص بها هو "القاهرة"؛ أى المنتصرة. فإذا قلنا إن القاهرة تمثل "كل ما هو مصرى" سوف يكون بالطبع مبالغة، لكنه لا يبتعد كثيرا عن الحقيقة، حيث يتركز فيها ربع تعداد هذا البلد الكبير، الذى يمتد ألف كيلو متر من الشرق إلى الغرب، وألف كيلو متر من الشمال إلى الجنوب. فالقاهرة هى "المخ" و"القلب" وأكثر من ذلك بكثير، وإذا تصورنا البلد كنظام حى، فإن دور المدينة الرئيسية يتزايد باستمرار مع استمرار عملية التمدن، وتنمية الاقتصاد المصرى والثقافة المصرية.

تاريخ الألف سنة لمدينة الألف مئذنة

أسست مدينة القاهرة فى العام ٩٦٩، ووصل تعداد سكانها فى بداية القرن الرابع عشر إلى حوالى المليون. وقد أفاد الرحالة الأوروبيون، فى ذلك الوقت، بأنها تمثل ثلاثة أضعاف باريس. وهى الآن أكبر مدن أفريقيا، وتعد ضمن أكبر عشر مدن فى العالم، وهى مستمرة فى النمو من حيث المساحة وعدد طوابق الأبنية، وخاصة من حيث التعداد. وكان يسكنها ١٣ مليونا فى أيامى.

والقاهرة متعددة الوجوه، لكن إذا يسرنا الأمور يمكن أن أوجزها فى وجهين: أحدهما ينتمى إلى العصور الوسطى العربية، والثانى أوروبى، أو الأحسن أن نقول إنه "كوزموبوليتى"؛ أى متعدد القوميات، فالمعمار الحديث يظهر كما يلى: إذا نظرت إلى أحد أحياء المدينة، لا يمكن أن تحدد فورا أين يقع.. هل فى

"شيكاغو"؟ أم فى "سيول"؟ أم فى "هامبورج"؟ أم فى مكان آخر؟ توجد مثل هذه الأحياء فى القاهرة، وهى تتزايد.

ويقسم النيل القاهرة إلى ثلاثة أجزاء غير متساوية. الجزء الأكبر يقع على الضفة الشرقية، والجزء الأصغر على جزيرتين فى النيل: "الجزيرة" و"الروضة"، والجزيرة الثانية هى الأكبر. أما الجزء الأخير (الجيزة) فقد كان لمدة طويلة مدينة منفصلة، ثم التحمت فعليا بالقاهرة. وتقع سفارتنا فى الجيزة. وكان تعدادها فى عهدى قد تعدى المليونين. وهناك كبار تربط بين الأجزاء الثلاثة للمدينة.

وللقاهرة مبنيان عاليان يطلان عليها، وهما موجودان بطرفيها: فتوجد الأهرام العظيمة فى الغرب، أما فى الشرق فتقف "القلعة" على جبل "المقطم"، التى بناها فى القرن XII "صلاح الدين"، ويوجد فى وسطها قبة جامع "محمد على" الضخمة، المطلية بالذهب، والمئذنتان العاليتان الجميلتان، والتى يمكن رؤيتها من أماكن كثيرة بالمدينة. ويطلق على القاهرة اسم "مدينة الألف مئذنة"، وهذه ليست مبالغة. ففى القاهرة فقط حوالى ٤٠٠ جامع، معظمها بالطبع فى المدينة القديمة. لكن لا يوجد حى جديد واحد، حتى لو كان صغيرا، لم يتم تشييد مسجد فيه منذ البداية.

ورغم أن التاريخ الرسمى للقاهرة يبدأ منذ القرن X، فإن المصريين سكنوا هذه الأماكن منذ قديم الزمان، فقد عاش هنا من بنى الأهرام، ثم حماها، ومن أمد البناة بالخضروات والمأكولات الأخرى. وكان يوجد هنا فى يوم ما، فى عصر الفراعنة، أحد المراكز الدينية لمصر القديمة، الذى أطلق عليه اليونانيون "هليوبوليس". وقد بقى منه حتى زماننا مسلة وحيدة واقفة فقط.

وقد أقام العرب عند فتحهم لمصر فى العام ٦٤٠، معسكرا حربيا بين النيل وجبل المقطم، وأطلقوا عليه اسم "الفسطاط"، وقد تحول مع الزمن إلى مدينة قوية، أصبحت عاصمة لخلفاء الأسرتين الأموية والعباسية. لكن أدت المنافسة الداخلية

العربية بين السنة والشيعة إلى أن الخليفة الشيعى "المعز" استقر، أولا، فى ذلك المكان، الذى أصبح الآن "تونس"، وحرك جيشه المكون من البربر من هناك إلى مصر، واستولى عليها بسهولة. فأسست عاصمة جديدة بالقرب من الفسطاط، وسميت "القاهرة". وفى البداية كانت تتكون من قلعة وقصور الخليفة، ومسجد، ومبانٍ للخدم والحرس. ثم بدأت تظهر حولها أبنية جديدة. وكانت النتيجة أن القاهرة التحمت مع الفسطاط ومع المناطق السكنية الأخرى، ومنها "بابليون" التى نمت حول قلعة بناها الرومان فى الماضى. واستمرت القاهرة فى النمو بسرعة؛ فتحولت إلى مدينة نمطية كبيرة، طبقا لطراز مدن القرون المتوسطة، وبها الكثير من الأسواق، ومثاو لمبيت القوافل، وأسواق عشوائية، وقصور للصفوة، ومساجد، وشوارع ضيقة ملتوية عنكبوتية، سكنها التجار والسكان الآخرون للمدينة. وقد حكمت الأسر "الفاطمية" الشيعية مصر حوالى مائتى سنة، انتقلت بعدها مصر مرة أخرى لتكون تحت حكم السنة الذين أعادوا، بالتدريج، سكان البلد الذين أسلموا إلى مذهبهم، والذين لا يزالون ينتمون إليه حتى اليوم.

تغيرت الأسر، لكن اجتهد تقريبا كل خليفة أو سلطان فبنى مسجدا لتخليد نفسه، وفى بعض الحالات عدة مساجد. والكثير منها يحمل اسم الحاكم الذى بنيت فى عهده، حتى الآن. وكان القرن XIV هو القرن الذهبى لمصر بين القرون الوسطى. حيث كان يحكم مصر فى ذلك الوقت المماليك الأتراك، الذين ظهروا بها فى البداية كمحاربين مرتزقة، لكنهم تمكنوا من الاستيلاء على مقاليد الحكم لتصبح فى أيديهم. وكانوا ينتخبون السلاطين من بينهم، ويستبدلونهم كثيرا، حيث كان كل منهم يحاول احتلال العرش بنفسه. وكانوا يزينون قصورهم ببذخ شديد. وآخر هؤلاء الحكام تمثل فى المماليك الشراكسة. وقد انتهى حكمهم بفتح الأتراك لمصر فى العام ١٥١٧، وهم بدورهم قد سادوا فى مصر حتى العام ١٨٠٥. وقد عانت القاهرة عهدا طويلا من الانهيار والتأخر فى عهد الأتراك الذين نهبوا مصر بلا رحمة. لكن استردت العاصمة أنفاسها مرة أخرى عندما تولى الحكم المرتزق

العسكرى التركى، ذو الأصول الألبانية، "محمد على"، وقد حصل على الاستقلال الذاتى الفعلى فى العام ١٨٠٦، من الباب العالي، وحكم البلد بنجاح لمدة ٤٣ سنة. وقد أصبح بالنسبة لمصر وجها مماثلا لبطرس الأول بالنسبة لنا، فقد أدار بحزم البلد تجاه أوروبا، ودعى من هناك مختلف الخبراء، وأرسل إليها شباب المصريين الحاذقين لتلقى العلم. وأقام المصانع، والترسانات البحرية، وأعاد تنظيم الجيش، وقام بالكثير من الإصلاحات الأخرى، ووضع بداية لمرحلة تنمية رأسمالية لمصر. فهو الذى منح "فرديناند دى ليسيبس" موافقته لحفر قناة السويس (وقد بدأت الأعمال نفسها بعد موت محمد على). وفى العام ١٨١١، تخلص من الإقطاعيين المحليين المماليك ببساطة، بذبحهم فى قلعة القاهرة، بعد أن دعاهم إليها للاشتراك فى وليمة عرفت بمذبحة القلعة.

وبدأت عملية إنشاءات ضخمة فى القاهرة فى عهد محمد على وأبنائه. فهم لم يلمسوا المدينة القديمة، لكنهم مدوها فى اتجاهى الغرب والشمال، حيث أنشئوا أحياء جديدة مخططة جيدا، وبها شوارع عريضة، وميادين. وكان المهندسون المعماريون أساسا فرنسيين. مما أكسب المدينة شكلا مختلفا تماما، أعاد للقاهرة سمعتها كإحدى أجمل المدن، وأكثرها جاذبية. كما تم البناء على ضفتى النهر، وإقامة الجسور عبر النيل، وتم توصيل المجارى بالمدينة، وإنشاء الحدائق العامة والميادين. وبهذا ظهرت جغرافية جديدة للمدينة، نتج عنها أن أصبح الميدان الرئيسى للمدينة، والمتحف المصرى القومى القائم به، قريبين من النيل.

وقد حفظت هذه الجغرافية- بشكل عام- فى القرن العشرين، لكن حدثت لها تغييرات وإضافات. وكانت الإضافات هى أحياء جديدة، منها الأحياء السكنية، والأحياء الصناعية. أما التعديلات، فهى تتلخص فى: الاستبدال المستمر للمبانى المنخفضة بأبراج متعددة الطوابق، وتعلية المبانى، وبناء مختلف الكبارى العلوية، التى قد تمتد عدة كيلو مترات؛ لتفريغ الشوارع من حركة النقل بالسيارات؛ وتوفير إمكانية سرعة التنقل من حى لآخر بالمدينة. وأصبحت المآذن، التى كانت فى يوم

ما مثل غابة شاهقة فوق المدينة، كثيرا ما تتوارى عن العيون خلف "الأبراج المرتفعة" التى تنبت مثل فطر عش الغراب. وعندما عدت بعد عدة سنوات مرة أخرى لزيارة القاهرة، اندهشت من عدد المبانى الجديدة التى ظهرت أمام عينى من فوق الكوبرى المعلق الذى كنت أسير فوقه، قادما من المطار- الموجود فى الطرف الشرقى للمدينة- إلى سفارتنا، على الضفة الغربية للنيل. ولا تزال القاهرة واحدة من أكثر المدن من حيث النمو السكانى. وقد وصل تعداد سكانها إلى أكثر من ١٨ مليون فرد.

ويبنى المصريون بسرعة، رغم أنهم لا يستعملون تقريبا الأوناش. كما أنهم لا يركبون المنازل من حوائط جاهزة صنعت فى المصانع، لكنهم يصبون الخرسانة فى المكان الذى يتم فيه البناء، وهم ينقلون الألواح الخشبية، ويزيدون من أطوال أسياخ التسليح باللحام الكهربائى. ويتم رفع الأحمال بواسطة بكرات أو آليات رفع أخرى، أو ببساطة باستخدام حمالين، حيث لا يمكن استبدال قدرة القوة العاملة المصرية. وبالطبع، لا يزين المدينة مبانٍ حديثة فقط. فالقاهرة التى كانت تعد، فى منتصف القرن العشرين، إحدى المدن المريحة، فقدت الكثير من هذه الصفة، ولا تزال تفقد كل يوم. لكن يحتاج الناس لمكان يعيشون فيه، ويعملون فيه، وأرض البناء فى مصر قليلة جدا، لذلك تزيد الارتفاعات إلى أعلى، ولا يمكن عمل أى شيء آخر غير ذلك.

وللمدينة مشكلات كثيرة. وعندما تتحدث عن ذلك مع المسئولين عن المدينة، أو مع السياسيين، تسمع شكوى، أولا، من تأخر معدلات تنمية البنية الأساسية للمدينة، من حيث شبكة مواسير المياه، والمجارى، والنقل العام، وبالطبع من الكثافة السكانية الضخمة. فدائما لا تكفى المساكن. كما أن الكثيرين لا يستطيعون شراءها أو استئجارها. فتوجد عائلات كاملة تعيش على أسطح المنازل (يكونون عادة من أقارب السكان، أو ممن يخدم المنازل من عائلات الحراس- البوابين، أو عمال الخدم... إلخ).

وتأوى الفقراء أيضا أماكن تسمى بمقابر الخلفاء، وهى مقابر للمدينة بها أضرحة وقبور أهل الصفوة بالقرون الماضية. وهى مصنوعة من الجرانيت، ومن المرمر، أو من أحجار أخرى تعيش لفترة طويلة. وكل من هذه الأضرحة يتكون من جدران وسقف لعائلة واحدة أو لعدة عائلات. وقد اضطرت الإدارة المحلية للمدينة إلى توصيل الكهرباء وشبكتى المياه والمجارى إليها.

فهى عبارة عن مدينة كاملة بشوارعها، ومحلاتها الصغيرة، وورشها، ومشاريعها الأخرى. وعندما سألت محافظ القاهرة عن عدد من يعيش فى المقابر، أجاب: "مائتان وخمسون ألفا، وقد يكون ثلاثمائة، فلا أحد يعرف على وجه الدقة".

وعندما كانت مصر، فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، تحت سيطرة إنجلترا (رسميا أو فعليا)، اختار الأجانب لنفسهم حيًا هادئًا أخضر ليعيشوا فيه فى القاهرة، شمال جزيرة "الجزيرة" - هذا الحى يسمى الزمالك. وقد استقرت هناك السفارات، ومحلات إقامة السفراء والدبلوماسيين الآخرين، والنوادى المتميزة، ومنها النوادى الرياضية، والفنادق الغالية لكن صغيرة الحجم. وكان ذلك الحى فى الواقع أوروبيا، وكان يمثل العرب فيه فقط الخدم. وقد اختلف هذا الوضع مع الزمن، لكن ليس جذريا. فالعقارات هناك مملوكة للأجانب، كما كان فى الماضى. وكانت السفارة السوفييتية، هى أيضا، تقع فى حى الزمالك حتى عام ١٩٦٦، قبل أن تنتقل إلى الجيزة. وقد كنت أحيانا أتواجد فى الزمالك، عندما كنت أزور السفراء، أو عندما كنت أزور هيئاتنا الخاصة: الممثلية التجارية، وجهاز الاستشارات الاقتصادية، ووكالة "نوفوستى" للأنباء.

فكاهات المدينة القديمة

كنت أتجول غالبا فى حدود المدينة الجديدة، حيث تتركز، تقريبا، كل السفارات وهيئات مصر، وقصور الرئيس، ومكتب رئيس الوزراء، والبرلمان، والمتاحف الرئيسية، والهيئات الثقافية الأخرى، وكذلك السفارات الأجنبية. وكان

التعرف على هذه الأحياء يتم عفويا خلال العمل. أما المدينة القديمة، فكنت أذهب إليها خصيصا فى أيام الجمعة والسبت.

وحيث إننا كنا ننطلق إلى المدينة فى منتصف الجمعة، فقد كان من الممكن مراقبة كيف يتقاطر العرب إلى المساجد، خاصة الرجال (كانت تخصص أماكن خاصة للسيدات فى المساجد، وكن يصلين منعزلات عن الرجال). وإذا كانت المساجد قد امتلأت بالمصلين، فإن الرجال يبسطون سجاجيد الصلاة بجانب المسجد، على الرصيف، وحتى على الطريق، ويقيمون الصلاة فى الهواء الطلق. وقد كنت دائما أشعر بالحرج وأنا أراقب المصلين، وكنا نبتعد عنهم أنا وناتاشا فورا. ولكونى أوروبيا وغير مسلم، فلم أدخل أبدا أى مسجد، إلا تلك التى تحولت إلى متاحف كبيرة، بدلا من كونها دورا للعبادة. وكان مسجد "محمد على" بالقلعة، أحد هذه المساجد التى زرتها. وهو مبنى على الطراز "الإسطمبولى"، وليس العربى (بالمناسبة، إذا صدقت الكتب، فإن محمد على نفسه لم يكن يعرف العربية، وكان يتعامل مع الثقافة العربية بلا مبالاة، ولكونه ألبانيا، كان الطراز التركى أقرب له، على ما أعتقد، رغم أن علاقاته بتركيا كانت متوترة تماما). ويترك المسجد نفسه انطباعا عند مشاهديه بسبب حجمه وفخامة زينته الداخلية. ويسمى أيضا هذا المسجد "المسجد الألبسترى"؛ لأن جدرانه وأعمدته مصنوعة من الألبستر، كما أن بياض لونه يعطى إحساسا إضافيا باتساعه وبامتلائه بالضوء. وتتدلى من أعلى نجفة مركزية ضخمة، وأربعة أصغر منها. وقد تطلب بناء هذا المسجد أكثر من ٣٠ عاما من العمل الدءوب المتواصل. وقد دفن "على" فى هذا المسجد.

ويوجد تحت سقف المسجد، وبحوشه، الكثير من الأعمدة، التى تحمل العقد وقبب السقف، المحاذية لسياج ذى ثلاثة جدران. ويوجد كالمعتاد داخل الحوش حوض للوضوء، وهو يقع تحت سقف شبيه بالباغودة الصينية.

وقد لعبت القلعة، التى بنيت فى نهاية القرن الثانى عشر، على مدى عدة قرون دورا مماثلا للكرملين الذى فى بلدنا، أى كانت قلعة، ومقرّا للحكام، وثكنة

للجنود الذين يحرسونهم. وحاليا يوجد متحف حربى فى أحد القصور، ومتحف "محمد على" فى قصر آخر. وقد بقى فقط جداران من جدران القلعة، التى بناها "صلاح الدين" (مؤسس الأسر الأيوبية، وهو من أصل كردى)، هما الجدار الشرقى، والآخر الجنوبي. وقد شارك الصليبيون فى بنائها، حيث إن أعدادا كبيرة منهم سقطت فى أسر صلاح الدين. وبعد ذلك أعيد بناء القلعة عدة مرات. أما الآن فقد أصبحت، أساسا، أحد المزارات السياحية. وبالإضافة إلى كل ذلك، يظهر من فوق جدران القلعة منظر عام لكل المدينة. فحتى أهرام الجيزة تظهر من هنا جيدا.

وتبدأ المدينة القديمة فورا من عند سفح القلعة. وقد حفظ بها الكثير من الأشياء الشيقة. ويمكن التجول فيها كأنها محمية معمارية، تاريخية و"إتنوغرافية"، فهى ليست متحفا، حيث كل شىء قد مات وتم رصه للعرض، بل تمثل الجزء الحى من المدينة، الذى يموج بالحياة، ويكتظ به الناس على اختلاف ملابسهم. منهم من يلبس الجلابية، ومنهم من يلبس ملابس شبه أوروبية، وفى كل مكان ضجيج وأضواء بالأسلوب الشرقى، وفيه عربات "كارو" مربوط بها حمير، وتقريبا فى كل متر يوجد من يتاجر فى شىء ما، واضعا بضاعته على منضدة صغيرة، أو صندوق، أو ببساطة على الأرض، أو يقوم بعرض بضاعته من "كشة" يحملها على رأسه، أو يربطها على صدره. وهنا توجد سوق شرقية بمعنى الكلمة، بكل تنوعاتها، وسماتها، وجمالها وروائحها. وفى بعض الأحيان كنا، أنا وناتاشا، نتجول لفترة طويلة فى الحوارى المتقاطعة إلى أن يلجأنا التعب أو الحر إلى العودة للسيارة.

ومن وقت لآخر كنا نذهب إلى أكبر أسواق القاهرة "خان الخليلى"، ليس فقط بسبب الفضول. لكن لشراء بعض الأشياء. وقد أنشئت هذه السوق منذ ١٤٠٠ عام، وكان يوجد قبل ذلك سوق للعبيد فى هذا المكان. وتمثل هذه السوق مدينة بحد ذاتها داخل المدينة. فتوجد بها أكثر من ألف دكان وحوار، وشوارع جانبية، وعطفات مسدودة وأزقة. لكن يجب فقط أن يباع كل شيء. وكنا نحب، بصفة خاصة، أن

نرى ما يوجد فى دكاكين العطارة. فهناك يمكن الإحساس بروائح كثيرة! والثراء الموجود هنا، لم أره فى أية مدينة أخرى، رغم أننى سافرت كثيرا حول العالم. وكنا نشترى كميات صغيرة من التوابل؛ حتى يكون هناك سبب لمجيئنا مرة أخرى بعد فترة إلى محلات العطارة.

ولم تكن تتم فقط أعمال التجارة فى خان الخليلى، فقد كان الناس يعيشون فوق المحلات ذاتها. كما كان يعمل أيضا هناك الحرفيون، أحيانا وهم جالسون على الأرض مباشرة، أمام محلاتهم. وكنت أحب مراقبة ما يحدث، وبصفة خاصة، كيف يطرق صناع النحاس أعمالهم على طبق أو صينية؟ أو كيف كانوا يحفرون رسما على كوب؟ والمصريون فنانون مهرة، فكل ركن من "خان الخليلى" يشهد على ذلك. وتوجد هنا بضائع مختلفة من سجاد وأقمشة، وكل ما يمكن تخيله من "ثياب، وأوان منزلية، وحلى من المعادن النفيسة، وأدوات مطبخ، ومنتجات فخارية، وثريات وفوانيس - تناسب أى ذوق وأى جيب - ومصنوعات جلدية". ففى "خان الخليلي" يوجد كل شىء، بالإضافة لكل ما يصلح للأكل.

وقد أقنعنا زملاؤنا الذين يعيشون هنا منذ فترة بضرورة الفصال عند البيع والشراء فى السوق. لكن كيف نفاصل دون معرفة اللغة العربية؟ كما أننى لم أكن أحب ذلك. لكنى لاحظت أننى لو اكتفيت بفتح محفظتى ودفعت، فإن البائع العربى كان ينظر إلى غير مرحب، وأحيانا باستياء، فكنت أدفع أكثر من اللازم، لكن لم تكن الفرصة متاحة للبائع للاستمتاع بمدح بضاعته، وأن يتجادل بسبب ثمنها. وناتاشا أيضا لم تكن تحب أن تفاصل. لكن كان يختلف سائقنا "يورى بتروفيتش" عنا، فقد كان خبيرا جدا فى ذلك. وكان يعرف بضع جمل بالعربية وأبسط الأرقام، لكنه كان يندفع فى النقاش مع البائع، معوضا عدم كفاية الكلمات بتعبيرات وجهه، وحركات يديه، مبينا الأرقام على أصابعه. كما أنه كان يقدم عرضا مسرحيا كاملا بانصرافه عن المحل، ثم بعودته إليه. لكنه كان دائما ما ينجح فى خفض الثمن، كما أن البائع كان دائما ما يهز يده فى النهاية، باعتباره شخصا يفهم أصول التجارة

الحقيقية. وكان يسرنا أنا وناتاشا مراقبة هذه العملية، كما أن يورى كان يشعر بأنه بطل. وفى النهاية كان يرضى الجميع، بما فيهم البائع. أضيف أن "خان الخليلي" يعتبر أكبر أسواق القاهرة، لكنه ليس السوق الوحيدة، فتوجد غيرها العشرات فى القاهرة.

وأريد أن أحكى، باختصار، عن شيئين يخصان القاهرة: بوابات المدينة، والمساجد. فقد كانت تحيط أسوار مسننة عالية بالمدينة القديمة. حفظت بعض أجزائها حتى اليوم، كما حفظت بعض بوابات المدينة. وكانت المداخل نفسها صغيرة. ويبدو أنها صممت بحيث تمر منها فقط عربة تجرها الخيول. ولكى تتم حماية البوابة بنجاح؛ تم بناء برج قلعة حربية عال على كل من جانبيها. ومعمارها مختلف. فمنها المربع الكالح (بوابة "باب النصر")، كما يوجد البعض ذو المظهر الجميل، نصف المستدير (بوابة "باب الفتوح"). لكن بوابة "باب زويلة"، بأبراجها نصف المستديرة، المزينة بالأحجار المشكلة، هى الأجمل. وتعلوها مئذنتا مسجد "السلطان المؤيد" المزخرفتان. وتختفى هنا إحدى سخريات التاريخ. حيث كانت هذه البوابة تستخدم فى العصور الوسطى لتنفيذ عمليات الإعدام. وكان الجلاد المقيم بجانبها مستعدا دائما لقطع رأس المحكوم عليهم، أو يدهم أو ...، فقد كان ثمن حياة الإنسان– فى ذلك الوقت– بخسا، وسالت الدماء بغزارة. وكانت تعلق الرؤوس المقطوعة فوق البوابة؛ لتكون عبرة للمارة! (صنعت "كوات" خاصة فى الجدار، فوق البوابة، لهذا الغرض). وقد تم شنق آخر سلطان مملوكى على هذه البوابة، عندما استولى الأتراك على القاهرة.

وقبل ذلك بمائة سنة بنى سلطان مملوكى آخر، بجانب البوابة، مسجدا حمل اسمه "المؤيد". وقد بنى مكان السجن الذى سجن فيه هذا السلطان نفسه. وكان قد نذر بناء مسجد، إذا أخرجه الله من السجن. وكان الله هذه المرة رحيما به. وهذا المسجد مشهور بأنه من أجمل المساجد.

ولم يكن من الممكن، عندما شاهدنا من القلعة منظر المدينة القديمة الممتدة عند سفحها، ألا نلاحظ مجموعة المساجد القريبة من القلعة. وكان أحدها يجذب النظر بجدرانه الملساء العالية، التى بدت أعلى، لأن المسجد نفسه كان مشيدا على مرتفع طبيعي. كما أنه تميز بأبعاده العامة، وبحجم قبته ومئذنته (تبين أنها الأعلى فى القاهرة، حيث تبلغ ٧٠ مترا). وكان يقف بجواره مسجد أصغر حجما، وعلى يساره مسجد بمئذنة غير عادية بالنسبة للقاهرة؛ فقد كان يلتف حولها من الخارج سلم حلزوني. وقد أصبحت هذه المساجد هدفا لزيارتنا التالية للمدينة القديمة.

والمسجد الذى ذكرته أخيرا معروف بأنه الأقدم فى هذا الجزء من القاهرة. لقد بناه "أحمد بن طولون" فى القرن التاسع، وهو ابن عبد تركى، أسس أسرة الطولونيين الذين حكموا مصر حتى بداية القرن العاشر. ويقال إنه عند بنائه استخدم الكعبة العظيمة، الموجودة فى مكة، كنموذج. وأبعاد الساحة المستطيلة تقريبا كبيرة جدا بالنسبة لمدن القرون الوسطى، ويصل طول كل جدار، وكذلك يصل طول الممر المقنطر الموازى، إلى ١٦٠ مترًا تقريبا. ولقد شاهد المسجد الكثير طوال حياته الطويلة، كما أنه استخدم كمخزن، وفى القرن التاسع عشر استخدم كمنزل للفقراء. وقد عاد مرة أخرى مسجدا. والمئذنة تقف منفصلة، لذلك إذا دفعت بقشيشًا مناسبا للحارس، يمكنك الصعود على السلم الخارجى، وهو ما فعلناه فى هذه المرة. وعامة كل المآذن تسمح برؤية مناظر عامة جميلة، لكن لا يمكن أن يصعد إليها البسطاء، خاصة غير المسلمين. وهكذا أصبحت مئذنة مسجد ابن طولون هى الوحيدة التى تسلقتها.

أما المسجد ذو القبة الكبيرة الذى تحدثت عنه أعلاه، فهو مسجد "السلطان حسن". ويرجع بناؤه إلى منتصف القرن الرابع عشر. ويعد من روائع المعمار المصرى العربى الديني، رغم أننى شخصيا لا أفهم السبب. فهو يشبه من الخارج قلعة حربية، أما من الداخل فهو زهيد تماما. وقد تم بناء القبة فى وقت لاحق، حيث إن القبة القديمة تهدمت فى القرن السابع عشر، وأعيد بناؤها على الطراز التركي،

كما أن هناك مئذنتين من الثلاث الأصليين قد تهدمتا، وأعيد بناء واحدة منهما فقط وبارتفاع أقل. لذلك للمسجد حاليا مئذنتين مختلفتان. لكنى أعترف أن المسجد عامة مدهش جدا، فارتفاع جدرانه يصل إلى ٤٠ مترا تقريبا، وهو ما يسمح بتصور ضخامة المبنى. كما أنه يتميز بسمة أخرى، فقد تم تدمير أحد الأهرام الصغيرة فى الجيزة؛ للحصول على أحجاره من أجل بناء هذا المسجد. كما أن صلاح الدين اتبع الأسلوب نفسه، فقد استخدم أحجار أحد أهرام الجيزة فى بناء قلعته.

وقد تم دفن السلطان حسن، وهو أحد الحكام المماليك، فى المسجد الذى بناه. وكما أشرنا من قبل، فقد بنى، تقريبا، كل حاكم لمصر- بعد الفتح العربى للقاهرة - مسجدا فى العاصمة. ولا أعرف هل تم ذلك فقط لأسباب دينية بحتة؟ أم للتكفير عن الخطايا، التى تتجمع بكثرة عند كل حاكم؟ أم لرغبته فى ترك أثر مادى بعد موته على هيئة مسجد؟ أم فى النهاية أنهم بنوا لأنفسهم فى حياتهم، مثل الفراعنة، أماكن مناسبة لدفنهم؟ وعلى الأرجح كانت توجد عند كل حاكم أسبابه الخاصة. كما يمكن أن يكون ذلك قد تم وفقا للتقاليد. لكن يبقى واقع، أن الكثير من المساجد أصبحت مقابر للحكام التى بنيت فى عهدهم. كما أن بعضها قد بنى منذ البداية خصيصا لكى تضم رفاتهم.

وقد بنى مسجد "الرفاعى"، المجاور لمسجد "السلطان حسن"، لهذا الغرض. وتم بناؤه بعد مسجد السلطان حسن بخمسمائة سنة، بأمر والدة الخديوى "إسماعيل"، من أسرة "محمد على". وقد تم دفنها، هى وبعض من أعضاء أسرتها، فى هذا المسجد، ومنهم"الملك فؤاد". ولا يضم أى مسجد آخر فى القاهرة هذا العدد من الشواهد، والزخرفة المنحوتة. وفى النهاية، إن عبَّر هذا عن شيء فإنما يعبر عن زهو الإنسان بصور مختلفة.

ويعرف كل مسلمى العالم مسجد "الأزهر" القاهرى. وهو، أيضا، موجود فى المدينة القديمة، ويعد من أقدم المساجد بها. وقد بدء بناؤه تقريبا فور تأسيس الفاطميين للقاهرة، وتم الانتهاء منه فى العام ٩٧٢. وفى البداية، كان مسجدا فقط،

ثم أصبح مسجدا ومدرسة، أى مكان للعبادة، ومدرسة دينية، ثم بعد ذلك أكاديمية إسلامية كبرى، تحولت فى عام ١٩٣٠، بأمر ملكى، إلى جامعة إسلامية. وبالطبع تم إعادة بناء وتوسعة مسجد الأزهر عدة مرات، فتحول إلى مركز رئيسى لتعليم علماء ومفسرى القرآن، والوعاظ والشيوخ المسلمين. وقد امتد دوره إلى ما هو أبعد من ذلك، خارج حدود مصر، حيث يتم فيه تعليم الشخصيات الدينية المستقبلية، الوافدة من عشرات الدول الإسلامية. كما أن له عدة فروع. وفى الوقت الحالى، لا يدرس فيه الطلاب العلوم الدينية فقط، لكن أيضا مجالات المعرفة الأخرى، ومنها العلوم الدقيقة والطب. لكن يغلب على العملية التعليمية فى الأزهر توجه دينى واضح.

لم تكن ذكرياتى المتعلقة بالأزهر هى الأحسن. ويتلخص الأمر فى أن المراكز التعليمية الإسلامية العاملة بالاتحاد السوفييتى كانت مهتمة بإقامة علاقات عمل مع الأزهر، خاصة بإرسال خريجيها إليه، فى مهمات علمية أو لزيادة معرفتهم، لذلك فقد تم تكليف السفارة، عن طريق وزارة خارجية الاتحاد السوفييتى؛ للاتفاق مع رئاسات الأزهر على أن يستقبل، فى البداية، مجموعة صغيرة للدراسة به. لكن رغم محاولاتنا المستمرة، لم ننجح فى الاتفاق. فقد تبنت رئاسة الجامعة الصورة التالية للرفض: تمت الموافقة على إلحاق خريجى معاهدنا التعليمية الدينية (كانوا على نفس مستوى طلبة الدراسات العليا، أو أعلى) فقط بالمدرسة الابتدائية للأزهر. حيث كان يدرس فتيان فى الثانية عشرة أو أكثر قليلا. ومن الواضح أن هذه الشروط المهينة للغاية لمسلمينا لم تكن مناسبة لهم. وقد حاولنا التوسط، بأن نوضح للأزهريين أن مستوى علم الطلبة، الذين نقترح إرسالهم، والذين تلقوا العلم من قبل، متميز، لكن لم تفلح أية حجج. وأصبح من الواضح أن رئاسة الأزهر، ببساطة، لم تكن ترغب فى السماح بدخول المواطنين السوفييت للجامعة. وهكذا انتهى الأمر فى ذلك الوقت. كما لم تلق دعوة الإمام الأكبر للأزهر، الشيخ "جاد الحق"- التى قدمناها له فى عام ١٩٨٥، لزيارة الاتحاد السوفييتى مع وفد من

رجال الدين – أى اهتمام. (كانت الدعوة مقدمة من المفتى "ش. باباخانوف"، رئيس القسم الدولى لإدارة الهيئات الإسلامية بالاتحاد السوفييتي).

الكنائس المسيحية بالقاهرة - رؤية من الداخل

ليست المساجد فقط ما هو شيق فى القاهرة القديمة، لكن أيضا كنائس المسيحيين المصريين- الأقباط، حيث يتعدى عمر بعضها أقدم المساجد بالقاهرة. وللأسف فقد هدم العرب كثيرًا من الكنائس القبطية؛ فقط من أجل استخدام أعمدتها الحاملة لأسقفها، لأروقة المساجد. وقد تم بهذه الطريقة بناء أول مسجد فى البلد، فى المدينة التى ستصبح فيما بعد القاهرة. وقد بقى هذا المسجد حتى زماننا باسم القائد العربي، الذى فتح مصر فى عهد البيزنطيين "مسجد عمرو بن العاص". ويزين ساحته الداخلية، حتى اليوم، مجموعة من الأعمدة ذات الأحجام المختلفة، مأخوذة من الكنائس القبطية. يا ترى كم كنيسة هدمت للحصول على ٢٠٠ عامود من أجل المسجد؟ وكم من المساجد بنيت بنفس هذه الطريقة؟

ويصل إجمالى عدد الكنائس القبطية فى مصر إلى حوالى ٤٠، وأقدمها موجود فى حى "قصر الشمعة"، بالمدينة القديمة. لكن من الصعب تخيل شكلها الأصلي. وعند زيارتى لإحدى أقدم هذه الكنائس – كنيسة السيدة مريم، المعروفة بالكنيسة "المعلقة" – كانت تبدو فى حالة جيدة، ومن الخارج، كأنها حديثة جدا. وقد تكون أعمال الترميم، التى لزمت بعد حريق عام ١٩٧٩، الذى اشتعل فى ذلك العام؛ نتيجة للصدامات بين الأصوليين والأقباط، هى المسئولة عن ذلك. وكان على "السادات" أن يصرف بعيدا التوتر الذى تجمع فى المجتمع؛ نتيجة "كامب ديفيد"، والمفاوضات مع "إسرائيل". وقد وقع الاختيار على المجتمع القبطى. فسرت موجة خراب، كانت الكنيسة المعلقة من بين ضحاياها.

وقد اتفق أحد العاملين القدامى بالسفارة مع رئيسها على زيارتنا لها، لذلك كان فى انتظارنا أحد القساوسة، عند وصولنا إليها فى الموعد المحدد. وكان يرتدى

ملابس سوداء بالكامل. كما كان غطاء رأسه القبطى التقليدى أيضا أسود. وكان الحديث بالعربية بواسطة رفيقي. وكنا نقف أسفل الدرج المرمرى الأبيض، وكانت عشرات من درجاته توصل إلى أعلى، إلى ارتفاع كبير. وتبين أن كنيسة السيدة العذراء لا تقف على الأرض، ولا على تل، لكنها مشيدة على برج وجدار حصنْ "بابليون"، الذى بناه الرومان. ومن هنا، جاء الاسم العربى "الكنيسة المعلقة"، أى الكنيسة المرتفعة. وقد بنيت، أيضا، كنائس أخرى على هذا الحصن نفسه. وقد زرناها هى أيضا بعد ذلك، لكن فى الوقت الحالى صعدنا الدرج إلى الساحة التى أمام الكنيسة، تحت المظلة الطويلة الممتدة على كل الواجهة. وكانت الكنيسة نفسها من الخارج بيضاء تماما، وكان معمار واجهتها، بما فيها من كورنيش وبرجين بجناحين على الجانبين، يعلوه صلبان، يمكن إرجاعها تماما إلى القرن التاسع عشر. وتوجد مئات مماثلة من هذه الكنائس منتشرة فى أوروبا. لذلك تبين أنه، فى الحقيقة، أعيد بناء الكنيسة المعلقة فى تلك الفترة، لكن كما أكد دليلنا، تم إنشاؤها فى القرن الخامس أو السادس، ودمرت بشدة فى القرن التاسع، ثم أعيد بناؤها فى القرن العاشر، ثم كانت لمدة ٤٠٠ عام مكانا يتواجد فيه البطريركات، أى أصبحت الكنيسة المسيحية الرئيسية فى البلد. أما الآن، فتلعب هذا الدور الكنيسة القاهرية الكبيرة والجميلة "كنيسة القديس مرقص"، التى تم الانتهاء من بنائها فى عهد عبد الناصر، فى الستينيات.

وقد خلعنا أحذيتنا عند مدخل الكنيسة، كما هو متبع عند الأقباط. وفى الداخل كانت تبدو أوسع من المتوقع، عند النظر إليها من الخارج. حيث كانت تلتصق بها مبان أخرى من الأجناب. ولم يكن يوجد أحد داخل الكنيسة غيرنا، فى ذلك الوقت، لذلك تمكنا من مشاهدتها، ومن المناقشة مع القس، دون أن نزعج أحدا. وكانت الكنيسة بديعة من الداخل: كانت جادة بدرجة كافية، لكنها لم تكن كئيبة، ولم يكن فيها أى شيء خاص بغرض الزخرفة، لكنها لم تكن مملة من ناحية الذوق، وكانت تنتمى إلى الإنسان أكثر منها لله!

وتنتمى الكنيسة القبطية إلى الكنيسة الأورثوذكسية، لكن لها سماتها الخاصة العقائدية، وتلك المتعلقة بالطقوس. منها أن المصلين لا يقفون أثناء أداء الطقوس الدينية، لكنهم يجلسون على كراسٍ خشبية بمسند للظهر، كما أنه لا يوجد حائط حامل للأيقونات، بالشكل الذى اعتدنا أن نراه فى كنائسنا. ويوجد بدلا منه حاجز خشبى، غنى بالزخارف المنحوتة والتطعيم، فى هذه الحالة بالعاج. كما أن عددًا من الأيقونات مرتبة فى صف واحد، فقط أعلى الحاجز. وفى وسط هذا الصف، يوجد رسم للمسيح والسيدة العذراء. وتكثر الرموز الدينية فى الزخارف، خاصة رسوم الصليب. وقد قال لنا القس إن هذا الحاجز صنع فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر وإنه يعد أحد أهم مفاخر الكنيسة. ويوجد أيضا بالكنيسة منبر أقدم (يرجع إلى القرن الحادى عشر)، تقرأ عليه المواعظ. وهى قد صنعت من الرخام الأبيض، والملون المزخرف بالحفر، وتحملها دستة أو أكثر من الأعمدة المنحوتة. وهذا هو أفضل الأعمال الفنية قيمة فى زخارف تلك الكنيسة.

وعامة، الكنيسة تتكون من أكثر من بهو، يبلغ عددهم ثلاثة ، أو هذا ما يعتقد. فالبهو العالى الرئيسى مقسوم بالطول من منتصفه برواق مقنطر جميل، محمول على أعمدة، وفى الأسفل أيضا بمشربية خشبية. لذلك يكون هناك ما يمثل أربعة أبهاء: اثنان فى الوسط، وآخران على الأجناب. وترتكز قبب كل بهو جانبى على ثمانية أعمدة. ويظهر الكل مع بعضه بشكل جميل سهل تقبله، بغض النظر عن كثرة العناصر المعمارية داخل الكنيسة. وكان هناك اضطرار لتقسيم البهو الأوسط؛ لكى يكون هناك ما ترتكز عليه الكتل الخشبية المكونة للهيكل الداخلى لسقفه.

وتوجد فى الكنيسة الكثير من الرسوم على الحوائط. وهى ليست زاهية، فقد أطفئت بفعل الزمن؛ لذلك فهى لا تجذب النظر إليها. ويبدو أنها كانت أكثر زهوا فى الماضى. وقد أرانا القس أنه يوجد رسم ملون ممسوح لأحد القديسين بقى على أحد الأعمدة. وتوجد زخارف فى كثير من الأماكن، ومنها الرواق الرئيسى.

ويظهر من كل ما كتبت أن "الكنيسة المعلقة" قد أعجبتنى. وقد التقطت عدة صور داخل الكنيسة، بتصريح من القس، ثم خارجها. وهذه الصور ساعدتنى أن أتذكر عند الحديث عن زيارتى للكنيسة. وأنا لا أعرف إذا كان أحد السفراء السوفييت قد زار هذه الكنيسة قبلى أم لا؟

ولم أستطع مشاهدة باقى كنائس هذه المنطقة إلا على عجالة، بسبب ضيق الوقت. ولذا كنت أخطط للحضور إلى هنا مرة أخرى، لكنى لم أتمكن من ذلك. ولقد تم إعادة بناء كنيسة "القديس أبو سرجى"، التى بنيت فى القرن السابع، عدة مرات. لكنها تشتهر بأنها، طبقا لما يروى، آوت العائلة المقدسة لبعض الوقت، فى مغارة بها. وهذه الكنيسة وكنيسة "القديسة باربارا" عبارة عن كاتدرائية ثلاثية الأبهية. ويبدو أن بها الكثير الشيق، لكننا لم نتعرف عليه فى ذلك الوقت، وقد اعتقدت أن الكنيسة الأخرى، ذات القبة فى هذا المكان، التى يعلوها صليب، وشبه المستديرة (أو المستديرة تماما) فى المسقط، هى أيضا قبطية. لكن تبين أنها "كنيسة مارى جرجس" الأورثوذكسية اليونانية. وهى قد بنيت مستديرة؛ لأنها بنيت مباشرة فى برج الحصن الرومانى. ومن الصعب أن يحدث المرء عن ذلك، إذا لم يكن يعرف تاريخ هذا الجزء المميز من المدينة القديمة، الذى يضم داخله كل من سبقه تاريخيا.

المتناقضات القاهرية

لم أكن أريد استخدام هذا التعبير، لكن لا يوجد تعبير أنسب وأدق يمكن استخدامه، وهو، بالمناسبة، يناسب الكثير من المدن الكبيرة فى العالم- "القاهرة" بلد المتناقضات. وهى متناقضات حادة جدا "اجتماعية، وثقافية، ومعمارية، وبيئية، وغيرها". فهنا يمكن أن يتجاور الفقر تماما مع الغنى. فإذا ذهبت إلى دار نشر "الأهرام"، حيث يوجد بها "مركز الدراسات الدولية" الذى يحمل الاسم نفسه. تجد المبنى فاخرًا تماما، والشارع الذى يقع فيه حديثًا جدا. لكن إذا سرت خلفه مئة متر،

ستجد نفسك فى أحد أفقر أحياء القاهرة، فى بولاق، حيث "القذارة، والتراب، والفقر، وزحام كبير للسكان". كما لا توجد به أية علامات تشير إلى التحسن، على مدى عشرات من السنوات. وللأسف، يوجد أكثر من مكان مماثل لذلك فى القاهرة. فرغم ديناميكية تطور المدينة، فإن التطور الجغرافى غير متجانس، رغم وجود أمل لوصوله إلى الأحياء المماثلة لبولاق.

والفقر أحد سمات الحياة فى المدينة. فيمارس الشحاذة كل من "الكهول، والأطفال، وأناس يبدون قادرين تماما على العمل". وهذا الأمر الأخير مفهوم تماما، لأنه من الصعب العثور على عمل، حتى لو كان أجره منخفضا تماما. ففى القاهرة، يحصل مئات من الرجال على دخول غير منتظمة. وهنا يوجد تفسير للظاهرة التى أدهشتنى فى البداية، والتى تتلخص فى أننى رأيت فى كل الهيئات الحكومية التى زرتها زيادة ملحوظة من العاملين، خاصة من الفئة الأدنى - السعاة، والبوابون، والنوبتجية، وموزعو الشاى....إلخ. والحكومة تدرك ذلك، لكنها تبقى عليهم لكى يكون هناك من يطعم عائلاتهم، التى تكون عادة مكونة من عدد كبير من الأفراد.

ورغم صعوبة الحياة لملايين من سكان القاهرة، إلا أنهم عامة طيبون، وبشوشون، ومضيافون. وعامة، لا توجد عندهم عدوانية، رغم أنهم يثيرون ضجيجا؛ بسبب دمهم الحار، كما فى الجنوب عندنا. لكن الأمر يختلف إذا تم تهديد حياتهم أو إغضابهم، أو دفعهم إلى حائط، فهم عندئذ يتفجرون، كما حدث أكثر من مرة فى الماضى، عندما حاولت الحكومة خفض الدعم للسلع الرئيسية للفقراء. فقد خرج الشعب إلى الشوارع، وأقاموا المتاريس، وأحرقوا مراكز الشرطة. ولأن مبارك شخص ذكى، وسياسى حريص، فقد اجتهد لكى لا يتعدى الحدود، التى إذا تم تجاوزها، تكون هناك اضطرابات. لذلك ففى أثناء إقامتى بمصر، ورغم ضغوط جهات التمويل الدولية، مثل: "صندوق النقد الدولى" و"البنك الدولى لإعادة البناء والتنمية"، فإنه لم يلجأ إلى إلغاء الدعم المذكور. ولا يتمكن كل رئيس من فهم

شعبه. لكن يتمتع حسنى مبارك بهذه الصفة، والدليل على ذلك هو طول المدة الناجحة التى بقى فيها على مقعد الرئاسة.

عند الأهرام العظيمة

ترتبط دائما مصر عندى بالأهرام، مثلما يحدث مع غالبية الآخرين، منذ سنوات الدراسة بالمدرسة. ولقد تم بسرعة نسيان كل الملوك الذين يحملون أسماء رمسيس، وتحتمس، وباقى الفراعنة، والذين تم الحديث عنهم فى كتب التاريخ المدرسية، عند دراسة تاريخ العالم القديم، أما الأهرام فقد استقرت بقوة فى الذاكرة. وأصبح من السهل جدا، الآن، مشاهدتها بعينى ولمسها، عندما أصبحت فى القاهرة. وكان ذلك يتطلب فقط أن أجلس فى سيارة، وأتوجه إلى طرف ضاحية الجيزة التى أقيم بها. وقد سرنا ١٥-٢٠ دقيقة بالسيارة (الجزء الأخير من الطريق اسمه "شارع الهرم")، ووصلنا إلى الهدف.

الآن، وبينما تكتب هذه السطور، أصبح الوصول إلى الأهرام أصعب. فقد أحاطت بها السلطات المصرية بحاجز؛ على أمل حماية الآثار التاريخية من رغبة السائحين المستمرة فى كسر أية قطعة منها؛ لأخذها كتذكار. وأصبح من الممنوع الوصول إلى الأهرام بالسيارات. وقد كان الأمر أسهل كثيرا فى الثمانينيات. حيث كان قد بدأ تحكم الشرطة فى الوصول إلى الأهرام، لكن كان يسمح بدخول السيارات ذات الأرقام الدبلوماسية، وخاصة تلك التى تحمل سفراء بحرية، وكنا نستطيع التجول بالسيارة فى منطقة الأهرام كما نريد. وكانت الموانع طبيعية فقط، وكانت تشق خنادق كثيرة، فقد كانت كتل حجرية وحجارة فقط تملأ المكان. كما كان يوجد طريق ممهد من أطراف المدينة إلى الأهرام، وكان يتعرج عند الأهرام نفسها. وبذلك كان يمكن للكسالى، أو لمن ليس عنده وقت، أن يشاهد الأهرام دون أن يخرج من السيارة. وكان يمكن لمحبى الغرائب، أو الأحاسيس الحادة، أن يقوموا بذلك من فوق ظهر جمل أو حصان، حيث كان يعرض العرب القادمون من

القرى المجاورة، الذين يسترزقون من ذلك، على السائحين ركوبها بإلحاح. كما كان يمكن التقاط الصور مع الجمال، أو بجانب جمَّال يلبس جلابية نظير مبلغ مالى.

ولم تترك لدى الأهرام أى انطباع من على بعد. وأعتقد أن سبب ذلك هو كثرة صورها الفوتوغرافية فى الكتب والمجلات؛ فقد رأيت ما توقعته. لكن تتكون انطباعات قوية، لا تنسى، عندما تصبح قريبا منها، خاصة عندما تكون بجانبها. عندئذ تشعر بضخامة حجمها، وتقارن رغما عنك نفسك، بحجمها الصغير التافه، بهذه البنية الحجرية الضخمة. ولسبب ما لم أشعر بمثل هذا الإحساس أثناء وجودى فى الجبال. وقد يكون السبب أنك لا تتقبل فى العقل الباطن الطبيعة، مثلما تتقبل ما تصنعه يد الإنسان. لذلك يمكن للأخيرة أن تدهشك أكثر. والجبل المصنوع بيد الإنسان– أهرام الجيزة العظيمة– هى جبال صنعتها يد الإنسان من الحجارة، كما أن الشكل السليم الذى صنعت به يدعو إلى الدهشة.

وربما كانت أهرام الجيزة فى عصر الفراعنة، وهى تلمع بجوانبها الناعمة البيضاء، تعطى انطباعًا عن شيء إلاهى ليس أرضيًا، من حيث أبعادها وسمة وسلامة شكلها المختلف عن الطبيعة المحيطة. والآن، وبعد أن نزعت، بدون رحمة، هذه الطبقة الرائعة التى كانت تغطى الأهرام وانكشفت ضلوعها، ترى هناك عددا لا نهائيا من صفوف الكتل الحجرية المرصوصة التى تبرز أطرافها. وبذلك فقدت الأهرام مظهرها الإلهى الغامض، وأصبحت منشآت تنتمى إلى الأرض تماما. ومن المؤسف، بالطبع، حدوث ذلك. وطبقا لشهادة الرحالة الأوروبيين فإن الأهرام لا تزال مرتدية زيها الأبيض الناصع الجميل، المصنوع من بلاطات مصقولة من الحجر الجيرى، حتى القرن الرابع عشر. أما الآن فإن الطبقة السطحية موجودة فقط على قمة الهرم الثانى من حيث الحجم – "هرم خفرع". وكانت الأهرام لا تزال فى الماضى مغطاة عند قمتها بطبقة من الذهب. ويمكن تخيل كيف أنها كانت تلمع تحت أشعة الشمس ومضيفة لمعانها إلى لمعان

الأسطح البيضاء الشاسعة. وليس من باب الصدفة أن تمثل أهرام الجيزة العظيمة إحدى عجائب الدنيا السبع. وهى الوحيدة، من بين السبع، التى رأت القرن الحادى والعشرين من بعد الميلاد.

وتترك الأهرام انطباعا حتى الآن، لكنه مختلف. فأولا، تبدأ رغمًا عنك فى التفكير فى العدد الضخم من الأفراد، ومن الخامات التى استخدمت من أجل بناء الأهرام، وفى حجم العمل الذى تم إنجازه؛ للحصول على الحجارة، وتهذيبها، ونقلها، ورفعها، ورصها بهذا الإحكام وبهذه الدقة؛ لكى يتم بناء الأهرام على الشكل الذى تم التفكير فيه مسبقا. ويتكون الهرم الأكبر، هرم "خوفو"، من حوالى ٢.٣ إلى ٣ ملايين من الكتل الحجرية (طبقا لمختلف الحسابات)، متوسط وزن كل كتلة منها ٢.٥ طن. كما توجد داخل الهرم كتل حجرية أثقل بكثير- حتى ٤٠ طنا.

وتتحدث أبعاد هرم خوفو بنفسها عن نفسها. فيبلغ طول كل جانب عند القاعدة ٢٢٧.٥ م حاليا (عندما كان الهرم مغطى بطبقة خارجية كان أطول قليلا)، وارتفاعه ١٣٧ م (كان فى الماضى ١٤٦.٥). وقد قل ارتفاعه نظرا لتهدم قمته الهرمية، أما الآن، فإن الهرم ينتهى بمساحة مسطحة تبلغ حوالى ١٠ م^{٢}. وأثناء وقوفك عند سفح الهرم، ونظرك بجانبها، فإن طول الكتل الحجرية، الذى يقل قليلا عن ربع كيلو متر، يبدو لا نهائيا. ومجرد أن تدور حول الهرم فى الحر يمثل عملا شاقا. فهل يمكن تخيل كم كان من الصعب بناؤه؟ وقد كان قدماء المصريين لا يعرفون شيئا إلا الروافع والزحافات، وبعض الأجهزة البسيطة الأخرى. وتعادل مساحة الطبقة السفلى، التى كان يجب ملؤها بالكتل الحجرية، مساحة ٣٠ ملعب كرة! وهكذا كانت ترتب طبقة فوق أخرى إلى القمة. وكانت توجد أكثر من ٢٠٠ طبقة مثل هذه. ولا تعليق غير أنه "عمل رهيب... جهنمى".

والفكرة الثانية التى تمر برأسك رغمًا عنك (على الأقل حدث ذلك معى) هى: لماذا تم عمل كل ذلك؟ هل فقط لإرضاء شخص واحد، يحب نفسه وزهوه بلا حدود؟ وقد يكون لا يمثل شيئا، من حيث صفاته الشخصية، لكنه يتمتع بسلطة

ضخمة. وكان يريد أن يضمن مسبقا سلامة رفاته؛ من أجل حياة هادئة فيما بعد الموت، ولذلك قرر أن يخفيه فى داخل جبل حجرى صناعى، ذى سمك كبير، لم يبن أى فرعون قبله شيئا مثله، من حيث الحجم. وطبقا لهيرودوت، فقد استغرقت عملية بناء الهرم ٢٠ سنة، وعشر سنوات أخرى لبناء الطرق التى كانت تنقل عليها الأحجار. لكن هيرودوت زار هذه الأماكن، بعد ٢٠٠٠ سنة من بناء أهرام الجيزة، وقد استقى معلوماته من كهنة هليوبوليس. وحيث إنه لا توجد مراجع أخرى، فسوف نضطر إلى تصديق كلامه عن ثقة، رغم أنه من الممكن أن يكون غير صحيح.

أما عن "خوفو" نفسه، الذى كان يطلق عليه المصريون القدماء غالبا هذا الاسم، فليس من المعروف عنه، تقريبا، أى شيء إلا أنه عاش فى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد. ولم يعثر على مومياءه، فقد وجد تابوته فارغا، مثل كل غرف حجرات الدفن التى اكتشفت فى هرمه. وقد يكون الهرم ما زال يخفى شيئا ما فى جوفه، سيكشف الزمن عنه. لكن الاحتمال الأكبر هو أنه قد تم نهب مقبرة خوفو، كما حدث مع غالبية مقابر الفراعنة.

وتمتد أهرام الجيزة الثلاثة مكونة سلسلة فى اتجاه خط العرض. وهرم "خوفو" هو الأقرب إلى القاهرة، وخلفه يقع هرم ابنه "خفرع"، ثم بعد ذلك بقليل هرم حفيده "منقرع". ويقل هرم خفرع قليلا، من حيث الارتفاع والمساحة، عن هرم "خوفو". لكنك إذا نظرت إليه من بعد يخيل لك أنه أعلى من هرم خوفو، لكن ذلك فقط لأن هرم "خفرع" أقيم فوق مكان أعلى. ويبدو الهرم الثالث الأصغر كثيرا، كما أنه حفظ بدرجة أقل.

ومنطقة أهرام الجيزة تمثل مدينة كبيرة لموتى فراعنة الأسرة الرابعة، ولزوجاتهم وأقاربهم والمقربين منهم. وبالإضافة إلى هذه الأهرام الثلاثة الكبيرة، توجد أيضا عدة أهرام صغيرة، وعشرات كثيرة من المقابر، على شكل مصاطب (سنتحدث عنها بعد قليل). فإذا اعتبرنا أنه كان لكل هرم، على الأقل، معبدان

آخران: واحد لإجراء عملية التحنيط، والثانى للصلوات والطقوس الجنائزية، وأن الأهرام كانت محاطة، أيضا، بأسوار عالية، فيمكن أن نقول إنه يوجد الكثير جدا من الأهداف لإقامة الحفريات الأثرية. لقد كانت تجرى ولا تزال. ولذلك، وأنت تقترب من الأهرام، تتعامل مع حفر، وخنادق، وأحجار مقلوعة، وأكوام من الرمال، وبالطبع، ببقايا ما حفظ من المبانى والمدافن القديمة. وبصفة خاصة عند "أبى الهول"، فكل شيء محفور ومقلوب هناك - وهو أسد برأس إنسان، تم نحته من كتلة حجرية بارزة على السطح.

و"أبو الهول" هو أحد المعالم الأخرى للجيزة. وأبعاده تدهشك: ارتفاعه ٢٠ م، وطوله أكثر من ٥٧م. وحيث إن أبا الهول منحوت من صخرة رملية ضعيفة، فقد عانى كثيرا من اختلاف درجة الحرارة، ومن العواصف الرملية، وبدرجة أكبر من الإنسان نفسه. فقد كانت رأس أبى الهول تستخدم فى عصر المماليك والأتراك كهدف للرماية. لذلك فهى أكثر جزء منه عانى على مر الزمن. فهى لم تفقد فقط أنفها، لكن، أيضا، لحيتها و"الأورى" (غطاء رأس الفراعنة). وتم "علاج" أبى الهول أكثر من مرة. فتم سد شقوقه الكثيرة. وفى الماضى، أزيلت الرمال عنه. وقد بينت الحياة أنه إذا لم يتم اتخاذ إجراء ما، فسوف تمحوه الرياح، فى خلال زمن يتراوح بين ٥٠-٦٠ عاما، بواسطة الرمال. لذلك تتم باستمرار العناية بهذا الأثر الفريد؛ للمحافظة عليه.

وتنظر رأس أبى الهول إلى الشرق. وهو يبدو كما لو كان يحمى هدوءا من خلفه، حيث إنه طبقا لعقيدة قدماء المصريين، فإن مملكة الموتى موجودة فى الغرب. ويعتقد أنه تم نحت أبى الهول تقريبًا فى نفس زمن إنشاء الأهرام الكبيرة. كما يتم التأكيد على وجود تشابه بين رأس أبى الهول وتمثال خفرع المحفوظ حتى الآن. وليس من المستبعد أن ذلك الفرض يعتمد أكثر على أن أبا الهول يرقد على بعد ٣٠٠م أمام هرم هذا الفرعون. لكن بما أنه تم نحت أبى الهول من صخرة بارزة، ولم يتم نقله من مكان آخر، لذلك فلم يكن من الممكن أن يوجد فى مكان

آخر. لذلك من يمثل فعلا أبو الهول؟ يمكن فقط تخمين ذلك، ومن الصعب مطابقة شكل الوجه؛ لأن إتلافات رأس أبى الهول كبيرة.

وقد مات مؤسس الأسرة الرابعة، والد خوفو، الفرعون "سنوفرو"، فى عام ٢٥٦٥ قبل الميلاد. ويستنتج من ذلك أن عمر أهرام الجيزة، وأبى الهول، يزيد عن ٤٥٠٠ سنة. وقد أدى هذا العمر وحده إلى أن أتعامل مع هذه الأعمال الضخمة الموجودة فى طرف الصحراء باحترام كبير. وكنا نزورها فى الخريف والشتاء، عندما كان يمكن التجول عند الأهرام دون المعاناة من الحر. وإذا كان الجو ليس حارا، يمكن التنفس بسهولة فى الصحراء عن المدينة.

وقد ذهبنا إلى الأهرام فى وقت الظلام مرة واحدة فقط، عندما شاهدنا عرض "الصوت والضوء". وهو يستغرق حوالى ساعة، ويتلخص فى شيئين: يتم باستمرار تغيير ألوان إضاءة الأهرام وأبى الهول، وصوت مثل الرعد، من حيث درجته وقوته، يحكى عن مصر القديمة، وعن الأهرام وبناتها. وأحيانا تكون أجزاء من العرض صادرة من فم أبى الهول، كشاهد على كل ما كان يدور هنا. والموسيقى المصاحبة هى، أيضا، جيدة. وعامة العرض جميل جدا، ويقدم معلومات للسائحين الذين يتم تقديمه من أجلهم.

عند الحفريات مع الأثريين

وأتابع موضوع الأهرام بالحديث عن ذهابنا إلى الحفريات. وتجرى عمليات البحث عن الآثار فى مصر منذ أكثر من قرنين، منذ أن استثير الاهتمام بالآثار المصرية فى أوروبا، بالحملة الفرنسية لبونابرت على مصر. فقد اصطحب معه، فى حملته، مجموعة كبيرة من العلماء الفرنسيين، الذين منحوا العالم أول كتابة علمية عما اكتشفوه فى مصر. وبالطبع، كانت الآثار المصرية القديمة فى بؤرة اهتمامهم. ثم أدى فك شامبوليون لغموض النقوش الهيروغليفية إلى جذب اهتمام الأوروبيين أكثر إلى كل ما هو مصرى - من "أوراق البردى، والموميات،

والتماثيل، وأدوات الحياة القديمة... إلخ". وبدأت عملية اصطياد حقيقى للنفائس المصرية. وقد تم وقف عمليات نهب الإرث الحضارى المصرى، الذى كان يتم بوقاحة، فقط فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، عندما بدأت سلطات البلد تضع، تدريجيا، رقابة على النشاط الفردى للأوروبيين للبحث عن الآثار. وأنا أتذكر أننى عند زيارتى للمتحف البريطانى بلندن، اندهشت من كثرة المعروضات المصرية فيه. كما يوجد الكثير منها فى المتاحف الأوروبية والأمريكية الأخرى، وليس فقط فى المتاحف. حيث إن المسلات المصرية الضخمة تزين ميادين "باريس، ولندن، وروما، واسطنبول". كما أن إحداها موجودة بالحديقة المركزية بنيويورك. أما تماثيل أبى الهول الجرانيتية، فقد وصلت إلى شواطئ نهر "النيفا" بروسيا، وإلى أماكن أخرى بعيدة.

وفى النصف الثانى من القرن العشرين، تحافظ هيئة الآثار بحسم على مصالح مصر، وفى الوقت نفسه، تتعاون بنشاط مع الجامعات بالولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، التى لا زال بها اهتمام بالتاريخ القديم لمصر. فحجم أعمال الاكتشاف والبحث، والحفظ وترميم آثار الحضارة المصرية القديمة، كبير بحيث إن القاهرة لا تستطيع أن تعتمد فقط على إمكانياتها الخاصة، سواء العلمية أو المالية. لذلك تقوم بعثات من كثير من دول العالم بأعمال الحفريات والترميم فى مصر.

وللأسف لم يكن يوجد مثل هذا التعاون بين مصر والاتحاد السوفييتى، فى أثناء عملى بمصر. وكان العمل يتم، بدرجة أحسن، مع تشيكوسلوفاكيا من بين الدول الاشتراكية. ففى عام ١٩٨٥، تم الاحتفال بمرور ٢٥ سنة على إنشاء الفرع المصرى لمعهد علم المصريات، بجامعة "كارلون" ببراج. وكان هذا الفرع يقوم، فى البداية، بعمل حصر لكل الرسومات والكتابات التى على الحجارة، فى المنطقة التى غمرتها المياه؛ نظرا لإنشاء السد العالى. ثم بعد ذلك، تركز نشاطه فى التنقيب فى منطقة "أبى صير" (على بعد ٢٠ كم جنوب القاهرة). وهناك اكتشفوا، فى خلال سبع سنوات، أحد مدافن الدولة القديمة (مقبرة وزير أحد فراعنة الأسرة الخامسة).

ثم انتقلوا، بعد ذلك، إلى الجزء الجنوبى من مدينة الموتى ب "أبى صير"، وهو ما كانوا مستمرين فى العمل به فى وجودى. وقد سألنى، فى مرة، سفير تشيكوسلوفاكيا "سلافومير نوفاك" عما إذا كنت أرغب فى زيارة حفريات. فوافقت بحماس على اقتراحه، وقمت بهذه الزيارة بعد حوالى أسبوعين.

وظهر على ما يبدو أن هذه الزيارة أخذت طابعا رسميا تماما، حيث إنه عند وصولنا، أنا وناتاشا، إلى السفارة التشيكوسلوفاكية، كما اتفقنا فى الساعة التاسعة صباحا، كان مصطفًا هناك موكب كامل من السيارات. وسرنا بعد ذلك حسب الترتيب التالى: فى الأمام دراجة بخارية بسارينة، ثم سيارة "سكودا" بها الأثريون التشيكوسلوفاكيون، ثم خمس سيارات "مرسيدس" بها سفراء تشيكوسلوفاكيا، والاتحاد السوفييتى، ومنغوليا، وكوبا، وفيتنام، وسيارة بها مسئولون من هيئة الآثار المصرية، ثم سيارتا ركاب بها ضباط شرطة، وسيارتا نقل بها جنود من قوات الأمن المركزى. وكانت النتيجة تشير إلى يوم ٢٥ من نوفمبر عام ١٩٨٤. وكانت هذه أول مرة أغادر فيها القاهرة بشكل منظم إلى هذا الحد.

وكان الطريق يؤدى إلى الجنوب، على الضفة الغربية للنيل، إلى ذلك المكان الذى كانت توجد به، على مدى ٣٥٠٠ سنة تقريبا، فخر وجمال مصر، المدينة الجميلة "ممفيس". ويعتبر "مينا" مؤسسها، موحد مصر العليا والدنيا فى دولة واحدة، وهو مؤسس الأسرة الأولى للفراعنة. وقد بنى المدينة عند التقاء وادى النيل مع الدلتا. وكانت هذه المدينة تلعب دور العاصمة، ومركزا دينيا مهما فى مختلف العصور بنجاح. وطبقا للمعلومات التى وصلت إلينا، فإن ممفيس كانت مدينة كبيرة، يعيش بها سكان كثيرون، وكان يستغرق عبورها، سيرا على الأقدام من جهة إلى أخرى، أكثر من ساعة واحدة. لكن كما يقال: كل شىء مآله الزوال. فقد ولى زمن ممفيس. وكانت الضربة القاضية لها هى تأسيس مدينة الإسكندرية، ونقل العاصمة إليها. حيث ذبلت ممفيس، وتقلص عدد سكانها، وبالتدريج، انهارت شبكة القنوات والجسور؛ مما أدى إلى أن أصبحت المدينة تغمر بالمياه كل عام، عند

فيضان النيل، وتغطى بالطمى. والآن، بقايا المدينة المدمرة مغطاة بطبقة من الطمى، سمكها من ٥ إلى ٦ أمتار.

وعند وصول موكبنا إلى المكان المقصود، رأينا فقط غابة نخيل. وكان كل ما حولنا من أراضى الفلاحين محاطًا بزراعات خضراء من "الذرة، والفول، والبصل، والخس، والبقدونس، والكزبرة" (أخذت هذه القائمة من خطاب لناتاشا، أرسلته إلى موسكو، به وصف للرحلة). وكانت الأشياء الوحيدة التى تذكرنا بالماضى المجيد لهذا المكان هى تمثال لرمسيس الثانى بدون رجلين، ملقى على الأرض، وقد تم إخراجه من تحت الأرض، وتمثال كبير لأبى الهول، وزنه ٨٠ طنا. وقد وجد هنا تمثال آخر لرمسيس الثانى، وتم نقله إلى القاهرة، وإقامته فى ميدان محطة السكك الحديدية. وقد رأيناه كثيرا فى طريقنا إلى المطار، وإلى الأحياء القديمة للمدينة. وهو كامل، لكنه استقر أخيرا فى متحف بجوار الأهرامات.

وبعد ذلك، ركبنا السيارات مرة أخرى، وسرنا عدة كيلومترات للخلف، فى اتجاه الشمال، ثم إلى الغرب، فوصلنا تقريبا إلى حدود الصحراء. وسرنا قليلا عبر رمال الصحراء، فوصلنا إلى الهدف الأول، الذى كان من المقرر أن نشاهده. وكان يقوم رئيس البعثة التشيكية "د.فيرنر" بكل الشرح. وقد أطلقنا عليه اسم "ميروسلافوم ميروسلافوفيتش"، طبقا للأسلوب الروسي. وقد كان شخصا لطيفا جدا، فى الأربعينيات، وله لحية. وكان طويلا، وقوامه رياضي مشدود. ثم سرنا إلى مصطبة "بتاح شيبسيس" – نفس مقبرة الموظف الكبير التي تحدثنا عنها أعلاه. لكن سأقدم بضع كلمات عما هى "المصطبة" (تعنى هذه الكلمة باللغة العربية دكة). وقد أطلق هذا الاسم على شكل نوع من تصميمات المقابر، وجد على مدى عدة آلاف من السنين في مصر. وفى الحقيقة، فإن شكلها الخارجى يشبه مصطبة مصنوعة من الطين والخشب (لا يزال الفلاحون المصريون يبنونها، عند جدار منزلهم، للجلوس والراحة عليها)، لكن حجمها يزيد عنها عشرات، بل مئات من المرات.

وكان المصريون يدفنون موتاهم، من علية القوم، كما يلى: فى البداية، كانت تحفر بئر فى الرمال، وكان يمكن أن يصل عمقها إلى ٢٠ مترا. ثم كانت تقطع فى الحجر، أو فى الرمال المضغوطة، حجرة الدفن التى كانت تحدد أبعادها طبقا لثراء ومكانة صاحبها. ثم كان يدخل تابوت فارغ عن طريق البئر، ثم كانت تبنى مصطبة فوق البئر، بها عدد من الحجرات، يحددها أيضا صاحب المقبرة. لكن كان يوجد بينها دائما قاعة الطقوس التى كان يجب أن يحضر إليها، بعد عملية الدفن، كل من الكهنة وأقارب الميت؛ لكى يقيموا الصلوات، ويقدموا الهدايا. ثم ثانيا، "السرداب"، وهو حجرة كان يقف فيها تمثال الميت (فقد كان يعتقد أن روح الميت تسكن التمثال، فتتمكن بذلك من التعامل مع الأقارب الذين يأتون إلى هنا، وأن تتمتع بروائح الأطعمة التى يحضرونها...إلخ). ثم ثالثا، حجرة كانت يوضع فيها كل ما لم يكن له مكان فى حجرة الدفن، لكن توجد حاجة له للحياة فى رفاهية، فى مملكة ما بعد الموت (ملابس، قطع أثاث، أدوات زينة، آنية بها أغذية...إلخ). وعند موت صاحب المصطبة، كان يتم تحنيطه، وبعد القيام بكل الطقوس الدينية المعتادة، كان يوضع فى غلاف، أو عدة أغلفة، وهى عبارة عن توابيت على شكل جسده، تدخل فى بعضها البعض، ثم فى التابوت الكبير. ثم كان يسد القبر، وتملأ البئر بالرمال، بحيث لا يتمكن اللصوص من العثور عليها.

ولقد اكتشف الأثرى الفرنسى "جاك دى مورجان" مصطبة "بتاح شيبسيس" فى نهاية القرن التاسع عشر، لكن أجرى فيها الحفريات التشيك بعد ذلك بكثير. وقد انتهوا من هذا العمل فى عام ١٩٧٤، وبعد ذلك، بدأوا فى إعادة ترميمها جزئيا. ولم يكن من الواضح متى سينتهون من ذلك. وكانوا ينفذون هذا العمل بالاشتراك مع هيئة الآثار المصرية. وكان "د.فيرنر" يشرح لنا، وقد أخذنا أولا إلى المدخل الرئيسى للمصطبة الذى بقى منه عامودان عاليان على شكل زهرة اللوتس. وكان يلزم للإحاطة بها رجلان حيث إن قطرهما كبير.

زرنا فى داخل المصطبة نفسها حجرتين فقط، من أكثر من أربعين حجرة. وكانت قد حفظت فقط نصف جدران الأولى، لكن تم ترميمها لكى تصل إلى كامل ارتفاعها. وكانت الرسوم البارزة الملونة تمثل القيمة الأساسية لهذه القاعة الكبيرة نسبيا. وكانت الألوان محفوظة بحالة جيدة نسبيا. وكان من الصعب تصديق أنه قد مر عليها ٤٥٠٠ سنة. وكانت مختلف المناظر المرسومة على الجدران تمثل حياة المصريين" العمل فى الحقل، وركوب المراكب، وأدوات العمل، وطيور، وحيوانات". وكان سقف الحجرة الأولى محمولا على عامودين. والحجرة الثانية أصغر (حوالى ١٦م). ولم يدخلونا إلى الحجرات الأخرى، فقد قالوا لنا إنه لم يتم تقويتها.

وحكى لنا "فيرنر" كيف كانت تكبر المصطبة، كلما كانت تعلو منزلة صاحبها. وكان، "بتاح شيبسيس" يشغل منصبًا رفيعًا، هو "مشرف على أبنية فرعون"، ولذلك فقد سمح لنفسه، منذ البداية، ببناء مقبرة ببذخ شديد. ثم تزوج ابنة فرعون، فأضاف إلى المصطبة التى كان قد اكتمل بناؤها عددا آخر من الحجرات (قد يكون أراد أن يأخذ معه الكثير من كل شىء إلى عالم ما بعد الموت). ثم أصبح، بعد ذلك، رئيسا لوزراء فرعون. فبنى حجرة خاصة فى المصطبة، لما هو معروف باسم "مركب الشمس" التى كان يستخدمها فى عالم الأموات أعلى مستويات علية القوم فقط (عثر على مركب "خوفو" فى عام ١٩٥٤، بجوار هرمه فى الجيزة، حيث كانت محفوظة فى حوض سفن خاص طوله ٣٦ مترا. لكن كان "خوفو"، مثل كل الفراعنة، يعد ابنا للإله أوزوريس، ولذلك كانت مركبه متميزة. وقد كان على "بتاح شيبسيس" أن يكتفى بمركب أصغر بكثير).

وكان يبنى المصريون القدامى مصاطبهم من الطوب النىء، ثم تحولوا إلى استخدام الطوب المحروق. وبعد ذلك، أصبحوا يستخدمون الحجارة. وكان الفراعنة، أيضا، فى البداية يبنون لأنفسهم مصاطب، كانت بالطبع كبيرة جدا. ثم بنى فرعون الأسرة الثالثة "زوسر" لنفسه الهرم المدرج، بأن وضع ست مصاطب

فوق بعضها البعض، وكانت كل مصطبة أصغر من التى تحتها. وكانت مصاطب فقط من حيث الشكل، حيث إن كل ما كان مطلوبا لحياة فرعون ما بعد الموت، كان موضوعا فى مدفن واسع تحت الهرم. كما أن معبد التحنيط ومعبد الميت، كانا يقفان منفصلين. وقد تم بناء عدة أهرام مدرجة أخرى، قبل أن تحدث طفرة كبيرة، فقد تم بناء أول وأكبر هرم "حقيقى"، هو هرم "خوفو". وبعد ذلك، لم يتمكن أحد من التفوق على هذا الفرعون، رغم أنه كان يتم بناء الأهرام فى مصر بعد ذلك، على مدى ألف عام، مع بعض التوقفات، إلى أن تم اكتشاف طريقة أكثر أمنا، كما بدا للفراعنة، لحفظ أجسادهم، التى لا تقدر بثمن، فى سراديب عميقة، تحفر فى الجبل.

وأنا لم أقم بتحويل انتباه القارئ، عن طريق الصدفة، من المصاطب إلى الأهرام، حيث إن الهدف التالى لزيارتنا كان بالذات هرما. فقد نظرنا على شمال مجمع مدفن "بتاح شيبسيس"، وسرنا إلى الأمام، إلى هرم نصف مهدم تقريبا، محرر من الرمال. كان فى الماضى هرما مدرجا. وكان كل طابق به مغطى بألواح بيضاء من الحجر الجيرى. وكان حطامها منتشرا بكثرة على الأرض فى كل مكان. وقد بقى منحدر رملى على أحد جوانب الهرم. وقد صعد عن طريقه الرجال إلى قمة الهرم، بينما اكتفت النساء بالوصول إلى نصف ارتفاعه. وكان يظهر من فوق قمة الهرم منظر رائع لوادى النيل، على بعد مئات من الأمتار. ومن الناحية الأخرى، كان يظهر منظر رمال الصحراء، وباقى أهرام "أبى صير" العالية، وكذلك ظهرت مدافن ظاهرة فى كثير من الأماكن.

ومدافن "أبى صير" عبارة عن شريط رملى، أعتقد أنه لا يمكن تحديد حدوده بالضبط، حيث إنه كان يتم دفن بسطاء المصريين فى حفر فقط، دون أية مصاطب، وعلى الأرجح، خارج حدود قطع الأرض المميزة، التى كان يبنى عليها علية القوم مصاطبهم. وقد أخفت رمال الصحراء بأمان - لدهر من الزمن، على مدى آلاف من السنوات- كل المقابر، تاركة فقط الأهرام على سطح الأرض، وفى حالة نصف مردومة. وقد نزلنا من على الهرم عن طريق منحدر آخر للهرم. وتبين أن

الهبوط ليس سهلا. فلم تكن نصيحتهم لنا بارتداء أحذية رياضية هدرا، حيث كان من الضرورى أن نضع أحذية مطاطية بنعل معرج؛ حتى لا تنزلق أقدامنا.

والآن، أصبح علينا أن نصل إلى مكان آخر، حيث تجرى أعمال الأثريين التشيك الرئيسية، فى الجزء الجنوبى من مدينة الموتى. لذلك كان علينا العودة إلى السيارات مرة أخرى. وبعد السير عدة كيلومترات، عدنا مرة أخرى إلى المنطقة الرملية بـــ "أبى صير". حيث أخذنا الأثريون التشيك إلى المعبد الجنائزى للفرعون "رانيفيريف" وهرمه الناقص. وقال فيرنر إنهم نجحوا فى العثور على أرشيف المعبد من البرديات، وكذلك الكثير من الأدوات المستخدمة فى الحياة اليومية، والمصنوعة أساسا من الطين، وكذلك أجزاء من تماثيل صغيرة. وقد عرضوا علينا بعضا منها. وقد صورت بعضها، ومنها بصفة خاصة القطع المنحوتة من البازلت، التى تمثل جزع ورأس رانيفيريف، وعليها تاج مصر العليا. وقد كان أحد فراعنة الأسرة الخامسة.

وحيث إنه كان معبدًا جنائزيا لفرعون، فقد كان يحضر إليه، لفترة ما، الكثير من الأشخاص، حاملين معهم مختلف الأنواع من الهدايا. وقد وجدوا فى المعبد، وبالقرب منه، كمية كبيرة من الأوانى الصغيرة، كأنها لعب؛ فقد كان قطر هذه الأطباق ٤–٥ سم، وارتفاع الكئوس ٥–٦ سم، بالإضافة إلى فازات صغيرة، وأباريق وغيرها. وطبقا لما قاله فيرنر، فقد كان يحضر فيها كميات صغيرة جدا من مختلف الأطعمة، والمشروبات المصرية؛ لجلب السرور إلى روح فرعون، والإله الذى يحميه. وقد أعطوا كلاً منا عدة قطع من هذه الأطباق والكئوس للذكرى. وهى، حتى الآن، على رف كتب عندى. وهى مصنوعة من الطين النىء، لكنها تحجرت تماما بفعل الزمن. أربعة آلاف وخمسمائة سنة عمر يستحق أكثر من الاحترام.

كما جهز لنا أيضا الموظفون المصريون، من هيئة الآثار مفاجأة. فقد دعونا لمشاهدة مقبرة تم اكتشافها من يومين فقط فى إحدى المصاطب. وقد بينوا لنا كيف

يمكن استخدام البقع المنعكسة من أشعة الشمس؛ لإنارة طريقنا فى حجرة الدفن، وأيضا، لكى يعرضوا علينا بعض الطرق التى كان يستخدمها قدماء المصريين. وقد نجح أربعة من المصريين فى نقل أشعة الشمس، باستخدام بعض مسطحات الألومنيوم المصقول (كان القدماء بالطبع يستخدمون أنواعًا أخرى من الأسطح العاكسة) إلى عمق المقبرة، وأيضا جانبا، إلى داخل حجرة الدفن. وكانت المومياء سليمة. وعندما تم رفع غطاء التابوت، ثم بعد ذلك الغطاء الخشبى المنقوش، ظهرت أمام أعيننا محتفظة بجلد الوجه، والحواجب، وأظافر يديها. ولسبب ما بقى فى ذاكرتى هذا المنظر بالذات. ويمكن أن أقول مباشرة إن هذا المنظر ليس سارا أبدا، خاصة على عمق تحت الأرض، وبإضاءة ضعيفة جدا. وعندما صعدنا إلى الخارج، أحسسنا كلنا براحة كبيرة. وقد انتهت على ذلك رحلتنا الشيقة.

ولم يضايقنا وجود الجنود المصاحبين لنا، حيث إننا لم نكن نراهم لأنه كان يتم توزيعهم، بحيث يتحكموا فى كل الطرق الموصلة للأماكن التى كنا بها فى وقت زيارتنا لها. ماذا كان سبب هذا الحرص؟ لم يقولوا. عامة، سرنا فى نفس الطريق عند عودتنا بنفس الترتيب إلى "أبى صير".

معهد د. حسن رجب للبرديات

ربط إنشاء على زوارق تجسير، يشبه شكله الخارجى المطاعم العائمة، على شاطئ النيل، إلى مرسى، على بعد عدة مئات من الأمتار عن مقر سكننا. وكان مكتوب عليه، بخط كبير باللون الأزرق، بطول الطابق الثانى لهذا الإنشاء الخشبى: "معهد د.حسن رجب للبرديات". وكان من المسموح الدخول إليه، فزرناه أنا وناتاشا وكان يوجد صالون يشغل طابقين من هذه العائمة، يمكن للزوار أن يشاهدوا به، بجانب أوراق البردى القديمة (كان هذا هو الجزء المتحفى للمعهد)، حوالى مئة من أوراق البردى الحديثة، ذات الرسوم الزاهية، المنسوخة للآلهة المصرية القديمة، والفراعنة وزوجاتهم، ومختلف المشاهد اليومية من حياة قدماء المصريين. وكانت

المواضيع منقولة أساسا من زخارف التوابيت، وكذلك من جدران وأسقف المقابر الفرعونية بالأقصر. وكان يمكن شراء أى من هذه البرديات الحديثة، لكن أثمانها كانت أعلى بكثير من الأسعار الموجودة بمحلات التذكارات.

وقد تعرفت بعد فترة وجيزة، فى إحدى حفلات الاستقبال، على "د. رجب". وكان قد تعدى السبعين من عمره، لكن كان يبدو نشيطا، وكان شخصا ممتعا نادرا. وقد التقينا عدة مرات بعد ذلك، وعرفت، من الحديث معه، أن شغفه بورق البردى، وتنظيمه لإنتاجه الذى حظى بسببه بشهرته، لم يكن هو العمل الذى قام به طوال حياته. فهو لم يكن يفكر أبدا فى ورق البردى، طوال الخمسين عامًا الأولى من حياته. وقد جاء كل ذلك فيما بعد، وعن طريق الصدفة. وقد ولد حسن رجب فى عام ١٩١١ فى القاهرة، ودرس فى مصر وفى فرنسا، وحصل على بكالوريوس الهندسة، وكان أول مكان عمل به هو السكك الحديدية. ثم انتقل بعد ذلك إلى الجيش، حيث ترقى إلى رتبة لواء ونائب لوزير الدفاع لشئون الإنتاج الحربى. وقد حدث تغيير حاد فى حياته فى عام ١٩٥٦، فقد أرسله ناصر سفيرا له فى الصين. وهنا حدثت الدفعة الأولى، التى قادته بعد ذلك إلى فكرة العمل فى مجال البرديات.

وكان ذلك فى إحدى رحلاته فى الصين. فقد ذهب إلى ذلك المكان الذى بدأ فيه إنتاج الورق فى الصين. وقد سألوه هناك:"كيف كان المصريون يصنعون من نبات البردى مادة يكتبون عليها؟". بالطبع لم يكن عند الجنرال، الذى أصبح سفيرا، إجابة عن هذا السؤال، لكنه وعد باستيضاح هذا الأمر. وقد أصابه الرد الذى جاءه من القاهرة بخيبة أمل. فقد تبين أن آخر وثيقة مكتوبة على ورق البردى، ومعروفة فى التاريخ، ترجع إلى القرن الحادى عشر بعد الميلاد. ومنذ ذلك الحين تم نسيان البردى، كمادة يكتب عليها، بسبب ظهور الورق. ولم تكن هناك أية معلومات عن تقنية صناعته.

وقد قال لى رجب إنه فى ذلك الوقت تأجل فقط هذا الموضوع فى ذاكرته. وبعد بكين، تم إرساله سفيرا إلى روما. ثم إلى بلجراد، التى انتهت فيها حياته

الدبلوماسية. وإنه قد تقاعد بسرعة بعد عودته إلى القاهرة. وهنا نضجت عنده فكرة العمل على إعادة إنتاج البردى، كمادة للكتابة، طبقا للتقنية المصرية القديمة ، حيث إنه كان ما زالت به قوة كبيرة. ويبدو أن رجب كان "عبدا للفكرة"، فبعد أن أطلقها، منحها نفسه بالكامل. أولا، بدأ يبحث عن النبات نفسه. وهنا تبين له أن نبات البردى لم يعد ينمو فى مصر. وفشل البحث عنه فى دلتا النيل، وعلى شواطئ النهر، وفى المستنقعات، وفى الواحات. واضطر للبحث فى النيل، خارج حدود مصر. إلى أن وجدوه فى النهاية. لكن عندما أحضروه إلى القاهرة، تبين أنه نبات مشابه، وليس برديا Cyperus Papyros كما هو مطلوب. فاضطر إلى أن ينظم بعثة جديدة. وفى النهاية، عثر عليه فى جنوب السودان.

وأصبحت الخطوة التالية هى إنشاء مزرعة لنبات البردي. فاضطر إلى شراء قطعة من جزيرة "يعقوبة" فى النيل، على بعد عدة كيلومترات من المكان الذى يوجد فيه الآن معهد البرديات. ولحسن الحظ، نما البردى هناك جيدا. وفى خلال فترة، توفرت لرجب كمية كافية منه للتجارب، التى قام بها أولا فى شقته، ثم بعد ذلك فقط اقتنى مكانا مثل معمل. وقال رجب إنه يتم تقطيع عيدان البردى، الذى ينمو إلى ٢-٢.٥ م، إلى شرائح رفيعة بسهولة. لكن كانت المشكلة تتمثل فى كيفية لصقها ببعضها. وقد أجرى تجارب طويلة باستخدام مختلف مواد اللصق، التى كان يحتمل أن تكون موجودة عند الفراعنة. لكنه لم يصل إلى شىء. وكانت الأوراق الملصوقة سميكة وقصوفة، بينما كانت أوراق البردى القديمة متميزة بمتانتها الكبيرة وبمرونتها. وكان طول بعض اللفائف التى حفظت حتى زمننا يصل إلى ٤٠ مترا. واعترف رجب بأنه كانت توجد لحظات سيطر عليه فيها اليأس، فقد أنفق كل مدخراته على البعثات والأرض وخلافه. فاضطر إلى اللجوء، أكثر من مرة، إلى نقود أقاربه. وقد جاءه النجاح فقط بعد عدة سنوات، عندما كان على استعداد لترك كل شىء. فقد تبين أن لصق شرائح البردى ببعضها سهل جدا. فقدماء المصريين لم يستخدموا أية مادة لاصقة. فقد كانوا فقط يبللون شرائح

البردى المقطوعة بالتناوب، مع ضربها بمدقات خشبية، ثم يكررون ذلك عدة مرات، ثم كانت ترص واحدة فوق الأخرى- طبقتين من الشرائح، توضع واحدة أفقية والثانية رأسية، ثم كانت توضع تحت مكبس حجرى، فتلتصق الشرائط ببعضها بقوة كبيرة، مكونة ورقة بردى بالمقاس المطلوب. وكان يمكن بنفس الطريقة لصق الأوراق واحدة بالأخرى؛ لتحويلها إلى شريط طويل- لفافة.

وكان استخدام أوراق البردى كمادة لرسم المواضيع المصرية القديمة، وبيعها كتذكار، هو أيضا فكرة رجب. وقد كانت البداية بسيطة - فكان أفراد عائلة المخترع هم الذين يقومون بالرسم. لكن سار العمل بطريقة جيدة، وكانت تباع أوراق البردى فورا. وبعد وقت قصير، أصبحت تعمل فرقة كبيرة من الرسامين المحترفين لصالح رجب. ولم يسترجع رجب فقط كل مصروفاته، لكنه أصبح فى آخر أيامه رجل أعمال ناجحًا.

وقد أنشأ معملاً فى المعهد، تتم فيه دراسة الألوان التى كان يستخدمها قدماء المصريين، للكتابة والرسم على أوراق البردى. كما تدرس فيه طرق ترميم أوراق البردى القديمة، وتجرى مختلف الأبحاث الأخرى. وقد اشتكى رجب من أن منافسيه، الذين ليس عندهم ضمير، قد فهموا بسرعة قيمة اختراعه، وهم أساسا من دول جنوب شرق آسيا، فأغرقوا سوق التذكارات بمنتجاتهم المزيفة، التى تصنع من مختلف الألياف النباتية الطبيعية، وكذلك من المواد الصناعية. وطبقا لما قاله، فإن تسعة أعشار ما يباع فى العالم كله، فى محلات التذكارات، على أنه ورق بردى، مزيف. ويختم رجب الوجه الآخر من منتجاته بختم خاص. لكن السائح العادى لا تهمه، غالبا، المادة التى استخدمت، فإنه يختار أوراق البردى تبعا لما هو مرسوم عليها. وللأسف تغرق السوق منتجات تم تنفيذها بجودة متوسطة، وأحيانا توجد فيها اختلافات كبيرة عن الأصول التى تعتبر نسخًا منها.

وبعد أن جمع "رجب" المال، توسع فى زراعته على جزيرة "بعقوبة". ففى عهدي، كانت زراعات البردى (وهو ينمو فى المياه الضحلة) تغطى ١٩ فدانًا، أى

حوالى ٨ هكتارات. كما تم إنشاء قرية، على نفس الجزيرة، على نفس نمط القرية التى كان يعيش فيها قدماء المصريين. فيوجد بها منزل الفلاح ومنزل النبيل، بل وحتى معبد صغير. لكن أهم مميزات القرية هو أنها مسكونة؛ فيعيش بها ويعمل أشخاص بالأجر، تم اختيارهم من بين الطلبة، وغيرهم من المهتمين بهذا العمل. وهم يمثلون كيف كان يعمل قدماء المصريين فى الزراعة، وفى صيد السمك، وفى مختلف الحرف؟ وكيف كانوا يبنون المراكب التى كانوا يسبحون بها فى النيل؟... إلخ. باختصار، هذا متحف إتنوجرافى مفتوح تحت السماء، لكنه يعمل فعلا، بل إنه منتج بشكل ما. فيتم فيه إنتاج الحصائر والحبال، ومنتجات أخرى كانت تصنع، هى أيضا، فى الماضى من البردى. واسم المتحف هو "القرية الفرعونية". وهو يحظى بشعبية كبيرة عند السائحين الذين توصلهم إليه مراكب بخارية خاصة.

وقد كان ذلك نجاحا، رغم أنه كان غير متوقع لرجال حرفته، فحسن رجب – الجنرال والدبلوماسي، قد خلد اسمه بأن جلب للمجتمع ولنفسه فائدة.

* * *

القاهرة عبارة عن مدينة كبيرة جدا. وكما فى أى مدينة كبيرة، توجد بها مناطق مختلفة، مناطق لها ماضٍ تاريخى أو بدونه، بمميزاتها وعيوبها، وأحياء مريحة وغير مريحة. لذلك فإن تقبل هذا النوع من المدن المعقدة يتوقف كثيرا على من وأين وكيف يعيش فيها إنسان معين وعائلته؟ ورأيى فى القاهرة هو رأى أجنبى ودبلوماسي. وأنا أفترض تماما أن ما أعجبنى لا يجب أن يكون بالضرورة موضع إعجاب أحد سكان القاهرة الأصليين، الغارقين فى أعمالهم ومشاكلهم الحياتية. ومن الممكن أن أقول شيئا واحدًا بالتحديد تماما: "هو أننى لم أشعر بحساسية تجاه هذه المدينة المتميزة جدا، والصاخبة، والمكتظة بالسكان. بل إنى كنت أستلطفها، وهذا ما قد شعر به غالبا القارئ وهو يقرأ هذا الباب".

الباب الرابع:
تقييم بعضنا البعض وتحديد المواقف:
مناقشات مع الشخصيات المهمة فى النظام

أثناء الاحتفال فى السفارة بمناسبة تسليمى لأوراق اعتمادى، كسفير، كنت قد سلمت رئيس قسم المراسم "ديفانى" قائمة بالشخصيات القيادية الذين كنت أرغب فى القيام بزيارات بروتوكولية لهم: رئيس مجلس الوزراء، ورئيس مجلس الشعب، ورئيس مجلس الشورى، وعدد من الوزراء، ورئاسة وزارة الخارجية. ووعد ديفانى بعمل اللازم، وقد أوفى بوعده. وكان أول من تجاوب وبسرعة هو "أسامة الباز"، الذى كان يشغل منصبين: رئيس المكتب السياسى للرئيس، والنائب الأول لوزير الخارجية. وكان بالفعل مساعدا للرئيس فى الشئون الخارجية، رغم أن منصب رئيس المكتب السياسى كان يتطلب عدم أداء أية أدوار أخرى. وكان من المعروف بين الدبلوماسيين أن أسامة الباز أحد أكثر المقربين للرئيس، ولذلك فهو شخصية مؤثرة.

الشخصية، التى وضع الرئيس فيها ثقته

يمكن إيجاز تاريخه، باختصار، كما يلى: فى سنة حضورى إلى مصر كان الباز قد بلغ الخمسين من عمره. درس القانون، فقد تخرج فى جامعة القاهرة، وحصل على درجة الدكتوراه من الولايات المتحدة الأمريكية. وعمل لبعض الوقت فى النيابة العامة، ثم انتقل إلى وزارة الخارجية، حيث تدرج فى المناصب المختلفة حتى وصل إلى منصب مدير عام بالوزارة. وعندما أصبح مبارك نائبا للرئيس فى عام ١٩٧٥، ضم الباز إلى فريق عمله. وغالبا، كان ذلك يمثل ترقية له، حيث تم تعيينه فى نفس الوقت وكيلا لوزير الخارجية. ومنذ عام ١٩٨١، أصبح وكيلا أولا ورئيسا للمكتب السياسى للرئيس. وقد سمح ذلك الوضع للباز بأن يكون على علم

بكل ما يجرى فى وزارة الخارجية، والتعامل مع مختلف الكوادر بها، وتنظيم تجهيز المواد والمستندات التى يحتاجها الرئيس، أى التعامل المباشر مع مختلف إدارات وزارة الخارجية، وليس عن طريق أوامر الرئيس للوزارة. وكانت هذه ميزة حيث إن الباز كان يستطيع بذلك أن ينفذ بنفسه سياسة الرئيس، عن طريق مقابلاته الشخصية مع السفراء عند الحاجة.

وكان الباز يتمتع بسمعة تفيد بأنه أحد الدبلوماسيين المصريين الماهرين، وبأنه يتمتع بذكاء حاد، وبقدرة مدهشة على العمل، وكان يعتبر من أنصار التوازن السياسى بين الشرق والغرب، وبأنه وطنى دون الوقوع فى التطرف الوطنى.

هذا هو الشخص الذى قابلته فى وزارة الخارجية بشارع التحرير، بعد الحديث مع مبارك. وقد رأيت فى المكتب الذى أوصلونى إليه رجلا نحيفا جدا، قصير القامة، يبدو أصغر كثيرا من سنه، عريض الجبهة، وجهه أسمر كثير التعبيرات، وكان يوجد حول بسيط فى عينيه يجعل من الصعب التقاط نظرته. كما أن صوته أيضا كان مميزا- كان صوتا حنجريا. وكان يلمس فى تصرفاته تواضع. وكان على العكس من المتوقع بسيطا جدا، بشكل غريب على مسئول فى هذا المستوى، بل يمكن أن أقول إنه كان غير متكلف، لكنه مع ذلك لم يكن يفقد إحساسه بعزة النفس، كما أنه لم يكن يهدرها عند محدثه. ولم يكن يحاول التظاهر، بل كان طبيعيا جدا، وكان ذلك آسرا.

وكان بمكتب الباز ما يميزه. فقد كان واسعا، بل يخيل لى أنه أوسع من مكتب الوزير، وكانت تملأه كله دواليب، ورفوف، ومختلف الموائد التى كانت مكتظة برزم من الأوراق والملفات والكتب والجرائد والمجلات، فقد كانت على الموائد وكذلك على المقاعد. كما كان مكتب عمله مكتظًا أيضا بالأوراق. وكان من الغامض لى، من النظرة الأولى، إدراك كيف يتعامل صاحب المكان مع هذه الفوضى. لكن بالطبع كان موجودًا بها نظام ما. وكلما حضرت إليه فى المستقبل، كان لمكتبه تقريبا نفس المنظر. وأقدم هذا الوصف التفصيلى حتى يتمكن القارئ

من أن يتخيل تماما الوضع، والشخص الذى قابلته، فيما بعد، أكثر مما قابلت أى شخص آخر من الصفوة المصرية.

ولم يلجأ أسامة الباز (كان من المعتاد تسميته بالدكتور أسامة) إلى العبارات البروتوكولية، ودخل فورا فى الجد. وكان أول ما قاله يعبر عما يلي: إن رئاسة مصر تنوى اتباع سياسة متتابعة لتحسين العلاقات مع الاتحاد السوفييتى بصبر، وإعادة بناء مبنى الصداقة "المصرية - السوفييتية" طوبة بعد طوبة، فهو قد أصيب بضرر كبير بعد وفاة ناصر. لكن سوف تكون عملية الإحياء فقط بالتدريج.

وهنا قلت إن موقف الرئاسة السوفييتية مماثل. فهى أيضا تؤيد التدرج والتتابع، لكن التدرج لا يعنى البطء. فمن حيث المبدأ، كلما كان التطبيع الكامل لعلاقاتنا أسرع، كلما بدأت بشكل أسرع مرحلة الزيادة فى العلاقات بين الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية، وهو على ما أظن ما سوف يكون فى مصلحة الطرفين. لذلك فلنعطِ جهودنا سمة عملية وملموسة. فلنناقش ما هى الخطوات التى يجب أن تكون لها الأولوية، ثم لنبدأ فى تجهيزها. ففكر الباز قليلا، ثم قال إنه سوف يكون مستعدا للقائى مرة أخرى تقريبا بعد شهر؛ لكى نناقش ما سوف نعمله، وبأى ترتيب، وفى خلال أية فترة. وبالطبع أجبته بالموافقة.

لكن لم تكتف مناقشتى الأولى مع الباز بإبداء حسن النوايا، فقد انتقل الباز إلى التحذيرات. وكان يتكلم بدقة رغم أنه تكلم بشمولية. وكان هنا المبدأ واضحا: فإن حكومة مصر لا ترغب فى أن يؤدى حضورى إلى تنشيط علاقات السفارة مع المعارضة اليسارية- الحزب الوطنى التقدمى - ومع منظمتها الشبابية، وكذلك مع النقابات، وبصفة خاصة مع الشيوعيين. لأن كل ذلك يمكن أن يسيء إلى السفارة، حيث إن ذلك يعطى اليمينيين مادة لتوجيه الاتهامات بأن موسكو تحاول التدخل فى الشئون الداخلية لمصر. وإن الحكومة يكفيها كم النزاعات والتعقيدات مع اليمينيين بدون ذلك. وليس هناك داع لتصعيب الوضع على الرئيس. حتى أنه قيلت هذه العبارة: "خذوا فى اعتباركم أن الرئيس سوف يعرف كل ذلك فورا". وكنا نعرف

تماما أن المخابرات لا تزال تراقب العاملين فى السفارة بدقة. كما كنا نعرف أيضا أن المعارضة اليسارية كانت دائما واقعة تحت رقابة صارمة من المخابرات، ومن اليمينيين. فهنا، لم يكن هناك شيء جديد بالنسبة لنا. لكن ما أدهشني فقط هو أن الباز تحدث فى هذا الموضوع للمرة الثانية (كانت أول مرة مع القائم بالأعمال، عندما كان يدور الحديث عن موافقة الحكومة على قبولي، والآن معى). وربما تم ذلك من باب الاحتياط كنوع من الوقاية. لكن على أية حال، كان ذلك مزعجا كأى نوع من النصائح أو التحذير. وقد أنهى الباز هذا الجزء من الحديث بأن أوضح أنه لا يقصد ألا تكون للسفارة أية علاقات على الإطلاق مع الحزب الوطنى التقدمى. فالحزب الوطنى التقدمى، كما أشار، حزب موجود شرعى، وجزء من النظام السياسى لجمهورية مصر العربية. فعلى سبيل المثال، ليس هناك مانع من دعوة رؤساء الحزب الوطنى التقدمى إلى حفلات الاستقبال الرسمية فى السفارة السوفييتية، أو أن تقوم موسكو بمساعدة جريدة "الأهالى" بالورق. لكننا نرفض تماما أن تقول موسكو للأهالى ماذا وكيف تكتب، أو أن تتدخل بأى أسلوب آخر فى الشئون الداخلية لمصر، عن طريق العلاقات مع المعارضة (كان من الواضح أنه يقصد قسم العلاقات الخارجية باللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى، وأن رئيس الحزب الوطنى التقدمى "خالد محيى الدين"، الذى كان عضوا فى مجلس السلام العالمى، كان يحضر كثيرا إلى موسكو). كما نصح الباز بألا نبحث عن المعلومات "فى مكان ما آخر"، لكن أن تعرض الأسئلة عند ظهورها على المسئولين الرسميين.

لم أُقم بمناقشة كل ما سردته أعلاه؛ حتى لا أثير أزمة فى أول مقابلاتنا، بل إنى استخدمت النصيحة الأخيرة فورا، بأن وجهت للباز الأسئلة الحساسة التى كانت تهمنى فى ذلك الوقت. وفى نفس الوقت، كانت هذه بالون اختبار من جانبى لمعرفة هل سيجيب موضوعيا، أم سيتهرب بعبارات "دبلوماسية"؟ فسألته أولا عن مدى صحة ظهور طائرات التجسس الأمريكية "أواكس" فى سماء القاهرة، وعن

الإشاعات المنتشرة بين الدبلوماسيين عن أنه تم إرسال قوات من الجيش المصرى إلى الحدود مع ليبيا، وأن ذلك قد تم كنوع من الإنذار للرئاسة الليبية. وأجاب الباز بأن طائرات الأواكس قد ظهرت بالفعل، وبأنه فعلا قد تم تحريك القوات المسلحة إلى الحدود، وأن كل ذلك قد تم كنوع من التحذير للرئاسة الليبية. وأوضح أن طيارًا ليبيا قد جاء منذ بضعة أيام إلى مصر، وأخبرنا بأن ليبيا تعد لهجوم جوى على سد أسوان، وعلى محطة توليد الكهرباء الهيدروليكية. وقال الباز: "ونحن قد حركنا القوات المسلحة إلى الحدود حتى يعقل القذافى. ومن ناحيتنا، لا توجد خطط لدينا للحرب مع ليبيا، لكننا لن نترك أى عمل عدائى ضدنا دون رد". ثم سألته ثانيا عن رأيه فى معنى وجود تركيز لبواخر الأسطول البحرى الأمريكى الحربى بالقرب من شواطئ لبنان، وهل من المنتظر أن يحدث هجوم عليها أو قصفها بالقنابل؟ وكان رد الباز حاسما تماما بأن هذا مجرد استعراض للقوة، لكن الأمريكان لا ينوون استخدامها فى هجوم، لكن لا يمكن ألا يكون هناك رد فعل عملى من "ريجان" على العملية الإرهابية التى وجهت ضد الأمريكان فى بيروت، انطلاقا من مفاهيم السياسة الداخلية، خاصة أن كثيرًا من الجنود الأمريكان قد قتلوا فيها. ويجب أن يقوم الرئيس ريجان بتهدئة الرأى العام. ومن هنا، جاء تحريك الأسطول، ولعبة العضلات الأخرى.

وقد أعجبنى أن الباز لم يتهرب من الأسئلة رغم أنها كانت متعلقة بموضوعات "ساخنة" جدا وحساسة. بل رد مباشرة، وبشكل محدد تماما. وبالطبع أبلغت موسكو عن هذا الحديث، حيث إنى كنت أعرف أن الموقف الحالى حول ليبيا ولبنان يثير قلقا شديدا فى العاصمة السوفييتية. كما أنى فكرت فى أنه إذا كنت قد طرحت هذه الأسئلة على شخص آخر من الرئاسات بوزارة الخارجية، وليس على الباز، فكنت، على الأرجح، سوف أسمع ردودا حريصة تماما أو عائمة. وبعد ذلك، حصلت على دلائل كثيرة تؤكد أن الباز يصيغ ما يقوله بشكل واضح تماما، وأنه يفضل ألا يدور حول الموضوع، وأن يتكلم فى صلب الموضوع تماما. كما

أنه بإجاباته قد بين أنه مستعد لمستوى ثقة معين. وقد رأيت أن الحديث مع الباز كان حسنا تماما من هذه الناحية.

مع السكرتير العام القادم لهيئة الأمم المتحدة

ورجال وزارة الخارجية الآخرين

وقد ذهبت فى اليوم التالى أيضا إلى التحرير، لكن هذه المرة لمقابلة وزير الدولة للعلاقات الخارجية "بطرس غالى" بناء على طلبى. وكان قد لفت نظرى فى مراسم قصر القبة بشكله المميز، الذى جعلنى أتذكر فورا الرسوم الموجودة للفراعنة فى الكتب (كنت لم أزر المتحف المصرى بعد). وكان بطرس غالى ينتمى بالفعل إلى هذا الجزء من المجتمع المصرى الذى لم يعتنق أجداده الإسلام، بل بقوا على عقيدتهم المسيحية التى انتشرت فى مصر بدلا من الديانات القديمة. لذلك إذا بحثنا عن تشابه عرقى للمصريين الحاليين مع السكان القدامى لمصر، فمن المنطقى أن يتم ذلك بين المسيحيين الأقباط، الذين تعرضوا على مدى عدة قرون للفتح الإسلامى أولا، ثم التركى، لكنهم لم يتزوجوا من أجانب، فانعزلوا من حيث العرق والدين. وينتمى بطرس غالى إلى صف الأقباط. بل كان جده رئيسا للوزراء فى بداية القرن العشرين، حتى وصلت إليه يد قاتل. وقد ولد بطرس غالى فى عائلة غنية، وتخرج فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة، ثم استكمل دراسته فى مجال القانون الدولى بجامعات "السوربون" و"كولومب". ثم عاد إلى مصر، وقام بتدريس هذه المادة فى نفس الجامعة التى درس بها. وقد ربط بطرس غالى نجاح عمله كأستاذ جامعى بعمله فى "مركز الدراسات الاستراتيجية"، حسن السمعة، بدار نشر الأهرام.

وقد حدث تغيير كبير فى حياته فى خريف عام ١٩٧٧، عندما كان السادات يستعد للسفر إلى القدس، فوجد نفسه فجأة دون وزير للخارجية، لأن "إبراهيم فهمى"، الذى كان يشغل هذا المنصب، رفض مصاحبة الرئيس، وقدم استقالته.

وهنا وقع اختيار السادات على بطرس غالى، الذى كان ترشيحه لهذا المنصب مناسبا تماما للوضع فى ذلك الوقت: فقد كان مثقفا مصريا له ميول غربية، كما أنه لم يكن مسلما، وكان متزوجا من يهودية. وقد عين السادات فورا بطرس غالى قائما بأعمال وزير الخارجية، وصحبه معه عند سفره إلى إسرائيل. بعد ذلك اشترك بطرس غالى فى مفاوضات كامب ديفيد، واستقر تماما فى التحرير فى منصب وزير الدولة للعلاقات الخارجية (فقد عين السادات مسلما وزيرا للخارجية). ولم يؤثر تغيير رؤساء مصر ظاهريا على وضع بطرس غالى، رغم تجديد مبارك للحكومة عدة مرات، وأنه قد بقى فيها عدد محدود من حكومة السادات.

ومن الناحية الرسمية، كان بطرس غالى الشخص الثانى فى وزارة الخارجية، وكان يحل محل الوزير عند غيابه. والآن، عندما سافر مجيد إلى دورة الجمعية العمومية للأمم المتحدة، بقى هو الرجل الأول. بالطبع، كان علىّ أن أقدم نفسى إلى وزير الدولة، خاصة أنه كان سيتحتم علىّ بالتأكيد أن أتوجه إليه كثيرا لتنفيذ تكليفات موسكو، حيث إنه، طبقا لتوزيع المسئوليات، كان مسئولا عن علاقات مصر بدول آسيا وأفريقيا. وقد كانت بها مشكلات كثيرة.

وكان بطرس غالى "فرانكوفونيا"، ومثقفا، وواسع الأفق، كما أنه كان قادرا على تنمية العلاقات بذكاء مع ممثلى مختلف الدول، وذوى مختلف التوجهات السياسية. وقد كان لبقا جدا معى، ووعد بتقديم كافة المساعدات للسفارة ولى. وتحدث عن أهمية العلاقات مع الاتحاد السوفييتى لمصر. وعبر عن سعادته لتبادل السفراء... إلخ. ولكى أجعل الحديث أكثر فائدة، اقترحت التفكير فى عقد مشاورات ثنائية فى المستقبل، قبل انعقاد دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة، بخصوص المواضيع الأساسية للدورة، موضحا أن هذه المشاورات قد أصبحت معتادة من قبل فى علاقاتنا مع مختلف الدول. وبالإضافة إلى ذلك، اقترحت ضرورة أن تصبح المشاورات بين المسئولين بوزارات خارجية الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر

العربية، التى كانت حتى الآن تتم فقط من وقت لآخر مع فترات توقف طويلة، منتظمة. وقد أيد وزير الدولة كلتا الفكرتين، لكن تأخر بعد ذلك تنفيذها طويلا، كأشياء أخرى كثيرة. ومن ناحيته، تحدث بطرس غالى فى موضوعين المترجم وكيف تتعاون دول حوض النيل مع بعضها البعض، ومستقبل الدعوة لمؤتمر بخصوص المحيط الهندى (كان الموضوع الثانى يهمنا جدا، وقد عرضنا، أنا ووزير الدولة، على بعض موقف بلدينا نحوه).

وبعد ذلك، تقابلت مع بطرس غالى كثيرا!. وكانت مبررات ذلك متعددة تماما: فأحيانا كان يجب علىَّ عرض شيء ما باسم موسكو بشكل رسمى، أو أنه كانت تظهر عنده حاجة لمقابلتى. عامة، ترك بطرس غالى لدى انطباعا حسنا، حيث إنه كان دائما حريصا جدا فى أحكامه الشخصية. وأظن أن ذلك كان نابعا من خصوصية وضعه كقبطى فى حكومة للبلد، تقريبا ١٠٠% من أعضائها مسلمون، وليس من شخصيته. وبالطبع، لم أكن فى ذلك الوقت أتصور أنه ستمر سبع سنوات، وأننى سأقابله فى مطار بكين، حيث عطل طائرته خصيصا انتظارا لوصول طائرتى؛ لمعرفة هل سيسمح له الاتحاد السوفييتى بمنصب السكرتير العام للأمم المتحدة، أم أنه سيمنح الأفضلية لأحد منافسيه (كما هو معروف يتم اختيار السكرتير العام بناء على موافقة جماعية من الأعضاء الخمسة الدائمين بمجلس الأمن). ولم يكن لفرحته حدود عندما سمع منى الكلمة التى انتظرها طويلا، "نعم" (كنت قد طرت إلى بكين بدعوة من وزارة خارجية جمهورية الصين الشعبية؛ لمناقشة مواضيع أخرى "أفغانستان، والعراق، وتسوية مشكلة الشرق الأوسط". وهى المواضيع التى كنت مسئولا عنها بوزارة الخارجية، كنائب للوزير. وكانت مقابلة بطرس غالى مضافة إلى ذلك، حيث إنها تمت فى فترة محاولة الانقلاب[1]، ولم يكن من الممكن استقباله فى موسكو.

---

[1] يقصد الحوادث التى جرت فى موسكو يوم ٢١ أغسطس ١٩٩١، عندما تم تشكيل لجنة حكومية للطوارئ

وكان قد بقى لى أن أقوم بزيارتين أخريين لوزارة الخارجية المصرية، للمسئول المباشر عن العلاقات مع الاتحاد السوفييتى- نائب الوزير"بدوى"، ولمدير إدارة دول شرق أوروبا "قنديل". ولم أتأخر فى ذلك. وقد مرت الزيارتان دون مشاكل. ولم أسمع منهم أى شيء جديد. لكنى عبرت، من ناحيتى، عن استعداد موسكو للنظر فى الاقتراحات المصرية الممكنة، لتنفيذ مشاريع صناعية واقتصادية جديدة، وتحديث المشاريع التى تم إنشاؤها فى الماضى بمساعدة الهيئات الروسية، خاصة مجمع الحديد والصلب بحلوان، ومجمع الألومونيوم بنجع حمادى، وكذلك التفكير فى التحول من البروتوكولات السنوية فى التجارة إلى بروتوكولات طويلة الأجل، وزيادة التعاون الثقافى والعلمى، بما فيه إقامة علاقات أوثق مع المعاهد الأكاديمية السوفييتية، مثل: معهد "أفريقيا، الاستشراق، الولايات المتحدة الأمريكية، موسكو للعلاقات الخارجية التابع لوزارة الخارجية". ولم أقم بزيارة باقى وكلاء الوزارة، لكنى تقابلت معهم أثناء ظهور مواضيع محددة (أوضحت موقفنا من جزر كوريل[1]، على سبيل المثال).

كيف تجمعت مشكلات الديون وقطع غيار السلاح السوفييتى فى عقدة واحدة

كنت حين أقوم بمختلف اللقاءات، أستعد فى نفس الوقت للحديث التالى مع حسنى مبارك، متصورا سيناريوهاته الممكنة. وكنت أفترض أن مواضيع توريد قطع غيار السلاح السوفييتى، وتجديد التعاون العسكرى فى المجالات الأخرى ستكون هى أهم المواضيع بالنسبة للرئيس، حيث إنه كان قد عرض هذا الموضوع فى رسالته الشفوية للقيادة السوفييتية، لكنه لم يتلق إجابة محددة. وكان السفير المصرى قد سبق أن اهتم بالسؤال عن ذلك فى وزارة خارجيتنا، ماذا فى الأمر؟ وقيل له إن الرد على الجزء السياسى من رسالة مبارك أعطى له عن طريقى، أما

[1] جزر تحت سيطرة الاتحاد السوفييتى، تطالب اليابان بجزء منها

الرد على الجزء الباقى فجارية دراسته. وكان الأمر كذلك بالفعل. وكان أهم من يدرس ذلك، فى هذه الحالة، هما كل من وزارة الدفاع، واللجنة الحكومية للعلاقات الاقتصادية، اللذين كان عليهما أن يقدما مع هيئات أخرى مقترحات مناسبة للجنة المركزية للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى. وكنت أنتظر بفارغ الصبر التعليمات، وأنا أخمن المدى الذى ستكون موسكو مستعدة للذهاب إليه استجابة لطلبات مبارك. ولم تخيب ظنى الأوامر التى جاءتنى، لقد تناولت كل الجوانب الممكنة للتعاون العسكرى، التى أشارت إليها رسالة مبارك. وكنت أرى أن الموقف الذى طلب منى أن أنقله إليه كان عقلانيا، وبناء، ويراعى بطريقة مناسبة الوضع الفعلى للأمور، كما هو فى مجال التعاون العسكرى مع مصر. وأعجبتنى أيضا النهاية التى وضع فيها مستقبل التعاون العسكرى، فى سياق الحديث عن التنمية المستقبلية للعلاقات السوفييتية- المصرية، (حيث فيها تلميح بشفافية لا مداراة فيها، إلى أن تبادل السفراء لا يكفى، وأنه من الضرورى حل باقى ما فسد من العلاقات بيننا فى عهد السادات).

وقد تمت تلبية طلبى لمقابلة الرئيس دون أى تأخير. لكن قبل أن أروى كيف تم هذا اللقاء، يجب علىَّ أن أعرف القارئ بتاريخ هذا الموضوع، وأن أوضح بصفة خاصة، لماذا بدا موضوع التعاون العسكرى وتسديد الديون الخاصة مرتبطا تماما بمواضيع التجارة بين الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية، الخاصة بالبضائع المدنية، وحالة الحسابات الخاصة بها؟

بدأ تعاوننا العسكرى مع مصر من عام ١٩٥٥، واستمر حتى عام ١٩٧٥. وطبقا للمعلومات التى عندى، ففى خلال هذه السنوات العشرين، وردنا لمصر سلاحا وذخيرة، ومعدات حربية مختلفة، وتجهيزات تقدر قيمتها بما يزيد على ٥ مليارات روبل. وكانت قيمة الروبل فى ذلك الوقت تعادل، تقريبا، جنيها إنجليزيا إسترلينيا، أى كان يزيد بكثير عن الدولار. وإذا أخذنا فى الاعتبار أن ثمن المنتجات الحربية كان منخفضا كثيرا عن ثمنه فى الوقت الحالى، وأننا كنا نوردها

لمصر بشروط ميسرة لدرجة كبيرة جدا لا يمكن تصورها (عامة بنصف قيمة ثمنها)، فيمكن تصور كيف كان حجم توريداتنا كميا. لقد أعطى الاتحاد السوفييتى مصر أكثر من ٤,٥ آلاف من الدبابات، وأكثر من ألفى سيارة مدرعة، و٣٠٠ سيارة نقل مشاة، وأكثر من ٨٠٠ طائرة مقاتلة، وأكثر من ٢٠٠ طائرة مقاتلة - قاذفة، وحوالى١٥٠ قاذفة قنابل بعيدة المدى، وأكثر من ٢٠٠ طائرة من الأنواع الأخرى، وأكثر من ٦٠ مروحية، و١٠ مدمرات، وأكثر من٧٠ من قوارب الصواريخ والقوارب الحربية الأخرى، و١٥ كاسحة ألغام، و١٦ سفينة إنزال جنود، والكثير من المعدات الحربية الأخرى. كما تدرب هناك نحو ٨ آلاف من العسكريين المصريين فى الاتحاد السوفييتى فى خلال هذه الفترة.

وبالطبع، فقد المصريون الكثير من المعدات الحربية فى حروبهم مع إسرائيل، لكننا كنا نعوض هذه الخسائر، وأحيانا حتى بسخاء. وكان السلاح يورد بالأجل، مع وجود فترة سماح ١٠ سنوات، وبنسبة ربح ٢% فقط سنويا. ولكى نسهل على مصر دفع ثمنها، تم الاتفاق على أن الثمن سوف يسدد أساسا عن طريق توريد منتجات مصرية. وقد سدد المصريون حوالى ٨٥٠ مليون روبل من القرض المستخدم، كما قامت الجزائر بتسديد حوالى ٧٥ مليون روبل من قيمة القرض، كما أسقطت موسكو نفسها أكثر من ٣٠٠ مليون روبل، تلبية لطلبات القاهرة. لكن بقى جزء كبير من القروض المستخدمة حتى عام ١٩٧٥، لم يتم تسديد قيمته حتى الآن.

وقد توقفت موسكو فى أكتوبر ١٩٧٥، عن توريد المعدات الحربية. وكان السبب هو التأخير المتكرر فى السداد، ودخول المفاوضات مع السادات، بخصوص جدولة الديون الخاصة وشروط تسديدها، إلى طريق مسدود. كما كانت توجد أيضا أسس سياسية جادة. وقد تسبب فيها السادات بتصرفاته غير الصديقة مع الاتحاد السوفييتى، واستمرار جذب القاهرة فى اتجاه الألعاب الأمريكية فى الشرق الأوسط. ولم تكن موسكو تنوى أن تتوقف نهائيا عن التعاون العسكرى مع مصر،

وكذلك التوقف عن توريد قطع غيار السلاح السوفييتى. وبناء على طلب المصريين، تم فى يونية ١٩٧٧ اتخاذ قرار بإعادة توريد قطع الغيار، لكن لم يتم تنفيذ ذلك، حيث أعلن السادات فى أكتوبر من العام نفسه امتناع مصر عن دفع كل الديون الخاصة لمدة عشر سنوات (اعتبارا من عام ١٩٧٨). وهكذا حدد السادات سمة للتعاون العسكرى بين الاتحاد السوفييتى ومصر، اعتبرها، على الأرجح، نهائية، بناء على كل تصرفاته. لكن مضى الزمن، على أية حال، وزادت معه قيمة نسبة الأرباح على جزء الديون التى لم يتم تسديد قيمتها. وقد وصلت قيمة ديون مصر عن القروض السوفييتية الخاصة، قبل يوم وصولى إلى القاهرة، إلى ٢.٤ مليار روبل.

ولم يتناقص احتياج مصر من قطع غيار السلاح السوفييتى مع مرور السنوات، لكنه على العكس تزايد. ولم تتحقق حسابات السادات المتمثلة فى قدرته على استبدال سلاحنا بسرعة بالسلاح الأمريكى. فلم يسر التحول إلى السلاح الأمريكى بسهولة، وكان بطيئا. وطبقا لتقديراتنا، كانت نسبة السلاح السوفييتى فى تسليح القوات المسلحة لجمهورية مصر العربية فى عام ١٩٨٤، لا تزال تمثل الثلثين. وفى الوقت نفسه، كان على مصر أن تحتفظ بجيش كبير بدرجة كافية: وطبقا للمعطيات التى كانت عندنا، كان يوجد ٣٠٠ ألف فرد فى القوات البرية، وتراوحت أعدادهم فى القوات الجوية من ٤٠ إلى ٥٠ ألف فرد، وفى الدفاع الجوى ٨٠ ألف، وفى القوات البحرية ٣٠ ألف فرد. أى يكون الإجمالى من ٤٥٠ إلى ٤٦٠ ألفا فرد. ورغم أنه قد تم توقيع اتفاقية سلام مع إسرائيل، لكن لم تتراخ القاهرة فى هذا الشأن، بناء على دروس التاريخ. كما أنه كانت العلاقات مع ليبيا متوترة جدا فى ذلك الوقت، كما أنها لم تكن أحسن مع غالبية الدول العربية الأخرى.

وفى البداية، عندما جاء مبارك إلى السلطة، لم يتوجه إلى الاتحاد السوفييتى، بل حاول أن يحل مشكلة قطع الغيار بطرق غير مباشرة، فحاول الحصول عليها

عن طريق الدول الاشتراكية بأوروبا الشرقية، وأن يقوم بإصلاح المعدات السوفييتية فى الهند، وإشراك العراق، لكنه لم ينجح فى ذلك، حيث إنه لم يكن من المنطقى أن يسمح بذلك الاتحاد السوفييتى لشركائه فى التعاون العسكرى، المذكورين أعلاه. فليس أمام القاهرة سوى طريق واحد هو الاتفاق مع موسكو بطريقة مباشرة.

وسأتحدث الآن عن الارتباط بين الديون الخاصة والتجارة. سارت الأخيرة بطريقة جيدة مرضية، حيث إن كلا الجانبين كانا مستفيدين منها. فنحن استوردنا من مصر "القطن، والغزل، والنسيج، والخضروات، والفاكهة، والخامات الخاصة بصناعة الروائح... إلخ". وكان ذلك بكميات ضخمة جدا. فعلى سبيل المثال، اشترينا فى عام ١٩٨٤ من مصر ١٢ ألف طن قطنًا، و١٧ ألف طن غزلاً، و١٠٠ ألف طن برتقالاً، و١٠ آلاف طن بصلاً، و٣ آلاف طن ثومًا.... إلخ. أما توريدات الاتحاد السوفييتى إلى مصر فكانت تتمثل أساسا فى المنتجات النهائية لصناعتنا من "سيارات النقل، وآلات الورش، ومختلف المعدات، والورق، والكرتون، والأخشاب، والأسمدة، والأسمنت.... إلخ".

وكانت تتم الحسابات عن طريق الجنيه الحسابى، على أساس الجنيه الإسترلينى الإنجليزى. وكان الجانبان يعتبران نظام الجنيه الحسابى مناسبا لكل منهما، حيث إنه لم يكن يتطلب استهلاك العملات القابلة للتحويل، وإن الحساب كان يتم بأسلوب المحاسبة السنوية لتبادل توريد البضائع، طبقا للأسعار التى يتم الاتفاق عليها، معبرا عنها بالجنيهات الإسترلينية. لذلك كان يجب الاتفاق للعام كله، وعلى كل أنواع البضائع، وكمياتها، وثمنها، وفترات التوريد. وكان ذلك، بالطبع، لا يتم دون صعوبات فى المفاوضات الخاصة بإعداد البروتوكولات السنوية الخاصة بتبادل السلع. وكانت هذه المفاوضات تتم على عدة حلقات.

وقد تسبب السادات فى خلق صعوبة إضافية عن قصد، عندما فرض سعرا خاصا عاليا جدا للجنيه المصرى بالنسبة للجنيه الإنجليزى، فقط للحسابات مع

الاتحاد السوفييتى. لذلك كان على المصدِّر المصرى أن يرفع الأسعار إلى ضعف الأسعار العالمية، تقريبا، لكى يتاجر معنا، حتى يحصل من البنك المصرى على اعتماد بنكى حكومى لبضاعته التى يبيعها للاتحاد السوفييتى، مماثل، تقريبا، لما كان سيحصل عليه لو باعها لدولة أخرى. ونتيجة لذلك فقد اضطر الجانب السوفييتى أيضا لأن يرفع أسعار بضاعته، رغم أن ذلك لم يكن بالقدر نفسه حتى تكون سلعنا قادرة على المنافسة فى السوق المصرية. وحتى فى ذلك الوضع، كما بينت حسابات وزارة التجارة الخارجية السوفييتية عامة، كانت التجارة مع مصر مجدية اقتصاديا. وكما أفهم، ساعد على ذلك فى هذه الحالة النظام الداخلى للتسعير فى الاتحاد السوفييتى، الذى كان من نتيجته أننا كنا نحصل من كل سلعة قيمتها روبل، على سبيل المثال، والتى تصدر إلى مصر على روبلين ونصف إلى ثلاثة من السلعة المصرية المباعة بالداخل بالأسعار السوفييتية. ومن المفهوم أننا إذا كنا قد تاجرنا مع مصر بالأسعار العالمية، فإن العائد الذى كان سيعود علينا من التجارة سيكون أكبر بكثير.

وعند تبادل توريد السلع، لم يكن دائما يتم تحقيق ميزان التبادل التجارى - (يكون هناك عجز) - السنوى تماما، لأسباب مختلفة. وكان قد تم الاتفاق بين الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية على أنه فى مثل هذه الحالات يجب ألا يتعدى الخلل فى الميزان التجارى ١٥ مليون جنيه إنجليزى. وإذا تعدى هذا الحد، فإنه كان يجب التعويض عن هذه الزيادة ببضائع أو نقدا. وبذلك استخدم نظام الجنيه الحسابى لعدة سنوات، لكن للحظة محددة.

وجاءت هذه اللحظة، عندما فهم من كان يتمتع ببعد نظر أكبر فى حكومة جمهورية مصر العربية، أن الحاجة إلى قطع غيار السلاح السوفييتى ستؤدى إلى إنهاء القاهرة "لموراتوريوم" السادات الخاص بدفع قروضنا الخاصة، وحيث إن الدين كان كبيرا، فيجب بدء الاستعداد لتسديده مسبقا. وقد رأوا أن المخرج يتلخص فى الزيادة المنتظمة لتصدير السلع المصرية للاتحاد السوفييتى، مقارنة بالاستيراد

منه، بحيث يتم تكوين رصيد كبير فى الحساب التجارى على مدى عدة سنوات، يمكن استخدامه، فيما بعد، لتسديد الدين العسكرى. على أية حال، فقد قدم كبار المسئولين المصريين هذه الفكرة لرفاقنا فى أثناء المفاوضات التجارية.. وأنا لا أستبعد أن الفكرة كانت فى البداية مختلفة، وأنها كانت تتلخص فى زيادة رصيد الحساب التجارى فى السلع المدنية، ثم بعد ذلك مطالبتنا بتغطيته عن طريق قطع غيار السلاح. كان الوضع بهذه الصورة أو بغيرها. من الصعب الحكم على ذلك. ويعرف ذلك بصورة أحسن أصحاب هذه الفكرة وحدهم.

أما موسكو، فقد أعجبتها فكرة زيادة رصيد الحساب التجارى. فإذا كان المصريون أنفسهم يقترحون هذا الفكر عن زيادة رصيد الحساب، كطريقة لتسديد ديونهم العسكرية، فلماذا لا يتم الاستفادة من ذلك؟ وتم تنفيذ هذه الفكرة عمليا: أصبحنا نستورد من مصر أكثر مما كنا نورده لها، وأصبح رصيد الحساب التجارى يتزايد بمرور السنوات. وفى نوفمبر ١٩٨٣، قام كل من نائب وزير التجارة الخارجية للاتحاد السوفييتى "ا.ت. جريشين"، ووزير الاقتصاد والتجارة الخارجية لجمهورية مصر العربية، فى خلال مباحثاتهم الرسمية فى القاهرة، بالاتفاق على استخدام قيمة رصيد الحساب التجارى المتراكم بهذه الطريقة. وتم كذلك الاتفاق على تحديد أنه سوف تبدأ فى يونية ١٩٨٤ مفاوضات جادة بين الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية خاصة بالدين العسكرى. لكن عندما جاء هذا الموعد، امتنع المصريون عن التفاوض، وفى سبتمبر، طلب الرئيس مبارك فى رسالته للقيادة السوفييتية، التى سبق الإشارة إليها، أن يستخدم رصيد الحساب التجارى الذى تراكم من أجل توريدات سوفييتية جديدة لقطع غيار السلاح، وليس لتصفية الديون. وكان العجز التجارى، فى ذلك الوقت، قد وصل إلى قيمة قريبة من ٤٠٠ مليون جنيه إسترلينى إنجليزى.

وأفادت التعليمات التى وصلتنى أننا لسنا موافقين على هذا الاستخدام لرصيد الحساب التجارى. وأنه يمكن أن نورد قطع غيار السلاح، وأية سلع خاصة أخرى،

فقط بشرط أن يتم دفع ثمنها بالعملة الحرة، أو عن طريق السلع بالعملة المصرية (فى ذلك الوقت كانت هذه السلع هى النفط والقطن). وبذلك، كانت موسكو تلبى طلب مبارك، وكانت مستعدة لتجديد التعاون العسكرى مع مصر، كما أنها ذكرت اتجاهات محددة، لكن ليس بتلك الشروط المالية التى كان يرغب فيها المصريون. وكان من المفهوم أن حديثى مع الرئيس يمكن أن يتم بصور مختلفة. وكان الأمر يتوقف أولا على ما هو أهم لمبارك؟ هل هو الاستفادة من الإمكانيات التى تفتحت لبدء تعاون عسكرى ضخم مع الاتحاد السوفييتى، أم وضع موضوع العجز التجارى فى مقدمة الركن، على أمل أن ترضخ موسكو؟

الحوار مع مبارك

وقد تم اللقاء مع مبارك فى ٢٨ من نوفمبر، أى، تقريبا، بعد شهر من اللقاء الأول كما كان مخططا. وتم اللقاء فى قصر رئاسى آخر، هو قصر العروبة. ونظرا للتجربة السابقة، فقد اقترح علىّ أن يصاحبنى مترجم. فذهبت إلى هناك مع السكرتير الثانى للسفارة "إسرافيل فيكيلوف"، حيث إنى كنت مقتنعا بقدراته المتميزة على الترجمة، وكنت مسرورا من المديح الذى قاله عنه كبار المسئولين المصريين. ولم يخذلنى، وأثناء الحديث مع الرئيس، اهتم الأخير بمعرفة المكان الذى استطاع فيه زميلى أن يتمكن من اللغة العربية بهذه الصورة الجيدة، بما فيها اللغة العسكرية. وخيل لى أن إجابة فيكيلوف بأن ذلك تم فى الخنادق المصرية قد أعجب مبارك. على أية حال، بدءا من هذا الحديث لم يعد مبارك يصطحب معه مترجمه للتحدث معى، فقد كان فيكيلوف يقوم بكل أعمال الترجمة.

وبعد انصراف المراسلين الصحفيين، بقينا نحن الثلاثة: مبارك، وأنا، وفيكيلوف. وظهر الباز فقط فى الدقائق الأخيرة، بعد حديثنا الذى استمر لمدة ٥٥ دقيقة. وبعد الكلمات المبدئية التى تبادلناها، انتقلت إلى العمل، اعتمادا على

الرسالة، فبدأت فى سرد فقرات النص التالى، فقرة بعد الأخرى. ولقد احتفظت به، وأقدمه كاملا:

"من حيث المبدأ فإن الجانب السوفييتى لا يمانع فى أن يبدأ من جديد التعاون العسكرى، فى أية صورة، مع جمهورية مصر العربية. والاتحاد السوفييتى يوافق على أن يجدد لجمهورية مصر العربية، اعتبارا من عام ١٩٨٥، توريد قطع غيار المعدات الخاصة، التى جلبت من الاتحاد السوفييتى، وقطع غيار معدات المشاريع عسكرية الهوية، التى تم إنشاؤها فى جمهورية مصر العربية بالتعاون الفنى مع الاتحاد السوفييتى، من حيث "ورش الإصلاح، ومعدات الرادار والاتصالات، والمعدات الهندسية، ومعدات الدفاع، والمعدات الأخرى، وكذلك توريد الذخيرة والمعدات المساعدة".

وفى هذه الحالة، فإن الاتحاد السوفييتى على استعداد للإقدام على هذه الخطة، بغض النظر عن الصعوبات التى يواجهها، للبحث عن موارد إضافية لإنتاج المعدات الخاصة، نظرا لأن خطة الدولة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للفترة من عام ١٩٨١ إلى عام ١٩٨٥، قد انتهت فى عام ١٩٨٥، كما توجد التزامات قبل دول أخرى، طبقا لاتفاقيات تم إبرامها من قبل.

وطبقا للأسلوب الموضوع لتسديد ثمن هذا النوع من التوريدات، فإنه يتم بالعملات الحرة القابلة للتحويل. وفى الوقت نفسه، بمراعاة التقدم المتوقع فى العلاقات السوفييتية المصرية، ومنها العلاقات السياسية، فإن الهيئات السوفييتية المعنية كانت تستطيع أن تتفق على توريد السلع الخاصة، المشار إليها، وبكميات، فى مقابل سلع قابلة للتداول من مصر.

كما أن الجانب السوفييتى يوافق، من حيث المبدأ، على القيام بإصلاح السلاح والمعدات الحربية، التى سبق أن وردها الاتحاد السوفييتى لجمهورية مصر

العربية، فى الاتحاد السوفييتى. وهو على استعداد لإرسال خبرائه العسكريين، لتحديد ما يحتاج للإصلاح، والتأكد من احتياجات قطع الغيار.

أما ما يتعلق بتلبية احتياجات القوات المسلحة المصرية من الصور الرئيسية للسلاح والمعدات الحربية، خاصة فيما يخص معدات الدفاع الجوى، فبالطبع، لا يمكن تقرير هذه المواضيع، فى الواقع، دون تسوية علاقات الديون بين الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية، بصورتها العامة الشاملة.

والاتحاد السوفييتى مستعد لمناقشة بناءة، بخصوص الفترات المقبولة من الجانبين لإعادة التعاون الحربى مع جمهورية مصر العربية، فى الإطار العام للتنمية المستقبلية للعلاقات السوفييتية المصرية.

وأعطانى أول رد فعل لمبارك أملا كبيرا؛ فهو قد انشرح، وأشرق وجهه بمعنى الكلمة، من الرضا. وقد طلعت من ذلك بانطباع هو أن الرئيس شخص انفعالى. وكان كل من وجهه، ونظرته، وحركاته، يعبر عن أحاسيسه. وقد رأيته فى مواقف مختلفة، فى حالة هدوء ولطف، وفى حالة ثورة عارمة، عندما كان يغلى بسبب الأحاسيس التى ساورته (غضب أو عدم رضا). وأنا أتذكره بصفة خاصة، فى أثناء المقابلة معه فى القاهرة، حيث طرت إليها خصيصا للحديث معه فى عام ١٩٩٠، بسبب استيلاء العراق على الكويت. وكان صدام حسين قد خدع تماما مبارك وخذله. وكان الأخير قد تدخل كوسيط، وحاول حل الأزمة التى اندلعت آنذاك. وفى أثناء حديثه معى، لم يخف مبارك انفعالاته، وذكر فى ذلك اليوم كل ما كان يعتقده عن الدكتاتور العراقى وغدره. ومن المعروف أن تقريبا أى سياسى يصبح عند الحاجة ممثلا بعض الشيء. وغالبا، مبارك ليس استثناء من ذلك. لكن طبقا لملاحظاتى، فقد كان يسود فى تصرفاته كل من الصراحة والحقيقة، وهو ما أسرنى بالطبع.

لكنى سأستمر فى رواية ما سار عليه حديثنا. قال مبارك مبتسما، إنه سعيد لسماع أخبار جيدة من موسكو، وإنه شاكر لتفهم احتياجات بلده وقواتها المسلحة. وقد قال الرئيس إن موضوع قطع غيار السلاح السوفييتى عاجل بصفة خاصة. فهو كطيار حربى، يفهم أكثر من غيره معنى أن ينتهى عمر محرك الطائرة، وألا يوجد غيار له، وأن يكون الطيران ضروريا. وأكمل مبارك:" عندنا عشرات من الطائرات الحربية السوفييتية راقدة على الأرض. والموقف ليس أحسن مع باقى المعدات السوفييتية، التى ظهرت بشكل ممتاز، والتى تحتاج فقط لإطالة عمرها. فمن المحزن ألا تستطيع استخدام آلة ما حربية؛ بسبب تلف قطعة منها أو معدة، سواء أكان ذلك دبابة أم مدرعة أم شيئًا آخر".

وبعد ذلك قال مبارك، إنه قد قرر فى قرارة نفسه، بمجرد أن أصبح رئيسا، ضرورة إعادة العلاقات مع الاتحاد السوفييتى، وإنه لم يخف تلك النية عن المحيطين به، ولا عن الأمريكان، وإنه بعد ذلك أعلن عنه علانية، أثناء زيارته للولايات المتحدة الأمريكية، فى الكونجرس، وفى حديث للتليفزيون الأمريكى. وأوضح الرئيس "لقد قلت للأمريكان: لكم علاقات مع موسكو على مستوى السفراء، وتقومون معها بالمباحثات، والاتحاد السوفييتى قوة عظمى. ويجب أن يكون لمصر أيضا معه علاقات طبيعية. هذا أمر لا يزيد عن كونه طبيعيا..." وأنهى الرئيس هذا الجزء من الحديث بالكلمات التالية: "قرار إعادة العلاقات مع الاتحاد السوفييتى على مستوى السفراء، هو قرارى أنا، وأنا فقط" (يبدو أن مبارك أراد أن يؤكد بتلك الكلمات أن الأمر لم يكن سهلا، وأنه اضطر لأن يصر عليه).

ثم انتقل الرئيس إلى المواضيع العالمية. فقال مبارك:" إنه يأخذ فى الاعتبار الاقتراحات التى قدمها الاتحاد السوفييتى من قبل، فى عام ١٩٨٤، بخصوص تسوية مشكلة الشرق الأوسط، حيث كانت فكرتها الأساسية هى تنظيم مؤتمر مفوض، وإنه شخصيا يوافق على الدعوة إليه، لكن للأسف هذا المؤتمر ليس واقعيا الآن، بسبب معارضة كل من الولايات المتحدة وإسرائيل". وانتقل مبارك بسلاسة

إلى نقد الرئيس السورى "حافظ الأسد"، آخذا عليه تجاهل المصالح العربية المشتركة، والدسائس ضد "عرفات" وحركة المقاومة الفلسطينية، والتصرفات المغرضة فى لبنان. ثم تحول مبارك بعد الحديث عن الأسد إلى القائد الليبى "القذافى"، متحمسا بشكل ملحوظ، وملوحا بيديه، فأطلق عليه عددًا من الصفات غير الحميدة، مشيرا إلى مؤامراته على مصر، التى لا تتوقف. مضيفًا "سوف نضطر أن نعطيه درسا كما يجب، إذا ذهب إلى مغامرة عسكرية - على سبيل المثال: القيام بهجوم جوى على أسوان. لقد قدم له الاتحاد السوفييتى الكثير من السلاح بلا مبرر، لماذا فعلتم ذلك؟". ولم ينتظر الرد، بل استمر يتحدث عن القذافى الذى لا يمكن الوثوق به، حيث لا يمكن توقع تصرفاته مسبقا.

وقد كنت مسترخيا قليلا، وأنا أستمع إلى فكر مبارك ، حيث كنت مدركا أن الحديث يقترب من نهايته، وأن الرئيس لن يلمس بعد ذلك موضوع الشروط المالية لتعاوننا العسكرى مع مصر. لكنى كنت مخطئا. فقد استمر بنفس النبرة المتوترة التى كان يتحدث بها عن القذافى الآن، ثم فجأة أدار مبارك دفة الحديث إلى رصيد الحساب التجارى الذى "جمده" الاتحاد السوفييتى، حيث لم يسمح لمصر أن تستخدمه، بل يزيده مع مرور السنوات. بعد ذلك جاءت عبارة: إنه فى كل اجتماعات الحكومة ينغصون عليه بالشكوى من قيمة هذا الرصيد؛ لأن الموقف الاقتصادى فى البلد كان سيئا جدا. ثم قال فجأة، بطريقة حادة وبحزم، وهو يؤكد كل كلمة بالإشارة بيديه: "لن أقوم بدفع أية ديون عسكرية". قال ذلك، قاطعا، ثم صمت وهو ينظر إلىَّ عابسا.

لم أكن أتوقع هذا التحول. فجاء إلى فكرى خياران بسرعة كبيرة: أن أقول، كالعادة، إننى سوف أنقل كلمات الرئيس إلى القيادة السوفييتية (وفى هذه الحالة لم يكن من الصعب توقع رد فعل موسكو؛ فلن يكون هناك أى تعاون عسكرى مع مصر، وأنه أصبح أثرا بعد عين)، أو البدء فى مناقشة مع الرئيس، على أمل التوصل إلى شىء ما أكثر إيجابية، رغم إدراكى أنه بالنسبة للسفراء فإن النقاش مع

رؤساء الدول لا ينتهى دائما على خير (مثال ذلك: ما حدث فى مصر نفسها). لكننى اخترت الاختيار الثانى.

فبدأت بذكر أن الموقف الذى عبر عنه الرئيس الآن، يختلف جذريا عما سمعناه من عام واحد فقط، من وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية لمصر، عندما شرح، فى خلال المباحثات مع "جريشين"، الطريقة التى تنوى بها حكومته تغطية الديون العسكرية المستحقة للاتحاد السوفييتى. لذلك فبلا شك، سوف يؤدى التراجع عن الوضع السابق إلى ظهور السؤال عن الثقة فى العلاقات بين بلدينا. وإذا لم توجد الثقة، فسوف يكون من الصعب الحديث عن تعاوننا الحقيقى. هذا هو الجانب السياسى لهذا الموضوع. لكن يوجد جانب آخر مهم اقتصاديًا. لقد نما رصيد الحساب التجارى لهدف واحد- هو أن يكون أساسا لحل مشكلة الدين العسكرى. لذلك فقد حصل الاتحاد السوفييتى من مصر على سلع ليس بحاجة إليها كأولوية أولى، مثل "الروائح، الأثاث، المشروبات الروحية، الفواكه والخضروات"، التى توجد وفرة منها فى أسواق دول أخرى، وبأسعار أقل كثيرا. ولن يكون تقلص التجارة بين الاتحاد السوفييتى ومصر مفيدا لأى من الجانبين. فإن الاتحاد السوفييتى هو الدولة الوحيدة التى يوجد لمصر معها توازن نشط. ومن ناحية المبدأ، ليس من المنطقى أن نحصل من مصر على سلع تكون أسعارها، فى المتوسط، ضعف الأسعار العالمية. وكل ذلك يتم فقط من أجل رصيد الحساب التجارى. فمن أين تؤخذ مثل هذه الأسعار؟ وكنت سوف أبدأ فى شرح طبيعة هذه الظاهرة، لكن هنا قاطعنى مبارك، حيث يبدو أنه فهم جيدا إلى أين أتجه بالحديث.

فقال الرئيس إنه لا يعرف تفاصيل تجارة مصر مع الاتحاد السوفييتى، فهو سياسى، والتجارة ليست عمله. وهو عليه، كسياسى، أن يبين للشعب أن تبادل السفراء مع موسكو يمثل خطوة صحيحة تتم فى وقتها، تجلب لمصر فورا خيرا ملموسا. وقبل أى أحد، يجب أن يرى العسكريون المصريون ذلك، لأن ما يوجد عندهم الآن من سلاح سوفييتى عبارة عن نفايات معدنية؛ لأن الاتحاد السوفييتى

توقف، فى يوم ما، عن توريد قطع الغيار، وما كان عليه أن يقوم بذلك. لماذا يجب على مصر أن تدفع الآن ثمن سلاح أصبح إما غير صالح تماما، أو يتجه مع الوقت إلى ذلك؟

وذكر مبارك الجمل الأخيرة بانفعال، حتى أنه كان غاضبا بعض الشيء. ولم تعجبنى كلمة "نفاية"، أو التلميح إلى أن الاتحاد السوفييتى تخلى عن مسئولياته، وهو ما لم يحدث فى الواقع. لكنى مع ذلك حاولت أن أرد بهدوء وموضوعية. فبدأت بأنه يفترض أن الرئيس، باعتباره عسكريا، يعرف جيدا أن الاتحاد السوفييتى لم يمنع سلاحه عن مصر أبدا. بالعكس، فإنه قد تم تنفيذ كل التوريدات، بناء على الطلبات الملحة لحكومة مصر، التى كانت عادة عاجلة. فقد تم توريد السلاح والمعدات والذخيرة بالأجل، وبشروط ميسرة جدا. وبالمناسبة، لم يكن عندنا سلاح ومعدات أخرى زائدة عن الحاجة، وكان علينا أن ننتج كل شيء كإنتاج إضافى. لكن موسكو قامت بذلك وهى تعتمد على أن يتم الحساب على التكاليف التى تحملتها، كحق قانونى لها. كما أنك تعرف تماما، سيدى الرئيس، الدور الذى لعبه السلاح السوفييتى فى محافظة مصر على استقلالها، وأن الذنب ليس ذنب الاتحاد السوفييتى فى أن التعاون العسكرى مع مصر قد توقف. فإذا كانت الآن القدرات الدفاعية لمصر تعانى من نقص قطع غيار السلاح السوفييتى (وموسكو مدركة لذلك، ومستعدة للمساعدة)، فإن التوقف فى توريدها لم يحدث فى وقته هكذا بسبب رغبة موسكو فى ذلك. فقد كان الأمر ليس بسببها، لكن بسبب السادات، وسياسته، وتغييره للسياسة الخارجية لمصر. وأخيرا: يوجد فى بلدى أيضا رأى عام لا يزال، حتى الآن، يتألم تماما مما حدث للعلاقات السوفييتية المصرية فى عهد السادات.. ومن الصعب أن ينسى ذلك كل من "القيادة السوفييتية، ورجالنا العسكريين، والناس البسطاء". من الصعب أن ينسوا ما كانت تمثله مصر لنا، وما كان يمثله الاتحاد السوفييتى لمصر. وبالطبع، ينتظرون فى بلدنا، أنه بعودة العلاقات السوفييتية إلى وضعها الطبيعى سوف يتم التوصل إلى حلول عادلة

للموضوعات التى بقيت منذ أن كان السادات يحدد سياسة مصر. وأنهيت حديثى بأن على تطبيع العلاقات أن يكون مفيدا للجانبين معا.

ولا أعرف هل كان هناك تأثير ما للحيثيات التى ذكرتها، والصلابة والاستعداد للمناقشة مع الرئيس؟ أم أن مبارك نفسه كان قد قرر مسبقا كيفية بناء الحديث كله وبم يتم إنهاؤه؟ لكن بدا فجأة أنه تغير تماما. وأعلن مبتسما، أنه لم يقل إنه لن يدفع أبدا (أكد على هذه الكلمة) الديون العسكرية، لكنه فقط لا يستطيع ذلك الآن؛ بسبب مشكلات اقتصادية كبيرة. أما فيما يخص المصريين، فهم يذكرون تماما مدى المساعدة الكبيرة التى قدمها لهم الاتحاد السوفييتى فى حينه.("لن أدفع" و"لا أستطيع أن أدفع الآن" أمران مختلفان، وحيث إن الرئيس صحح الوضع، فقد تم فتح الطريق لاستمرار البحث عن حل وسط). ثم قال ما يلى: "هيا نؤجل موضوع الديون العسكرية لفترة ما، وعامة، يجب أن نتعامل معها كموضوع منفصل، وألا نربط بينه وبين مواضيع العلاقات التجارية".

وقد طلب أن أنقل "لتشيرنينكو" شكره على الحل الإيجابى المبدئى للمواضيع المهمة، التى ضمنها فى رسالته الشفوية للقيادة السوفييتية. وقال مبارك إنه سوف يأمر بتجهيز المواد اللازمة، مما يفهم منه أن الخطوة التالية سوف تكون من الجانب المصرى. وفى الواقع، كان يجب أن يكون كذلك، فقد أعطت قيادتنا ردها، وإن الدور الآن جاء على مصر. وكانت طبيعة ردود الفعل العفوية للرئيس مبارك، أثناء حديثه معى، على الأرجح علامة على عدم رضائه عن الشروط المالية التى اقترحها الكرملين. وعلى الأرجح، كان يرغب فى أن أعبر عن ذلك فى تقريرى الذى سأقدمه لموسكو عن هذا الحوار. كما يبدو أنه كان متشوقا لمعرفة من هو ذلك الشخص الذى أرسلته موسكو له سفيرا، وأنه يمكن أن أقول إنه اختبر صلابتى. ولست أدرى ماذا كان رأيه؟ لكن يمكن أن أقول شيئا واحدا: وهو أننى قد قابلته ست مرات على مدى العام ونصف العام التالى، أى أنه لم تظهر عنده أية حساسية من الحديث معى. ولو كان الأمر غير ذلك، لكان قد ترك الحوارات

لآخرين، ولما أدارها بنفسه. لكنه كان يفضل التعامل المباشر، أو عن طريق رئيس مكتبه السياسى "الباز"، الذى كنت أتقابل معه عدة مرات كل شهر، وهو ما كان بدوره مثالاً لما كان يتبع فى ذلك الوقت فى مصر. وقد أعطيت ذلك قيمته تماما.

فلنعد إلى "العروبة". ودع كل منّا الآخر بألفة، كما لو كان الجزء الأكبر من حوارنا لم يكن نزاعا. وكان ينتظرنى الصحفيون عند باب القصر. ولم أكشف بالتحديد عن موضوع الحوار مع الرئيس. لذلك كان يمكن القراءة فى الصحف فى اليوم التالى، تحت صور مناسبة، بناء على كلماتى، أن الحوار مع الرئيس كان شاملا، ومفيدا، وتناول مختلف سمات العلاقات السوفييتية المصرية. ولم يكن هناك شيء غير حقيقى، بما فيه "الفائدة". على أية حال، كنت أعتقد أنه كان من المفيد للرئيس أن يستمع إلى تصوراتنا بخصوص رصيد الحساب التجارى، لكن ذلك لم يعط أساسا للاعتقاد بأن الجانب المصرى سوف يتنازل بسهولة عن هذا الجزء من خطته.

الحديث مع رئيس وزراء مصر

وكان عندى فى ذلك اليوم، بالإضافة إلى الحوار مع الرئيس، حديث آخر مع رئيس وزراء مصر "كمال حسن علي"، المشير السابق. وكان قد أصبح رئيسا للوزراء فى شهر يولية فقط، وكان قبل ذلك وزيرا للخارجية، وقبل ذلك وزيرا للدفاع. وكما قال لى المصريون:" فى عهده، كانت وزارة الخارجية تدعو لتبادل السفراء مع موسكو بصورة عاجلة، حيث كان يرى أن ذلك يؤدى بصفة خاصة، إلى التغلب على العزلة السياسية، التى وجدت فيها القاهرة نفسها فى عهد السادات. لذلك فقد توجهت للقاء "كمال حسن على"، وبداخلى إحساس بعدم وجود مفاجآت تنتظرنى عنده. ولقد أسعدنى الحظ بشكل ما، فطبقا لرأى بعض المصريين العالمين بالأمور، كان من سبقه فى مركز رئيس الوزراء معاديًا تماما للاتحاد السوفييتى.

ودار الحديث مع على بطريقة ودية تماما، وقد تحدث كثيرا بطريقة إيجابية فقط عن التعاون بين الاتحاد السوفييتى ومصر فى الماضى، وأشار إلى الأهمية الاقتصادية الضخمة للمشاريع الصناعية، والمشاريع الأخرى التى تم تنفيذها بمساعدة الاتحاد السوفييتى. وكانت كل الحسابات المالية الخاصة بهذه المشاريع قد انتهت، ولذلك، بالطبع، لم تكن هناك خلفية سلبية لتجديد التعاون الاقتصادى. وقد وصف على مجال هذا التعاون بأنه واسع، وأنه يشمل بناء مشاريع جديدة، واستصلاح الأراضى الصحراوية، وإعداد الأخصائيين. لكنه لم يقدم أى اقتراح محدد. لذلك فقد وجهت انتباهه إلى أنه فى المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى سوف تتم مناقشة الاتجاهات الأساسية لتنمية الاتحاد السوفييتى فى الخطة الخمسية التالية، ومشروع الخطة المتعلقة بها. لذلك فإذا كان لدى حكومة جمهورية مصر العربية استعداد للتعاون الموسع، فمن الأفضل ألا يتم التأخر فى تقديم اقتراحات محددة، بحيث يمكن أخذها فى الاعتبار فى الخطة الخمسية الجديدة. وقد وعد "على" بإعطاء تعليمات لإعداد الاقتراحات الممكنة.

وبالإضافة إلى ذلك، اقترحت ألا يتم الاتفاق على التجارة بين الاتحاد السوفييتى ومصر بناء على خطط سنوية، لكن لفترات أطول عن طريق توقيع اتفاقات بهذا الشأن بين الحكومتين. كما أنى طرحت موضوع العودة إلى التجارة بين البلدين عن طريق تبادل السلع، طبقا للأسعار العالمية، كما هو مخطط للتنفيذ فى الاتفاقيات الموجودة بين الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية، التى تم خرقها فيما يتعلق بهذه الجزئية على مدى عدة سنوات. ولم يقدم على ردا مباشرا، لكنه اكتفى بالوعد بالنظر فى هذه الأمور، حيث إنها بلا شك تستحق الاهتمام، وتحتاج إلى دراستها من جديد. ولم يتحدث على فى موضوع التعاون العسكرى، وقد افترضت أنا، منذ فترة، أنه سبقت مناقشته بدرجة كافية مع مبارك اليوم.

الإصرار على تغيير إجراءات التفرقة

لم ألتق بعد ذلك مع الرئيس حتى نهاية العام، لكنى التقيت عدة مرات مع الباز، وفى بعض الأحيان، مرتين فى الأسبوع. وقد بدأت الإجراءات البروتوكولية تتلاشى بيننا بالتدريج، وأصبح كل منا يشعر بحرية أكبر، وأصبح النقاش أسهل، واتسعت بشكل كبير مواضيع المناقشات. وحيث إن الباز كان يمضى أساسا طوال النهار فى مكتبه عند الرئيس، فلم يكن يبقى لديه، عامة، لوزارة الخارجية إلا المساء. وكان يخصص الساعات المتأخرة للحديث معى. وعندما كنت أحضر إليه، فى وزارة الخارجية، يكون المبنى خاليا، وكانت تقريبا كل الأضواء مطفأة. وكان الباز يفضل أن يكون فى مكتبه بلا جاكيت أو كرافتة أو حذاء. وكان يقابلنى بهذا المظهر. وكانت المناقشات تدور بيننا على انفراد، بلا وجود أحد آخر إلا مترجمى الدائم "إسرافيل فيكيلوف". وكان الباز يدعونى فى بعض الأحيان لكى ينفذ إحدى تعليمات الرئيس، لكنه كان يتحدث أكثر دون أن يشير إليه. وقد ساعد تماما الاتصال الجيد مع رئيس المكتب السياسى للرئيس، النائب الأول لوزير الخارجية، حيث إنه وفر إمكانية توصيل وجهة نظر موسكو بسرعة، وبشكل مباشر للرئاسة المصرية، وفى الوقت نفسه، الحصول على المعلومات من مصدر مسئول. وفى الواقع، وجدت قناة متميزة للاتصال، وقد استخدمها الطرفان.

وفى يوم ما، بعد حوالى أسبوعين من مقابلتى لمبارك فى شهر أكتوبر، عاد الباز لموضوع فائض الحساب، وأصر على أن نقوم بتخفيضه، ولو بمقدار ٢٠ مليون جنيه إسترلينى فى العام. وكان المبرر هو نفسه الذى كان عند مبارك، ألا وهو أنه من المهم سياسيا بيان جدوى تبادل السفراء. وقد مكننى ذلك بدوره من أن أعرض، تقريبا، كل الدعاوى الموجهة لمصر، بخصوص إجراءات التفرقة التى ظهرت فى عصر السادات. وقد تركت الديون العسكرية المصرية جانبا، عن قصد (كنا ننتظر من المصريين اقتراحات محددة)، وركزت على "الأوجاع" الأخرى. وقد وضعت موضوع إعادة فتح الهيئات القنصلية فى مصر فى المقدمة، وقبل أى

شيء، القنصلية العامة في مدينة الإسكندرية. وقلت للباز: انظر، كم عدد قنصليات الدول المختلفة في مصر؟ هي بضعة عشرات. وهي ليست فقط قنصليات الدول العظمى الأخرى، والدول الكبيرة، لكنها أيضا قنصليات دول متوسطة أيضا. والاستثناء الوحيد هو "الاتحاد السوفييتي". وفي الوقت نفسه، يدخل الإسكندرية كل عام ٤٠٠ سفينة سوفييتية، وتظهر الكثير من المواضيع ذات الصفة القنصلية الخالصة، ونضطر أن نتعامل معها من مصر، ثم نرسل البعض إلى الإسكندرية؛ لكي يقوموا بهذا العمل. ألا يحق لنا أن يكون لنا في مصر نفس وضع الدول الأخرى؟ كانت هذه في الحقيقة تفرقة عنصرية سياسية، ويجب إنهاؤها على الفور.

تحدثت بصراحة: ولا تزال المراكز الثقافية الروسية مغلقة، ومبانيها خالية تماما، رغم أنه من الممكن أن تكون مفيدة. ولماذا لا تفتح في البداية أبوابها، ولو قليلا، بتنظيم برامج دراسة اللغة الروسية للشباب الذي تختاره السلطات المصرية؛ للدراسة في الجامعات والمعاهد السوفييتية؟ فعدد كبير من الدول له مراكز ثقافية في مصر. وعلى هذا الأساس، فإن إعادة فتح المراكز الثقافية لا يمثل تمييزا خاصا لنا. كما أنه من غير المفهوم أن يكون الجانب المصري السبب في ذلك. ثم كيف وهو الذي يؤكد رغبته في إعادة التعاون العسكري، لا يعيد فتح ملحقيته العسكرية في موسكو، ولا يعطي موافقته على فتح ملحقيتنا في القاهرة؟ وقلت للباز: "هنا أيضا لا يوجد أي تمييز لنا، حيث توجد في مصر، في سفارات الكثير من الدول ملحقيات عسكرية، ومنها دول المعسكر الاشتراكي. كما أننا لا نزال نعد الإجراءات التي اتخذت في عهد السادات، بتقليص عدد العاملين في السفارة السوفييتية، إجراءات لا تنم عن الصداقة". وهذا التحديد موجود بالنسبة لنا فقط في دول "حلف الأطلنطي"، وبعض الدول ذات النظم الدكتاتورية. ومصر لا تنتمي إلى أي منها. كما أنها إحدى الدول المؤسسة لحركة عدم الانحياز. ولا توجد لدينا خطط لزيادة عدد العاملين في السفارة، لكننا لا نستطيع عدم المبالاة باستمرار

إجراءات التقليص المميزة، التى فرضها السادات، حيث لا تزال مستمرة فى ظل النظام الجديد.

وآخر ما حاولت توصيله للباز فى هذه المرة، هو ضرورة إعادة ممتلكات السفارة، التى أخذت منها بلا أساس قانونى، وبأسرع ما يمكن- المبنى السكنى الذى أقيم؛ لكى يقيم به موظفوها. وأضفت أنه لم يتم الانتهاء من بنائه، ولا يعيش فيه أحد. لذلك لن يضار أحد إذا أعيد لمالكه القانونى. وسوف يستغرق استكمال البناء وقتا كبيرا. فلماذا يتم التأخر فى إعادته، وهو ما يمكن أن يتم بهدوء دون أن يجذب نظر أحد؟ وقد أنهيت الحديث بأن الكيفية التى ستتعامل بها مصر مع كل من المواضيع التى سردتها، هى التى ستجعل موسكو تحكم على موقفها من العلاقات مع الاتحاد السوفييتى. وهذه العلاقات يمكن أن تكون طريقا ذا اتجاهين، ولا يمكن أى شىء آخر: إذا كنتم تريدون أن نلبى احتياجاتكم، فعليكم أيضا أن تلبوا احتياجاتنا. لقد حان الوقت للتعامل مع التركة التى تركها لنا السادات.

وقد تحدثت مع الباز ضاغطا عليه لسبب آخر، وهو أن الوعد الذى قدمه فى سبتمبر، بأن يتم فى خلال شهر تحديد الأسبقيات والمواعيد التقريبية للتعامل مع هذه التركة، لم يتحقق. ولم يكن هذه المرة أيضا هناك وقت للحديث فى هذا الموضوع. وقد اكتفى بالاعتراف بأنى على حق تماما فى كل المواضيع التى ذكرتها، ووعد، مرة أخرى، بأن يتم تحديد التسلسل الذى سوف يتم. وسوف أنتقل إلى الأمام وأقول إنه لم يتم النجاح فى توضيح ما يخص التسلسل، فقد قررت القيادة المصرية ألا تأخذ على عاتقها الالتزام قبلنا فى هذه المرة أيضا، وأن تحتفظ بحريتها فى التعامل، فبدأت فى التعامل بشكل انتقائى تماما، وبمعدل بطىء جدا. وقررت أن تقوم القاهرة بخطوتها الأولى. لكنى سأتناول ذلك فيما بعد، أما الآن، فأعود مرة أخرى لموضوع رصيد الحساب التجارى.

البحث عن حلول لموضوع الديون

اتصل بى الباز تليفونيا فى نهاية شهر نوفمبر؛ لكى أقابل وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية لجمهورية مصر العربية "مصطفى السعيد". وفى هذا الوقت، حدث تغيير فى الممثلين التجاريين، فأخذت معى كلاً من "ا.س. ماتيوخين"، الذى كان قد استعد للسفر، و"أ.ف.كازانتسيف"، الذى وصل لتوه، لمقابلة الوزير. وبينت المقابلة أن إصرارى لم يضع هدرا، وأن المصريين قد تحركوا بشكل واضح فى موقفهم. فقال الوزير إنه يأخذ كلاً من حديثى مع الرئيس مبارك والباز فى الاعتبار، فإن الجانب المصرى يعترف الآن بوجود علاقة بين المواضيع العسكرية والديون، وإنه من ناحيته، يقترح الطريقة التالية لحلها. أولا: أن تجرى مباحثات خاصة بطرق وإمكانيات تصفية الديون العسكرية المصرية، بدءا بمستوى الخبراء. ثانيا: يراعى فى مصر أن الاتحاد السوفييتى يدرس زيادة الاستيراد السوفييتى بالنسبة للتصدير، كطريقة لتصفية ديون مصر العسكرية، ولن يتم رفض عمل هذه الزيادة فى أبريل، لكن على ألا تزيد عن ٢٠ مليون جنيه فى السنة. ثالثا: أن يتم تقسيم رصيد الحساب التجارى، الذى تجمع حتى الآن، وبلغ ٤٠٠ مليون جنيه إسترلينى، بالتساوى، بحيث تحسب ٢٠٠ مليون جنيه إسترلينى لتصفية دين مصر العسكرى، أما باقى المبلغ (٢٠٠ مليون) فيمكن استخدامه لشراء سلع تحتاجها من الاتحاد السوفييتى، ومنها الحربية.

قلت إننى سأنقل هذه الاقتراحات لموسكو (و كنت أرى داخليا، أنه يوجد بها أساس لحل وسط). ودار باقى الحديث عن طريقة تنفيذ مسئوليات توريدات تجارية محددة، وقد شارك فيه بنشاط الممثلون التجاريون. لكننا عرضنا بإصرار موضوع العودة للتجارة طبقا للأسعار العالمية. لكن الوزير اكتفى بكلمات عامة، معترفا فقط بوجود مشكلة هنا.

وأرسلت الاقتراحات المصرية إلى موسكو مرفقة بتعليقاتى، وكنت بالطبع قد فهمت أن المصريين قد حددوا رأيهم أخيرا، أيًا كان. ومر أسبوع واحد فقط، وها

هو الباز، الذى أرسلنى إلى السعيد، عاد إلى الخلف بحدة فجأة، فى خلال حديث تال؛ اعتمادا على أن الرئيس أصبح يصر على أن تتم التجارة السوفييتية المصرية بشكل متوازن تماما. وهذا كان يؤدى إلى إلغاء فكرة الأسلوب الذى اقترحه وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية علينا، كموقف رسمى مصرى. فغضبت، وقلت للباز بوضوح رأيى فى هذا الانحراف غير المتوقع. وتجادلنا طويلا قبل أن يعترف الباز نفسه بأنه، عمليا، لا توجد أية طريقة أخرى عند مصر لتخليص حسابها معنا، إلا عن طريق الخلل فى التوازن التجارى، إذا كان الأمر يدور بالفعل عن أن يتم تسديد حسابنا، وعدم الأمل فى أن تقوم موسكو بالتنازل عن الديون. وقد أنهى الباز الحديث بأنه سوف يعرض الموضوع على الرئيس.

وذكر رسميا مرة أخرى بعد أسبوع، فى هذه المرة لم يكن الباز، لكن مقرر العلاقة مع الاتحاد السوفييتى، نائب وزير الخارجية "بدوى"، أن الاقتراحات التى عرضها علينا وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية لم يطرأ عليها أى تغيير. لذلك أصبحت الانحرافات الملتوية غير مفهومة. فهل كان السبب فيها هو خطأ فى الآلة البيروقراطية، عندما لا ترى إحدى اليدين ما تفعله اليد الأخرى؟ أم أن هذا كان يعكس المعركة الدائرة فى الرئاسة حول موضوع "تدفع، أو لا ندفع"؟ أم هى الرغبة فى إعلامنا مدى الصعوبة التى تمكنت بها القاهرة من تحريك الموقف، بالنسبة لفائض الحساب التجارى، واستمرار الخلل فى الميزان التجارى؟ وكما بينت الأحداث التالية اضطررنا للصدام، مرة بعد الأخرى، مع محاولات القاهرة "تعقيد" مشكلة الديون، ودفعنا إلى التعويض الكامل عن الفائض المتجمع من الحساب التجاري.

حفل الاستقبال بمناسبة عيد نوفمبر

دائما يبقى ما نضطر لعمله لأول مرة فى الذاكرة بصورة جيدة. لذلك فقد بقى فى ذاكرتى، أنا وناتاشا، أول حفل استقبال كبير، اضطررنا أن نقوم فيه بدور

المضيفين- وهو حفل الاستقبال الذى أقيم فى يوم ٧ من شهر نوفمبر، فى الذكرى ٦٧ لثورة "أكتوبر الاشتراكية الكبرى". وهنا، كان كل شىء جديدًا بالنسبة لنا. فالذهاب إلى حفلات استقبال كضيف يختلف تماما عن الإعداد لحفل بنفسك، وتحديد قائمة المدعوين، الذين يجب إرسال الدعوات لهم لحضور الحفل، وتحديد ما الذى سيقدم كمأكولات ومشروبات، وتنظيم عملية تجهيز الطعام نفسها، بمعرفة زوجات العاملين فى السفارة، حيث لم تكن هناك نقود متوافرة تسمح بطلب مأكولات من مطعم، بالإضافة إلى حل العديد من المسائل الكبيرة والصغيرة، التى لا يخلو منها أبدا أى احتفال كبير. وبالطبع، لم يكن علينا اختراع "بسكليتة"، فقد ساعدتنا الخبرة والعادات التى اكتسبها زملائى فى السفارة. ورغم ذلك كان هناك الكثير من الهرج، والقلق، والاضطراب.

وتضمن الاستعداد لحفل الاستقبال حدثًا آخر، كان جديدا علىَّ، وهو إلقاء كلمة بالإذاعة المصرية، بمناسبة عيدنا القومى. وكنت أرغب فى أن أقدم معلومات كثيرة، خاصة عن وطننا، وعن العلاقات السوفييتية المصرية، فى خلال كلمة تستغرق سبع دقائق، بحيث أن ذلك يكون بطريقة مفهومة وواضحة، لذلك كان علىَّ أن أعمل بجد على ذلك. وقد تم تسليم الكلمة على هيئة تسجيل. سمعت الكلمة بصوت عال باللغة الروسية فقط فى بدايتها، ثم تم خفض صوتى، وسمعت الترجمة على خلفية صوتى. ولم يكن هناك مقص لرقيب، لكنى حرصت على ألا أضايق السلطة الجديدة بأى شىء. عامة، يبدو أنى نجحت فى ذلك.

وبعد ذلك، ألقيت كلمات عدة مرات فى الإذاعة، لكنى لم أتمكن من الظهور فى التليفزيون، حيث إن المصريين كانوا يسمحون بذلك فقط لممثلى دول عدم الانحياز. وأعود مرة أخرى إلى حفل استقبال نوفمبر..

كان الحفل فى المساء، فى الهواء الطلق بمقر إقامتنا، حيث تزاحم فيه عدة مئات من الأشخاص. وتم وضع موائد، وعدة بارات، وعلقت مصابيح، وتمت إنارة مبنى الإقامة. المهم أنه قد نجح حفلنا فى كل شىء، وأننا لم ننسَ شيئًا. وكان

المظهر جميلا، خاصة أنه ساعد على ذلك عدد كبير من أكاليل الزهور، استلمتها السفارة بمناسبة العيد. ففى مصر جرت العادة أنه لا يتم فقط إرسال الزهور فى المناسبات التاريخية، لكن أكاليل من الزهور الطبيعية تشبه، من حيث الشكل، تلك التى توضع عادة على النصب التذكارية. حيث يتم وضعها على حوامل، وترتب بحيث يمر الضيوف القادمون للحفل مباشرة بجانبها. وكان وجود عدد كبير من أكاليل الزهور يعنى أن السفارة تحظى باهتمام واحترام بالغين. وقد تلقينا عددًا كبيرًا جدا منها فى هذا اليوم.

واكتظ الحفل بعدد أكبر من المدعوين عما كنا نتوقعه، قياسا بالسنوات الماضية. ففى هذه المرة، حضر عدد أكبر كثيرا من المصريين، وهو ما أسعدنا؛ لأن ذلك كان يعنى بداية تحرك فى اتجاه تحسين العلاقات السوفييتية المصرية. وبما أننا كنا قد وصلنا إلى القاهرة منذ حوالى شهر ونصف شهر فقط، فقد كنا لا نعرف، شخصيا، العدد الأكبر من المدعوين، من "البرلمانيين، رجال الأعمال، رجال الثقافة" ببساطة، أصدقاء قدامى للسفارة، حافظوا على إخلاصهم لها من العصر الناصرى، وكان بالطبع وبأمانة، من المستحيل تذكر كل منهم فورا. لذلك، فقط بقيت عند المدخل، تقريبا، نصف الوقت الذى استغرقه الحفل، ثم تركت هناك نائبى بدلا منى، وتحركت بين "الكتلة البشرية"؛ حتى أقوى أواصر المعرفة وأتعامل مع الضيوف. وأدركت فى هذا الحفل بالذات، مدى مخزون التقدير الباقى الذى يحظى به الاتحاد السوفييتى، حتى عند هذا الجزء من المجتمع المصرى، الذى كان ممثلا فى حفل الاستقبال (كان هؤلاء بالطبع يمثلون الصفوة، ومن بين الموظفين الحكوميين) وهو مؤشر آخر، حيث كان لا يتوقع كثيرا - فى احتفال عام بالغرب- هذا الموقف بالنسبة لبلدنا، خاصة بعد تغيير الاتجاه، بعد عشر سنوات حكم فيها السادات. على العموم، كنت راضيا عن الكيفية التى كان عليها الحفل. وكان للحفل صدى جيد فى الصحافة، وبين أعضاء السلك الدبلوماسى.

ويوجد حدث آخر، أتذكره جيدا، فى الشهور الأولى من الحياة فى مصر، وهو أسبوع الأفلام السوفييتية، الذى نظمناه مع وزارة ثقافة جمهورية مصر العربية. وهو لم يجذب انتباها عاما كبيرا، لكن العاملين فى مجال السينما المصرية أعطوه حق قدره تماما. ويجب أن أقول إن مصر فى ذلك الوقت كانت، فى الواقع، أول بلد عربى يصور أفلامًا سينمائية روائية، وبأعداد كبيرة (٤٠-٥٠ فيلمًا فى السنة). لذلك كانت الأفلام المصرية تحظى بانتشار واسع فى دول الشرق العربى الأخرى. وبالطبع لم تكن تمثل منافسة قوية للأفلام الأمريكية، التى كانت تملأ أيضا دور العرض وشاشة التليفزيون المصرية. لكنها على أية حال، كانت تحافظ على صورة البلد، كمركز رئيسى للثقافة العربية. وللأسف فإن الجهل باللغة وضع حاجزا بينى وبين الأفلام المصرية، رغم وجود بعض التصور عندى عنها عن طريق التليفزيون. وقد خيل لى أن الأفلام العربية تشابه، بشكل ما، الأفلام الهندية بميلها إلى "الميلودراما غير المعقولة".

الاتصالات مع أعضاء الحكومة ورئاسات البرلمان

حديثى الآن عن زياراتى لمختلف الشخصيات. وقد تتابعت هذه الزيارات حسب ما قامت به وزارة الخارجية من ترتيب لها، بناء على طلبى فى حالة عدم إمكانية القيام بالاتصال المباشر، بسبب بعض الأوضاع. فقد زرت وزراء "التخطيط، التعاون الدولى، الكهرباء والطاقة، الزراعة، البناء والإسكان، الإصلاح الزراعى، التعليم العالى، البحث العلمى، الثقافة، السياحة، الطيران المدنى، الصحة، وعددا آخر من الوزراء". وقد عرضت على كل منهم المواضيع التى تهمنى، والتى كانت تدخل فى نطاق عمل كل وزير منهم.

وكان الهدف دائما مزدوجا، وهو تصفية ترسبات الماضى، وتحريك العلاقات إلى الأمام. وقد قابلت وزيرة الضمان الاجتماعى والشئون الاجتماعية، السيدة "آمال عثمان" (المرأة الوحيدة فى حكومة مصر) أولا، لكى أوجه نظرها إلى

أن نشاط جمعية الصداقة السوفييتية المصرية، فى روسيا، لم يتوقف أبدًا، وأنه قد حان الوقت لكى يعاد إنشاء الجمعية المماثلة لها فى مصر (فى عهد السادات، كانت هذه الوزارة بالذات هى التى أصدرت قرارًا بحلها). وكان اللافت للنظر أن تقريبا كل الوزراء كانوا يرون أن من واجبهم تأكيد الدور المتميز للاتحاد السوفييتى فى إنشاء المجالات الأساسية للصناعة المصرية، والكثير من المشاريع الأخرى. وكان دائما يذكر إنشاء سد أسوان، كأكثر صفحات تاريخ تعاوننا الثنائى إشراقا. أما ما كان يتعلق بتصوراتنا المحددة لتطويره، فإن رد الفعل السوفييتى كان دائما مرحبا، لكن كان الأمر، عامة، يتوقف عند ذلك. وعليه، نما إحساس بأن الجميع كانوا ينتظرون وقتًا ما أحسن من وجهة النظر السياسية والاقتصادية (بسبب هبوط أسعار البترول، وتقلص العوائد الأخرى. وكان وضع مصر صعبًا جدا فعلا، وكان هناك أيضا ضغط من المانح الأكبر – الولايات المتحدة الأمريكية– التى كانت لا تريد أن تكون لمصر أية علاقات معنا). وكانت النتيجة هى تعليق أية بدايات محددة. وإذا كانت تتحرك، فقد كان ذلك ببطء شديد. فكان علينا أن نتحلى بالصبر.

والشخصية التى لم أقابلها، هى المشير "أبو غزالة"، وزير الدفاع. وفى البداية كان موجودا فى قائمتى، لكن المشير لم يكن فى عجلة للقائى. لذلك فقد كانت تبحث المواضيع المتعلقة بتجديد التعاون العسكرى السوفييتى– المصرى مباشرة مع الرئيس والباز، وكنت أرى أن الذهاب إليه ليس مجديا. ورغم أن أبا غزالة قد التحق لفترة ما بالتدريب العسكرى فى الاتحاد السوفييتى، إلا أنه لم يكن يميل إلى بلدنا. بل بالعكس، فبعد قضائه عدة سنوات فى الولايات المتحدة الأمريكية، كملحق عسكرى، اتجه تماما إلى أمريكا. على أية حال، فقد كان هذا هو الانطباع الذى تكون عندى، بناء على الآراء التى سمعتها من السلك الدبلوماسى، ومن المصريين. وكان يتمتع النائب الأول لرئيس الوزراء "أبو غزالة" بنفوذ كبير، وكان يستطيع كبح تطور التعاون مع الاتحاد السوفييتى، ليس فقط فى المجال الحربى، لكن فى المجالات الأخرى أيضا. لكنه لم يكن الشخص الوحيد الذى له هذا الموقف.

ومن حيث التواريخ، فقد كان يبدو أن إمكانية تجديد العلاقات البرلمانية هى الواعدة أكثر من أى شيء آخر، وهى التى قد جفت تماما من زمن بعيد. وقد انتهت فى صيف ١٩٨٤، انتخابات أعلى مجلس تشريعى فى مصر- مجلس الشعب- (وهى الأولى بعد مقتل السادات) بفوز الحزب الحاكم بأكثر من ٧٠% من أصوات الناخبين. وتم الانتخاب بنظام القوائم الحزبية، وكان من المطلوب تجميع ما لا يقل عن ٨% من أصوات الناخبين؛ لوصول أى حزب إلى مجلس الشعب. وقد حقق "الوفد الجديد" اليمينى وحده هذا الشرط، بالإضافة للحزب الحاكم. وقد خاض "الحزب الوطنى الديموقراطي" الحملة الانتخابية تحت شعار "لا للرجعية، لا للشيوعية". وكانت الكلمة الأولى مقصودًا بها "حزب الوفد الجديد"، أما الثانية فكانت تشير إلى "الحزب الوطنى التقدمى" (يسارى) المعارض، وليس إلى الحزب الشيوعى الذى كان يعمل فى الخفاء، ولم يستطع المشاركة فى الانتخابات. ولكى تخيف الناخبين من الحزب التقدمى، وصفته الدعاية الرسمية، عن قصد، بارتداء لباس الماركسية، رغم أن الحزب الوطنى التقدمى كان فى الأساس حزبا ديموقراطيا يساريا، لا أكثر. وقد استخدم الرئيس مبارك صلاحيته الدستورية لجعل التمثيل فى البرلمان أكبر قليلا، فعين فيه خمسة من الأقباط، وأربعة من ممثلى "حزب العمل الاشتراكى" المعارض، وأحد أعضاء " الحزب الوطنى التقدمى" (وفى الحقيقة، فإن هذا الحزب رفض اعتباره ممثلا له فى البرلمان). وكان البرلمان يضم ٤٥٨ نائبا.

وكان أول حديث لى. عن إعادة العلاقات بين البرلمانين، مع رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشعب "محمد عبد اللاه". وقد أعجبنى جدا هذا الشخص، الذى كان مظهره شابا، ووسيما، وذا ثقافة عالية. وقد تفاهمنا بسرعة، بل إننا حددنا ما سوف يكون على كل منا عمله؛ لتحريك الوضع من نقطة السكون.

وكان ثانى شخص تحدثت معه هو رئيس مجلس الشعب، عضو المكتب السياسى للحزب الحاكم، الدكتور "رفعت المحجوب". وقد دار الحديث الودى.

الطويل فى مكتب عمله بالبرلمان. وكانت الطريقة التى يتعامل ويتحدث بها تعطى انطباعا بأنه ليس سياسيا، بل أستاذا جامعيا جافا ومتحذلقا. وكان مكتبه ممتلئا بالكتب والأوراق. تحدثنا، أنا وهو، بود واتفقنا بلا صعوبة، مبدئيا، على أن تكون أول زيارة هى للوفد البرلمانى المصرى، وأن يرأسها رئيس لجنة العلاقات الخارجية. لكننا لم نتحدث بعد عن هذه الزيارة علنا، لأنه كان علىَّ الحصول على موافقة موسكو، وكان عليه هو أن يحصل عليها من الرئيس. وقد التقيت بالمحجوب عدة مرات. وكانت الأسباب مختلفة، فأحيانا كانت رسمية، على سبيل المثال، توصيل بيان ما لمجلسنا الأعلى أو لحكومتنا. وكانت الكثير من اللقاءات متعلقة بالجانب العملى لتبادل الوفود البرلمانية، عندما كانت كل القرارات اللازمة قد اتخذت. وكان يستقبلنى المحجوب مرحبا؛ مما أعطى الفرصة للحديث الهادئ فى المواضيع التى تهمنا، ومنها ما يتعلق بالسياسة الداخلية. وقد حزنت فعلا عندما جاءت أخبار، بعد عدة سنوات، عن مقتله التراجيدى على أيدى إرهابيين عرب.

وبلا شك، لم أستبعد جانبا أيضا ما يطلق عليه "مجلس الشورى"، المرتبط بعض الشيء بمجلس الشعب. ولم يكن غرفة ثانية للبرلمان، أى أنه لم يكن للمجلس سلطات تشريعية مباشرة، بل كان يشارك فقط بطريقة غير مباشرة فى عملية وضع القوانين، كهيئة استشارية خاصة. لكن كانت له أهدافه الخاصة، التى كانت لها أهمية؛ فقد كان يتوقف عليه عملية الإشهار القانونى للأحزاب السياسية، كما أنه كان يراقب عمل وسائل الإعلام، بما فيه الموافقة على إصدار صحف ومجلات جديدة. وكان السادات قد أسس مجلس الشورى فى وقته؛ ليكون أساسا أداة لمراقبة الأداء السياسى والإعلامى فى البلد. وكان يتم تشكيل هذا المجلس بالانتخاب وبالتعيين مناصفة.

وفى أثناء وجودى فى مصر، فى أكتوبر ١٩٨٤، جرت ثانى انتخابات لأعضائه السبعين (السبعون الآخرون يعينهم الرئيس) منذ إنشاء المجلس. وتمت الانتخابات بالقوائم الحزبية، وتبين أن كل السبعين الذين تم انتخابهم ينتمون إلى

الحزب الحاكم، فقد قاطعت المعارضة، سواء اليسارية أو اليمينية، الانتخابات. وكانت تعمل ست لجان فى إطار مجلس الشورى، منها لجنة العلاقات الخارجية. لكن لم تقم علاقات عمل بين السفارة وهذه اللجنة، بل كانت هناك اتصالات مرحلية فقط. ومن حيث المبدأ، كان ذلك كافيا، حيث إنه عندما كان يتم الاحتياج لذلك، كان دائما من الممكن التوجه مباشرة إلى رئيس مجلس الشورى. وكان رئيس المجلس هو أمين عام الحزب الحاكم "صبحى عبد الحكيم". وكنت أراه دوريا، رغم أن ذلك لم يكن كثيرا كما كان يحدث مع رئيس مجلس الشعب. وقد كان موقفه منا وديا تماما، لكنه، مثل شقيقه من مجلس الشعب، عندما يتطرق الحديث إلى العلاقات السوفييتية- المصرية، كان يتبع بدقة تامة ما سبق أن سمعته من الرئيس.

مع السياسيين ورجال الأعمال

وقد تعرفت تدريجيا على رؤساء كل الأحزاب السياسية. لكنى هنا أحكى، باختصار، عن واحد منهم فقط، وهو رئيس الحزب الوطنى التقدمى "خالد محيى الدين". وكان أحد أنصار ناصر، ومن أعضاء قيادة تنظيم "الضباط الأحرار"، الذى قلب نظام الحكم الملكى. كما أنه شغل فى عهد ناصر مراكز مهمة، لكن طريقه ابتعد عن السادات. فقد كان الأخير يضطهده، كما فعل مع شخصيات سياسية أخرى، ممن اعتبرهم معارضين له. وقد تم إطلاق سراح محيى الدين من السجن فى عهد مبارك، لكن استمرت مضايقته كرئيس لحزب معارض، ويسارى أيضا.

وقد تعرفت على خالد محيى الدين فى حفل الاستقبال الذى أقمناه بمناسبة عيد أكتوبر، حيث اتفقنا على لقاء. وقد تم هذا اللقاء بسرعة فى نادى السيارات. وقد سحرنى خالد، حيث كان أكبر منى سنا بكثير. وكان كبيرا وسمينا، ووجهه ينم عن طيبة، وروحه طيبة جدا. كان يذكرنى تماما، بجسمه ووجهه، وحتى بصوته، بالممثل الشهير بمسرح "المخات"- "ستانيتسين"، الذى شاهدته عدة مرات فى أدوار

مختلفة، وكنت معجبا به تماما. وقد يكون خالد محيى الدين فى الحياة ليس بهذه الطيبة، لكن مظهره وحركاته كانت جذابة تماما.

وقد تناولنا فى خلال حديثنا الكثير من المواضيع، لكن بقيت منه فى ذاكرتى بعض أجزائه فقط. قدم خالد فكرين، وهو يشرح لى موقف الحزب الوطنى التقدمى بالنسبة لاتفاقية كامب ديفيد: اتفاقية السادات مع إسرائيل سيئة، من حيث إنها كانت منفصلة، لكن لا تستطيع مصر أن ترفض اتفاقية سلام مع إسرائيل، لأنه لو تم ذلك، كان عليها أن تودع سيناء مرة أخرى. وقد دعانا محدثى لتأييد ياسر عرفات بصفته رئيسا لمنظمة تحرير فلسطين، لأنه كان يعتقد أن هذا الشخص بالذات هو الذى يستطيع منع حركة المقاومة الفلسطينية من السقوط فى براثن التطرف. ثم فى النهاية، بقيت فى ذاكرتى علاقة الاحترام الكبير من قبل خالد محيى الدين لمبارك (حتى أن هذا أدهشنى بعض الشيء، إذا نظرنا إلى المعركة القاسية التى كانت تديرها الحكومة ضد الحزب الوطنى التقدمى). قال بطريقة مميزة: "يسير مبارك على حد السكين بين الساداتيين والشعب، لكنه يفهم احتياجات الشعب". وكنا نلتقى من حين لآخر، أنا وخالد، لفترات بسيطة، فى مختلف حفلات الاستقبال الدبلوماسية، ومنها حفلاتنا. وقمت مرة بزيارة مقر حزبه، ليس وحدى، لكن كأحد الضيوف الذين تمت دعوتهم إلى حفل استقبال كبير أقيم به. ولم يعط الحزب الوطنى التقدمى، ولا السفارة، ظهرهما لبعضهما البعض أبدا، رغم شدة رغبة اليمينيين فى ذلك، لكنهما تصرفا طبقا للدقة الدبلوماسية وبحرص، حيث إنهما لم يكونا يرغبان فى استنفار تعقيدات فى العلاقات مع السلطات المصرية، بلا داع.

والآن، أتحدث عن بعض رجال الأعمال المصريين. وقد تحدثت من قبل عن التجارة باستخدام الجنيه الحسابى، التى كانت تتم بناء على اتفاقيات بين الحكومتين. وكانت توجد بجانبها، أيضا، التجارة بالصفقات المتكافئة، التى كانت تنفذها من الجانب المصرى شركات خاصة، ومن الجانب السوفييتى، بعض هيئات

التجارة الخارجية، التابعة لوزارة التجارة الخارجية للاتحاد السوفييتى. وكانت الحكومات فى هذه الحالة غير مسئولة عن هذه العمليات.

وكان أكبر شركائنا فى التجارة بالصفقات المتكافئة هو "كونسورتسيوم يونيميج"، الذى كان يرأسه رجل أعمال مصرى ذكى ونشيط جدا، هو "إبراهيم كامل". وقد عرفنى عليه كبير الممثلين التجاريين "ا.س.ماتيوخين"، حيث وضع بداية لقاءاتنا المتعددة. وكان كامل لا يزال نسبيا شابا. وتلقى تعليما تجاريا عاليا. كما أنه كان يحمل درجة علمية عليا، وكان ثريا، ونما رأسماله بنجاح، وتميز بقدرته على إدارة الأعمال. وقد كانت له أعمال تجارية مع الاتحاد السوفييتى، حيث ورد معداتنا، ليس فقط لمصر، بل لدول عربية أخرى. وهو لم يكن تاجرا فقط، بل كان يوجد فى أساس أعماله عملية إنتاجية. فقد كان كامل أحد أكبر منتجى خامات صناعة العطور، والعطور نفسها، حيث إن مصر مكان مميز لإقامة المزارع الزراعية للورود، والياسمين، والزهور الأخرى المحتوية على مواد عطرية لازمة كمواد خام للعطور، والكولونيات، ولمختلف المواد المعطرة. وكانت هذه المواد عالية القيمة فى الأسواق العالمية، كما كان الطلب عليها كبيرا فى بلدنا. وقد ذهبت مع "كامل" عدة مرات إلى مصانعه. وكانت مجهزة بأحدث المعدات. وكان ينتج فى مصر، بتصاريح من أفخم شركات العطور الفرنسية، عطورا تباع فى الدول الأخرى على أنها منتجات فرنسية، لكن كان يحصل من فرنسا على الزجاجات والأغلفة فقط. وكان المجال الإنتاجى الآخر لكامل هو "الصناعات الغذائية"، حيث كان ينتج مختلف "أنواع المكرونة، والحساء الجاف، والمنتجات الأخرى المماثلة".

وكان يتعامل معنا "يونيميج" كمنظم للتوريد إلى الاتحاد السوفييتى، حيث يورد مختلف البضائع المصرية، طبقا لقائمة كبيرة نسبيا. كان من ضمنها، بالطبع، منتجات الشركات التى يمتلكها كامل (مثلت التجارة مع يونيميج فى عام ١٩٨٤، حوالى ١٥% من إجمالى تبادلنا التجارى مع مصر). وفى يناير ١٩٨٦، تم توقيع

اتفاقية طويلة الأجل مع يونيميج، وذلك للفترة الممتدة من عام ١٩٨٦ إلى عام١٩٩٠، لكى يصل إجمالى حجم التوريدات المتبادلة خلال هذه الفترة إلى ٦٦٠ مليون روبل.

وقد كان إبراهيم كامل صديقا للباز، وكان مقبولا فى كثير من المكاتب. كما أنه كان يفهم جيدا فى الاقتصاد، ليس المصرى فقط، لكن أيضا فى كل من السياسة الداخلية والخارجية. لذلك كنت دائما أستمتع بالحديث معه. وكان أحيانا يتم توصيل، عن طريق كامل، ما لم يكن يستطيع الباز أن يقوله لسبب ما بنفسه. وبعد عدة سنوات، التقيت مع كامل فى نيويورك، التى سافر إليها لبعض الأعمال، وأحضر لى خطابا طويلا من الباز، أوضح لى فيه الأخير موقف مصر من بعض المواضيع المتعلقة بتسوية مشكلة الشرق الأوسط (فى ذلك الوقت، كنت أمثل الاتحاد السوفييتى فى الأمم المتحدة، وفى مجلس الأمن). وكان من الواضح أن كامل لم يفقد اهتمامه ببلدنا، فقد ظهر فى حديث للتليفزيون الروسى، فى القرن الحادى والعشرين، اتضح منه أنه حضر لشراء طائرات مدنية روسية، وأنه كان يشكو من العوائق البيروقراطية فى بلدنا. وكنت قد سمعت منه مثل هذه الشكوى عدة مرات من قبل، فى مصر، وساعدته على التغلب على الصعوبات التى كانت تظهر أمامه.

والآن، أنتقل بالحديث إلى جمال عبد الناصر. فقد كنت، أثناء تجولى فى القاهرة، فى الأماكن المختلفة، خاصة عند تقاطعات الطرق، أرى لوحا كبيرة للسادات، تماثل اللوح الدعائية التى يكون عليها صور قادة الحزب السوفييتى، والتى تزين شوارع موسكو قبل الانتخابات. وكانت صور السادات قد بهتت تماما، وكانت فقط تنتظر لحظة إزالتها. وها هى صور ناصر، التى كانت ولم تعد موجودة، لم أشاهد أية واحدة منها، لكن ذكراه كانت حية تماما عند الناس. وقد زرت قبر ناصر فى الأسبوع الثانى بعد وصولى إلى مصر. لقد تم دفنه فى مسجد جميل، تم بناؤه باستخدام تبرعات من الشعب، التى كانت تقدم لناصر، باعتباره

الرئيس ومحبوب الشعب، لاستخدامها لمختلف الأغراض الخيرية. وقد استخدمها لبناء مسجد قريب من سكنه. وكان به مثواه الأخير، فى قوس الجزء الشمالى من المسجد. والقبر حجرى، بسيط ومتواضع. وقفنا أمامه، وأحنينا رؤوسنا، ثم وضعنا عليه زهورًا، وعدنا إلى الشارع الواسع المليء بالضجيج (يقف المسجد فى وسط الطريق تماما، وهو ينساب من حوله). أما بالنسبة لمقبرة السادات، فقد شاهدتها من بعد، عندما كنت أتعرف على المدينة، ووصلت إلى الميدان المخصص للعروض العسكرية، التى اغتيل السادات فى أحدها.

وفى تلك السنة التى حضرت فيها إلى القاهرة، لأول مرة، لم تمر ذكرى وفاة ناصر دون أن يلاحظها أحد. فقد تم الاحتفال بها، لكن بلا ضجيج. وفى السنة التالية، شاركت فى ندوة خاصة فى ذكرى ناصر. وكان من الواضح وجود إشارات أخرى تفيد بالخروج عن خط التقليل من دوره فى التاريخ الحديث لمصر.

وقد تعرفت فى حفل الاستقبال، الذى أقمناه بمناسبة عيد نوفمبر، على "خالد عبد الناصر"، ابن الرئيس المتوفى. ثم التقيت به عدة مرات فى السفارة، وزرته مرة فى القسم الذى كان يدرس به بجامعة القاهرة. وكان الابن لم يعد شابا، وكان وجهه وبنية جسده يشبهان والده. وكان يتعامل بتواضع شديد، وكان لا يبدى أى شيء يبين أنه ينتمى إلى اسم معروف فى العالم كله. ولم يكن يمارس السياسة بنشاط، رغم أنه غالبا كان يحتفظ بعلاقات مع مجموعات الناصريين المحبطة. وكان نادرا ما يتجه إلى السفارة؛ طالبا مساعدة طالب، أو شخص آخر قريب منه، سيسافر إلى الاتحاد السوفييتى للعلاج (أعتقد أن ذلك كان دائما متعلقا بأمراض الرمد المنتشرة بمصر). لم يكن جمال عبد الناصر مغرضا، ولم يترك أية ثروات. لذلك فإن أسرته كانت مستمرة فى كسب قوتها، بعد وفاته.

وقد تعرفت فى مصر على مئات من الشخصيات. لكنى لا أستطيع أن أتحدث عنهم جميعًا، كما أنه ليس هناك حاجة لذلك. فالمهم هو الانطباع العام، الذى كان إيجابيا تماما عندى.

الباب الخامس

رحلتى المصرية "حول العالم"

بالقرب من نهاية نوفمبر، كنت "ناضجا" للقيام بأول رحلة كبيرة لى فى مصر. قد تكون عملية "التجهيز" لها امتدت لزمن أطول، لكن دفعنى لهذا الرئيس مبارك نفسه، عندما سألنى إن كنت قد زرت المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء بأسوان. وكنت أنا نفسى قد أحسست بالحاجة لتوسيع تصوراتى عن مصر، لأن معرفتى بها ما زالت محصورة فى القاهرة والإسكندرية. وقد رأيت أنه من الأفضل القيام بهذه الرحلة مع المستشار الاقتصادى بالسفارة، لأنه المسئول المباشر عن المشاريع السوفييتية المصرية الاقتصادية، وعن التعاون الفني. كما أنه كان قد طاف بمصر من قبل، لأنه عاش فى مصر لفترة طويلة بحيث يمكنه القيام بدور دليل رحلتنا التى سنقوم بها بالسيارات. وعندما ذكرت فى أحاديثى مع السفراء أنى سوف أقوم بالرحلة بسيارة، اندهشوا؛ فقد كانوا يفضلون استخدام الطائرة فقط للرحلات البعيدة. لكن السؤال هنا هو "ما الذى يمكن مشاهدته من على هذا الارتفاع؟".

وقد أعجبتنى الخطة التى وضعها نيكولاى ألكسييفيتش. وكانت نوعًا من "الرحلات حول العالم" لكنها مصرية، تبدأ من القاهرة على طول وادى النيل إلى أسوان، ومنها عبر الجبال إلى الشرق إلى البحر الأحمر، ثم على طول الساحل العودة فى اتجاه الشمال إلى السويس، ثم إلى الغرب إلى القاهرة. وكان من المقرر التوقف عدة مرات فى الطريق؛ للقيام بزيارات ولتمضية الليل. وقد قررنا السفر باستخدام سيارتين: نستقل إحداهما، أنا وناتاشا والسائق "شوموف"، ويركب فى الثانية "شيفانكوف" وزوجته ومساعده. وأخطرنا وزارة الخارجية بمسارنا، وعن

أماكن توقفنا. وأخطرت الباز أيضا بها؛ لأننى كنت أنوى القيام بعدة زيارات مجاملة لبعض المحافظين.

مع خبراتنا فى أسيوط

تحركنا فى الصباح الباكر فى اليوم الأول من ديسمبر. كانت وجهتنا هى مدينة أسيوط، على بعد ٣٧٥ كيلومترا من القاهرة. ويجب أن أوضح أنه يوجد طريق إسفلتى يمتد من القاهرة إلى أسوان على كل من ضفتى النيل. وقد سرنا على الطريق الغربي، حيث إن أسيوط نفسها تقع على هذا الطريق. وعليه، فإن هذين الطريقين كانت حالتهما جيدة جدا، وكان يمكن السير عليهما بسرعة كبيرة لو لم يكونا مزدحمين بكل أنواع المركبات، من عربات الكارو وسيارات النقل. وبما أن الطريق لم يكن عريضا، وكان السير فى اتجاهين، لذلك لم يكن تخطى سيارات النقل، أو عربات الكارو، دائما أمرا يسيرا. وبالإضافة إلى ذلك، كان الطريق كثيرا ما يمر عبر مناطق سكنية. وهنا، كانت السرعة تصبح صغيرة تماما. لكننا لم نكن نشكو؛ لأنه كلما كانت سرعة سيرك أقل، لاحظت كل ما حولك بصورة أفضل.

وكانت إحدى الانطباعات تتمثل فى عدم وجود أية أرض فضاء. فإننا لم نر فعليا أى جزء صغير من الأرض الصالحة للزراعة دون أن تكون مغطاة بمزروعات ما. وكنا نرى فى طريقنا كثيرًا من القرى، التى كانت كبيرة نسبيا، وبها كثافة سكانية عالية، وأعداد كبيرة من المنازل المصنوعة من قوالب الطين، وذات الأسطح المستوية، مرصوصة قريبا من بعضها البعض. ورأينا عدة مرات أراضى سوداء مجروفة، وصفوفًا من قوالب الطوب المصنوعة من الطمى ومن شيء آخر لتجفيفها. وكانت هذه القوالب تستخدم لبناء المنازل والأسوار.

ولم تكن هناك إلا أشجار النخيل، مبعثرة هنا وهناك فى مجموعات صغيرة مزروعة على مسافات كبيرة جدا من بعضها البعض، ولم نر أى أشجار أخرى

غيرها. وكان المنظر العام لطيفًا بلونه الأخضر، لكنه كان رتيبا. وكانت توجد فقط تلال رملية على بعد.

وصلنا إلى أسيوط فى النصف الثانى من اليوم فقط. وهى تعد مركزا صناعيا ومركزا ثقافيا كبيرا، تعداده ٥٠٠ ألف نسمة. وقد سرنا فى هذه المرة فقط من حوله، وتوجهنا فورا إلى البيت الذى يسكنه الخبراء السوفييت العاملون فى بناء مصنع الأسمنت. وكان لقاء هذه المجموعة ومشاهدة الإنشاءات هما هدف توقفنا فى أسيوط. وفى النهار وجدنا فقط أفراد أسرهم فى البيت. فألقينا أمتعتنا بسرعة فى شقتين غير مسكونتين، وتناولنا وجبة سريعة، ثم توجهنا فورا إلى الموقع، حيث كانوا فى انتظارنا.

وتتلخص قصة هذا المشروع فيما يلى: تم تخطيط مشروع هذا المصنع فى عام ١٩٧٥، بمعهد "جيبروتسيمنت"، على أساس استخدام تقنية الإنتاج المعروفة بالطريقة الرطبة لإنتاج الأسمنت، طبقا للاتفاقية التى تم توقيعها لهذا الغرض. وفى عام ١٩٨٠، تم توريد كل المعدات المطلوبة من الاتحاد السوفييتى، وحضر إلى أسيوط فى يونية ١٩٨٠، أول خبراء سوفييت. لكنهم لم يتمكنوا من الاستقرار كما يجب، لأنه كما هو معروف وقع الحدث الحزين الذى بقى فى الذاكرة فى سبتمبر عام ١٩٨١، حيث تم، بناء على أوامر السادات، طلب إنهاء وجود الخبراء السوفييت المدنيين فى مصر. وهنا غادر البلد خبراؤنا من أسيوط. وفى ذلك الوقت، قرر المصريون تغيير أسلوب الإنتاج، لاستخدام الطريقة الجافة بدلا من الطريقة الرطبة؛ بهدف زيادة القدرة الإنتاجية للمصنع. وقد تم شراء المعدات اللازمة من ألمانيا الغربية ومن سويسرا. بالطبع، ظهرت مشكلة كيفية توفيق ما تم بناؤه من قبل، واستيراده من الاتحاد السوفييتى، مع تقنيات أخرى ومعدات إضافية تم شراؤها. وبسبب ذلك؛ زادت تكلفة إنشاء المصنع ثلاثة أضعاف، ولم يتمكن من العمل. عندئذ، طلب المصريون عودة جزء من الخبراء. وبهذا ظهروا مرة أخرى فى أسيوط. وكانت أعمال التركيب قد اكتملت قبل حضورنا، وتبقت أعمال الضبط.

وكان يعمل فى الإنشاء ٧٠٠ مصرى، ونحو ٥٠ خبيرا أجنبيا، كان نصفهم من عندنا.

وقد بنى المصنع فى وسط الرمال فى الصحراء. ورافقنا فى زيارة المصنع كل من كبير مهندسى المصنع المصريين "م. فوزى"، وكبير مستشارينا "توكاريف". وتم الإسراع بالمواعيد، لكن كان يسير العمل ببود. ولم تكن هناك شكاوى من الجانب المصرى تجاه الجانب السوفييتي، بل على العكس، سمعنا الكثير من المديح له. وقد أسعدنا ذلك. وكان الشكل الخارجى للمصنع مؤثرا وحديثا. وهذا هو كل ما يمكن أن أقوله عنه بنفسي، حيث إنى لم أكن ملما كثيرا بطرق إنتاج الإسمنت. وأهم شيء هو أن العمل كان يسير بنجاح، وأن الجانب المصرى كان سعيدا.

وفى المساء، فى مقر السكن، حيث كان يوجد فى الطابق الأول ما يشبه ناديا، ألقينا، أنا وشيفانكوف، كلمة أمام الخبراء وزوجاتهم. فتحدثت عن موقف العلاقات السوفييتية المصرية، وعن الصعوبات التى واجهتها، وأدوارنا. أما شيفانكوف، فقد تحدث عن الموقف فى المشاريع الأخرى للتعاون المشترك. ثم جرى حديث حماسى غير رسمى. فتحدث الرفاق عن مشكلاتهم من ضعف الاتصالات مع هيئاتنا بالقاهرة والوطن، كما أنهم اشتكوا من المشكلات الحياتية، وخاصة من ضعف المرتبات. وكانوا بالطبع، غير راضين؛ لأن المصريين يدفعون للخبراء المماثلين لهم من الدول الأخرى أكثر كثيرا (كان يتم إنشاء عدة مصانع أسمنت أخرى فى منطقة أسيوط، فى الوقت نفسه). وبالنسبة لى ولشيفانكوف لم يكن فى ذلك جديد. وعندما عاد الخبراء السوفييت، مرة أخرى، إلى أسيوط والمشاريع الأخرى، تمت زيادة رواتبهم بمقدار ٢.٢ من قيمها السابقة، بناء على إصرار الجانب السوفييتي، وفى ديسمبر ١٩٨٥، زادت مرة أخرى بنسبة متراوحة بين ١٦-١٨%، ورغم ذلك بقيت أقل من رواتب الغربيين. وعدنا مرة أخرى إلى الضغط على المصريين. وفعلا، تمكنا فى عام ١٩٨٥، من زيادة الرواتب بنسبة ١٨.٥%. وكان يقلق خبراءنا موضوع آخر:"كم تبلغ المدة التى بقيت لهم فى

المصنع، بعد بداية تشغيله؟ وكيف ستكون سرعة ذوبان مجموعتهم مع استمرار عمليات التشغيل والضبط؟" فمهما كانت ظروف عملهم ومعيشتهم فى أسيوط صعبة، لم يكن أحد يتعجل السفر. وكانوا يريدون أن يكسبوا أكثر؛ لكى يتمكنوا من شراء شقة فى التعاونيات، وسيارة، وبعض الاحتياجات الأخرى (فقد كان تحقيق ذلك فى الاتحاد السوفييتى أصعب كثيرا).

وقد بقيت عندى انطباعات جيدة من هذا اللقاء. وأمضينا الليلة ثم ودعنا رفاقنا، وتحركنا إلى الأمام.

عن الأقباط المصريين ودير "السيدة مريم العذراء المقدسة"

كانت المحطة الأولى التى توقفنا عندها فور خروجنا من أسيوط هى أحد أكبر الأديرة القبطية- دير السيدة مريم العذراء المقدسة. وكنت أرغب فى الحضور إلى هنا؛ لكى أعرف بصورة أحسن وضع الديانة القبطية فى مصر (فقد كان ذلك موضوعًا سياسيًا هامًا فى ذلك الوقت). وبالإضافة إلى ذلك، فإن الدير كان يفخر بمغارته التى قضت بها العائلة المقدسة بعض الوقت، كما يقال.

فلنبدأ بالحديث عن الأقباط. بدأت المسيحية تنتشر فى مصر منذ زمن بعيد- منذ القرن الأول بعد الميلاد. وكان أهم وعاظها هو الإنجيلى "مرقص". الذى لم يكن من بين الحواريين الاثنى عشر- التلامذة المباشرين للسيد المسيح - لكنه أصبح تلميذ التلميذ، فقد كان معلمه هو الحوارى "بطرس". فهو الذى أرسل مرقص لكى يحمل كلمات البشارة للمصريين، وهو ما فعله، وبصفة خاصة فى الإسكندرية، التى أصبحت مركزا لانتشار المسيحية فى مصر، ومكانا لموت مرقص نفسه شهيدا فى عام ٦٣. وقد تعرض أوائل المسيحيين فى مصر - على مدى عدة عقود- إلى اضطهاد من جانب الحكام الرومان. وقد أدت قسوة هذا الاضطهاد بالذات إلى نشوء ظاهرة "النسك" بين أوائل المسيحيين المصريين، الذين وجدوا فى الجبال وفى الصحراء أماكن كثيرة يمكن أن يختبئوا بها. ومع الوقت، أدت الرهبنة

الفردية - التى تحولت فى عدد من الحالات إلى رهبنة جماعية - إلى ظهور الأديرة، التى كانت أول أديرة مسيحية فى العالم.

وعندما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية لروما وكل مقاطعاتها فى القرن الرابع، كانت مصر مستعدة لها تماما. وقد تمكنت المسيحية فى خلال عدة عقود من أن تحل تقريبا كلية محل الديانات المصرية القديمة. وقد تم إغلاق آخر معبد وثنى فى مصر فى عام ٥٢٩، بأمر الإمبراطور البيزنطى "يوستينيان الأول". لكن اختلفت فروع المسيحية التى ترسخت فى مصر عن البيزنطية، لذلك تمت مطاردة الأخيرة، ونظر إليها على أنها "هرطقة"، لكن بلا نجاح. ويفسر العلماء أن سبب تمكن العرب من فتح مصر بهذه السهولة- بعد ذلك بمئة سنة- كان يتلخص فى رغبة المصريين فى التخلص من الاضطهاد الحكومى والدينى لبيزنطة. لكن الوضع لم يكن أحسن حالا بالنسبة للمسيحيين المصريين، بل حدث العكس، فقد بدأت أسلمة السكان الأصليين بسرعة. وكانت الطرق التى استخدمت لجعل المصريين يتركون المسيحية ويعتنقون الإسلام متعددة، لكنها كانت عامة فعالة. فقد كان منها "الجزية" (ضريبة يدفعها غير المسلمين)، وحظر سكن غير المسلمين فى منازل أعلى من منازل المسلمين، ومنع ركوب الخيل بل السماح بركوب الحمير والبغال فقط، وضرورة لبس عمامة ذات لون محدد (أزرق للمسيحيين، وأصفر لليهود)، وأن يلبسوا فى الحمام جرسًا صغيرًا؛ حتى يعرف المسلمون الحقيقيون فورا أن الموجودين فى الحمام من ذوى ديانة أخرى، كما كانت الغرامات والعقوبات الأخرى التى توقع على غير المسلمين أقسى من تلك التى توقع على المسلمين، ومنع من يحمل ديانة أخرى من الشهادة فى المحاكم... إلخ. وقد تحمل القبط (هكذا كان يسمى المصريون الأصليون)، وقاوموا، لكنهم انساقوا بالتدريج للظروف، وتحولوا إلى الإسلام. وقد سارت عملية التعريب (أى تغيير اللغة) أسرع.

ورغم كل ما سبق، فإن السكان الأصليين قد احتفظ الكثير منهم بالمسيحية وظلت ديانتهم حتى الآن. والمراجع تقدم أرقامًا مختلفة لتعدادهم، لكن على أية حال، فإن عدد الأقباط يقدر بالملايين. ويعتقد أن ٦-١٠% من إجمالى تعداد مصر مسيحيون. وهم من الفلاحين والعمال والتجار وصغار ومتوسطى الموظفين وجزء من المثقفين. لكن حتى وقتنا الحالى، وفى وجود مساواة قانونية رسمية، فإن الأقباط لا يزالون يعانون من صور مختلفة من التفرقة، فعلى سبيل المثال، عددهم النسبى قليل بين ضباط القوات المسلحة وبين كبار الموظفين.

وقد حاول ناصر ألا يسمح بالعداء الدينى فى مصر. لكن فى السبعينيات، صحب تنامى قوة الأصولية فى مصر تعاظم التطرف الدينى الموجه ضد الأقباط. وقد أضيف إلى ذلك، وما أثر أيضا على المجتمع، الدستور الذى وضع فى عهد السادات، والذى ينص على أن الإسلام هو الديانة الرسمية لمصر. وقد أدى لعب السادات باستخدام الجماعات الأصولية إلى تشجيعها للقيام بمختلف الأعمال المعادية للأقباط فى كل من العاصمة والمحافظات الأخرى، خاصة فى تلك التى يتركز فيها مجموعات كبيرة من الأقباط، حيث لهم كنائس وأديرة أكثر مما فى الأماكن الأخرى. وفى أسيوط، بالذات، هى مركز المحافظة التى لها الاسم نفسه، حيث يقطنها عدد أكبر من المسيحيين سواء فى المدينة أو الريف، رغم كونهم يمثلون أقلية. لذلك كانت أسيوط تعتبر فى السبعينيات والثمانينيات - ليس بلا أساس- إحدى أكثر مناطق مصر القابلة للانفجار. ولعدم السماح بانفجار العداء، تم تركيز نقاط عسكرية ونقاط شرطة دائمة فى المدينة وحولها، وتم وضع حراسة خاصة على الكنائس القبطية ومساجد المسلمين.

وعندما وصلنا إلى أسيوط، كان الوضع فى المدينة لا يزال متوترا. ففى ذلك الوقت، كانت لا تزال إقامة بابا الأقباط "شنودة الثالث" محددة فى أحد الأديرة، الذى أرسله إليه الرئيس السادات فى عام ١٩٨١، مانعا له من الإشراف على أعمال الكنيسة القبطية. وفى الوقت نفسه، صدر أمر للقبض على ٨ من الأساقفة

الأقباط، و ١٨٠ من القساوسة. وقد سخنت بشدة هذه الإجراءات العلاقات بين الديانات. وعندما وصل مبارك إلى الحكم، خفف منها، لكن ليس فورا ولا بصورة كلية. ففى عام ١٩٨٣، وجدت المحكمة العليا المصرية أن السادات قد تعدى سلطاته بعزل البابا شنودة من رئاسة الكنيسة القبطية. وبعد ذلك سمح لشنودة برئاسة أعمال الكنيسة، لكن على ألا يغادر أسوار الدير. وانتشرت شائعات أن آخر المحظورات سوف يلغى قريبا. وفعلا حدث ذلك فى يناير ١٩٨٥. وعادت الأمور إلى عهدها السابق، لكن لم يزل التوتر، حيث إن المتطرفين المسلمين لم يتخلوا بعد عن هدفهم- فرض نظامهم فى مصر- ولن يتخلوا عنه.

وكان أحد مسارح المعركة هو جامعة أسيوط، التى أدار رحاها نحو خمسين ألفا من الدارسين بها، حيث قاتل المتطرفون- ممن ينتسبون إلى الإسلام- بها، كما فعلوا فى جامعات ومعاهد أخرى فى مصر، من أجل السيطرة على قلوب وعقول شباب الطلبة. ونجحوا فى ذلك. وقد أسهم فرع جامعة الأزهر القاهرية فى أسيوط بدوره فى ذلك بالفعل. لذلك كنت مشتاقا لزيارة الدير القبطى القريب من أسيوط فى وجود هذه الخلفيات كلها.

ويقع دير "السيدة مريم العذراء المقدسة" خارج حدود المنطقة الخضراء لوادى النيل، عند سفح سلسلة جبال منخفضة، ويحتل مساحة كبيرة، كما يحيط به من جوانبه الأربعة جدار حجري، لكنه لا يمثل حصنا، أى بدون أبراج ووسائل التحصين الأخرى. ويوحى الجدار لك - مثله مثل باقى الدير - بأنه جديد، حيث بدت كل منشآته، بما فيها برج الأجراس، حديثة جدا. ومبنى الدير مرتب على ثلاث شرفات متوازية فوق بعضها البعض، كل منها يتكون من ٤-٥ طوابق. وكلها تبدو جديدة تماما. وقد جذب انتباهى بصفة خاصة برج الجرس. فأولا، كان يتوجه صليب غريب الشكل تماما. فعندنا الصليب مسطح، فيظهر كصليب من جانبين فقط. أما هذا فكان يظهر بشكل متماثل كصليب من الجهات الأربع، حتى من أسفل ومن أعلى، بسبب وجود عارضة واحدة أفقية إضافية، مركبة عموديا

على العارضة العادية ومساوية لها فى الأبعاد. كما كان هناك شيء آخر مؤثر وغير عادى، وهو وجود فتحة محزوزة ممتدة رأسيا على طول الصليب فى كل من جوانب برج الجرس. وحيث إن الجدران صماء، فإذا تم إشعال ضوء فى الداخل، فإن الفتحات تظهر من بعد وكأنها صلبان مضيئة كبيرة. وللعلم كان شكلها جذابا فى النهار أيضا؛ فقد كانت وقورة وجميلة.

وقد كانوا ينتظروننا فى الدير. كما فهمت، حيث يوجد فى الموقع فعليا اثنان من الأديرة، أحدهما للرجال، والآخر للنساء. وكانت الراهبة التى استقبلتنا تلبس ملابس كلها بيضاء، أما الراهب فكان يلبس ملابس سوداء. ولم تتم دعوتنا إلى داخل مبنى الدير؛ لأن الصلاة كانت لا تزال قائمة، لذلك فقد أخذونا مباشرة إلى المغارة. وكان مدخلها يشبه تماما شقا تحت كتلة صخرية ضخمة معلقة. ولم تكن المغارة كبيرة جدا، ولولا وجود الإضاءة الكهربائية لبدت مقبضة. ويوجد فى مصر الكثير من الأماكن التى يعتقد أن السيدة مريم وطفلها المسيح ويوسف اختبئوا بها لبعض الوقت. لكن بالطبع، لا يوجد أى دليل على ذلك. لذا يجب تصديق ذلك كما يحدث مع الكثير مما ذكر فى الإنجيل. ولم يكن حديث الراهبة طويلا أبدا (كنا نتحدث معا بالإنجليزية). وطبقا لما روته، فإن هذه المغارة هى أقصى نقطة فى جنوب مصر وصلت إليها العائلة المقدسة. ويبجل هذا المكان كثير من الأقباط والمسيحيين الآخرين، لذلك يمتلئ الدير تماما بالحجاج عدة مرات فى السنة، كما يحضر الكثير من الناس إلى هنا فى الأعياد المسيحية. أما يوم زيارتنا، فقد كان يوما عاديا، كما كان الوقت مبكرا، فقد كانت السيارات تحضر الراغبين فى زيارة الدير، من أسيوط، بعد ذلك.

ولم نتمكن من الحديث عن وضع الدير، أو عامة عن الأقباط فى منطقة أسيوط. والأصح، أننى لم أبدأه، لأن أول من قابلنا فى الدير لم يكونوا رهبانا، بل ضباط أمن يرتدون الملابس المدنية، وقد قدموا أنفسهم لنا بهذه الصفة. ولم يبتعدوا عنا فى الدير ولو خطوة، ولم يكن من المناسب التحدث فى موضوعات شائكة فى

وجودهم. لذلك فقد اكتفينا بالحديث فى قاعة (مضيفة على الأرجح) صغيرة ونحن نحتسى كوبا من الشاي، وكتبت كلمات فى سجل كبار الزوار، والتقطت صورًا مع الرهبان والحرس. وانتهت على ذلك زيارتنا للدير. كما أنه لم يكن لدينا وقت طويل، لأنه كان أمامنا طريق طويل، وكانت تنتظرنا آثار مصر القديمة ذات الأهمية الكبيرة.

وأريد هنا أن أوضح أننا لم نلاحظ فى طريقنا أن أحدا كان يرافقنا، رغم أنه كان من الممكن أن يكون أحد يتبعنا من بعد. لكننا كنا نحصل بسرعة على حماية بمجرد وصولنا إلى المحطات التى أعلنا عنها فى القاهرة. حتى أن ذلك كان فى بعض الأحيان مفيدا، لأننا لم نكن نعرف طريقنا جيدا. وفى هذه الحالات، كانت تتم مساعدتنا بسرعة، وكان يوضح لنا الطريق. وكان يحدث أحيانا أن يسألونا ببساطة:"إلى أين بعد ذلك؟". وكنا نقول لهم، فكانوا"يرافقوننا".

لأول مرة فى معبد مصرى قديم (أبيدوس)

تابعنا طريقنا من الدير على الضفة الغربية من النهر متوجهين إلى مدينة الأقصر الشهيرة، لذلك فإننا لم نتوقف فى أى من الأماكن المغرية التى كانت على الطريق، لأننا قررنا أن نترك ذلك للمستقبل. ورغم ذلك فقد قمنا باستثناء واحد، ومن أجل ذلك اضطررنا للدوران من الطريق الرئيسى إلى الغرب، وسرنا جانبا عدة كيلومترات إضافية. وها نحن فى أبيدوس- أحد أهم المراكز الدينية لمصر القديمة، فطبقا للأسطورة، تم به دفن "أوزوريس"، إله عالم الأموات، أو كما قال قدماء المصريين "من يملك الغرب". وكانت الاحتفالات الدينية على شرف أوزوريس تجذب – على مر العصور إلى أبيدوس – الحجاج من كل أنحاء مصر، مما أنعش المعبد والمدينة. لكن ما تبقى، ليس كثيرا. ومما بقى إلى أيامنا هذه، معابد مؤسس العائلة التاسعة عشرة – الفرعون "سيتى الأول" وابنه "رمسيس الثانى". لكن كنا على عجل من أمرنا، فشاهدنا الأول فقط.

وعندما أوصلتنا العلامات إلى هذا المعبد، لم أصدق عيني. فقياسا على مظهره، لا يمكن إعطاؤه ٣٢ قرنا، لكن كأنه صمم بمعرفة أحد معماريى العشرينيات أو الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. فلم يكن هناك خط واحد غير مستقيم، ولا أية زيادات معمارية. وكان كل شيء فيه بسيطا للغاية، دقيقا ومناسبا من حيث الأبعاد- علبة سليمة هندسيا، فى واجهتها ١٢ عامودا مربعا حاملة لسقف سمكه مماثل للعامود المحيط به والسائد للجدران الجانبية. وفقط عند اقترابنا وضحت لنا علامات القدم المصري، المتمثلة فى النقوش البارزة على الأعمدة. ثم اتضح لنا أن ما أمامنا يمثل الجزء الخلفى من المعبد، أما ممر الأعمدة والساحة الأمامية التقليديين، فلم يبقيا حتى يومنا. لكن على أية حال، كانت دقة الأشكال التى نفذها الفنانون القدماء وجمالها أمرا مدهشا للغاية.

وكانت هذه أول مرة أزور فيها معبدا مصريا قديما، لذلك كان كل ما به جديدا ومثيرا. وما أدهشنى بعد ذلك، هو غابة الأعمدة الضخمة داخل المعبد، التى كانت تملأ تقريبا كل حيزه الداخلي: ٢٤ عامودًا فى الجزء الأمامى من المعبد، و٣٦ فى الجزء الخلفي. وكانت كلها، مثل الجدران، مزينة بالرسوم البارزة التى احتفظ الكثير منها بألوانها. وكان يتلخص الرد على "معرفة السبب فى الحاجة إلى كل هذا العدد الكبير من الأعمدة" فى أن المصريين ، فى ذلك الوقت، لم يكونوا قد عرفوا بعد تركيب القبب، وبما أن الأسقف كانت تصنع من ألواح حجرية، فلم يكن من الممكن أن تكون أطول من اللازم، وإلا تشرخت بتأثير ثقل وزنها. لذلك كانت الأعمدة حاملة للأسقف، وكانت ترتب فى صفوف دقيقة موازية للجدران الخارجية والداخلية. وكان ينتهى المعبد بسبعة أحرام مقدسة مرتبة فى صف واحد مواز للحائط الخلفي. وكانت ستة منها مخصصة لأهم الآلهة: "آمون، وأوزوريس، وإيزيس، وحورس، وبتاح، وإله الشمس "رع"- كما كانت هى عقائد المصريين القدماء. أما الحرم السابع فكان لمن بنى المعبد- الفرعون سيتى الأول، الذى ساوى نفسه بهم "بتواضع".

وحيث إن رمسيس الثانى قد أكمل بناء المعبد، فقد تكرم تماما بتزيينه بصوره الخاصة، فهى لا تقل عن صور سيتى الأول، إن لم تزد عليها. والتشكيلات البارزة مختلفة، لكن يغلب عليها موضوعان: ففى بعضها يقدم فرعون (الأب أو الابن) الهدايا للآلهة أو يبخرهم، وفى الأخرى يبارك الإله (أو تبارك الآلهة) فرعون، وتتمنى له طول العمر، والنجاح فى الحكم. ويجب الإلمام جيدا بالأساطير الدينية المصرية لإدراك معنى النقوش، وفهم ما ترمز إليه. وللأسف لم نكن ملمين بذلك. لكن إذا صدقنا الكتاب المرشد، فإن زخارف هذا المعبد هى الأحسن مقارنة بغيره على طول وادى النيل. وقد بحثنا طويلا عن أحدها، ثم وجدناه فى النهاية: يبين فيه سيتى الأول لابنه ما يسمى "قائمة الملوك"- قائمة الفراعنة السابقين. وهى تحتوى على ٧٦ اسمًا، معبرا عنها بخراطيش.

وشاهدنا بجانب معبد سيتى الأول أطلال ما يسمى "أوزيريوم". وهو معبد مخصص للعالم الذى على الجانب الآخر "عالم الموتى". وقد بدأ بناؤه فى عهد سيتى الأول، وأكمل بناءه حفيده. والمعبد موجود فى منطقة منخفضة ونصف مغمور بالماء. ويعد ماؤه شافيا للأمراض.

وقد التقطنا الصور عند الأطلال، وانطلقنا على عجل إلى معابد أكبر كثيرا كانت فى انتظارنا. فعبرنا إلى ضفة النيل الأخرى، ووصلنا فى منتصف اليوم إلى الأقصر، إلى فندق "إيتاب"، حيث استقبلتنا مجموعة من المصريين وبينهم "د. فاروق"- أحد معارف شيفانكوف، وهو مهندس مثقف يعمل بإحدى الشركات المصرية. وقد عرض متفضلا أن يكون دليلنا فى معبدى "الأقصر" و"الكرنك" مع أحد العارفين المحليين. وقد ذهبنا معهم لمشاهدة ما كنا نعرف عنه بعض الشىء من الكتب ومن الألبومات، لأننا كنا قد استعددنا مسبقا للقاء ما لا نعرفه – معبدى الكرنك، والأقصر.

انطباعاتى عن "طيبة القديمة"...الفراعنة كمؤسسين للدعاية بالتماثيل

كلمة "الأقصر" تعنى بالعربية "القصور". ويمكن أن نستنتج من ذلك أن ما تبقى من المعبدين الضخمين اللذين شيدهما الفراعنة لأهم الآلهة، اعتبر آنذاك قصورا. وحاليا يعيش فى الأقصر حوالى ٦٠-٦٥ ألف شخص. وكان هناك وقت، عندما كان يوجد فى هذا المكان "طيبة ذات المائة بوابة"، وهى مدينة كثيرة السكان، يقدر عددهم بعض علماء التاريخ بحوالى مليون شخص.

ولم يكن فى أول ألف سنة من تاريخ مصر ما يعنى شيئا مميزا خاصا لطيبة، فقد كانت المدينة الرئيسية للولاية الرابعة بمصر، أو كما يمكن أن نقول بلغة العصر، مركزا لمحافظة كان يحكم منه ممثل فرعون المنطقة. وقد حصلت "طيبة" على حظها التاريخى عندما وقع شمال مصر تحت سيطرة "الهكسوس"- وهى قبائل سامية، حضرت إلى مصر من مكان ما من الشرق الأوسط، واستولت على عاصمة البلد "ممفيس". وقد تمكن حكام طيبة، الذين جمعوا حولهم جنوب مصر، فى النهاية من طرد الهكسوس فى القرن السادس عشر ق.م.، وتوحيد البلاد. وظهرت عائلة جديدة، لكنها لم ترغب فى الاستقرار فى ممفيس، بل فضلت نقل العاصمة إلى طيبة، حيث كانت لها جذور أقوى. فبدأت لطيبة مرحلة نهضة كبيرة، خاصة أن فراعنة الدولة الحديثة (١٥٧٠-١٠٧٥ ق.م.) الموفقين تمكنوا بالحملات العسكرية الناجحة إلى النوبة، وليبيا، ودول الشرق الأوسط والشرق الأدنى من أن يزودوا مصر بالعبيد والذهب وغنائم أخرى عديدة. وفى ظل هذا الوضع، نمت ديانات الآلهة المحلية بسرعة وأولها ديانة آمون، الذى أصبح الآن الإله الرئيسى لمصر كلها. وقد شيد له معبدان كبيران، وهما من الأبنية النادرة التى بقيت حتى أيامنا هذه شاهدة على التاريخ، على الضفة الشرقية للنيل من "طيبة". ويعرف الآن هذان المعبدان بأسماء: "معبد الكرنك" (طبقا لاسم القرية العربية)، و"معبد الأقصر".

ويقع المعبدان على ضفة النيل، ويبعدان ثلاثة كيلومترات عن بعضيهما البعض. الأول (الكرنك) وهو أكبر عدة مرات من الثاني. وقد بدأنا الزيارة به. واستغرقت الزيارة ثلاث ساعات، رغم أنها تمت على عجالة، وبعدها اختلطت الأمور تماما فى رؤوسنا بسبب كل ما رأيناه وسمعناه، فقد تبين أن بنية وتاريخ الكرنك معقدان بشكل كبير، كما أنه يضم مختلف الآثار. ومن هذه الناحية، كان معبد الأقصر أبسط كثيرا. وبعد ذلك، حضرت إلى الأقصر مرتين، وكنت فى كل مرة أزور هذين المعبدين مرة أخرى. وبدأت الأمور تنتظم بالتدريج فى رأسى بشكل ما، حيث بدأت تدخل فى ترتيب معين. لذلك فإن الانطباعات التى أقدمها فى الصفحات التالية هى نتاج تعرفى على الأقصر بعد ثلاث زيارات.

وفى البداية، أقدم بضعة كلمات عن ديانات قدماء المصريين. فشلت تماما محاولة فرعون الأسرة الثامنة والعشرين "إخناتون" - زوج نفرتيتى الشهيرة - تثبيت توحيد الله فى مصر. فقد كانت مصر تعتقد من قديم الزمان فى تعدد الآلهة، وكانت تعبد عدة عشرات من الآلهة، وكان لكل منهم مجاله. فكان بعضهم موجودين فى عالم الأحياء، وآخرون فى عالم الأموات، ومجموعة ثالثة فى السموات، ورابعة فى مياه نهر النيل...إلخ. وكان "أوزوريس" يعد أكبر آلهة عالم الأموات، وكان يمثل أمام محكمته كل مصرى فى النهاية، إذا تمكن بمساعدة الحماية الإلهية والتعاويذ المناسبة أن يفتح كل البوابات فى الطريق إلى محكمة أوزوريس. وبعد أن يقوم الأخير بوزن روح الميت بميزان، يقرر مصيره، فيمنحه فرصة مستحقة لكى يبعث من جديد من بين الأموات بعودة روحه إلى جسمه المحنط. وإذا بسطنا تماما أسطورة قدماء المصريين الدينية المعقدة، فهى تظهر على هذا الشكل.

جعل المصريون آلهتهم مشابهين للإنسان فى الكثير. فكان للكثير منهم زوجات وأبناء. حيث كان لأوزوريس زوجة، هى "إيزيس"، وابن هو "حورس". وكان لحامى ممفيس، الإله "بتاح" خالق الكون، وإله الفن والحرف عندهم، زوجة

وابن. أما زوجته "سخمت" فهى إله الحرب والأمراض، وابنه هو "نفرتم"، مثله المصريون على هيئة طفل يجلس على زهرة "لوتس". ولحامى طيبة، إله الشمس "آمون"، زوجة هى الإلهة "موت" وابن هو "خونسو"، الذى يعد إله القمر. وقد كانت مجموعة الكرنك مخصصة لهذا الثلاثى الإلهى الأخير، حيث كان لكل فرد من أفراد العائلة الإلهية معبده الخاص. لكن البناء الرئيسى فى المعبد كان مخصصا بالطبع للإله "آمون" نفسه، الذى كان يعتبر ملك الآلهة.

وكان قدماء المصريين يؤمنون بأن لكل إله حيوانه الإلهى أو طائره. وقد كان كل منهم يستخدم كرمز خاص، فقد كان يمثل الآلهة، فى العادة، على هيئة إنسان له رأس حيوان أو طائر مناظر له. فإله التحنيط "أنوبيس" كان يرسم برأس "أبو وايل"، وإله الحكمة والكتابة "توت" برأس "ابيس"، وإله السموات، حامى الفراعنة "حورس" برأس "صقر"، وإله النيل "سيبيك" برأس "تمساح"، وإلهة الحرب "سخمت" برأس "لبوءة"، أما إلهة الحب والمرح والولادة "حتحور" فكانت تلبس على رأسها "قرون بقرة"، أو كانت ترسم "بأذنى بقرة"...إلخ. لذلك كان يمكن أن ينظر المصرى القديم إلى أى من النقوش فى المعبد، لكى يفهم الأمر: فليكن هنا فرعون يقدم الهدايا لإله ما، أو هناك يتم حرق البخور، أو على العكس، إله ما يبارك فرعون، أو الإلهة "هاتور" تمسك بيد الملكة "نفرتارى"- زوجة رمسيس II، وتقودها إلى القصر الإلهى..... إلخ.

وقد عد المصريون المعابد مساكن أرضية للآلهة، فجعلوا بنيتها الداخلية طبقا للمنطق الحياتى تماما. وكانت غرف الاستقبال فى الأمام كما هى فى منازل الأرستقراطيين ، وبعدها حجرات لكل الأمور العائلية والمنزلية، ثم بعد كل شيء، مكان الراحة الخاص بصاحب المكان، وكان لا يسمح بدخول الغرباء إليه. كما كان يوجد فى المعابد المصرية ثلاثة أقسام- فى الأمام ساحة أو اثنتان يمكن أن تضم الآلاف، ثم بعدها قاعات كان يقوم فيها الكهنة بمختلف الطقوس الدينية والسرية، ثم فى النهاية، فى أقصى نهاية المعبد، الحرم المحتوى على التمثال الذهبى للإله

والحجرات التابعة له، التى كانت تحفظ فيها مختلف الأشياء المتعلقة بالديانة، ومنها المركب المقدسة، التى كان يحمل فيها تمثال الإله فى أثناء الأعياد لكى تشارك فى الطقوس. وكان يسمح فقط للفراعنة وكبار الكهنة بدخول الحجرات المقدسة، وفقط بعد قيامهم بطقوس "التطهير".

وكانت المعابد المصرية القديمة ضخمة، وكانت عادة تحتل مساحة كبيرة. وكانت تفصلها عن العالم الخارجى أسوار عالية. وكان الصرح (Pilon) - بناء ضخم به برجان يشبه شكله هرما ناقصا، يقوم بدور الجدران الأمامية. وكانت توجد فى وسط الصرح بوابة الاحتفالات المؤدية للساحة الأمامية للمعبد. ويحد هذه الساحة، من الخلف، صرح آخر، يكون فى العادة أصغر ارتفاعا قليلا من الأول. أما الأجناب، فبممرات من الأعمدة، كان من الممكن أن يكون خلفها حجرات الكهنة أو إنشاءات أخرى للمعبد. وكان يمكن أن يوجد أكثر من ساحة واحدة.

وكان الجزء الأكثر جذبا للانتباه يبدأ خلف الساحات. فهناك توجد قاعات أعمدة ضخمة الارتفاع مسقوفة، حيث كانت تتم مختلف الاحتفالات الدينية، ومنها تقديم الأضحية. كما أن الحرم المتصل بقاعة الأعمدة كان هو أيضا مسقوفا، وكان منخفض الارتفاع. كان هذا هو التخطيط العام للمعبد. وأقصد فعلا العام، حيث كان لكل معبد سماته الخاصة، التى كانت تزيد كلما زادت فترة بنائه.

كان معبد الكرنك، من هذا المنطلق، بطلاً عالميًا، حيث استغرق بناؤه حوالى ألفى عام. كما أن الجزء الأكثر نشاطا من عملية البناء استغرق خمسمائة سنة كاملة- من القرن السادس عشر إلى القرن الحادى عشر ق.م. كما قام البطالسة والأباطرة الرومان أيضا بإضافة أجزاء إلى المعبد، أو بإعادة بناء بعضها. فكانت النتيجة أن تزايدت مساحة مجموعة المعبد بحيث احتلت عشرات الهكتارات، وأصبح يضم، بجانب معبد "آمون" الرئيسي، معابد بنيت لآلهة أخرى: "موت"، "خونسو"، "بتاح"، "أوزوريس"، وغيرهم، وكذلك البحيرة المقدسة التى يماثل مقاسها ملعبًا لكرة القدم، حيث كان الكهنة يقومون بجزء من طقوسهم،

و"طريق الكباش" الذى يمتد مئات الأمتار (هو طريق يمتد من معبد "آمون" إلى معبد زوجته "موت"، ويبلغ طوله ٢٨٥ مترا). والكرنك هو أكبر مجمع دينى فى مصر، من حيث المساحة. كما أنه غالبا أحد أكبر المجمعات الدينية فى العالم، حيث إنه يحتل ٨٥ هكتارا. ومن حيث عمره، فغالبا يحتل المرتبة الأولى.

وللأسف فقد بقى حتى وقتنا هذا فى حالة نصف مهدمة. فبعض أجزائه أضيرت أكثر، وبعضها أضير أقل. لكن ما تبقى كاف لتصور ضخامة هذا الأثر وبنيته. وضخامته، بالذات، هى التى تترك أكبر انطباع، فبصفة خاصة، أبعاده كبيرة. كما أن كثرة ما به مدهشة. أقصد بذلك تماثيل "أبى الهول"، وتماثيل الفراعنة، والأعمدة، وكيلومترات النقوش المنحوتة على الحجر، إذا تم فردها على خط واحد.

وللأسف نضطر إلى تخمين الكثير. وخاصة ما يتعلق بالشكل الخارجي. وقد استخدم الحجر كمادة أساسية لبناء الصرح (البيلونات) والحوائط والأعمدة. وقد نخر الزمن والتغيرات فى درجة الحرارة والعواصف الرملية حتى فى هذه الخامة الصلدة. ببساطة، انهارت بعض الكتل الحجرية. وتعرض سطح كتل أخرى، وغطتها الشروخ، لذلك لم تعد النقوش والرموز الهيروغليفية المنحوتة فى الحجر واضحة، حتى بهتت ألوانها وعتمت، كما أنها اختفت تماما فى بعض الأماكن. وعليه، يغلب الآن، تقريبا على كل شيء، اللون الرملى الرتيب للحجر. لذلك يجب عمل إصلاح كبير عند محاولة تخيل كيف كان يظهر كل ذلك منذ ثلاث آلاف سنة وأكثر، عندما كان الكرنك يتمتع بأسطح وأعمدة ناعمة، ومسلات ذهبية قائمة، وكتابات هيروغليفية مذهبة، وبنقوش زاهية كانت تغطى تقريبا كل أسطح المعابد، بما فيها الأسقف، وعندما كان كل شيء جديدا ونظيفا ومرتبا بشكل نموذجي. فقد كان مجمع الكرنك أغنى معابد مصر بالنقوش، لأن بناءه الأساسى تم فى أحسن فترة ازدهار فى مصر القديمة، ويسمونه "بالإمبراطورى"، لأنه تزامن مع سمو مصر فوق كل الدول المجاورة، التى كانت مضطرة أن تدفع لها "إتاوات". وقد

تلاقى مع طيبة، ومنح الفراعنة الجزء الأكبر منه لكهنة معبدهم الرئيسي. وفى ذلك الوقت، كانت ديانة آمون قد بلغت ذروتها، والتحمت مع ديانة إله الشمس "رع". وأصبح يطلق على "آمون" اسم "آمون- رع"، وملك الآلهة.

وقد تنافس فراعنة الأسر الثامنة عشرة و التاسعة عشرة والعشرين - مع بعضهم البعض- فى بناء وتشييد وإعادة بناء وزخرفة معبد الكرنك. وبصفة خاصة، أضاف له الكثير كل من الفراعنة: "تحتمس الأول"، المرأة الفرعون "حتشبسوت"، "تحتمس الثالث"، "سيتي الأول"، رمسيس الثانى"، ورمسيس الثالث"، وقد اكتسب معبد الكرنك سماته الأساسية فى عهودهم بالذات. وقد أنفق الفراعنة الكثير على الكرنك، حيث إنهم كانوا يعتقدون- على أساس - أنهم حين يمجدون حاميهم وربهم الإله "آمون- رع"، وقيامهم برسمه كأعظم ملك للآلهة، فإنهم يقوون بذلك وضعهم الخاص. وسيطرت عليَّ فكرة عند مشاهدتى لمعابد الكرنك هى أن الفراعنة - على الأرجح - قد فكروا، بصفة أساسية، فى كيفية رفع أنفسهم إلى أعلى فوق أتباعهم، وكيف يمثلون نفسهم "كالأعظم"، وكيف يجملون ذكراهم وذكرى حكمهم، ويحفظونها للأبد. وكان هذا بالذات هو الدافع لعمل هذا الكم الضخم من الزخارف عن أعمالهم الحربية، وأعمالهم الأخرى، وما تحتويه الرسوم المنحوتة على الحجر من تصوير لإنجازاتهم الخاصة وشجاعتهم وإعجاب سكان مصر بهم. وكان "رمسيس الثانى" يتميز بتمجيد نفسه بصفة خاصة، فلم يمجد نفسه فقط على جدران وأعمدة الأبنية التى أقامها فى عهده، بل، أيضا، على ما شيده الفراعنة الذين سبقوه. وكان هذا هو هدف صناعة التماثيل الضخمة للفراعنة الموجودة بأعداد كبيرة، خاصة فى الأماكن التى كان يمكن أن يحضر إليها المصريون الزائرون للمعابد للتمتع بمشاهدتها والاندهاش بها.

عامة، يمكن مشاهدة الكثير من الأشياء الغريبة فى الكرنك. فعلى سبيل المثال، الزخارف تشبه بشكل ما القصص المصورة الحديثة (COMICS)، فهى أيضا عبارة عن قصص يعبر عنها بالرسوم، وأساسا تتحدث عن الحملات

العسكرية إلى النوبة وليبيا وبلاد الشرق الأوسط. فهنا يتشاور "فرعون" مع قادته، وهنا بلغه الكشافون أنباء العدو، وهنا "فرعون" يسير بعجلته الحربية. وفى مكان آخر، يشد القوس لكى يطلقه على العدو، أو يظهر كعملاق يمسك بشعر مجموعة من الأعداء (جنود أو زعماء)، ويرفعها إلى أعلى، بينما يستعد لتهشيم رؤوسهم بيده الأخرى الممسكة بهراوة. أو ها هو ممسك بالملك الأسير تحت إبطه كدمية، ويتجه عائدا إلى مصر. وفى رسم آخر، يسير وراءه الأسرى فى صف فى الاتجاه نفسه، وتستقبله جحافل المصريين بإعجاب. وفى مكان آخر، يقدم الهدايا لآمون ويشكره على النصر. وتبدأ الزخارف فى تلاوة هذه القصة بأن "الفراعنة ومن يحميهم فى السماء..." فمثلا، يقف فرعون وخلفه حاميته - إلهة الحرب "سخمت" (تلك التى لها رأس لبؤة)، أما فرعون نفسه فيتلقى البركة من آمون (وهو عادة يمثل على شكل إنسان، على رأسه ريشتان عاليتان ورموز السلطة الملكية). أو يقف بدلا من آمون، أو يجلس، حورس ذو رأس الصقر، أو أى إله آخر. فكان المهم هو بيان أن للفرعون حماة كثيرين من السماء، كما أنه من جانبه، لا ينسى أن يقدم لهم الهدايا، مثلما يجب أن يفعل البسطاء مع فرعون، على اعتبار أنه ابن السماء وأنه إله على الأرض.

وبالطبع، يمكن أن نسخر من دعاية الفراعنة الصريحة عن أنفسهم. لكن من ناحية أخرى، لو لم تبق القصص المعبر عنها بالرسوم البارزة أسفل الجدران والأعمدة داخل المعابد لما عرفنا شيئا عن أحداث التاريخ القديم. ورغم كل المبالغات والخيالات فى هذه الروايات، فبها أيضا بذور الحقيقة، وهو الأهم فى هذه الحالة.

أما من الناحية الجمالية، فلا يترك الكرنك انطباعا. والسبب هنا، كما أظن، ليس فى التكلفة المتعلقة بحالة الأثر، لكن فى الأسس نفسها، التى على أساسها تم بناؤه. حيث كان الهدف يلخص فى الإدهاش بالقوى غير الإنسانية التى منحت لفرعون نفسه، وبعظمة من يقف من ورائه من قوى. ومن هنا، كان الحجم الضخم

لكل أبعاد عناصر المعبد الأساسية "الصرح، الساحات، الأعمدة، والتماثيل... إلخ". وهنا فعلا يوجد ما يدعو للدهشة سواء من حيث الأحجام أو الكم. فعلى سبيل المثال، نبدأ من المدخل الرئيسى للكرنك. الذى يؤدى إليه طريق الكباش ذات المقاس الملفت للنظر والمرتبة بجانب بعضها البعض على مسافات قريبة. وكلها متماثلة كما لو كانت مصبوبة من خرسانة (ولكنها فى الحقيقة منحوتة فى الحجر)، جسم أسد ورأس كبش، حيث إن حيوان آمون المقدس كان "الكبش". وبين قدمى كل من هذه الكباش يوجد تمثال لرمسيس الثانى. وهذه النسخ المتشابهة تماما قد تثير عجب الإنسان فى العصر الحديث، لكنها لن تدهشه. لكن يبدو أن قدماء المصريين كانوا يتقبلون الأمور بشكل آخر. وكان يجب على أبعاد أول صرح أن تبين عظمة وجبروت فرعون: الطول ١١٣ مترا، والارتفاع ٤٣، والسمك ١٥، والساحة الأمامية مناسبة تماما للصرح حيث إنها تشمل ٩ آلاف متر مربع، كما تحتوى أيضا على صفوف من تماثيل الكباش نفسها، والكثير من تماثيل الفراعنة الضخمة الخرقاء متعددة الأطنان المعبرة عن القوة والثقة.

وأخيرا، أهم عجائب الكرنك- قاعة الأعمدة. وهى أكبر قاعة أعمدة فى العالم: مساحتها حوالى ٥٠٠٠ م^{٢}، وتمتلئ بستة عشر صفا من الأعمدة التى يبلغ عددها ١٣٤، وهى ضخمة الارتفاع والسمك. وتتميز منها أعمدة الممر الأوسط، حيث يبلغ ارتفاعها ٢١ م. والأعمدة الأخرى تقل عنها بخمسة أمتار. والفرق بين ارتفاع الأعمدة هو "المصباح" الذى كان يصل من خلاله الضوء إلى قاعة الأعمدة. والآن لا توجد أسقف حيث انهارت من قديم الزمان الألواح الحجرية التى كانت تكونها. وقد بقيت فقط على بعض الأعمدة الوصلات التى كانت توصلها ببعضها. وفى هذه القاعة، كل ما بها يجذب النظر بضخامته: دوائر حجرية ضخمة ترتكز عليها الأعمدة، والأعمدة نفسها يتسع قطرها خمسة أمتار، وتيجانها العليا ضخمة بحيث يمكن أن تحمل كل منها ١٠٠ شخص. يمكن أن نقول غابة حجرية، وكل جزء بها مزخرف من أسفل إلى أعلى بالرموز الهيروغليفية وبمختلف المواضيع.

كما أن جدران القاعة مغطاة هى أيضا من الداخل ومن الخارج بالرسوم المنحوتة والكتابات التى تمجد الآلهة والملوك، وبصفة خاصة سيتى الأول وابنه رمسيس الثانى – البناة الأساسيين لقاعة الأعمدة.

وعندما تسير بين الأعمدة الضخمة، فإنك تحس رغمًا عنك بضآلتك، حتى فى يومنا هذا الذى لا تعنى فيه، بالنسبة لنا، لا الآلهة المصرية القديمة ولا الفراعنة أى شيء. فيا ترى كيف كان إحساس قدماء المصريين أمام وجوه الآلهة المخيفة، الأرضية والسماوية؟ غالبا لم يكن بلا خوف، خاصة فى الضوء الخافت بقاعة الأعمدة. ويرى بعض العلماء أن طقوس تتويج الفراعنة وبعض الأمور الأخرى المتعلقة بهم كانت تجرى هنا بالذات.

والكرنك واسع جدا، بحيث يمكن أن تضل الطريق بين أطلاله. فالصرح وحدها يصل عددها إلى عشرة.

كما يجذب أيضا نظر الزوار المسلات الضخمة المصنوعة من جرانيت أسوان. والمسلات هى اختراع مصري، مثل الكثير من الأشياء الأخرى (الصرح، الأعمدة ذات مختلف التيجان العليا... إلخ). وكانت المسلات تشيد كرموز للألوهية الشمسية، وكانت تغطى كلها أو تغطى قمتها فقط بالذهب، لكى تلمع. وقد بدأ تشييدها تقريبا منذ ألفى وخمسمائة سنة قبل الميلاد. لكن تلك الموجودة فى الكرنك أكثر شبابا بألف سنة. وكانت تصنع أولا من عدة قطع، ثم تعلموا قطعها قطعة واحدة ضخمة من الجرانيت. وبالمناسبة، تنتمى مسلات الكرنك إلى ذلك النوع الأخير. وقد شيدت إحدى المسلات (تقف بين الصرحين الثالث والرابع) فى القرن السادس عشر ق.م.. شيدها "تحتمس الأول". أما المسلتان الأعلى الأخريان، فقد شيدتهما ابنته الملكة حتشبسوت. إحداهما تقف بين الصرح الرابع والصرح الخامس، وتعد الأعلى فى العالم (٢٩.٥ مترا). أما الثانية فقد سقطت وتحطمت، وقد أخذت أجزاؤها الصغيرة إلى مختلف المتاحف الأوروبية. أما الجزء الرئيسى فقد بقى فى الكرنك، حيث نقلت بالقرب من البحيرة المقدسة، حيث يمكن مشاهدة

كل ما كان منحوتا على المسلة من على بعد قريب جدا. وتصيبك الدهشة رغمًا عنك من قدرة الفنانين القدماء، الذين لم يكن عندهم الأدوات الحديثة، التى تساعدهم فى قطع وتنعيم الجرانيت بهذه الجودة، وعلى قطع رسوم بارزة معقدة فيه.

أما آخر ما شاهدته، وأرغب فى الحديث عنه، فهو يتعلق بتماثيل الفراعنة. أولا: كلها متشابهة من حيث الوجه. وليس من قبيل الصدفة أن بعض الفراعنة كانوا يزيلون خراطيش (رموز أسماء الفراعنة) من سبقوهم من على تماثيلهم، ويضعون أسماءهم هم بدلا منها. لكننا نعرف أن الفنانين المصريين يصنعون أقنعة للوجوه، ومنها على سبيل المثال قناع رائع لوجه "توت عنخ آمون". مما يعنى أنهم كانوا يستطيعون التوصل إلى رسم وجوه مشابهة للتماثيل الضخمة، لكنهم لسبب ما لم يكونوا يحاولون ذلك. وقد تكون قاعدة عامة قد منعتهم من ذلك. فهى قد أجبرتهم على أن يصوروا كل الفراعنة كشباب فقط، فى حالة ازدهار وقوة. ثانيا: يدهش (لكن بمعنى سيء) ميل الفراعنة للتضخيم فى تمثيل أنفسهم فى التماثيل. لكن رغم ذلك، إذا كان الهدف الرئيسى هو بيان قوة فرعون البدنية عن طريق الحجم والكبر، فقد نجحوا فى ذلك، لكن كان ذلك على حساب الجماليات. وبالطبع، فلا يمكن ألا يبتسم الإنسان الحديث من أن الفراعنة قد رتبوا تماثيلهم المتعددة المتشابهة بجانب بعضها البعض. ويبدو أن ذلك كان إحدى حالات المساواة بين معنيين هما "كثير" و"جيد". لكن لا يمكن إلا الاعتراف بأن الفراعنة قد فهموا أهمية الدعاية باستخدام الإنشاءات الضخمة، ولذلك لم يبخلوا عليها بأية إمكانيات. وهنا، يتضح دورهم الرائد كما يظهر فى وضع مبدأ آخر للدعاية- التكرار الكبير.

انتقلنا إلى "معبد الأقصر" وقد تملكت منا الكثير من الانطباعات عن الكرنك. فهو أصغر كثيرا، وأكثر تكاملا من ناحية المعمار. وذلك كان بسبب أن من بناه هم عدة فراعنة فقط، وليس العشرات منهم. وقد بدأ بناءه "أمنحتب الثالث" – فرعون العائلة الثامنة عشرة – حوالى ١٤٠٠ سنة ق.م. واستمر كل من "توت عنخ آمون" و"حورمحب" فى البناء، وأكمل بناءه فرعون العائلة التاسعة "رمسيس الثانى" الذى

حكم من عام ١٢٩٠ إلى عام ١٢٢٤ ق.م.. وبذلك فإن البناء الأساسى قد استغرق حوالى قرنين فقط. وفى الحقيقة، بعد ألف عام، تمت إعادة بناء الجزء الخلفى من المعبد "قدس الأقداس" طبقا لذوق "الإسكندر المقدوني"، ثم بعد ذلك بمعرفة الأباطرة الرومان. لكن عامة، هو نموذج لمعابد الدولة الحديثة. كما فى الكرنك، فقد تكلف هذا المعبد الكثير. وقد بنى معبد الأقصر، مثله مثل الكرنك، لثالوث طيبة "آمون"، "موت"، "خنسو". وقد اتصل بمعبد الكرنك طريق الكباش، الذى يبلغ طوله ثلاثة كيلومترات (تم العثور على أجزاء منه فقط). وكانت تتحرك المركب المقدسة بتمثال آمون المذهب على هذا الطريق فى أيام الأعياد الدينية. كما اقتيدت عبرها الأضحية من الحيوانات، وتمت عبرها مسارات الكهنة. وفى بعض الأعياد، كانت تنقل تماثيل الآلهة عبر الماء. وبشكل ما، كان المعبدان يمثلان جزئى وحدة مكتملة، لكن بقى الدور الأساسى للكرنك.

ويجذب معبد الأقصر الانتباه بالعناصر نفسها التى توجد فى الكرنك، بمعنى تخصيصه لتمجيد الأعمال العظيمة للفراعنة، حتى لو لم تكن موجودة أصلا. وهنا أيضا بقى رمسيس الثانى واثقا من نفسه؛ فقد وضع ستة من تماثيله الضخمة عند مدخل المعبد أمام الصرح الأول- أربعة منها واقفة، واثنان جالسان. وقد بقى إلى يومنا التمثالان الجالسان. ويبلغ ارتفاعهما ٢٢ م. أما التماثيل الواقفة فقد بقى أحدها فقط مكتملا، لكنه مشوه تماما. لكن بالنسبة لرمسيس فقد كانت التماثيل غير كافية، فشيد عند المدخل مسلتين أخرتين عاليتين من الجرانيت، مكتوب عليهما أسماؤه ومناصبه. والآن، تقف هناك مسلة واحدة فقط. أما الثانية، فتقف فى باريس فى "ميدان الكونكورد". وكان الصرح الأول أيضا يمجد "رمسيس الثانى"، حيث بين فى رسومه المعركة الوحيدة التى شارك فيها هذا الفرعون بنفسه. ورغم أنه لم يتصرف كقائد لهذه المعركة بحنكة، وأنها كادت تتحول بالنسبة له إلى كارثة، لكن الرسوم البارزة لا تعطى هذا الانطباع. حيث يبين الرسم على صرح لحظة اجتماعه بقادته، أما الرسم الآخر فيبين كيف يقاتل فرعون أعداءه بشجاعة. وكان

يفتخر جدا رمسيس الثانى أيضا بأن زوجاته وجواريه الكثيرين قد ولدوا له ١١١ ابنا و٦٧ بنتا. وقد رسم أبناءه فى الرسوم البارزة على جدران الساحة الأولى، على شكل صف طويل من الأشخاص المتماثلين.

ويوجد فى المعبد رسوم كثيرة شيقة. ففى الساحة التالية هناك مرسوم على الجدران كل تفاصيل الطقوس الدينية والأعياد فى طيبة، منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام. ويتكون انطباع لديك بأنها كانت باهرة وكثيرة البهرجة، وكان يشارك فيها لاعبو الأكروبات، والموسيقيون، والراقصون. كما يظهر الجمهور الذى يصفق لهم (ها هم الناس بدءوا يصفقون بأيديهم من قديم الزمان، تعبيرا عن رضائهم وسرورهم). فقط من المؤسف أن حالة هذه الرسوم البارزة سيئة للغاية - فبعض المناظر منها تميز بصعوبة.

وتوجد أيضا قاعة أعمدة بمعبد الأقصر، لكنها أكثر تواضعا من حيث الأحجام- فبها ٣٢ عامودًا فقط. لكن عددها الإجمالى فى المعبد كبير، فهى تحيط بالساحات. وقد حفظ بعضها بحالة جيدة، ومنها مجموعة أعمدة عالية مهيبة مركزية مكونة من ٧ أزواج. لكن الكثير منها فقد. وبصفة خاصة الصرح الثانى، فهو تقريبا مدمر بالكامل.

وأضيف معلومة أخرى. ففى معبد الأقصر، فورا خلف البرج الأيسر للصرح الأول، فى ركن الساحة، بنى مسجد فوق الأحجار القديمة. وهذا المسجد يعمل ويمنع أداء أعمال الحفريات الأثرية، كما قيل لنا، فى هذا الجزء من المعبد القديم. وهذا المسجد أبيض اللون، ومعتنى به، وهو ما يتعارض مع المعبد المصفر، نصف المهدم، والصرح الأول بتماثيله المهشمة ومسلاته غير المزدوجة التى كانت تبدو فقيرة - إلى حد ما - عندما كنت فى الأقصر. وكل شىء كان يصرخ مطالبا بضرورة القيام بأعمال الترميم والمحافظة على الآثار. هل بدأ المصريون فى ذلك أم لا؟ لا أعرف. وقد كان الفرنسيون يقومون بأعمال الترميم

فى الكرنك. لكن بالطبع حجم العمل مماثل للتماثيل، فهو ضخم ويحتاج إلى عشرات من السنوات.

عدنا إلى الفندق مرهقين تماما، لكن راضين عن أننا رأينا كل ما خططناه لهذا اليوم، بل أكثر.

الفريدة المصرية "فرعون" امرأة، ومعبدها

انتقلنا بسياراتنا فى الصباح التالى إلى البر الغربى للنيل؛ لمشاهدة ما كان يمثل "مدينة الموتى" لساكنى طيبة ، معابد جنائزية لفراعنة الدولة الحديثة ومقابرهم فى وادى الملوك. وكان علينا أن نكون مدققين تماما عند اختيارنا الأماكن التى سنزورها، حيث كان عندنا نصف يوم فقط لهذه الزيارة، فقد كان علينا أن نكون فى أسوان قرب المساء. وبدأنا بزيارة "معبد الملكة حتشبسوت".

أولا، فلنتحدث عن تلك المرأة الفريدة التى حكمت مصر لمدة ٢٢ عاما. ولم تحكمها من خلف الكواليس، لكن كأحسن فرعون حاكم، وكانت تركب لحية صناعية فى المناسبات الخاصة، كما كان يفعل الفراعنة الرجال. وكان ذلك يحدث لأول مرة فى تاريخ مصر. لن أتعب القارئ بسرد نظام توارث العرش فى مصر القديمة. وسوف أقول فقط إنه حتى نهاية الأسرة الثامنة عشرة، كان العرش ينتقل على خط الأم وليس على خط الأب، فكان الفرعون الجديد غالبا من يتزوج ابنة فرعون من زوجته الأهم. لذلك، وحتى لا يذهب العرش إلى أيد غريبة، فقد كان يعقد الزواج بين أفراد أسرة فرعون نفسها، فكانت الأميرة وريثة العرش تتزوج من أخيها الشقيق أو غير الشقيق، حيث كان للفرعون الكثير من الزوجات. لذلك خطبت الأميرة ابنة تحتمس الأول "حتشبسوت" كوريثة؛ لكى تصبح زوجة للفرعون الجديد – أخوها الشقيق "تحتمس الثانى". فأصبحت ملكة، وبعد فترة أصبحت أم الوريثة التالية. وقد أحست حتشبسوت بطعم السلطة. لذلك فبعد موت زوجها، عندما أصبح الفرعون زوج ابنتها، ابن زوجها من إحدى جواريه، أبعدت الفرعون

الشاب عن السلطة الفعلية، وحكمت بنفسها لسنوات طويلة، ومنحت نفسها كل المناصب الخاصة بفرعون، ولذلك فقد بنت "حتشبسوت" مقبرتها في وادى الملوك، وليس في وادى الملكات. وشيدت لنفسها معبدا جنائزيا في المكان الذى كان الفراعنة يوارون التراب فيه. وقد اختارت له مكانا قريبا من المعبد الجنائزى لأحد فراعنة الأسرة الثانية عشرة، أمام معبد الكرنك تماما، ملاصقا لجانب جبل مائل بشكل حاد.

وكان الزمن رءوفا بمعبد حتشبسوت بشكل متميز عن كل المعابد الأخرى في تلك المنطقة. فعندما عثر عليه في عام ١٨٩١، كان في أحسن حال، مما كان يمكن توقعه. وعندما زرناه، كان قد تم ترميم جزء منه. وهذا المعبد يمثل إنشاء فريدا يختلف تماما عن كل المعابد المصرية القديمة، فعندما تنظر إليه من بعد، يمكن أن تظنه بناء حديثا، حيث إن عمارته تبدو حديثة جدا. لكنه في الحقيقة يرجع عمرها إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة عام مضت! والمعبد مدرج، على ثلاثة مستويات، وله ثلاث شرفات كبيرة منحوتة في الجبل نفسه. ويؤدى طريق منحدر في المحور المتوسط للمبنى إلى المستوى الثالث. وأروقة الشرفات الطويلة محمولة على أعمدة مربعة، اختير طولها المتساوى بعناية- فيوجد ١١ عامودا على كل جانب من المنحدر. وكل شيء في المعبد متناسب تماما، وسهل، ومضيء، وجميل ومتناسق. فهو مختلف تماما عن الضخامة الموجودة في الكرنك. هل هذا يرجع إلى فضل حتشبسوت نفسها، أم إلى مهندسها وحبيبها "سنموت"؟ من يستطيع الآن أن يدلنا؟ لكن النتيجة كانت غير عادية وجذابة. ويمكن الإحساس بذلك حتى في عصرنا هذا. وفي الماضي، كانت الشرفات الواسعة عبارة عن ساحات، وفي الوقت نفسه حدائق معلقة. بالتأكيد كان المنظر جميلا جدا.

لكن معاصرى حتشبسوت لم يتمكنوا من الاستمتاع بهذا الجمال طويلا. ومن غير المعروف كيف ماتت الملكة؟ كما لم يعثر على موميائها. وحرص تحتمس الثالث، الذى أصبح أنجح محارب بين كل الفراعنة المصريين، والذى وصل أخيرا

إلى السلطة، على إزالة أى أثر لحتشبسوت. فتم تدمير كل تماثيلها، وأزيل كل ما كان يذكر بها على جدران المعابد، حتى أن مسلاتها المقامة فى الكرنك أخفيت عن الأعين ببناء حوائط حولها. كما لم يهمل تحتمس الثالث معبد حتشبسوت الجنائزي، فقد أزيل وجهها من الرسومات البارزة والزخارف.

ولم نتمكن من الدخول إلى الشرفة العليا؛ لأنه كانت تجرى بها ترميمات، لكنى فيما بعد شاهدت فى أحد الكتب صورة لأحد تماثيل حتشبسوت التى سلمت هناك. وقياسا على هذا التمثال، لقد كانت جميلة. لكنها لم تكن ابنة عصرها، فلم تستغل المعبد التذكارى لتمجيد حكمها، وتأكيد حقها فى أن تقوم بدور فرعون. وكانت الرسوم البارزة التى شاهدناها على جدران الرواق الثانى مخصصة لهذا الغرض بالذات. فإذا كان الفراعنة الرجال يركزون أساسا على تخليد معاركهم الحربية، فإن حتشبسوت قد اختارت موضوع السلام الدائم، فصورت تنظيم حملاتها البحرية إلى بلد "بونت" (كانت هذه البلد تقع فى مكان الحبشة أو الصومال حاليا). فكل الجانب الأيسر من الرواق يبين بالرسوم البارزة والكتابات كيف سافرت المراكب؟ وكيف عامت فى البحر الأحمر؟ (كان اسمه مختلفا عند قدماء المصريين) وكيف اندهش سكان بونت من القادمين؟ ثم كيف عرضوا عليهم بعد ذلك شراء البضائع المختلفة منهم؟ وكيف عادت المراكب؟ وكيف قدمت حتشبسوت لآمون مختلف الهدايا؟ وكان المصريون يجلبون من بونت العاج والبخور والتوابل والبهارات ومختلف الأخشاب فى براميل، والقرود والكثير من الأشياء الأخرى.

أما الجانب الأيسر من الرواق، فكان مخصصا لتأكيد ألوهية أصول حتشبسوت. ففى البداية، يوجد رسم لاجتماع الآلهة الذى تقرر فيه ولادة حتشبسوت، ثم كيف دخل الإله آمون حجرة نوم أم حتشبسوت وقام بتحبيل بريء للفتاة؟ ثم رسم يوضح الأم الحامل الفخورة، ثم كيف يحوم الآلهة المعنيون حول الوالدة؟ ثم أخيرا كيف ظهرت فى الحياة بنت السماء حتشبسوت؟ التى قدر لها

مسبقا أن تحكم البلد. لكن للأسف امتدت الأيدى المعادية للملكة إلى هذه الرسوم أيضا، حيث محت وجهها من كل مكان.

وقد شاهدنا أيضا على عجالة حجرات المعبد المخصصة للإلهة "حتحور" وللإله "أنوبيس"، وهى موجودة على جانبى الشرفة، ثم ذهبنا على عجالة لزيارة المكان التالى المسمى "رامسيوم"، أو الأصح، ما بقى من المعبد الذى كان عظيما فى الماضي، والذى بناه رمسيس الثانى. وهنا أيضا تبين أن هذا الفرعون بقى وفيا لشغفه بالأحجام الضخمة. فالأعمدة ضخمة، وما تبقى من أجزاء تماثيل فرعون يعطى انطباع الضخامة. حيث كان ارتفاع أحدها ١٧.٥ م، ووزنه ١٢٠٠ طن. والمهم فى الأمر هو أن هذا التمثال تم نحته من قطعة واحدة من الجرانيت، لكنه رغم ذلك لم يبق كما هو. عامة، بقى لدى انطباع "فوضى ما" من الرامسيوم، فقد كانت توجد كتل حجرية، وبقايا تماثيل، وأحجار فقط فى كل مكان. فعلى سبيل المثال، من التمثال التذكارى لفرعون، بقى هناك جزء راقدا على الأرض يمثل "الصدر الضخم، والوسط، والرجل واليد". لكن أدهشتنى ضخامتهم. ويعتقد أن الفرس أسقطوا التمثال، وهشموه فى أثناء حملتهم على مصر.

ذهبنا بعد الرامسيوم لزيارة تماثيل "ممنون" الضخمة. وقد أطلق عليها اليونانيون هذا الاسم. أما الحقيقة، فهى أن هذه التماثيل تمثل فرعون الأسرة الثامنة عشرة "أمنحتب الثالث" جالسا على العرش. وهذا هو كل ما تبقى مما يعتقد أنه أكبر معبد جنائزى فى هذا الموقع. وكانت تقف تماثيل أمام صرحه الأول، وكان حجمها ضخما، حيث يبلغ الارتفاع ١٦.٦ م، والقاعدة ١٨م. وقد تم تشييدها فى عام ١٤٠٠ ق. م. وقد قضمهم – نتيجة عوامل التعرية وتغيير المناخ- فعلا كل من الزمن والرياح، فلا يمكن العثور على أى جزء منها سليما. لذلك فإن مظهرها بشع. لكن السائحين القادمين إلى الأقصر دائما يزورونها، رغم أنهم لا يبقون طويلا بجانبها. ونحن أيضا لم نبق طويلا، فقد كنا على عجل لزيارة وادى الملوك، وهو آخر ما خططنا لزيارته فى الأقصر.

مقابر الفراعنة: تمجيد الإيمان بالحياة بعد الموت

"شمبوليون" هو من أطلق اسم "وادى الملوك" على هذا المكان الموجود على الهضبة الليبية، الذى يضم مقابر فراعنة الأسر "الثامنة عشرة، والتاسعة عشرة، والعشرين". وكان فراعنة "طيبة" لا يبنون لأنفسهم أهراما ومصاطب، بل مقابر فى كهوف اصطناعية، محاولين إخفاء مومياواتهم فى أعماق الجبال، على أمل أن يوفروا لها أقصى درجات الأمان من غزوات اللصوص. وكان يحفر فى الجبل سرداب أفقى بدرجات تقود إلى أسفل، وممرات منحدرة، وقاعة تتصل بها عدة حجرات صغيرة- عبارة عن مقبرة بها تابوت، وتتصل بها حجرات لتخزين كل ما قد يحتاجه فرعون فى عالم الموتى، أو بعد عودته للحياة من بين الموتى. وقد تم اختيار مكان المقابر الجبلية أمام طيبة تماما، وشيد الفراعنة معابدهم الجنائزية بالقرب منها فى السهل، على الحدود بين الصحراء وأرض النيل الخصبة.

بعد مائتى متر، من موقف السيارات عند مدخل وادى الملوك، وجدنا أنفسنا عند أول مقابر. وقبل متابعة الحديث، ما معنى "أول"؟ الآن، أصبح مدخلها مقفولا بشبكة من السلك، وموضوع على كل منها رقم المقبرة واسم الفرعون صاحبها. وقد وضع الترقيم الإنجليزى "ويلكنسون" فى عام ١٩٣٠، وبقى حتى يومنا وزاد كلما اكتشفت مقابر جديدة فى الوادي. لقد أصبح عددها الآن ٦٢. لكن المقابر الملكية تمثل منها ٢٤ فقط، أما باقى المقابر فللأقارب والمقربين. بالطبع، كان الترقيم مثل لعبة النطة. يعد أن أول فرعون بنى لنفسه مقبرة فى وادى الملوك هو "تحتمس I"، وتحمل مقبرته رقم ٣٨. أما مقبرة ابنته – الفرعون "حتشبسوت"، فتحمل رقم ٢٠. أما مقبرة رمسيس الأول، الذى عاش فى فترة لاحقة بعد زمن طويل، فتحمل رقم ١٦، أما رمسيس التاسع فتحمل مقبرته رقم ٦... إلخ. لقد حدثت هذه اللخبطة أيضا من وجهة نظر مكان المقابر، فتتجاور مقابر لأرقامها بعيدا تماما عن بعضها البعض. لذلك إذا لم يكن معك خريطة، مع توضيحات تبين أين دفن كل فرعون، فسوف تستغرق وقتا طويلا فى البحث عن المقبرة التى تريدها.

وقد شاهدنا كثيرا فى القاهرة، فى المتحف المصرى، كنوز مقبرة فرعون الأسرة الثامنة عشرة "توت عنخ آمون"، لذلك قررنا أن تكون بداية زيارتنا بهذه المقبرة بالذات. وقد اكتشف مقبرته الأثرى الإنجليزى "هوارد كارتر" فى عام ١٩٢٢، بعد اكتشاف كل المقابر الأخرى. وهى تحمل رقم ٦٢. ولحسن الحظ كانت قريبة. لكن تبين أننا لسنا وحدنا الأذكياء، فقد كان يوجد طابور أمام مدخلها، واضطررنا للوقوف فيه. وكان من الجيد أنه كان يتحرك بسرعة كافية؛ لأن مقبرة هذا الفرعون، الذى جلس على العرش فى عام ١٣٥١ ق.م، وغادر الحياة مبكرا، كانت إحدى أصغر المقابر فى الوادي، ولم تكن تتطلب رؤيتها وقتا طويلا. وكان فراعنة طيبة، مثلهم مثل من سبقهم، يبدءون فى بناء مقابرهم ومعابدهم الجنائزية بسرعة بعد جلوسهم على العرش. ومن هنا، يمكن أن نلاحظ قاعدة: فكلما طالت مدة حكم فرعون، كانت مقبرته أطول وعمارتها أصعب فى وادى الملوك، وكانت أغنى وكانت زخارفها أكثر. ومن سخرية القدر أن أقصر المقابر كانت هى أكثرها أمانا، فقد كانت هى الوحيدة فى وادى الملوك التى لم تصبح فريسة للصوص. لذلك فإن عندنا الآن تصورًا كاملاً عن طريقة دفن الفراعنة، وعما كان يوفر لهم من أجل الحياة بعد الموت.

وبالطبع، يمكن فقط بعد زيارة المقابر الأخرى، وبعد المقارنة، تقدير مدى تواضع مقبرة الفرعون الشاب؛ فيوجد بها سلم واحد منحدر جدا، وممر واحد غير طويل، وقاعة صغيرة. وكل هذه الحجرات خالية من أية رسوم أو أشكال منحوتة. ويمكن افتراض أن "توت عنخ آمون" كان أكثر من تأخر فى بناء مقبرته. وجدران حجرة الدفن هى وحدها المزينة بالرسوم، ويوجد فى وسطها تابوت كبير جميل مصنوع من حجر الكوارتز الأحمر. والتابوت موجود الآن دون غطاء، وواضح فيه جيدا الجزء العلوى من التابوت الذى يلمع من الذهب، والمعروف بسبب كثرة ما نشر عنه. وكما هو معروف فإن مومياء فرعون كانت راقدة فى ثلاثة توابيت، يوضع الواحد داخل الآخر كالعلب تماما. وكان الأول مصنوعا من الذهب الخالص

(وكانت المومياء ترقد بداخله). أما الثانى والثالث، فكانا مصنوعين من الخشب المنحوت، وكانا مغطيين برقائق الذهب. والاثنان الأولان موجودان الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة، أما هنا فى المقبرة فيوجد التابوت الخارجي، الذى ترقد فيه المومياء حاليا. وعندما فتح كارتر التابوت، رأى بعينه هذا التابوت الثالث بالذات.

وكل القطع الأثرية التى بلغت خمس آلاف وخمسمائة قطعة - التى عثر عليها فى مقبرة توت عنخ آمون - موجودة الآن بالمتحف المصرى. لذلك فإن حجرات المقبرة فارغة، ويمكن أن يكون هدف اهتمام الزوار هو التابوت الحجرى نفسه والتابوت الخشبى وجدران المقبرة. وبغض النظر عن حجمه، فإن التابوت مبهر، حيث إنه مزخرف عند أركانه بأشكال منحوتة عبارة عن أربعة آلهة جميلة تحمى محتويات التابوت بأجنحتها. وتشغل مجموعات كبيرة من الزخارف كل جدران المقبرة الأربعة، وهى تبين كيف قام أقرباء فرعون بتوديع جسده، وكيف تقام الطقوس الرمزية لعملية "فتح ثغر" الميت؛ حتى يستطيع أن يتنفس، ويتكلم، ويأكل، وكيف يتعامل فرعون مع الآلهة وهو يرتدى ملابس كاملة بيضاء. وخلفية الجدران مذهبة، وهو ما يعطى القاعة الصغيرة جمالا أكثر. وتبدو كل الألوان كأنها حديثة جدا. لقد بقيت لمدة ثلاثة آلاف وثلاثمائة عام فى ظلام دامس ولا تزال محافظة على شكلها بصورة ممتازة. كم ستبقى بعد ذلك، عندما يدخل المقبرة كل عام مئات الآلاف من الأشخاص؟ غالبا لا يمكن أن يقول ذلك أحد.

وبعد توت عنخ آمون، ذهبنا على عجالة إلى الفراعنة الآخرين. ولم تكن كل مقابرهم مفتوحة للزيارة، لأسباب مختلفة، لكن كان مصرحا بالدخول كل يوم إلى دستة منها، تقريبا. لكن قمنا بزيارة بعضها فقط لضيق الوقت، وفى الزيارة التالية للأقصر تمكنت من زيادة عددها. ولذلك فيما يلى، أقدم ببساطة إجمالى انطباعاتى، حتى لا أعود مرة أخرى لتناول موضوع وادى الملوك.

عامة، يمكن أن أقول إن كل المقابر الصخرية مبنية بالتخطيط نفسه. فإذا كان يمكن قبل ذلك متابعة تطور المقابر من مصطبة إلى هرم مدرج ثم هرم حقيقي، فإن شكل المقبرة الصخرية يبدو كما لو كان قد وجد فورا. وبعد ذلك يمكن ملاحظة تغيير واحد فقط غير أساسي. فإذا كان أوائل فراعنة الأسرة السابعة عشرة فضلوا وضع حجرة الدفن على زاوية ٩٠ درجة من السرداب المحفور، فإنهم غيروا ذلك فيما بعد، وأصبحوا يضعون حجرة الدفن على نفس محور السرداب والدرجات الموصلة لها. وفى الوقت نفسه، فإن كل مقبرة لها شكلها الفريد بشكل خاص.

وقد يكون ذلك، لأنه بعد دفن الفرعون كانت تقفل غرفة الدفن، كما كانت المقبرة تسد وكان يمنع دخولها. ورغم أن كل فرعون جديد كان يتبع القانون الجنائزى العام الذى وضعه الكهنة، فإن كلا منهم كان ينظم شيئا ما فى المقبرة بطريقته. فقد كان يمكن أن تكون غرفة الدفن، التى يوضع فيها التابوت، بيضاوية الشكل، كما عند تحتمس الثالث، أو مستطيلة كما فى معظم المقابر. كما كان من الممكن أن تكون داخلها أعمدة مربعة، تتراوح أعدادها ما بين "اثنين، أو أربعة، أو ستة، أو ثمانية"، أو بدونها تماما. كما أن أسقف الحجرة كان يمكن أن تكون مستوية أو مقوسة إلى أعلى، مثلما فى مقبرة سيتى الأول، أو فى مقبرة رمسيس السادس. وقد تفاوتت المقابر تماما من حيث مقاس الحجرات، ومن حيث طول الدرجات، والممرات، والقاعات. فعلى سبيل المثال، يبلغ طول مقبرة رمسيس الثالث ١٢٥م. ولكى تصل إلى غرفة الدفن، يجب بعد درج طويل أن تمر من ثلاثة ممرات أخرى، وقاعة أعمدة، وممر آخر وقاعة. كما يمكن أيضا أن تختلف أعداد الحجرات المتصلة بغرفة الدفن؛ وذلك لحفظ أمتعة الفرعون.

وكان يوجد فى معظم المقابر التى زرتها، بئر عميقة تقطع أحد الدهاليز. وكانت تحفر هذه البئر لأحد سببين. أولا: لقطع الطريق على اللصوص، أما السبب الثانى: فقد يكون مرتبطا ببعض الطقوس المتعلقة بمملكة ما تحت الأرض. وكان

المرشدون يحكون عن الاختيارين. وكانت توجد مثل هذه البئر (أو بئر الطقوس) - كما يطلق عليها - فى مقبرة رمسيس الثالث، التى أشرت إليها أعلاه. ويعبر السائحون هذه العوائق فوق كبار أقيمت أعلاها. وكانت الممرات مثل الحجرات كبيرة بدرجة كافية من حيث المساحة والارتفاع، بحيث يمكن السير فيها كلها دون انحناء.

ما الذى كان يجذب الناس إلى وادى الملوك إذا كانت كل المقابر قد نهبت منذ عهد الفراعنة، فيما عدا مقبرة توت عنخ آمون؟ غالبا، قبل كل شيء، حب استطلاع الإنسان، خاصة فيما يخص كل ما هو قديم. حتى أن اليونانيين كانوا قد وضعوا "المسارات السياحية" فى وادى الملوك، ثم بعد ذلك الرومان الذين تركوا على بعض جدران المقابر علاماتهم. وقد أيقظت حملة نابليون إلى مصر، مرة أخرى، الاهتمام بها. وبعدها كان يحضر إلى هناك العلماء، والأثريون الذين يتعلمون بأنفسهم، وكذلك المغامرون. وكان كل منهم يرغب فى اكتشاف مقبرة غير معروفة. وقد نجح بعضهم فى ذلك، لكن كارتر وحده سعد بالعثور على مقبرة لم يتم نهبها.

أما الآن، فإن الثراء الرئيسى للمقابر يتمثل فى الرسوم والنصوص الباقية على جدرانها، حيث إنها يمكن أن تمد علماء المصريات بالكثير. والآخرين؟ بالنسبة للبسطاء، فيكتفون بالاستمتاع، أولا، بمعرفة أنهم تمكنوا من التواجد فى وادى الملوك، وأنهم رأوا بأم أعينهم مقابر الفراعنة. ثانيا، أنهم شاهدوا الرسوم والصور البارزة التى تزين المقابر، رغم أنهم لا يفهمون كثيرا فيها.

وقد كان البناة المصريون يغطون أسطحها وأسقفها بطبقة من المحارة، التى كانت تبيض بعد ذلك بمحلول الجبس. وكانوا ينقشون عليها بعد ذلك بالطلاء الرسوم والرموز الهيروغليفية. وكانوا أحيانا يبدءون من عند مدخل المقبرة تماما، ويملؤون بها الجدران والأسقف والأعمدة. كما يوجد نوع آخر من الزخارف، وهى الرسوم البارزة. وكانت تحفر الرسوم مباشرة على الحجر، ثم يقوم الفنانون بتلوينها

بعد ذلك. وفى هذه الحالة، كانت كل مجموعة الزخارف بالمقابر الملكية موجهة كلها لهدف واحد فقط، وهو تسهيل رحلة فرعون فى عالم الأموات، بحيث يصل بسلام إلى مملكة أوزوريس، حيث كان ينتظره الانضمام إلى الألوهية العليا. وكانت تمثل كل من النصوص والرسوم "برشامة مفصلة" لفرعون؛ لكى يعرف ما يجب عليه عمله، وبأى ترتيب يجب القيام به أثناء رحلته الصعبة، ومن ناحية أخرى، كان ذلك "صك حماية". ومن ناحية ثالثة، كان ذلك إحدى أنواع القراءة والكتابة المحفوظة، حيث إنه لم يغفل أى من الآلهة فى النصوص ولا الرسوم، كما لا يوجد ما يغضب أيا منهم، فقد تم تقديم التبجيل اللازم لهم مسبقا. فقد كانت طقوس تبجيل فرعون لكل من "أوزوريس، إيزيس، حورس، أنوبيس، توت، هاتور" وباقى الآلهة المعنية والمذكورة من الموضوعات الأساسية للرسوم والنقوش البارزة فى المقابر الملكية.

ويوجد اختلاف كبير عن المعابد الموجودة على الضفة اليمنى - الكرنك والأقصر- والمعابد الجنائزية الموجودة على الجانب الأيسر، التى مجد فيها الفراعنة أنفسهم، ورفعوا من شأنهم بكافة الطرق، فالرسوم والنصوص التى فى مقابر الفراعنة تعبر عن التواضع، حيث لا توجد فيها أية إشارة بسيطة عن الكيفية التى عاش بها الفراعنة، وأية أعمال عظيمة قاموا بها. كما لا يوجد بها أى شىء عن السيرة الذاتية أو الأعمال العظيمة التى قاموا بها، والمأخوذة من الحياة الفعلية لفرعون ما. ففى كل مكان توجد فقط مواضيع دينية. وهذه الحقيقة فى حد ذاتها لا تخلو من الإثارة رغم أنها مخففة بوجود النفائس التى كانت محفوظة فى غرف الدفن، وفى الحجرات المجاورة لها (ففى مقبرة توت عنخ آمون وحده، كان يوجد ١.٢ طن من الذهب. فكم كان يجب أن يوجد فى مقابر الفراعنة المشهورين، مثل "تحتمس الثالث ، سيتى الأول، رمسيس الثانى"؟).

ورغم أن موضوع الديانات الفرعونية القديمة ورمزيتها المعقدة لا تقول شيئا للإنسان الحديث، فكان من الشيق جدا مشاهدة الرسوم والنقوش البارزة، حتى

لو لم تدرك معناها. وكانت جودة التنفيذ الفنى مختلفة، لكن المستوى العام كان عاليا جدا. لذلك فحتى من هذه الناحية، فإن المقابر الملكية قد حفظت جيدا كمتاحف فنية.

وكان نادرا ما يمكن مشاهدة أشياء مثيرة، لكنها كانت موجودة. وأقدم مثالين على ذلك: فى مقبرة سيتى الأول – الذى حكم فى الفترة من ١٣١٣ إلى ١٢٩٨– وفى قاعة بها أربعة أعمدة، يوجد رسم يمثل عملية الدفن، يظهر به ستة عشر شخصا يسيرون خلف تابوت فرعون. وكان كل أربعة منهم يمثلون جنسا محددا كما ميزه قدماء المصريين. فأولا، يسير فى الأمام أربعة من المصريين أنفسهم. وهم كبار وأجسامهم متناسقة وجميلة. ثم خلفهم، أربعة من الآسيويين، عيونهم ضيقة، ولهم ذقون مدببة وأنوف محدبة، ثم أخيرا، أربعة من الشقر البيض ذوى العيون الزرقاء، يلبسون جلود خراف، ويضعون ريشا فى شعرهم. بذلك، يمكن افتراض أن المصريين كانوا يتصورون الأوروبيين، وقد يكونون غير مخطئين؛ فقد كان أجدادنا يغطون أجسادهم بجلود الحيوانات، بالذات منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام.

وها هما رجلان يرتديان ملابس بيضاء، ويلعبان على "الهارب"، مرسومان فى مقبرة رمسيس الثانى. وشكل آلة الهارب يبدو حديثا تماما، وحركات أيدى العازفين القدماء مماثلة تماما لما يجب أن تكون عليه لعازفى الهارب فى العصر الحديث. فعلى سبيل المثال، لم أكن أعرف أنه كان يتم العزف على الهارب فى مصر القديمة. وبالطبع، يتوقف الكثير على مستوى معرفة أو تخصص أى شخص. وعلى الأرجح، سوف تثير أسقف بعض المقابر اهتمام المتخصصين فى الفلك، حيث يعبر فيها عن تصورات قدماء المصريين عن ترتيب النجوم والأبراج الفلكية ومعناها للإنسان. وأنا هنا، لم أشر إلى من وهبوا أنفسهم لدراسة الأديان وأصولها، والعلاقات بينها وبين بعضها. فهنا، تمثل المقابر الملكية مخازن لمختلف

المعلومات. وعلى أية حال، فإن وادى الملوك يستحق أن تتعرف عليه حتى لو بصورة عامة.

وكان كثيرا ما يردد فى سفارتنا مثل يقول: "من لم يذهب إلى الأقصر، لم ير مصر". وفى الغالب ظهر هذا المثل عندما كان يعمل فى مصر آلاف من الخبراء السوفييت، وكانت ترتب لهم فى ذلك الوقت رحلات إلى الأقصر، من أسوان ونجع حمادى والقاهرة. وتغير الزمن، لكن المثل بقى. وأصبح "لا يزور الأقصر إلا المحظوظون". لكن يدوى هذا المثل الآن بشكل آخر، عندما أصبحت تصل إلى مصر أفواج من الروس للاستجمام. بالطبع، لا تمثل الأقصر واجهة لمصر الحديثة، لكنها تتحدث على أحسن وجه عن مصر العظيمة فى الماضي.

فى أسوان: على السد العالى وفى المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء

سافرنا من الأقصر إلى أسوان فى ثلاث سيارات، حيث انضم لنا الدكتور "فاروق" لقيادة قافلتنا. وقد تحركنا فى البداية على الضفة الشرقية، ثم انتقلنا عبر كوبرى إلى الضفة الغربية، ووصلنا بعد عدة ساعات، تقريبا بلا توقف، إلى مكان هدفنا. وبقيت مدينة أسوان خلفنا على الضفة المقابلة (اليمنى)، حيث إن السد يبعد عنها بسبعة كيلومترات.

وقد رأينا بقعة صغيرة مضيئة من على بعد كبير. وكانت تكبر تدريجيا وتمتد إلى أعلى، إلى أن تحولت إلى بناء جميل يصل ارتفاعه إلى ٧٦ م، ويمثل زهرة لوتس متفتحة. وكان هذا هو النصب التذكارى للصداقة "السوفييتية-المصرية"، الذى شيد عند أول السد. لقد تم بناؤه على هيئة أوراق ضخمة مدببة لزهرة اللوتس، تقف منفصلة فى دائرة ومثبتة على حلقة كبيرة يبلغ ارتفاعها خمسين مترا. وفى الأسفل، توجد لوحة من المرمر الأبيض مرسوم عليها شعارى الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية، ويقارب ارتفاعهما ارتفاع الإنسان. كما كتبت فوقهما أقوال لناصر باللغتين العربية والروسية. وقد وضعت صورة

للسادات فوق الرمز المصرى (وهى فى الحقيقة، غير مناسبة أبدا). وقد تم تشغيل آخر معدات بعد وفاة ناصر بعدة أشهر- أى فى عهد السادات - لكن لم يكن للأخير أية علاقة مباشرة ببناء سد أسوان. لكنه قرر تخليد نفسه، حيث إن السد سيبقى ما لا يقل عن خمسمائة عام، طبقا للحسابات.

وقد استقبلنا ممثلو محافظ أسوان وإدارة محطة توليد الكهرباء الهيدروليكية عند السد. فبدأت الأحاديث والمشاهدة فورا. وقد تمت الأخيرة من على الحلقة، حيث أوصلونا بمصاعد. وكان المنظر العام حولنا يظهر من هناك تماما. وبدأنا من الجانب الشمالى الذى حضرنا منه. وكان يظهر جيدا كيف يخترق النيل الكتل الصخرية، مكونا الكثير من الجنادل والجزر. وكان ذلك يسمى "جندل النيل الأول". وكانت توجد عدة جنادل أيضا بعد ذلك فى النوبة. وكان الجندل الأول كأنه يحدد فى الماضى الحدود الجنوبية لمصر. وبعدها، كانت توجد الأراضى التى كان ينظم الفراعنة حملات إليها؛ بحثا عن العبيد والعاج والثروات الأخرى. ويزيد عمر مدينة أسوان عن ألف عام، لكنها بقيت عدة قرون فى حالة سبات، إلى أن بدأ المصريون بناء سد بجانبها (ليس هذا السد، لكنه سد آخر يبعد الآن عن السد العالى بستة كيلومترات). ولقد تم بناؤه فى الفترة من ١٨٩٨ إلى ١٩٠٦، ثم أكمل بناؤه على مرتين (كانت الأخيرة فى الفترة من ١٩٢٩-١٩٣٣). لكن لم يحل هذا السد مشكلة المستوى الثابت لتدفق مياه النيل، وتكوين الاحتياطى المطلوب منها. لذلك ظهرت فى فترة حكم الملك "فاروق" فكرة بناء سد عال. لكن تحول المشروع إلى واقع فقط بعد ثورة عام ١٩٥٢. وتغيرت مدينة أسوان منذ ذلك بشكل كبير، فقد نمت وأصبحت أجمل. وبنيت بجانبها عدة شركات صناعية. وزاد عدد سكانها عن ٢٠٠ ألف.

وبقدر ما كان كل شيء فى الشمال يبدو جذابا، كان كل شيء فى الغرب مملا وخاليا من الحياة، حيث كانت توجد سلسلة من الجبال المنخفضة العارية، ورمال الصحراء الليبية. أما فى اتجاه الجنوب، فكان يظهر البعد الذى لا مثيل له

من خزان الماء ذى اللون الأزرق، الذى يبتعد إلى أعلى النيل ٥٠٠ كيلومتر. وهذه هى بحيرة "النصر"، وهى عبارة عن مخزون ضخم من المياه، يسمح بالتحكم فى الفيضان السنوي، ويضمن حماية المصريين من الجفاف، وكذلك من الفيضان. وحتى فى أثناء بناء السد، قام بحماية مصر مرتين من الكوارث، ففى عام ١٩٦٤، حماها من فيضان مدمر، أما فى عام ١٩٦٧، فقد حماها من جفاف مدمر أيضا. وكان أكثر ما يثير اهتمامنا يقع فى الاتجاه الشرقى من النصب، حيث كان يوجد السد العالى نفسه والمحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء.

وكنت قد درست بإمعان الكتاب المميز "مذكرات مهندس بناء"، الذى كتبه "ج.أ. سوخانوف"، وهو أحد الرؤساء من بناة المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء وسد أسوان العالي. وكان هذا الكتاب معى فى هذه الرحلة، لذلك كنت مستعدا لتقبل أن السد العالى لا يبدو عاليا أبدا من منصة المشاهدة على النصب التذكاري؛ فلم تظهر أية حوائط خرسانية رأسية ترتكز داخل الماء، وتجبر قلبك على أن يدق بسرعة من فكرة: "هل تستطيع المياه أن تخترق هذا البناء الضخم؟". والسد مقوس الشكل، وهو مقعر فى اتجاه البحيرة، وينخفض جسم السد المصنوع من الخرسانة بميل سلس تماما من عند قمته على كلا الجانبين. وهنا يرقد سر قوة وأمان السد. ويبلغ عرض السد عند قمته ٤٠ مترا، وعند القاع ٩٨٠ مترا، أى تقريبا كيلومترًا. ويبلغ الطول عند القمة ثلاثة كيلومترات، والارتفاع ١١١ مترا، لكن ثلثى ارتفاع السد تحت الماء. لذلك يوجد انطباع خادع أن السد ليس عاليا جدا. لكن هذا غير صحيح، لأنه بكل المعايير عال، لكن تم بناؤه على شكل هرم ضخم طوله ممتد. ولإعطاء فكرة عن ضخامة حجم جسم السد، يكفى أن نقول إن إجمالى حجمه يعادل ١٧ مرة هرم خوفو. فقد وضعت فيه ١٠٠ مليون طن من الجرانيت والمواد الأخرى.

ولم يكن من الممكن أن نطيل بقاءنا على منصة المشاهدة على النصب التذكارى، فقد قيل لنا إنه توجد مجموعة ثانية من المستقبلين فى منتصف السد.

فوصلنا بسرعة إلى منتصف السد على الطريق العريض الذى يمتد على قمته. وشاهدت وجهين مألوفين بين المستقبلين، كنت قد رأيتهما فى حفل الاستقبال الذى أقمناه فى ٧ من نوفمبر. كان أحدهما "الدكتور شمس" رئيس شركة الحراريات المصرية، وزوجته الروسية "مارجريتا جيورجيفنا". لقد صاحبانا طوال باقى رحلتنا. وكانا شخصين رائعين. وبفضلهم عرفنا الكثير أثناء رحلتنا، مما لم نكن سنعرفه لو كنا وحدنا. وقد استمرا يحكيان لنا على قمة السد الروايات المتعلقة بخصائص ومراحل البناء. وحرصا على أن نرى هنا كيف وفرت الحماية من تغلغل المياه من تحت جسم السد. وقد تم ذلك بحفر المئات من الآبار إلى عمق ١٧٠ مترا، وتم ضخ الخرسانة الممزوجة بالطين إليها. وبذلك تكون حاجز سميك وقوى لدرجة كبيرة، مانع لتغلغل المياه أمام واجهة السد بالكامل. ثم فقط بعد ذلك، تم بناء جسم السد نفسه فوقه. وكان هناك إحساس تام بضخامة السد، عندما كنا نشاهد على التوالى، من فوق السد، كلا من خزان المياه، ثم النيل، ومدينة أسوان.

وكانت المحطة التالية عند الطرف الشرقى للسد، حيث حفر البناة فى صخور الجرانيت الطبيعية، وبطول كيلومتر ونصف، قناة صرف عمقها ٨٠ مترا، وعرضها أكثر من ٦٠ مترا. وركبت فى الصخور عتبة طولها ٢٠٠ متر، ومحفور فيها ٦ أنفاق، يبلغ قطر كل منها ١٥ مترا. وتدخل مياه النيل من خلالها تحت ضغط رهيب إلى ١٢ تربينة بالمحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء.

وقد تم الجزء الأخير من رحلتنا داخل مبنى المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء. وفى البداية، رافقونا عبر قاعة الآلات من بدايتها إلى نهايتها، وهى عبارة عن قاعة ضخمة مرتفعة مضاءة جدا. كانت مركبة فيها، فى العمق، ١٢ حاوية اسطوانية مرتبة فى صف واحد، حيث كانت تدور التربينات المولدة للكهرباء تحت ضغط المياه بسرعة رهيبة. وقدرة كل تربينة تمثل ١٧٥ ألف كيلووات. وبذلك فإن إجمالى قدرة المحطة يعادل ٢,١ مليون كيلووات، مما يسمح بإنتاج كمية من الطاقة الكهربائية تصل إلى ١٠ مليارات كيلووات ساعة فى العام.

ماذا يعنى ذلك لمصر؟ عندما كانت المحطة جديدة تماما، كانت تعطى ضعف الطاقة التى تنتجها كل محطات الكهرباء الأخرى فى مصر. وبعد ذلك، تغيرت هذه النسبة، حيث تم تشغيل قدرات جديدة كثيرة، لكن كانت حصة المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء فى أسوان، أثناء وجودى فى مصر، تمثل ٤٠% من الإجمالى، وهذا يعنى أن هذه المحطة للكهرباء لا تزال أساسا للاقتصاد المصري. وكانت خطوط نقل الكهرباء عالية الجهد تمتد من أسوان إلى كل من "القاهرة، الإسكندرية، السويس، المدن الأخرى".

لكن الأهم كان يوجد فى طابق تحت مكان عمل التربينات بطابق واحد. وقد نزلنا إلى هناك على سلم ضيق معدنى، يماثل سلالم السفن، فوجدنا نفسنا فورا فى عالم آخر، عالم مزيج من الضوضاء، والصفير، والسرعات العالية، والاهتزازات الخفيفة للأرضية الحديدية، والكثير من مختلف أجهزة وآليات التحكم. وكان من الصعب هنا فهم صوت الإنسان. فشاهدنا فقط هذا المكان، وكنا نتفاهم بالإشارات فقط. وبما أن كل التربينات كانت متماثلة، فقد كان من الكافى أن نتعرف على إحداها فقط.

وفى النهاية، قابلنا رئاسة المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء فى مبنى الإدارة. وقد سمعت الكثير من كلمات العرفان بالجميل موجهة لبلدنا؛ للمساعدة الضخمة فى إنشاء سد أسوان، والمحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء. وفعلا كان هناك ما يمكن توجيه الشكر عليه. فكانت أعمال المشروع قد تمت فى المعهد السوفييتى الشهير لتخطيط المشاريع "جيدرو برويكت، المسمى باسم س.ي. جوك". وقد اعترفت اللجنة الدولية بأنه الأحسن، بالمقارنة بمشاريع الهيئات الإنجليزية والألمانية الغربية. لذلك فقد تم تنفيذه، وتم وضع الخطط الزمنية بدقة. وبدأت عملية البناء فى عام ١٩٦٠، وفى عام ١٩٦٤، تم سد النيل، وفى عام ١٩٦٩، تم توليد تيار كهربائى من أول تربينة، ثم بدأت بسرعة كل التربينات الاثنتى عشرة فى العمل. وقد نفذت مئات من المصانع السوفييتية أوامر الشغل الخاصة ببناء سد

أسوان. وكان يجب أن تحضر إلى هنا على بعد عدة آلاف من الكيلومترات، كراكات صخور خاصة من الأورال، وعشرات من الأنواع الأخرى من الكراكات، والجرارات، والقلابات الذاتية، والكثير من معدات الحفر، والمضخات، وكمية كبيرة من مختلف أنواع الهياكل المعدنية، والمعدات وأدوات العمل، وبالطبع، كل المعدات الخاصة بالمحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء، بما فيها التربينات. وقد صنعت فى مصنع "الكترسيل" بمدينة "لنينجراد". وقد أصبحت أسوان بالنسبة للسوفييت بالفعل مشروع بناء شعبى، بل أكثر – فهو مشروع قومى قد يكون أقرب وأهم من المشاريع العامة العظيمة الخاصة بهم. على أية حال، كانت هذه هى الحالة العامة والانفعال العام لديهم. كما أن هناك جانبًا آخر للموضوع، لا يقل فى الأهمية، حيث لم يغتن الاتحاد السوفييتى على حساب أسوان، بإمدادها بكل التمويل المطلوب، وبنسبة فوائد صغرى ٢.٥% فى العام. ولأمانة المصريين، فقد سددوا لنا كل القروض التى حصلوا عليها.

وكان بناء أسوان يمثل، بشكل ما، امتحانا لمصممى المشاريع والمهندسين والخبراء الآخرين السوفييت. وكان الأمريكان واثقين من أن ناصر سوف يتوجه لهم، رغم كل شيء، طلبا للمساعدة. وفى عام ١٩٥٧، أعلن سكرتير الدولة "جون فوستر دالاس" فى مجلس الشيوخ "أن السوفييت لن يستطيعوا أبدا بناء هذا السد". لكن كما نرى، فقد بنيناه بسرعة، وبطريقة اقتصادية، وبجودة عالية.

وقد سألت رؤساء المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء عن مدى رضاهم عن كيفية عمل المحطة، وهل ظهرت أية عيوب أو أخطاء؟ فأفادوا أن كل شيء ممتاز. وبالطبع، فإن كل معدة تحتاج إلى صيانة وقائية وصيانة مخططة وإحلال، خاصة إذا كانت تعمل طوال الوقت. وقد قمنا فى عام ١٩٨٣ بعملية إصلاح ناجحة لاثنتين من التربينات العاملة بالمحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء، مقابل دفع التكلفة بالعملات القابلة للتحويل. وقد كان المصريون راضين عن كيفية عمل الإصلاح. وقد وجهت سؤالا مهما عما إذا كانت هناك نية لإجراء أعمال أخرى

مماثلة، مشيرا إلى أنهم فى موسكو سوف يكونون على استعداد لدراسة إمكانية عمل ذلك. فجاء الرد بالشكر على ذلك، وأنه ليس من المخطط بعد عمل أى شيء مماثل. لكن للأسف، عرفت بعد عام واحد أن شركة أمريكية استبدلت ريش إحدى التربينات. ويبدو أنه كان هناك ضغط من "واشنطن"، عندما تم توزيع الأموال التى قدمت لمصر كمساعدة اقتصادية أمريكية لها، مع تحديد أوجه صرفها. والزمن يتغير، فيتبين لك الوضع الاقتصادى فى الاتحاد السوفييتى، وقد أصبحنا نوافق على القيام بأعمال الصيانة الوقائية المكلفة فقط مقابل مكافأة مالية ضخمة.

وقد كان وداعنا لبعضنا البعض حارا. وأحسست أن العاملين فى المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء يكنون صداقة حميمة لبلدنا، وأنهم كانوا سعداء بأن يبينوا لسفير الاتحاد السوفييتى أنهم يحافظون على المحطة فى حالة جيدة، وأن كل شيء بها يعمل كما يجب. وبزيارة المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء بأسوان، تمكنت من أن أكون تصورا عن حجم ما أضافه الاتحاد السوفييتى لمصر، الذى تم بيانه من قبل فى الكتب والمستندات، وأن أقارنه بما رأيته بعيني. وكان هذا مقنعا للغاية.

وقد خصصنا النصف الأول من اليوم للعمل، أما النصف الثانى فلرحلات التعرف على المنطقة. حيث قمت فى البداية بزيارة محافظ أسوان. فاستمعت مرة أخرى لكلمات كثيرة حسنة، وهذا ليس غريبا، حيث إن أسوان كانت مرتبطة ببلدنا أكثر من أى مكان آخر فى مصر. لقد ترك بناتنا ذكرى حسنة عنهم. ورويت للمحافظ تقييمى لحالة ومستقبل العلاقات "السوفييتية- المصرية"، وقدمت للمحافظ دعوة لزيارة "تشيرتشيك" بالاتحاد السوفييتي- وهى المدينة الأخت لمدينة أسوان.

وبعد ذلك، اتجهنا مع عائلة شمس إلى الجبال؛ لمشاهدة معالجة الكاولين، حيث إن الحديث كان يدور عن مشاركة الاتحاد السوفييتى لبناء مشاريع جديدة فى مصر لإنتاج الحراريات اللازمة بصفة خاصة لإنتاج المعادن. وقد تجولنا فى المناجم وناقشنا حجم ما يمكن الاحتياج إليه. بالطبع، لم أكن أنا الذى يناقش، بل

كان يشارك فى المناقشة شيفانكوف، الذى كان عليه إرسال الاقتراحات المقدمة بخصوص ذلك إلى موسكو، إلى اللجنة الحكومية للعلاقات الاقتصادية. كما أنه كان من المفيد لى أيضا أن أتعرف عن قرب على مجالات التعاون المتوقعة.

أما النصف الثانى من اليوم، فخصصناه لمشاهدة أسوان وزيارة جزيرة "فيلة"، التى وصلنا إليها على مركب سياحية.

إنقاذ آثار جزيرة "فيلة"

تعد جزيرة فيلة إحدى لآلئ مصر، فهى لا تبعد عن جنوب أسوان، وهى جزيرة صغيرة يقل طولها عن نصف كيلومتر، وعرضها ١٥٠ مترا. لكن تزاحمت عليها الآثار التاريخية الأحدث من آثار الأقصر والكرنك، التى تتميز بالروعة. وترجع هذه الآثار إلى عهد حكم البطالسة والرومان فى مصر، إلى تلك الأوقات التى بنى فيها أصحاب مصر الجدد، من اليونانيين ومن الرومان، معابد لأهم الآلهة المصريين، لكى يتقربوا من السكان المحليين. وعلى سبيل المثال، أليس من الغريب أن نرى رسومًا بارزة تبين كيف أن الإمبراطور الرومانى "تروبان" يقدم باحترام النبيذ للإلهة "إيزيس" ولابنها "حورس"؟ أو كيف أنه يشعل البخور أمام إيزيس وأوزوريس؟ ما الذى يمكن أن نقوله عن البطالسة المقدونيين الذين أعلنوا نفسهم فراعنة بشكل رسمي؟ وبذلك أصبحوا تابعين لديانة مصر القديمة. لقد تم بناء هذه المعابد فى ٥٠٠ سنة تقريبا - من القرن الثالث ق.م. إلى القرن الثانى الذى بعده.

ومن المثير، أيضا، عن جزيرة فيلة الحالية، أنها ليست فى الحقيقة "جزيرة فيلة"، لكنها جزيرة أخرى هى "أجيلكيا". أما جزيرة فيلة الحقيقية، التى كانت مشيدة عليها هذه الآثار، فقد اختفت تحت ماء نهر النيل. وقد حدث ذلك كما يلى: "عندما تم بناء سد أسوان الأول، أصبحت الجزيرة تغمر بالماء دوريا؛ بسبب ارتفاع منسوب المياه. وعندما تمت تعلية السد مرة أخرى، كانت القمم العليا فقط هى

الظاهرة فوق الماء، فى الجزء الأكبر من السنة. وكانت هذه المعابد ستختفى تماما تحت الماء، عند بناء السد العالي، لذلك ظهر مشروع نقل كل الأبنية من على جزيرة فيلة إلى جزيرة أخرى أعلى، مع تغيير شكل شاطئها بحيث يماثل محيط جزيرة فيلة. وقد قامت حكومة مصر بتنفيذ هذا المشروع بالاشتراك مع هيئة اليونسكو، بتمويل من حوالى عشرين دولة. وقد قامت شركة إيطالية بعملية النقل نفسها. وكان عليها، فى البداية، أن تحيط جزيرة فيلة بحاجز معدنى عازل للمياه، ثم سحب المياه، وتجفيف الجزيرة، ثم تقطيع الآثار إلى ٤٧ ألف قطعة، وتنظيفها ونقلها، ثم تجميعها مرة أخرى. وقد تم الانتهاء من هذه العملية فى عام ١٩٨٠، عندما فتحت جزيرة فيلة للزوار. ولا يمكن الإحساس بأية عيوب فيها، خاصة فى فترة الشتاء، عندما تكتسب أسوان سمة مدن الاستجمام.

وقد استغرقت الرحلة من رصيف أسوان على المركب حوالى عشر دقائق. وها نحن قد وصلنا إلى الجزيرة مع عائلة شمس، التى لم تحضر هى الأخرى إلى هنا من قبل. وكان معنا بعض المصريين، ومرشد سياحى قام بالشرح. وقد خصص أكبر معابد الجزيرة لإيزيس، ابنة إله الشمس رع، وابنها حورس. وترجع عبادة إيزيس إلى زمن ما قبل التاريخ، كما أنها كانت قوية فى هذه المنطقة بصفة خاصة؛ لأن النوبيين، هم أيضا، كانوا يبجلون "إيزيس" بصفة خاصة. وطبقا للأسطورة المصرية، فقد أحبت "إيزيس" أخاها وزوجها "أوزوريس" بشدة. لكن قتل أخوهما الآخر "ست" – إله النزاعات والعواصف – "أوزوريس"، ووزع جسده على كل مصر. لكن تمكنت إيزيس من العثور على كل أجزاء جسده، وجمعتها مع بعضها، وأعادت لأوزوريس الحياة مرة أخرى لفترة قصيرة؛ لكى تحمل منه. وبعد ذلك، دفنت زوجها فى معبد أبيدوس الذى عرفناه من قبل. واختبأ الابن حورس (جور) من ست فى دلتا نهر النيل على هيئة صقر. وعندما كبر انتقم من قاتل أبيه. وكانت تعتبر "إيزيس" أو "إيزيدا" إلهة الإثمار وحامية الموتى. لذلك احتلت مكانة بارزة بين المجموعة العامة للآلهة المصرية.

وقد بدأ أول فراعنة آخر الأسر، أى الأسرة ٣٠، بناء معبد "إيزيس" و"حورس" بجزيرة فيلة، فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد. وأكمل بناءه بعد ذلك البطالسة. وكان هذا أول معبد رأيته، من هذا العصر، وما أدهشنى فيه أنه كان مشابها للمعابد الأقدم منه كثيرا، حيث يوجد به صرح تقليدى (لكنه ليس فى ضخامة ما هو موجود فى معبد الأقصر، لكنه أيضا كبير) فتبلغ الواجهة ٤٥ م، والارتفاع ١٨م، والسمك ٥ م. كما أن الساحة الأولى كبيرة لدرجة ما، مغلقة تماما بالصرح الثانى، ومن الجانبين بمجموعة من الأعمدة. ثم الساحة الثانية، وقاعتى أعمدة، وحرم مقدس خاص، كان يوجد به فى الماضى مركب مقدسة واقفة على قاعدة، وبها تمثال لإيزيس. بمعنى آخر، فإن القاعدة التى وجدت فى ذلك الوقت بخصوص عمارة المعابد، قد بقيت تقريبا بلا أى تغيير لمدة ألفى سنة أو أكثر.

وقد شاهدنا فى ساحة معبد إيزيس رسوما بارزة للإله "بس"- إله المرح- الذى كان منتشرا تماما فى العصر "اليوناني- الروماني". وهو يبدو فيها مثل قزم طيب مضحك. ومن المعروف أن قدماء المصريين كانوا يحبون شرب البيرة والنبيذ. وهم لم يحرموا أنفسهم من الأكل بشراهة (بالطبع من كان يستطيع أن يقوم بذلك). فطبقا لكل شىء، لم تجعلهم الديانة نساكا. ورأينا بجانب معبد إيزيس إناء حجريًا ضخمًا كان يعصر فيه الزيت من الزيتون.

وتوجد عدة معابد أخرى على الجزيرة.هى أصغر فى الحجم، لكنها حفظت فى حالة أسوء. وكان أحدها مخصصا لإحدى الآلهة التى كانت هي، أيضا، من الأكثر تبجيلا - الإلهة حتحور، إلهة الحب والفرح والقدر. وهناك، أيضا، يوجد رسم بارز للإله "بس"، يظهر فيه وهو يرقص ويلعب على آلة موسيقية وترية. أما الأعمدة فهى مزخرفة برسوم لزهور، وعازفى الناى، ولقرود تلعب، وكذلك لأشخاص يقدمون المأكولات وأشخاص يتناولون الخمر. ويبدو أنه لم يكن من المسموح به الاكتئاب أو المعاناة على جزيرة فيلة. وقد يكون هذا سبب بقاء معابد

فيلة فى حالة عمل أكثر من أية معابد فى أماكن أخرى بمصر. وقد تم إغلاقها بأمر مباشر من "يوستينيان" فى القرن السادس بعد الميلاد. وكما هو معروف، فقد أهملت الجزيرة فى القرون الوسطى، وقد يكون هذا أحد الأسباب التى ساعدت فى المحافظة على آثارها.

وأريد قبل أن نودع جزيرة فيلة، أن أشير إلى شيء آخر جميل موجود عليها، هو ما يطلق عليه "كشك تروبان"، وهو الجناح الذى بدأ فى بنائه هذا الإمبراطور فى عام ١٠٥ بعد الميلاد، لكنه لم يكمله. ويبدو أن هذا الجناح كان مخصصا لكى يستريح به كبار الزوار، وكان يجب أن يمثل معمارا جميلا يتكون من ١٤ عامودا، تاج كل منها عبارة عن زهرة مختلفة. وهو يزين الشاطئ الشرقى للجزيرة. أما معبد إيزيس، فهو موجود بالقرب من الشاطئ الغربى.

فى المحجر الفرعونى

ذهبنا بعد عودتنا من جزيرة فيلة لمشاهدة محجر فرعوني. فمنطقة أسوان مشهورة بجرانيتها "الأحمر، والوردى، والرمادى، والأسود". وكان يتم الحصول عليه هنا من العصور السحيقة، ولا يزالون يعالجونه إلى اليوم. لكنهم لم يعودوا يتعاملون مع المحاجر الفرعونية القديمة، فبقيت هناك فقط ذكرى واحدة. وكنا نريد أن نشاهدها. وهى عبارة عن مسلة ضخمة كان قدماء المصريين قد قطعوها فعلا من الجبل من ثلاثة جوانب، وبعد ذلك تركوها؛ لأنهم وجدوا عند أحد أطرافها شرخا. وكانت تعد المسلة بأمر من الملكة "حتشبسوت". فكما رأينا فى الأقصر، كانت هذه الملكة تحب إقامة مثل هذه الآثار. وكان يمكن أن تكون هذه المسلة واحدة من الأكبر. فطولها كان ٤٢ مترا، ومقطع قاعدتها ٤,٢x٤,٢ م، ووزنها حوالى ١١٧٠ طنا. وكانت أبعاد المسلة سوف تقل قليلا بعد تجهيزها، لكنها رغم ذلك كانت ستكون مدهشة جدا. وعندما سرنا فوق هذه القطعة الضخمة من الجرانيت أحسسنا بذلك بشكل ملموس. وهى قد بقيت راقدة ما يزيد عن ثلاث آلاف

سنة، وسوف تبقى هنا إلى الأبد كرمز لما كان يمكن للفراعنة أن ينجحوا فى بنائه، رغم أنهم كانوا جاهزين بمعدات بسيطة جدا. والمحجر الفرعونى يمثل متحفًا مفتوحًا، تعرض فيه بوضوح الطريقة التى كان يقطع بها الفراعنة المسلات، وكيف كانوا يصنعونها ويفصلونها من جبل الجرانيت، فقد كانوا يقطعون منه كتلا ضخمة لصناعة تماثيل الفراعنة، مثل أبى الهول والآلهة. وقد كان ذلك شيقا جدا. ولم يكن علينا الذهاب بعيدا؛ لأن المحاجر الفرعونية كانت تبدأ تماما عند الأطراف الجنوبية لمدينة أسوان. وقد غادرناها عندما بدأ الظلام.

من أسوان إلى القاهرة عبر ساحل البحر الأحمر

أمضينا ليلة أخرى فى أسوان، ثم تحركنا فى الصباح الباكر لإكمال رحلتنا. وأصبحنا الآن نتحرك فى أربع سيارات. وسافر معنا كل من عائلة شمس، والدكتور فاروق، وشخصين بدا أنهما يمثلان حراسة لنا. وقد كان أمامنا طريق طويل يمر عبر جبال الصحراء الغربية المقفرة من الناس. وفى البداية، قطعنا مسافة فى اتجاه الشمال، ثم انحرفنا بشدة إلى الشرق، لنصل إلى ساحل البحر الأحمر. وكان الطريق ضيقا لكنه عامة مقبول، رغم أنه كان لا يمكن السير فيه بسرعة عالية. وكنا كثيرا ما نقابل عليه أحجارًا سقطت من الجبال، رغم أن الجبال كانت عامة منخفضة. وكانت لا توجد أية حياة من حولنا، فلم تكن هناك أية شجرة، أو أحراش، أو حتى حشائش. وفى معظم طريقنا عبر الصحراء، قابلنا ثلاث سيارات فقط.

وقد توقفنا فى مكان ما فى منتصف الطريق، بناء على اختيار عائلة شمس، ولم يكن ذلك جزافيا، فكانا يريدان أن يريانا شيئا ما. واضطررنا أن نتسلق الصخور بصعوبة خلفهما لأعلى. لكننا لم نندم على ذلك، فقد تبين أن قدماء المصريين قد تركوا أثرهم هنا. حيث كانت توجد رموز هيروغليفية، ورسوم محتواها يمثل مناظر جنسية تماما، محفورة بآلة حادة. ولم يستطع أحد أن يقول

معنى الكتابات الهيروغليفية. لكن اتفق الجميع على أنها غالبا تعليقات على رسوم من تمثله، أو تفسير لها. ويبدو أن أحد المهرة كان يسخر من رئيسه، أو صاحبه، أو من شخص ما أعلى منه فى المقام، وهو واثق من أن أصحاب السلطة لن يكلفوا نفسهم عبء تسلق الصخور، وأن المؤلف لن ينال عقابا. فضحكنا من طبيعة الإنسان الدائمة، ثم هبطنا إلى أسفل، وفرشنا طعامًا جلبناه معنا على مقدمة السيارة الجيب العريضة، وأكلنا باستمتاع.

وقد وصلنا إلى البحر الأحمر بسلام. وهناك كان الطريق مختلفا تماما- طريق واسع ممهد جيدا- وسرنا عليه بسرعة فى اتجاه الشمال. وكانت "القصير" و"سفاجة" من المناطق السكنية التى مررنا عليها. وعند اقتراب المساء، توقفنا فى مدينة "الحمروين" الصغيرة، فى بيت مالك لإحدى الشركات الصناعية. وكان يوجد هناك بجوارنا وكيل لوزارة الصناعة، قد حضر إلى هنا فى عمل. وقد أمضينا المساء معا، وناقشنا مواضيع التعاون بين السوفييت ومصر فى مجال الصناعات الاستخلاصية فى مصر، التى وجهت نشاطها إلى منطقة ساحل البحر الأحمر. وبقيت عندنا صورة تبين كيف مارسنا معه، أنا وناتاشا، التمارين الرياضية الصباحية على شاطئ البحر. وكان لا يوجد أحد من حولنا، فقط ريح قوية تعبث بشعرنا.

ثم أكملنا طريقنا إلى الشمال. وقبل أن نصل إلى الغردقة، توقفنا فى قرية "مجاويش" السياحية الجديدة. ولم يكن يوجد سائحون فى ديسمبر على البحر الأحمر. وفى ذلك الوقت كانت القرية مقفرة من السكان، وكانت إقامتنا بها حسنة. فقد فتحوا لى وناتاشا شاليه "السادات". ولست أدرى هل فعلا أمضى الرئيس هناك الليل، أم أن أحدهم جاء لفكره أن "يسعد" هذا الشاليه بهذه الوسيلة. لكن على أية حال، أحسسنا بالراحة تماما به. فبعد الانتقالات المتعددة والقائمة الكبيرة من الآثار القديمة، كان من الممتع أن نبقى فى مكان واحد، وأن نستريح فقط فى هواء البحر النقى. لكن ذلك لم يستمر طويلا، فقد حضر إلينا البعض من قبل محافظ البحر

الأحمر، وقدم لنا دعوة منه لكى نقوم معه برحلة بحرية. بالطبع، قبلنا الدعوة. وبعد ساعة، كنا نقطع مياه البحر الأحمر على مركب المحافظ. وقد وقفت معه بغرفة قيادة المركب، حيث أرانا المناطق التابعة له، كما حكى عن خطط تنمية المنطقة. وكانت الخطط كبيرة. وفى المساء، أكملنا حديثنا ونحن نتناول وجبة العشاء. وكان المحافظ لواء سابقاً. شعرنا بأن التعاون مع زملائه السوفييت قد ترك لديه ذكريات حسنة. وكان مسرورا بالتحول الذى حدث للأحسن فى العلاقات "السوفييتية - المصرية". ومن هنا، كانت سمة مناقشاتنا. وكانت النغمة الأخيرة فى رحلتى الأولى الكبيرة فى البلد جيدة مناسبة، مثل أجزاء الرحلة كلها.

وقد أمضينا الليلة فى مجاويش، ثم تحركنا مباشرة فى الصباح عبر السويس إلى القاهرة. ووصلنا إليها دون أية مشكلات. وقمنا بوداع حار مع الدكتور شمس وزوجته "مرجريتا جيوجرييفنا"، التى نمت بينها وبين ناتاشا صداقة حميمة. لقد جعلوا رحلتنا ألطف، وأشمل. وما هو جميل لا ينسى.

الباب السادس

العمل فى موضوعات العلاقات الثنائية

توصياتى لموسكو

تمثل نهاية العام فترة يعرق فيها الدبلوماسيون، وهم يجتهدون لكتابة تقرير سنوى عن عمل السفارة. وفى هذه المرة، كان من نصيبى تحرير وكتابة الجزء الختامى منه، من حيث النتائج المستخلصة والمقترحات، وإذا لخصنا تماما التحاليل التى أوردت به، فهى تتمثل فيما يلى من كلمات وعبارات.

مبارك... قومى، ذو ميول وطنية، براجماتي، فاهم لأهمية العلاقات مع الاتحاد السوفييتي، كما فهمت، لكنه بسبب حرصه، ونظرا للظروف الموضوعية القائمة، فإنه يفضل المعدل التدريجى، بل والبطىء، فى تحسين العلاقة مع بلدنا. لذلك فلا يوجد أساس للتعويل على التحرك السريع، ولا أيضا الكبير، لتحريك هذه العلاقات إلى الأمام. لذلك يجب أن يكون خط علاقتنا مع مصر هادئا جدا ومتحفظا. وهو، أيضا، يعبر بوضوح عن استعداده لعمل دراسة بناءة للموضوعات التى تمت وراثتها من الماضى، والأخرى الجديدة التى ظهرت. أما ما يتعلق بتبادل الزيارات على أعلى مستوى، فإن وقتها لم يحن بعد. لكن رغم ذلك يجب أن يقوم رئيسا الدولتين بالتعامل مع تبادل الرسائل، بحيث تتنامى فيها تدريجيا عناصر الثقة. ويتبع ذلك أيضا جعل لقاءات وزراء خارجية الاتحاد السوفييتى ومصر، أثناء دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة، قاعدة. وكذلك إجراء مشاورات متكررة عديدة كل سنة بين وزارتى الخارجية. وفى الوقت نفسه، إعادة وتوسيع الاتصالات، عبر الوزارات السوفييتية والهيئات الأخرى التى لها اهتمامات ما بمصر، وكذلك إعادة العلاقات بين البرلمانين. وفى حالة استعداد المصريين، تجرى معهم مفاوضات خاصة بالموضوعات الاقتصادية والتجارية، وكذلك

بموضوع ديون مصر العسكرية. وطالما لم يتم التوصل إلى اتفاق مع مصر، على المبادئ، بهذا الخصوص، فمن الأفضل الامتناع عن تنفيذ توريدات حربية جديدة.

وبعد التقرير السياسى الذى أرسل إلى موسكو فى البريد الدبلوماسى لشهر يناير، توجهت بنفسى إلى هناك، منفذا لاتفاقى مع "أ.أ.جروميكو"، بخصوص حضورى إلى وزارة الخارجية؛ لمناقشة مختلف الموضوعات.

وقبل سفرى إلى موسكو، التقيت مرتين أخريين مع الباز. وفى كلتا المرتين، كان من بين ما ناقشناه موضوع الديون العسكرية، والخطوات التى نتوقعها من مصر؛ لتغيير إجراءات السادات التعسفية. وقد وعد الباز بالتحدث عن ذلك مع الرئيس. وفى اللقاء الثانى، أفاد أنه يجرى فى الرئاسة مناقشة موضوع تحسين وضع السفارة السوفييتية، لكنه ربط ذلك بتعاملنا مع مشكلة الديون، معبرا عن أمله فى أننا سوف نرد نصف احتياطى (فائض) الحساب التجاري، وأننا سوف نتنازل عن الجزء الباقى من الدين. ولم أخف موقفى المتشكك نحو تقبل هذا الوضع.

وقد كانت مهمتى متعلقة تماما بالعمل، لذلك لم تكن طويلة، لكنها لم تعطنى فقط الفرصة لعقد كل اللقاءات المتعلقة بعملى التى خططت لها، لكن، أيضا، لكى أرى والدى وأولادى وبقية أقاربي. وبقيت ناتاشا فى القاهرة، حيث كانت لا تزال هناك فترة طويلة قبل موعد الإجازة السنوية، كما أن راتبى لم يكن يسمح بسفرها على حسابي. وكان هذا هو وضع غالبية سفاراتنا، حيث لم يكن من الممكن التأفف من ذلك.

وعدت إلى القاهرة فى العشرة أيام الأولى من شهر فبراير، وحالتى النفسية جيدة، فقد كان كل شيء فى موسكو، وتحديدا فى بيتى، على أكمل حال: اجتازت ابنتى امتحاناتها بنجاح، وكانت الحالة الصحية لوالدى جيدة، كما لم تشر لى أية ملاحظات فى وزارة الخارجية. ورغم ذلك فقد رجعت بانطباع (ولم يكن ذلك جديدا بالنسبة لى) أنهم فى موسكو لا يميلون، بأى شكل من الأشكال، لمسايرة

رغبة الجانب المصرى فى عدم تسديد الديون العسكرية. وقد أنبأ ذلك بأن تكون هناك، على الأقل، صعوبات فى المباحثات مع زملائى المصريين فى هذا الموضوع. لكنى كنت، فى داخلى، متفقا مع موقف موسكو، حيث لم تكن هناك أية أسباب لكى نتقبل خسائر مالية، خاصة بهذه الجدية. وقد أقنعتنى المناقشات فى وزارة الخارجية، ومختلف الإدارات، بأننى، حتى الآن، تصرفت بشكل سليم.

تعرجات القاهرة الجديدة

دعانى الباز، فى يوم ١٣ من فبراير، لمقابلته فى المساء، بمكتبه بميدان التحرير. وعندما دخلت إلى مكتبه، رأيت به وزير المالية والتجارة الخارجية "مصطفى السعيد". فاتضح لى فورا موضوع اللقاء. وقد بدأ الباز الحديث بالسؤال عن الأخبار السارة التى جئت بها من موسكو، وأضاف أنهم، فى القاهرة، يأملون فى وجود أخبار سارة بالذات، حيث إنهم قد اتخذوا خطوة مهمة، تتمثل فى تبادل السفراء. فقلت مبتسما إن تبادل السفراء أمر تم لمصلحة الطرفين، وإننا لسنا على استعداد لأن ندفع شيئا مقابل ذلك، لكننا، على العكس، ننتظر من حكومة مصر خطوات أخرى؛ لتصحيح الوضع غير الطبيعى الذى وضعت فيه سفارتنا هنا. وبين شكل محدثيَّ أنهما أصيبا بخيبة أمل شديدة. وقال الباز عابسا إن الموضوعات التى ذكرتها تحت الدراسة، وأعطى الكلمة فورا للسعيد؛ لعرض الموقف المصرى الجديد، كما تمت الإشارة لذلك.

وما عرضه الوزير كان يعنى التخلى تماما عما قدمه لى السعيد بنفسه، فى نهاية شهر نوفمبر. فقد كان الموقف الجديد يرى ما يلي: تجميد الديون المصرية الخاصة (أى ألا تحسب عليها فوائد كبيرة)، أما تقرير ما يتعلق بهذا الموضوع، فيجب إرجاؤه جانبا، إلى أن يحين الوقت المناسب. وأما ما يخص فائض الحساب التجاري، فيجب تسديده لمصر بالكامل بالعملة الصعبة. كما يجب أن تكون التجارة، فيما بعد، على أسس متوازنة تماما.

وكان رد فعلى أننى وصفت هذا الموقف بأنه "غير مقبول"، لا على المستوى الأخلاقي، ولا على المستوى القانوني، وأنه غير واقعى على الإطلاق. وقد أكدت أنه سوف يضر بالعلاقات السوفييتية - المصرية، وكررت أننى سبق أن تحدثت مع المسئولين المصريين فى أن "الاتفاقيات بين الحكومتين، الخاصة بالديون العسكرية، التى لم يغيرها أحد، تفيد أنه يتم تسديد الديون عن طريق توريد البضائع، وبناء على ذلك، بدأ التنفيذ بزيادة ما يستورده السوفييت عما يصدره. وبدون هذا الاتفاق مع حكومة مصر على هذا النظام، كنا لن نأخذ الكثير من مصر، مما نضطر لأخذه. ولقد تم تكوين الاحتياطى التجارى باتفاق الطرفين، وإلا لما أمكن تكوينه." أليس ذلك هو الوضع؟". وجهت سؤالى للوزير مباشرة. فأجاب بأنه، بالفعل، كان هذا هو المفهوم؛ لطبيعة الخلل فى الميزان التجارى فى مصر حتى عام ١٩٨٤، لكن بعد ذلك، وبسبب الصعوبات المالية الاقتصادية، اضطر الجانب المصرى إلى تغيير نظرته لفائض الحساب التجارى. وكان ذلك اعترافًا مهمًا، حصلت عليه ودونته.

ثم أخذ "سعيد" يثبت أن الموقف الجديد المصرى، بخصوص فائض الحساب التجارى، قانوني، وأن هدفه هو المحافظة على بنود اتفاقية التجارة بين مصر والاتحاد السوفييتي، التى تخص الأحجام المسموح بها لفائض الحساب التجاري. فأجبت بأنه تتم المماطلة المصطنعة فى هذا الموضوع؛ لكى يتم تبرير رفض الاتفاق الموجود، بخصوص زيادة فائض الحساب التجارى؛ بهدف تغطية الديون العسكرية. أما فيما يخص الاتفاقية التجارية، فإن الجانب المصرى هو أول من خالفها، برفض كل ما ورد بها من التزام بالتجارة، طبقا للأسعار العالمية تماما. ونحن نعانى، بسبب هذه المخالفة، من خسائر مالية ضخمة، ونصر على أن تكون التجارة بين الاتحاد السوفييتى ومصر طبقا لما هو معمول به فى كل مكان، أى طبقا للأسعار العالمية. فهل من الطبيعى أن تتاجر مصر مع الاتحاد السوفييتى بأسعار مختلفة عن الأسعار التى تتعامل بها مع الدول الأخرى؟ - سؤال توجهت

به إلى الوزير. فاضطر لأن يجيب بأنه توجد- بالفعل - مشكلة لعودة التجارة بالأسعار العالمية. لكنه لم يذهب أبعد من هذا الاعتراف.

وحدثت لحظة صمت: صمت محدثاى، كأنهما يشيران إلى أنهما قد عرضا الموقف الجديد لمصر، بخصوص الفائض التجارى والديون، وأنه يمكن بذلك أن ينتهى الحديث. لكنى لم أكن أرغب فى أن ينتهى حديثنا على هذا النحو، بلا حل. فأكملته، موجها له فى اتجاه مختلف قليلا. أو ببساطة، قررت أن أضغط عليهما، لكى أصفى الموقف الذى أعلناه، والذى لا نستطيع أبدا أن نتقبله. فقلت إننى لست متفهما تماما لمنطق تطور الموقف المصري، وطبيعة تعرجاته، حيث إنه إذا تفهمنا الأمر، فإن الجانب المصرى نفسه يوصلنا إلى التفكير فى مدى حاجتنا للجنيه الحسابى فى هذه الحالة. وأضفت "إن كل دول أوروبا الشرقية الاشتراكية قد توقفت عن التجارة مع مصر بواسطة الجنيه الحسابي، وإنها قد تحولت إلى إجراء الحسابات بالعملات الحرة. وهى راضية عن ذلك تماما. ولكل هذه الدول ميزان نشط مع مصر من التجارة، حيث يربحون هنا أموالاً جيدة. كما أن الهند أيضا سارت على الطريق نفسه من فترة وجيزة. أما نحن، فتوجد لدينا، بهذا الخصوص، إمكانيات كبيرة. ونحن أيضا نستطيع أن نربح عملة حرة من التجارة مع مصر. ولقد ظهر الجنيه الحسابى فى عهد ناصر. لكن ذلك كان زمنًا مختلفًا فى علاقاتنا. ولا زلنا نحافظ على نظام الحساب بالجنيه الحسابى، ليس لأنه جيد، لكن لأننا نعد أنه يسمح لمصر بأن تحل مشكلة ديونها الخاصة، تدريجيا، وبأقل معاناة. وأنا لا أفهم لماذا تقفون حجرًا عثرة أمام سفينة الجنيه الحسابى؟ هل ترغبون فى التحول إلى التجارة مع الاتحاد السوفييتى بالعملات الحرة، القابلة للتحويل؟

وقد حاول كل من الباز والسعيد إقناعى بأنه لا يجب التراجع عن نظام الحساب المعروف بالجنيه الحسابى، حيث إنه هو الأساس الأمثل للعلاقات الاقتصادية والتجارية بين بلدينا، وأنه سوف تتقلص التجارة بشدة، بدون الجنيه الحسابي، وأن ذلك لن يكون فى صالح الاتحاد السوفييتى ولا مصر... إلخ. وانتهى

الحديث بأنه يمكن لمصر أن تعود إلى النظام القديم، لو وافقت موسكو، بدورها، على أن تعيد إلى مصر نصف فائض الحساب التجارى المتجمع بالعملات الحرة. ردى كان فقط بهز رأسى، موحيا بأن هذا الاختيار لا يناسبنا. وكانت آخر كلماتى هى: "يا سادة، فكروا فى الأمر. إننا مستعدون أن نرسل إلى هنا وفدا مفوضا، كما كان ذلك مقررا منذ عام ١٩٨٣".

ولم يكن سبب المحاولات المصرية خافيا، فإن الحكومة كانت تريد أن تحصل على قطع غيار للسلاح السوفييتى، دون أية تكاليف إضافية، وأن يتم تأجيل دفع الجزء المتبقى من الدين إلى أقصى مدى ممكن. وبذلك تحقق مكاسب سياسية داخل البلد، وتستخدم تساهلنا فى التجارة، لكى تحصل من واشنطن على تنازلها عن الديون، وعلى تسهيلات أكبر للحصول على قروض جديدة. وقد كنا بالطبع نرغب فى أن يتم، تماما، تطبيع العلاقات بين الاتحاد السوفييتى ومصر، وأن نتقدم إلى الأمام. لكن لم يكن هناك أى أساس للتضحية بعدة مليارات من أجل ذلك. فاضطررنا لانتظار تخلى مصر عن المبالغة فى انتظار الأرباح مقابل تبادل السفراء معنا. وحاولت، بكل الوسائل الممكنة، أن أعجل بهذه العملية، لكن – كما يرى القارئ – كانت الأمور تسير بصعوبة. وعلى أية حال، فإنها سارت. ويشهد على ذلك شهر مارس ببعض الأشياء غير العادية.

وفاة تشيرننكو

توفى "ك.ي. تشيرننكو" فى مارس ١٩٨٥. وقد أرسل كل من رئيس الوزراء "كمال حسن على"، ووزير الخارجية "عصمت عبد المجيد"، ووزير الدولة "بطرس غالى"، برقيات تعزية بهذه المناسبة (كان الرئيس مبارك موجودا، فى ذلك الوقت، فى زيارة واشنطن). وسافر وفد برئاسة رئيس مجلس الشورى، الأمين العام للحزب الحاكم "صبحى عبد الحكيم"؛ للمشاركة فى العزاء. وقد ضم أيضا كلاً من رئيس المراسم بالرئاسة "نور فرج الله"، وياور الرئيس "م.حلمي". وقد استقبل

الوفد في موسكو "ف.ف. كوزنتسوف"، الذى قدم التقييم التالى للعلاقات مع مصر: "فيما يتعلق بالعلاقات "السوفييتية - المصرية"، فإن الاتحاد السوفييتى يؤيد التنمية المستمرة فى مختلف المجالات، والتغلب على كل السلبيات فى العلاقات فى الماضي، التى لم تظهر بسبب الجانب السوفييتى. وقد بدأ الوضع يستقيم الآن. وكلى أمل أن تؤدى العملية الحالية، مستقبلا، إلى دخول العلاقات بين بلدينا إلى مجرى صداقة طبيعية".

وقد قمت باستقبال ووداع الوفد، الذى عاد- على التو- إلى مصر فى ١٦ من مارس، بعد عملية الدفن. وقد أعرب رئيس الوفد "حكيم" عن رضائه عن الاستقبال الذى قوبل به الوفد. كما أنه أثنى على الدقة التى نظمت بها كل المراسم. وقد تم وضع سجل للعزاء في السفارة، كما هو متبع، فى الأيام من١١إلى١٣ من مارس. وقد دون به الكثير من الشخصيات البارزة المصرية عزاءهم. وكان من بينهم كل من رئيس مجلس الشعب، ونائب رئيس الوزراء، وقيادات وزارة الخارجية، ورؤساء الحزب التقدمى الوطنى، وحزب العمل الاشتراكى، والحزب الدينى "الأمة"، وغيرهم. وقد زار المئات السفارة فى هذه الأيام. وأنا أتحدث عن ذلك؛ لكى أبين أن الجانب المصرى قد قام بما جرت العادة على القيام به فى مثل هذه الحالات. لذلك كان من غير المتوقع أن رن جرس التليفون، فى مساء يوم ١٦ من مارس، من رئاسة الجمهورية، معلنا أن الرئيس "حسنى مبارك"، الذى عاد لتوه إلى القاهرة، سوف يزور السفارة، وسوف يوقع فى سجل العزاء. وكان من الواضح تماما أن ذلك يمثل، قبل أى شيء آخر، حركة سياسية موجهة إلى موسكو، وكما يبدو أيضا، إلى واشنطن، حيث إن الأخبار الواردة بينت أن موقف الرئيس المصرى هناك لم يكن سهلا.

ومرة أخرى، جهزنا، بشكل مناسب، قاعة فى مقر الإقامة؛ لاستقبال الرئيس. ولم نعلن وحدنا الطوارئ، بل كان الأمر مماثلا لدى السلطات المحلية، فقد استمر، طوال الليل، وضع الأسفلت على الطرق المؤدية للسفارة، التى كانت قبل

ذلك مليئة بالحفر والنتوءات (وهى الصورة المعتادة للكثير من شوارع القاهرة). وكان كل شيء جاهزا قبل طلوع النهار.

مبارك فى سفارتنا

وصل الموكب في موعده بدقة تامة - فى تمام الساعة ١٠ صباحا. ولم أكن وحدى فى استقبال الرئيس، ومرافقه وزير الخارجية "مجيد"، لكن كان يوجد، أيضا، عدد من الصحفيين المصريين، الذين علموا بالأمر- على ما يبدو- من الجهة المعنية. وكان هناك، أيضا، رجال صحافتنا، وبالطبع أيضا العاملون بالسفارة، حيث إن الحدث كان غير عادي. وكنا قد أبلغنا فى اليوم السابق أن هذا الحدث غير عادى؛ لأن الرئيس لا يزور السفارات الأجنبية فى القاهرة.

وقد صعد مبارك إلى مقر السفارة، ووقع فى السجل. ثم ذهبنا إلى القاعة المجاورة، حيث عقدت جلسة نقاش استمرت لمدة خمس وأربعين دقيقة. وقد شارك فيه "مجيد" من الجانب المصري، ومن جانبنا الوزير المفوض "تسفيجون". وكالعادة، قام "قليكوف" بالترجمة. وكان ذلك هو لقائى الثالث بالرئيس على مدى نصف عام. وكنت أفكر، أساسا، وأنا أستعد له فى إمكانية أن يسفر هذا اللقاء عن جديد فى موضوعين لهما المكانة الأولى من حيث الأهمية، أولا: الديون العسكرية، وفائض الحساب التجارى، وثانيا: إلغاء إجراءات السادات المعادية للسوفييت. وكنت آملا فى حدوث ذلك. لكن لم يكن من المعروف مسبقا "هل سيكون هناك حديث ما؟"، أم أنه أثناء زيارة الرئيس للسفارة، سيكتفى بالتوقيع فى سجل العزاء؟ لذلك سررت عندما وافق مبارك على دعوتى له بالانتقال إلى القاعة المجاورة، حيث جلست معه على أريكة. أما الباقون، فقد جلسوا جانبنا على المقاعد.

وبدأ مبارك الحديث - مبينا من أول عبارات - أن الحديث لن يكون بروتوكوليا. فقال إنه مدرك تماما لأهمية العلاقات مع الاتحاد لمصر، وإنه لذلك يسعى جاهدا لكى تكون علاقات صداقة، وأن تكون حميمة. وإنه عمل ويعمل من

أجل ذلك؛ ولذلك فإنه سار فى طريق تطوير العلاقات بأن قام بهذه الخطوة المهمة، المتمثلة فى تبادل السفراء. والآن جاء دور الاتحاد السوفييتي. فإنه بصفته رئيسا للدولة، من المهم له أن يقوم الاتحاد السوفييتى بخطوات؛ حتى يتمكن من أن يفسر بوضوح مبررات الخطوات التالية لتنمية العلاقات مع بلدنا. وهنا توقف قليلا، مبينا أنه فى انتظار الإجابة.

لم أرد على ذلك مباشرة ، لكى أتفادى المناقشات الحادة، بل عبرت عن الامتنان لإرسال وفد مصرى رفيع المستوى؛ لحضور دفن "تشيرننكو"، وخاصة لزيارته لنا بنفسه. وأضفت أننا لم نر منذ فترة طويلة رئيس مصر فى سفارة الاتحاد السوفييتي، وأننا سعداء باستقباله هنا، حيث إننا مدركون أن ما أتى به إلى هنا هو العلاقة الحسنة ببلدنا، وأننا نقدر ذلك. فابتسم مبارك، على ما يبدو متذكرا شيئا لطيفا، وقال إنه فعلا كان فى هذا المبنى آخر مرة، عندما كان قائدا للقوات الجوية المصرية. ونظر إلى القاعة، ملاحظا أن صور المناظر الطبيعية الروسية لا تزال هى نفسها التى شاهدها من قبل.

وأدركت أن الوقت حان للعودة بالحديث إلى مجال الأعمال، فقلت له إننا من جانبنا مهتمون فعلا بتنمية العلاقات السوفييتية المصرية من جميع جوانبها، لذلك فنحن مهتمون، أيضا، بالتعجيل بعملية تطبيعها، وعليه، فقد قمنا بعدة خطوات مهمة نحو إتمام هذا الهدف. فتساءل مبارك: أى خطوات؟ فسردت كل اتجاهات التعاون العسكرى التى أعلنا عن استعدادنا لها، طبقا لرغبات "الرئيس"، مبديا ملاحظة أنه، للأسف، لا يوجد حتى الآن أى رد فعل من الجانب المصرى على هذه المقترحات، بما فيها استعدادنا لاستقبال وفد عسكرى مناسب فى موسكو، وأن نرسل إلى مصر خبراءنا العسكريين؛ لتحديد حجم أعمال الإصلاح المطلوبة. وأنهم فى موسكو يرون أنها قد اتخذت إجراءات محددة (مهمة جدا، فى مجالات حساسة جدا، بالنظر للماضى)، وغالبا سوف لا يعدون أن هناك أسسا للمصريين للشك، إذا لم تكن هناك خطوات مقابلة لذلك من قبل الاتحاد السوفييتى.

صمت مبارك قليلا، ثم قال إن لمصر طلبا محددا هو إصلاح طائرات "أنتونوف"، وكلف "مجيد" بمناقشة هذا الموضوع وحده، ثم انتقل للحديث عن الديون العسكرية، وفائض الحساب التجاري. (أقول فورا إنه ليس هناك أحد تحدث معى بعد ذلك، لا "مجيد" ولا أحد غيره، فى موضوع إصلاح هذه الطائرات! كما لم يعد أحد إلى نص ردنا على طلب مبارك فى سبتمبر ١٩٨٤، بخصوص التعاون العسكرى). ويبدو أن الرئيس قرر أن يؤجل مؤقتا هذا الموضوع، وأن يضع فى المقدمة مشكلة فائض الحساب التجارى، والديون العسكرية. وقد تناول هذا الموضوع بالطريقة التالية فى حديثنا. ذكر أن مصر فى وضع اقتصادى حرج، وأنه يجب مراعاة ذلك، ثم ذكر الرئيس بعد ذلك شيئا جديدا. فقال: "بالنسبة لقوة عظمى مثل الاتحاد السوفييتي، فإن قيمة الديون العسكرية المصرية لا تعتبر كبيرة، خاصة أنه قد تمت تغطيتها جزئيا أثناء التجارة. وإذا حسبنا تراكم فائض الحساب التجاري، فقد يبقى فقط مبلغ يتراوح بين ٣٠٠-٤٠٠ مليون جنيه إسترليني. فإذا أمكن حل مشكلة المبلغ المتبقى فى صالح مصر، فسوف تكون لذلك أهمية سياسية ونفسية وعملية كبيرة. (لم يقل مبارك مباشرة، إنه يجب ببساطة إسقاط هذا الجزء من الديون، لكن كان ذلك يستشف من طلبه) حتى إذا أخذنا فى الاعتبار فائض الحساب التجارى الموجود لتصفية الدين، فإننا يجب ألا نكون فائضا بعد ذلك. وكان العنصر الجديد فى موقف مصر، كما عرضه الرئيس، يتلخص فى الاستعداد للتنازل عن طلب تصفية فائض الحساب التجارى كله أو نصفه.

وكنت أعرف الموقف فى موسكو من هذا الجزء من الديون الذى لم يتم دفعه، فاضطررت أن أقول للرئيس إن هذا ليس موضوعا سهلا أبدا. فأولا، المبلغ كبير تماما، حتى لبلد مثل بلدنا. وثانيا، لهذا الموضوع سمة دولية مهمة؛ فإن مصر ليست الدولة الوحيدة التى عليها ديون عسكرية للاتحاد السوفييتى، لكن توجد أيضا دول أخرى تقف فى هذا الصف، لذلك سيكون لعمل سابقة ما توابع تتعدى، تماما، حدود العلاقات الثنائية للاتحاد السوفييتى مع أية دولة معينة، وفى هذه الحالة مع

مصر. وهذا يعنى ضرورة البحث عن حل يرضى الطرفين، ولا يضر الموقف السوفييتى من مواضيع الديون العسكرية المستحقة لنا عند دول أخرى. وعلى الفور، سألت الرئيس عن رأيه فى أن يحضر إلى هنا وفد سوفييتى رفيع المستوى؛ للبحث، عامة، فى مختلف الموضوعات الاقتصادية، حيث يجب البحث عن حلول، وليكن ذلك فى شهر مايو أو يونية. فأجاب مبارك: "نعم، موافق. ناقش التفاصيل مع مجيد".

كنت بالطبع راضيا عما وصلنا إليه، حيث إنه دون إجراء مباحثات على مستوى وفود مفوضة، سوف يبقى هذا الموضوع على حاله، معطلا لباقى اتجاهات تعاملاتنا مع جمهورية مصر العربية. وشعرت بأنه سيكون هناك شيء لا يغتفر لى، إذا لم أستغل وجود مبارك فى سفارتنا، لعرض موضوع الممنوعات التعسفية تجاهنا، فعرضتها كلها على الرئيس. وكنت قد ذكرتها من قبل على مستويات أخرى، وكان بالطبع الرئيس على دراية بها، لكنى لم أستبعد أن يكون قد قرر شيئا ما، وهو فى الطريق إلينا، فى حالة سماعه لشكوانا. وحدث ذلك. فقد أنصت لى مبارك إلى النهاية، ثم اختار شيئين من مجموعتى، وقال:" إن الحظر على عدد العاملين فى السفارة، وإعادة المبنى السكنى للعاملين بالسفارة الذى تمت مصادرته، لا يمثلان مشكلة، لكن المهم أيضا أن يقوم الاتحاد السوفييتى بعمل "خطوات مشجعة" تؤدى إلى تأثير مناسب.

ثم لمس الرئيس موضوعين دوليين مهمين، هما: ليبيا، وحل مشكلة الشرق الأوسط. أما بالنسبة للموضوع الأول، فقد شكا من أن موسكو لا تقوم بانتقاد القذافى، بخصوص المغامرات ضد مصر، رغم أنها تستطيع القيام بذلك. وقال مبارك: "لقد اتصلت بنفسى بالقذافى، وحذرته". وأما بخصوص حل مشكلة الشرق الأوسط، فقد كرر أنه موافق على عقد مؤتمر دولى بمشاركة الاتحاد السوفييتى، وأضاف أنه يجب أن يتفق كل من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية مع بعضهما البعض أولا، وإلا لن يمكن عقد هذا المؤتمر دون ذلك. وبالإضافة إلى

ما سبق، سيكون من المفيد تنظيم حوار فعال بين الولايات المتحدة الأمريكية ومنظمة التحرير الفلسطينية. وقد تركت الموضوع الأخير بلا تعليق، حيث إن موسكو كانت تشك، تماما، فى محاولات توصيل عرفات إلى اتصال مباشر مع الأمريكان. كما أننى لم أكن أرغب فى أن أدخل عنصر توتر فى الحديث مع الرئيس، خاصة أنه قد حدد عدة تحركات مهمة نحو تحسين الموقف المصري. ولهذا السبب، كان رد فعلى لبقا على نصيحته بالحرص فى الاتصالات بالحزب الوطنى التقدمى.

وكانت نهاية الحديث إيجابية. فقد ذكر مبارك أنه لا يوجد لدى الرئاسة المصرية، أو لديه شخصيا كرئيس، أية نية "لعمل خطوة للوراء" ، وأنهم سوف يتبعون سياسة مغايرة؛ لتنمية العلاقات مع بلدنا. وقد طلب مبارك توصيل تهنئته للرئيس"م.س.جورباتشوف"، الذى تم انتخابه، توا، سكرتيرا عاما للجنة المركزية للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتي، وتمنياته له بالنجاح فى عمله.

وعندما خرجنا من مبنى السفارة، كان الصحفيون فى انتظار الرئيس. فأجاب على أسئلتهم الملحة لعدة دقائق. وقد شغلت زيارة مبارك للسفارة، فى هذا اليوم، مساحة كبيرة فى نشرة أخبار التليفزيون، وفى اليوم التالى، ظهرت المقالات عنها والصور فى كل الجرائد.

آمال وتوقعات

وأصبحت زيارة مبارك للسفارة السوفييتية - بالنسبة للمصريين - أهم علامة مقنعة على أنه تم إنهاء ما صنعه السادات، من عداء سياسى للدولة ضد الاتحاد السوفييتى. وقد كنت ممتنا تماما للرئيس. وعند طلوع الصباح، قدمت تقريرى إلى موسكو رغم أنى كنت مدركا أن الخلاف حول موضوعات العلاقات الثنائية بين الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية، وعدد من الموضوعات الدولية، لا يزال موجودا. وكان من الواضح أنه رغم إعلان الرئيس لنيته اتباع

سياسة تنمية العلاقات مع بلدنا، فإن التقدم إلى الأمام يمكن أن يكون تدريجيا تماما، كما أنه لن يتم إلا بجهد متبادل من كلا الجانبين، عن طريق الحلول الوسط. ولم يكونوا، لا فى موسكو، ولا فى القاهرة، مستعدين لذلك. فأولا كانت توجد فى مصر قوى مؤثرة مؤيدة للسادات، كما كان يوجد فى موسكو كثيرون، خاصة فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتي، لا يزالون ينظرون إلى مصر عبر منشور أعمال السادات، وكأنها دولة تقف سياسيا قريبا جدا من الولايات المتحدة الأمريكية. ومن هنا، لم يتم التغلب على الإيذاءات والحرص الشديد والتشكك. ويبدو أنه قد مضى، حتى الآن، وقت قليل حتى تتم ملاحظة الفرق بين مصر السادات، ومصر مبارك، بدرجة كافية. وكان يمكن الإحساس بذلك فى نغمة العبارات الاصطلاحية حتى فى وثائق وزارة الخارجية، التى كانت، فى ذلك الوقت، عبارة عن إتاوة تدفعها جهات السياسة الخارجية للأيديولوجية، وكان من الضرورى أن يراعى مزاج من فى القمة.

وبما أنى ذكرت القمم، فعلىَّ أن أقول إننا كنا نتلقى فى السفارة الأخبار من موسكو بشغف. وكنا مثل الجميع نرغب فى التغيير وننتظره، آملين أن يؤدى، أخيرا، ظهور رئيس للدولة شاب نسبيا، وكما يبدو أنه نشيط، إلى إدخال تيار جديد فى الدولة، وفى الحياة العامة فيها، وأن يجعلها أكثر ديناميكية، وأن يعجل بالتنمية الاقتصادية للاتحاد السوفييتي. وكنا نرغب فى تجديد أسلوب الدبلوماسية أيضا، وأن يختفى التمسك بالعقائد الجامدة التى عفى عليها الزمن. باختصار، ارتبطت الكثير من الآمال بصعود "م. س. جورباتشوف". وقد بدت الطريقة التى تعامل بها مع مختلف الأمور واعدة. ولم أتقابل بنفسى مع جورباتشوف، لكنى شاهدته فقط على شاشة التليفزيون. وقد أسرنى مظهره، كما أسرتنى قدرته على الحديث دون الاستعانة بورقة ما. وكنت، مثلى مثل ملايين الشعب، مؤمنا بقدرته على القيادة، وقدرته على الخروج بالبلد من حالة الركود.

وكان هناك، أيضا، اهتمام كبير فى أوساط الرئاسة المصرية. فلم يكتف الرئيس مبارك بأن بعث له برقية حارة للتهنئة، لكنه استغل سفر نائب أمين عام الحزب الحاكم "حلمى حديدى" - وزير الصحة - إلى موسكو؛ لحضور اجتماع المجلس العالمى للسلام فى شهر مارس؛ لكى يرسل عن طريقه رسالة شفوية لميخائيل سرجييفيتش جورباتشوف، تمثل تصوراته عن الوضع فى الشرق الأوسط، والعلاقات "السوفييتية - المصرية". وقد كانت تلك خطوة منطقية تماما من جانب مبارك، حيث كانت تعبر عن عدم إلقاء الموضوع فى صندوق مهملات، كما أنها كانت بداية لحوار شخصى مع الرجل الأول بدولة الاتحاد السوفييتى، وعرضنا للموضوعات التى تهم مبارك أمامه مباشرة.

زيارة "بريماكوف"

كلفنى جورباتشوف بتوصيل رسالة شفوية ردا على رسالة مبارك. وصلنى نصها عندما جاء إلى القاهرة "يفجينى ماكسيموفيتش بريماكوف". ولذلك سوف أتحدث، باختصار، عن زيارته. كان بريماكوف، فى ذلك الوقت، مديرا لمعهد الاستشراق بأكاديمية العلوم الروسية. وكان المصريون يعرفون جيدا "بريماكوف"، حيث إنه عمل بها من قبل مراسلا صحفيا لجريدة "برافدا"، ثم بعد أن ترك الصحافة، وأصبح يعمل بالدراسات العلمية، استمر فى الكتابة عن هذا البلد بموضوعية، دون أية اتجاهات دعائية. وكما ذكرت من قبل، فقد طلبت فى إحدى المقابلات بوزارة الخارجية المصرية تنشيط العلاقات بمعهد الاستشراق. ثم زار بعد ذلك سفير مصر "بريماكوف"، واقترح بدوره دعوته إلى القاهرة. وفى ديسمبر ١٩٨٤، طلب منى الباز إبلاغ موسكو بالرغبة فى رؤية "بريماكوف" فى القاهرة. لكن هذه الزيارة تأخرت، وحضر "بريماكوف" إلى مصر فقط فى أبريل، بصحبة مساعده "روبرت فارتانوفيتش ماركاريان".

وقد كان تعاملى مع "بريماكوف" سهلا ومبهجا، حيث إنه ليس شخصا ذكيا فقط، لكنه أيضا طيب. وقد استقبله المصريون بترحاب وفرح. وذهبت معه إلى الباز مرتين. كانت الأولى فى وزارة الخارجية، وكانت الثانية فى النادى الدبلوماسى، فى غداء على شرف الضيف السوفييتي. كما تم الحديث أيضا عند "مجيد"، حيث أبلغنى الأخير أنهم ينتظرون وفدنا فى القاهرة فى نهاية يونية؛ لمناقشة الديون. وقد تناول الحديث عند الباز ومجيد أساسا الوضع فى الشرق الأوسط، وتحديدا فى الأراضى العربية المحتلة، والأردن، وسوريا، ولبنان. كما تم الاهتمام كثيرا أيضا بليبيا والسودان (كان قد حدث انقلاب فى الأخير قبل ذلك بقليل). وبالطبع كان يهم المصريين رأى "بريماكوف"، لكنهم عرضوا بحيوية أيضا، من جانبهم، التقييم والتوصيات المصرية. وكنت مهتما بحضور هذه المناقشات. فقد كنت متصورا للموقف المصرى بقدر كاف تماما. وكان يهمنى أكثر رأى "بريماكوف"، أو بالأصح معرفة كيف وصل للمصريين رأى السوفييت، بخصوص النقاط التى اختلف فيها عن الرأى المصرى؟ وكيف شرح وبرر ذلك... إلخ. وقد فعل ذلك بمهارة، وبطريقة مقنعة تماما، حيث استخدم لذلك الوقائع، وانطباعاته أثناء سفرياته فى المنطقة، ولقاءاته بقادة الكثير من الدول العربية. وقد استفدت، أنا نفسى، من الكثير فى حديثه. كما أن محاوريه، كما قالوا فيما بعد، كانوا راضين عن التعامل معه.

عند مبارك مع رسالة "جورباتشوف"

حدد لنا لقاء مع مبارك فى ١٧ من أبريل. وحيث إنه كان علىّ تنفيذ التكليف- تقديم رسالة جورباتشوف الشفوية للرئيس- فقد اتفقت مع "بريماكوف" على أن أنجز المهمة أولا، وبعد ذلك يتدخل هو فى الحديث. كما اتفقنا على أن يغطى بريماكوف الجزء الدولى من الحديث مع الرئيس، أما أنا فسأركز على العلاقات الثنائية، والترتيب الذى تم به كل شىء. وتم اللقاء فى قصر القبة. وقام فيكيلوف بالترجمة.

وقد كانت رسالة جورباتشوف الشفوية عبارة عن جزءين غير متساويين: الأول (هو الأكبر من حيث الحجم) كان عبارة عن تعليق على ذلك الجزء من رسالة مبارك، الذى تناول الصراع العربي-الإسرائيلى، وسياسة بعض الدول العربية. وكان هذا الجزء من رسالة جورباتشوف مليئا بعبارات تقليدية، ومصاغا فى قالب حاد من العبارات الحاسمة، وهو ما أدهشني. ولم يكن فى هذا الجزء أى شيء إيجابي، حيث إنه تناول النقاط التى اختلفت فيها مواقف الاتحاد السوفييتى ومصر.

وكان الجزء الثانى أحسن، حيث كان يدور الحديث عن العلاقات الثنائية. وكان أدق وأكثر تحديدا، والأهم أنه كان أكثر موضوعية. وسوف أقدمه هنا كاملا طبقا للنص المحفوظ عندى: "نحن، كالجانب المصرى، نلاحظ برضاء النقاط الجديدة الإيجابية فى العلاقات بين الاتحاد السوفييتى ومصر. ونحن نرغب، تماما، فى أن تكون لنا كل العلاقات الممكنة مع مصر فى مختلف المجالات، فكما فهمنا فإن قيادتها هى، أيضا، الآن على استعداد لإعادتها بحجم أكمل. وفيما يخص موضوعات التعاون التجارى والاقتصادى، التى أثيرت فى رسالة الرئيس، فإن هذه الموضوعات تحت الدراسة، بمعرفة الجهات المختصة عندنا. والجانب السوفييتى مستعد لإظهار نية حسنة؛ للبحث عن حل لها يكون مقبولا من الجانبين. لكن بالطبع لا يمكن تصور أن يكون الوضع عند تسوية هذه الموضوعات المهمة، مثل ديون القروض الحكومية، وعلاقات الدفع عامة، مراعيا لمصالح طرف واحد فقط، وأن يتم تجاهل مصالح الطرف الآخر. ولقد كلف الحجم الضخم للمعدات الحربية، التى قدمناها لمصر فى وقته، الشعب السوفييتى الكثير من العمل والعرق. فإذا قمنا بالتنازل عن كل ذلك، أو نسيانه، يكون ذلك غير عادل. فمن الضرورى مراعاة مصالح الطرفين، ويمكن أن نقول إن ذلك يمثل متطلبا أساسيا؛ من أجل تخلص العلاقات بين بلدينا من رواسب الماضى. ونحن مستعدون لذلك".

وكنت مسرورا بأن ما كنت أركز عليه باهتمام فى أحاديثى مع المسئولين بالحكومة المصرية، يلاقى الآن تأييدا على أعلى مستوى. وكان ذلك مهما أيضا، حيث إن الرئيس قد تنازل كثيرا عما ذكره عند زيارته للسفارة السوفييتية، فى رسالته لجورباتشوف. فقد أعلن مبارك، فى رسالته، عن "عدم جدوى ربط موضوع تصفية الديون العسكرية بموضوعات التبادل التجارى، والتعاون الاقتصادى، وتلبية احتياجات مصر العسكرية. وقد أوضح الرئيس أن هذا يتعلق بحوالى ٤٠٠ مليون جنيه إسترلينى، باقية فى حالة تجميد، ولا يتم استغلالها حاليا، كخطوة أولى لتلبية احتياجات مصر". وها هو الآن جورباتشوف رد برسالة وضعت كل شيء فى مكانه.

كيف كان رد فعل مبارك؟ فى البداية، طلب نقل شكره لجورباتشوف على رده السريع، ثم انتقل بعد ذلك إلى أساس الحديث. وأعلن، وأكد، نفس ما ذكره من قبل، من أنه دائما قد أعطى، ولا يزال يعطى، أهمية كبيرة للعلاقات مع بلدنا، وأنه يعترف ويحترم دور الاتحاد السوفييتى المميز فى الشئون العالمية، وأنه ينوى، تماما، الاستمرار فى طريق تنمية وتقوية العلاقات مع الاتحاد السوفييتي. ورغم أنه يوجد الكثير من الانتقادات للولايات المتحدة، فى رسالة جورباتشوف، فقد تجنب الحديث عن العلاقات "الأمريكية- المصرية". لكن رغم ذلك وجد مبارك أنه من الضرورى أن يؤكد أن مصر لا تسير فى ركاب السياسة الخارجية لواشنطن، وأنها لن تسمح لها أبدا بالتدخل فى شئون مصر الداخلية، وأوضح بشكل مباشر- أثناء وجوده فى أمريكا - أنه لا يمكن إقامة قواعد حربية للولايات المتحدة الأمريكية على الأراضى المصرية.

وبعد ذلك، انتقل الرئيس فورا إلى موضوع الديون. فأعلن أنه ليس من الواقع أن مصر ستتمكن من بدء تصفية الديون فى وقت قريب، نظرا لأن مصر تعانى من صعوبات اقتصادية ضخمة. لذلك يجب تأجيل السداد عشر سنوات. وبالإضافة إلى ذلك، فإن موضوع فائض الحساب التجارى يمثل له مضايقة سياسية

كبيرة، بصفته رئيسا. وبذلك جعلنى الرئيس أفهم أنه لا يزال مستمرا فى التمسك بالخط الذى لا نقبله، والذى عرضه فى رسالته لجورباتشوف. لذلك اضطررت للتدخل، ولتوجيه نظر مبارك إلى هذا الجزء من رسالة جورباتشوف، الذى يتحدث عن استعداد الجانب السوفييتى لإظهار نية حسنة؛ للبحث عن تسوية يقبلها الجانبان (شددت على قبول الجانبين). ولقد تكون فائض الحساب التجارى بمعرفة وموافقة حكومة جمهورية مصر العربية، وإلا ما كنا، ببساطة، لنأخذ الكثير من المنتجات المصرية. إذ إننا لا نستطيع أن نتناسى الديون، وهو ما ذكر بوضوح فى رسالة جورباتشوف، وإلا لكان ذلك غير عادل من كافة النواحي.

وتبع ذلك نقاش طويل نسبيا. عرض فيه الرئيس آراءه، وأنا أيضا عرضت آرائي. وعندما حللت بعد ذلك مسار النقاش، فهمت أن مبارك أراد أن يختبر صلابة موقفنا، وفى الوقت نفسه، أن يبين الصعوبات التى يواجهها، وأهمية ما اضطر فى النهاية إلى عرضه: أن يتم احتساب كل ما تجمع من فائض الميزان التجارى لتصفية الديون العسكرية، ثم يتم منحه فترة سماح لسبع سنوات؛ لتسديد المبلغ المتبقى من الدين، تكون فى خلالها التجارة على أساس متوازن تماما. وقال الرئيس "هذا هو مضمون موقفنا الذى عندى". ثم أضاف أنهم ينتظرون الوفد السوفييتى فى القاهرة قبل ٢٤ من يونية. ولم أكن واثقا من أن عرض الرئيس مناسب لموسكو، لكن على أية حال، لقد عدنا إلى الحساب الكامل لفائض الحساب التجاري، وأصبح من الواضح ما هو متعلق بالمدة التى يرغب الجانب المصرى فى أن يؤجل فيها دفع المبلغ المتبقى من الديون. وبالطبع، لم يعد يدور الحديث عن نسيان الديون ببساطة، كما كتب مبارك فى رسالته لجورباتشوف. وبذلك كانت المناقشة مفيدة، وقدمت بعض النتائج، التى هنأت نفسى عليها فى فكرى. وكتبت إلى موسكو إن اختيار مبارك، بخصوص دفع ٤١٠ مليون جنيه إسترلينى، وسبع سنوات فترة سماح لدفع باقى الدين، يستحق الدراسة، وإنه ليس من مصلحتنا أن

يتوقف مستقبل علاقاتنا مع مصر على هذا الموضوع، وإنه يجب البحث عن حل وسط.

انتقل الحديث بعد ذلك إلى الموقف فى الشرق الأوسط. وتم الحديث عن الاتفاق بين منظمة التحرير الفلسطينية والأردن، وعن سياسة سوريا فى لبنان ومع منظمة التحرير الفلسطينية، وعن الوضع فى لبنان نفسها. وتحدثنا كثيرا عن القذافي. وقد أدار بريماكوف هذا الجزء من الحديث مع مبارك، كما تم الاتفاق عليه من قبل. وقد كان الحديث، هنا أيضا، صعبا بدرجة كافية، حيث إن نظرة كل من موسكو والقاهرة إلى عدة أمور كانت مختلفة. لكن تمكن بريماكوف من إزالة الرواسب غير السارة التى كانت، غالبا، عند مبارك بعد علمه بالجزء الأول من رسالة جورباتشوف. وفى ذلك الوقت، كان الأخير لم يستطع بعد أن يتمكن من الموقف المعقد فى موضوع الشرق الأوسط ، ويبدو أنه قد وافق على نص الرسالة بشكله الذى قدم له. وكان يحمل الجزء المتعلق بالأمور الدولية، بوضوح، سمات الأسلوب المتبع فى "الميدان القديم"[1]. وإلا، فأنا أعتقد أن نغمة ومحتوى الرسالة كان يمكن أن يكونا مختلفين بعض الشيء، وألا يكونا مستفزين بهذه الدرجة.

عامة، كنت راضيا عن الطريقة التى سارت عليها المقابلة مع الرئيس، التى كانت المقابلة الرابعة لي. وقد اقتنعت، مرة أخرى، بأنه عنيد جدا فى الإصرار على مصالح بلده، وأنه، من جهة أخرى، يمكن الجدال معه، وأنه يستمع إلى مبررات محدثه. وأحسست أن إعجابى بمبارك كإنسان يتزايد مع كل لقاء. وأهم شيء أنى وثقت فى حقيقة رغبته فى أن يقود العلاقات مع بلدنا إلى مستوى جديد، رغم أن تنفيذ ذلك لم يكن سهلا لكلا البلدين. وقد كان يعرف ما الصعاب بالنسبة له أكثر من أى أحد آخر، لكن يبدو أنه كان يعرف أيضا صعابنا.

---

[1] مقر رئاسة الحزب الشيوعى السوفييتى بموسكو

وقد أمضينا مع الرئيس حوالى ساعة. وكان الصحفيون فى انتظارنا عند خروجنا من القصر. وقد أجاب بريماكوف على أسئلتهم. وقد ظهرت أخبارهم فى الصحف فى اليوم التالى. وبذلك انتهى الجزء الرسمى من زيارة "بريماكوف".

٤٠ سنة على النصر

أهم ما بقى فى ذاكرتى فى مايو عام ١٩٨٥، أنه فى التاسع منه مر ٤٠ سنة على النصر فى الحرب الوطنية العظمى. وبما أن مصر كانت من بين دول الحلفاء التى وقفت ضد هتلر، فإننا كنا نعتمد بحق على فهم السلطات المصرية لأهمية هذا التاريخ لنا. وقد تم إبداء الاهتمام. فعرض التليفزيون المصرى فيلما سوفييتيا عن مرور ٤٠ سنة على النصر. وأتيحت لى الفرصة لكى أتحدث من الإذاعة مع المصريين. وافتتحت مع وزير إعلام جمهورية مصر العربية معرضا خاصا، بشكل احتفالى، وقمنا بتبادل إلقاء الكلمات. ثم فى النهاية، أقمنا حفل استقبال كبير فى السفارة للمصريين ولأعضاء البعثات الدبلوماسية.. أقيم هذا الحفل فى المساء، فى الليلة السابقة للعيد، بحديقة مقر السفارة. وكان الضيوف كثيرين. وعلى أية حال لم يقل عددهم عما كان فى يوم ٧ من نوفمبر. بل إن المستوى كان أعلى من سابقه. وكان كل ذلك يدل على أن العلاقات السوفييتية - المصرية لم تكن واقفة فى مكانها. لقد نزعت زيارة حسنى مبارك للسفارة، فى شهر مارس، نهائيا حظر تعامل المواطنين المصريين مع ممثلى السفارة السوفييتية، وكان يمكن الإحساس بذلك (هذا لم يكن يعنى أن المخابرات المصرية قد خففت من مراقبة اتصالاتنا، لكن تغير الجو حول السفارة إلى الأحسن).

المناقشات مع رئيس الوزراء والشخصيات الأخرى

كان لى لقاءان فى مارس ويونيو مع رئيس وزراء مصر "كمال حسن على". فقد زرته فى مايو لكى أسلمه، رسميا، بيان اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى، ومجلس السوفييت الأعلى، ومجلس وزراء الاتحاد السوفييتى،

للشعوب، وللبرلمانات والحكومات، بمناسبة مرور ٤٠ سنة على انتهاء الحرب العالمية الثانية. وكانت سمة الحديث فى مواضيع السياسة الخارجية عامة فى هذه المرة. وقد نقل "على" الحديث بسرعة إلى الموضوعات التى كانت تؤرقه أكثر من غيرها، وركز على الوضع الاقتصادى لمصر، الذى لا يزال يسوء يوما بعد يوم. وكان يعتقد أن سبب ذلك هو استمرار انخفاض أسعار البترول، وما تبعه من انخفاض لنشاط الأعمال فى دول الخليج الفارسي. لذلك اضطر حوالى ٥٠٠ ألف مصرى، ممن كانوا يعملون فى منطقة الخليج، إلى العودة بسرعة إلى مصر. ولم يؤد ذلك فقط إلى انخفاض قيمة التحويلات النقدية، التى كان يحولها المصريون العاملون فى الخارج إلى مصر. لكن ذلك أدى، أيضا، إلى تعظيم مشكلة البطالة فى مصر نفسها. وبهذا الخصوص، عبر عن أمله فى أن الوفد السوفييتى، الذى سوف يقوم بالمباحثات بخصوص الديون، سوف يتلقى تعليمات على درجة كافية من المرونة، تراعى الصعوبات التى تعانى منها مصر.

ومن جانبي، قلت إن انخفاض أسعار البترول قد ضرب، أيضا، مصالح الاتحاد السوفييتى، وبصورة أقوى، ولذلك يجب إظهار التفهم من الجانبين لمصالح وإمكانيات بعضنا البعض. وانتهزت هذه الفرصة لكى أعدد لرئيس الوزراء أى خطوات ننتظرها من حكومة جمهورية مصر العربية؛ لإلغاء الإجراءات المهينة لنا (القنصليات والملحقيات). فقال "على" إن كل هذه الموضوعات موضع اعتبار الرئيس والحكومة. لكنه لم يزد على ذلك.

وكان اللقاء الثانى، فى يونية، مرتبطا بمباحثات "جروميكو" ووزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية فى فيينا، التى كان يدور فيها الحديث عن الأسلحة النووية، وحرب الفضاء، والأسلحة الكيميائية والموضوعات المرتبطة بها. وكان اختيارى "لعلى" لتوصيل هذه المعلومة أولا؛ لأنه رئيس الوزراء، وثانيا؛ لأنه جنرال عسكرى سابق. وبالفعل، أظهر اهتماما جادًا بالموضوع، ووجه لى أسئلة للاستفسار، وتحدث هو نفسه. وعامة كان حديثنا حسنا. وقد عاد رئيس الوزراء

إلى الكلام عن موضوعات التعاون الاقتصادى، فى نهاية الحديث. وفى هذه المرة، دار الحديث عن الزراعة. فتحدث "على" عن أن التعاون مع الاتحاد السوفييتى فى هذا المجال كان مثمرا جدا فى الماضي، وأنه تبين أن المعدات الزراعية التى وردناها تخدم لفترة طويلة، وأننا قد أنجزنا الكثير معا لاستصلاح أراض جديدة... إلخ. وقد أكدت استعدادنا لاستمرار التعاون بيننا، واهتممت بسؤاله عما إذا كان لحكومة مصر اقتراحات محددة فى هذا المجال. فقال رئيس الوزراء إنهم يدرسون ذلك، خاصة بعض الخطط المستقبلية لاقتحام الصحراء، ووضع خطة تنمية الاقتصاد المصرى فى المرحلة القادمة.

وقبل مقابلة شهر يونية مع رئيس الوزراء، كان لى حديث، فى مايو، مع نائبه، وزير التخطيط والتعاون الدولى "كمال الجنزورى". ذكر لى فيه أنه قد بدأ فى وضع الخطة الخمسية الثالثة للتنمية الاقتصادية بمصر لأعوام ١٩٨٧-١٩٩٢، التى تشمل بناء العديد من المشاريع الضخمة. وقد أعرب "الجنزورى" عن أمله فى أن الاتحاد السوفييتى سوف يشارك فى تنفيذها، كما كان يحدث فى الماضي. ونظرا لأنه لم يحدث حتى أى تلميح محدد بخصوص نوعية هذه المشاريع، فقد اضطررت لأن أذكر بأن للاتحاد السوفييتى اقتصادا مخططا، وأنه إذا كان الحديث يدور عن مشاريع ضخمة، فيجب أن يتم الاتفاق عليها مسبقا بفترة زمنية كافية؛ حتى يمكن مراعاتها فى خطة الدولة، فى الخطة الخمسية التالية. فقال الجنزورى إنه أعطى تعليمات لإعداد اقتراحات مناسبة. وبذلك لم يتم الحديث أبعد من ذلك مع المسئولين، حتى الآن، عن نواياهم المستقبلية، لكن كان لمجرد طرح هذه الأحاديث أهميته، خاصة أننا بيّنا من جانبنا استعدادنا الكامل للتعاون.

وقد قمت مع الباز "باستعراض للآفاق" فى آخر مايو. وكان من بين ما تحدثنا عنه سد الفجوات المتبقية من الماضي. حيث أكد الباز أن كل المواضيع التى سنضعها فى خطة رفع الإجراءات المهينة، سوف يتم إقرارها إيجابيا. وفى الوقت نفسه، قال إن القيادة المصرية سوف تقوم بذلك بالتدريج. وقال إنه سوف يكون من

الضرورى اختيار أنسب وقت لكل خطوة، بمراعاة الأوضاع الداخلية والخارجية. وكان ذلك واعدا جدا، لكنه لم يكن محددا من حيث الطول الزمنى لهذه العملية، أو تتابع الخطوات. وقد حاولت أن أحصل من محدثى ولو على تلميح عن سمة وتوقيت أول خطوة، لكنى لم أنجح فى ذلك.

لكن، وكما يقال، فإن "الماء يسن الحجر": ففى منتصف يونية، قال لى نائب وزير الخارجية، المسئول عن العلاقات مع الاتحاد السوفييتى "بدوى"، إنه فى المستقبل القريب سوف يكون عنده ما يقوله لى بخصوص إلغاء الإجراءات التعسفية. وتبين أن "هذا الوقت القريب" هو سبتمبر. لكن هذا الموضوع سابق لأوانه، حيث إن موضوع اليوم هو المباحثات بخصوص الديون. ولقد تم تأجيلها أسبوعا واحدا، بناء على طلب الجانب المصري. وبدأت فى ٣ يولية.

أول جولة فى مباحثات الديون

رأس الوفد السوفييتى رئيس إدارة بنك دولة الاتحاد السوفييتى، الوزير "ف. س. ألخيموف"، بينما رأس وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية "سلطان أبو على" الوفد المصرى. ولم يكن المسئولون بوزارة الخارجية أو أنا، بصفتى سفيرا، أعضاء في الوفد. ولقد طلبت بنفسى عدم إدخالى فى عضوية الوفد، حتى تكون يدى حرة فى المستقبل، لأنى لم أكن أعتقد فى إمكان اتفاقنا بعد جولة مباحثات واحدة، حيث إننى كنت أعرف، تقريبا، ما سيأتى به وفدنا. وكان الموقف الذى عرضه علىَّ المصريون كما يلي: "تسديد الديون عن طريق فائض الحساب التجارى المتراكم، ودفع ما يتبقى منه على دفعات متساوية فى خلال ١٥ سنة، بدءًا من عام ١٩٨٦". وقد كان الجانب السوفييتى على استعداد تام لتقديم قرض لإعادة التمويل، بفائدة سنوية ٥%. وكان يقترح أن تتم تصفية الديون طبقا لحساب العملة الصعبة، على أساس سعر الروبل، الذى يحدده بنك الدولة بالاتحاد السوفييتى، ثم تستخدم بعد ذلك هذه المبالغ لشراء بضائع مصرية. ببساطة، كان من المقترح ألا

تسدد مصر قيمة الديون بتوريد بضائع، طبقا للسعر الذى حددته هى لنفسها فى عهد السادات، لكن طبقا لسعر العملة فى بنك الدولة السوفييتي.

وبمجرد أن سمع المصريون رد فعل موسكو على طلب مبارك تجميد دفع الديون، التى لم يتم تسديدها، لمدة سبع سنوات، حدث تغيير جذرى لموقفهم، وكان هذا الرد يتلخص فى: لا يتم دفع أية ديون من فائض الحساب التجاري، حيث يجب على موسكو القيام بتسديد قيمته، وأن يتم تأجيل الديون المصرية الخاصة، كما يجب أن تكون نسب الفوائد مثلما هى فى شروط الاتفاقيات التى سبق أن تم توقيعها. حتى أن "ألخيموف" لم يحاول استخدام الموقف البديل الموجود لديه، لأنه على أية حال، لم يكن سيحل المشكلة. وأصبح من الواضح أنه ليس من الممكن الاتفاق على ما يخص الموضوع الرئيسى (دفع الديون) فى هذه المباحثات، لذلك تم الاتفاق على تأجيله إلى الخريف. على أية الحال، فقد كانت هذه الجولة مفيدة بعض الشيء، فقد حدد المصريون التقدم فى موضوع السياسة المهينة التى طبقها السادات مع الاتحاد السوفييتى بخصوص الجنيه المصري، حيث إنهم تقبلوا (مرة أخرى من حيث المبدأ) الرغبة فى العودة إلى التجارة طبقا للأسعار العالمية، ووعدوا بالتفكير من أجل الانتقال إلى توقيع اتفاقيات تجارية لمدة خمس سنوات. وقد جرت مباحثات بين "ألخيموف"، ورئيس الوزراء، ووزير الخارجية. ولم يكن أى من الجانبين يرغب فى تأزيم الموقف، كما أنهما لم يتمكنا من التوصل إلى أرض محايدة، أو حل مناسب؛ بسبب المواقف المعلنة، التى تبين عدم إمكانية تلاقيها فى الوضع الحالي. فاتفق الجميع على ضرورة عمل استراحة؛ لكى تتم مرة أخرى دراسة إمكانية إيجاد حل وسط، وهو ما أكد أهميته كل من الجانبين.

مع وزير الزراعة المصرى فى المزرعة الحكومية "الصداقة"

سأتحدث، الآن، عن مسئول مصرى آخر تعاملت معه كثيرا، وبقيت فى ذاكرتى أحسن الذكريات عنه. كان الدكتور "يوسف أمين والى" تقريبا فى مثل

سنى. وكان "سمينا، متوسط الطول، أصلع، عظام وجهه عريضة، مبتسما". وكان يستشف من نظرته الذكاء والسخرية والنقد. وإذا ألبسناه الملابس الأوزبكية، كان سيشبه "الحاج نصر الدين"كما نتصوره، طبقا لرواية "سلافيوف" والفيلم السوفييتى القديم، الذى لعب فيه "سفردلين" الدور الرئيسي. وقد شغل والى، فورا، عدة مناصب مهمة؛ فقد كان نائبا لرئيس الوزراء، ووزيرا للزراعة والتموين، ونائب الأمين العام للحزب الحاكم، وأمينه العام اعتبارا من سبتمبر ١٩٨٥.

وعن طريق أحد هذه المناصب، تعامل، أيضا، مع السلك الدبلوماسي، فقد كان هو المسئول الرفيع الوحيد، بالإضافة إلى مسئولى وزارة الخارجية، الذى كان ينظم احتفاليات بروتوكولية للدبلوماسيين.

وكان ذلك يتم، عادة، على هيئة حفلات شاى مسائية، بها وفرة من الحلويات الشرقية والحلويات الأخرى. وكان كثيرا ما يحضر حفلات الاستقبال بالسفارة. وكنا كثيرا ما نتقابل، وكان دائما يوجد لدينا ما نتحدث عنه. لقد شعرت بسرعة بقربه منى. وكنت أرجع ذلك، أساسا، لميله كما يبدو لبلدنا. لقد ذكر فى مرة أنه قد زار كل جمهوريات الاتحاد السوفييتى عدا كازاخستان، وأنه قد قطع كل الطريق العابر لسيبيريا من أوله إلى آخره. وكان التحدث معه شيقا، فقد كان مثقفا جدا، ملما بالكثير، كما أن فكره كان سليما. وكما قال لى: كان له سبعة أخوة وأختان، وكانوا جميعا يعيشون تحت سقف واحد مع عائلاتهم. وكان هو نفسه غير متزوج، وكان يحضر إلى كل الحفلات بمفرده. وكان يعرف حياة الفلاحة منذ صغره. كما قال لى إن عائلته كانت تمتلك الحد الأقصى من الأراضي. وقد استنتجت من ذلك أنه كان ثريا تماما، حتى بدون رواتب الوزارات التى كان يتلقاها. وكان يقول إن العمل هو هوايته الوحيدة. وغالبا كان ذلك صحيحا.

وكانت الزراعة وتموين الشعب بالمواد الغذائية عملا صعبا فى ظل الظروف الشاقة بمصر. لقد ولى الزمن الذى كانت تطعم فيه مصر، تقريبا، الإمبراطورية الرومانية كلها، بلا عودة. فقد أصبحت، الآن، مصر مضطرة

لاستيراد المواد الغذائية من دول أخرى، وبكميات كبيرة. وفي خلال سنواتى بالقاهرة كانت مصر تستورد ٧٥% من احتياجاتها من الدقيق والقمح، و٤٥% من اللحوم، و٣٠% من الأسماك، و٦٠% من الزيوت النباتية والشحوم، و٥٠% من السكر. عامة، كانت تستورد ٦٠% من إجمالى احتياجاتها من المواد الغذائية. ولم يكن سبب ذلك انهيار الزراعة في مصر، لكنها لم تكن تستطيع ملاحقة الزيادة فى عدد السكان. فقد أصبح القرن العشرون شاهدا على انفجار سكانى كبير. فقد زاد تعداد مصر فى الثمانينات بمقدار ١.٢ مليون فرد فى السنة. وقد وصل تعدادها أثناء وجودى هناك إلى ٥٠ مليون فرد. وكان تعدادها فى عام ١٨٨٢ فقط ٩ ملايين، وفى عام ١٩٢٧ وصل إلى ١٤ مليونا، وفى عام ١٩٦٠ وصل إلى ٢٦ مليونا. وفى ظل معدل تزايد السكان فى مصر، فإنه يتضاعف كل ٣٠ سنة، فى نفس الوقت الذى لا تزيد فيه، تقريبا، الأرض الصالحة للزراعة. ورغم أنه قد بذلت جهود كبيرة فى القرن العشرين لكى يتم اقتحام الصحراء، إلا أن الأجزاء التى يتم استصلاحها تعوض فقط الفقد المحقق فى الأراضى الزراعية، التى يبتلعها نمو المدن الذى لا يمكن السيطرة عليه.

ومصر بلد صناعى زراعي. وقد أعطت الزراعة ٢٠% من الدخل القومى، ويعمل بها ٣٧% من سكانها. ونظرا للمناخ شديد الحرارة والجفاف فى مصر، فإن الزراعة لا يمكن أن تتم إلا بالرى، وهذا يعنى أنها تحتاج إلى عمل شاق. لكن الأرض منتجة طوال العام، وإذا كانت الأرض لم تبر حتى الآن، فإن ذلك يرجع أولا إلى دورة الزراعة، التى تمت تجربتها على مدى قرون طويلة، وثانيا إلى الأسمدة المضافة. وقبل ذلك كانت الأسمدة هى طمى النيل، أما الآن وبعد توقف فيضان النيل، فإنها أساسا أسمدة كيميائية، أى مستوردة. وقد كان "يوسف والى" يشكو من أن دخل الفلاحين المنخفض يؤدى إلى عدم إضافة الأسمدة بالقدر الكافي، وهو ما سيكون له نهاية سيئة.

وعمل الفلاح مرهق، ليس فقط لأنه لا توجد فترات راحة موسمية، لكن لأن الفأس تمثل أداته الرئيسية، مثلما كان فى الماضي، وأنه ليس فى قدرة غالبية الفلاحين امتلاك المضخات الكهربائية للرى. وترفع المياه من قنوات الرى إلى الأراضى الزراعية باستخدام الشادوف، والسواقى، والطنبور، كما كان يحدث من قديم الزمان. و"الشادوف" مماثل لما يوجد فى ريفنا، لكن المياه هنا لا ترفع من آبار، بل من قنوات صناعية. و"السواقي" آليات أكثر تعقيدا. وهى تدار بواسطة جاموس يقوده شخص ما، ويسير فى دائرة. وتنتقل حركة دوران العجلة الأفقية، بواسطة ترس مسنن، إلى عجلة رأسية كبيرة بها مغارف. أما "الطنبور" فهو أيضا آلية عمل يدوى شاق، يتم فيها رفع الماء من مستوى إلى مستوى آخر، عن طريق إدارة أسطوانة خشبية بها قنوات ملتوية. ولقد شاهدت كل ذلك أثناء زيارتى لإحدى القرى بوادى النيل، بدعوة من أحد السياسيين المصريين الذى لا يزال يحتفظ هناك بمنزل أبيه. وقد أمضيت معه هناك يوما كاملا، وتجولنا كثيرا فى المنطقة. وأرانى الظروف التى يعيش ويعمل فيها الفلاحون. ولم يكن هو نفسه يعمل بالزراعة، لكنه كان يؤجر الأرض التى ورثها. وقد بقى لدى انطباع حزين من كل ما شاهدته، رغم أن القرية لم تكن فقيرة، وأن الفلاحين الذين قابلناهم كانوا يبتسمون لنا مرحبين.

وتسود الملكية الزراعية الصغيرة فى مصر، وهى تعتمد على عمل الفلاح وعائلته بأنفسهم. لكن توجد أيضا مزارع حديثة وكبيرة (طبقا للمقاييس المصرية) يعمل فيها أجراء، رغم أن الكثيرين من ملاك الأراضى يفضلون العمل بالأساليب القديمة. أى أنهم يؤجرون الأرض للفلاحين الذين يملكون مساحات أرضية صغيرة، أو الذين لا يملكونها. وقد ظهرت الشركات الحكومية الزراعية فى عهد ناصر، لكنها لم تكن فى المناطق القديمة، بل فى الأرض التى تم استصلاحها. وقد وعد يوسف والى، فى أحد أحاديثنا الأولى، بأن يدعونى لزيارة إحداها. وقد تحققت تلك الفكرة فى بداية شهر مايو.

وعندما حضر إليّ المستشار الاقتصادى "شيفانكوف"، واثنان من مترجمينا لمصاحبتى، ذات صباح سطعت فيه الشمس تماما، كان يوجد فى الحافلة مع يوسف والى عدة أشخاص آخرين. وكان أحدهم يحمل آلة تصوير تليفزيون من النوع الخاص بالمحترفين. وقد اتضح أن والى لم يكن ينوى فقط أن يرينا المشروع الذى تم تنفيذه بمساعدة الاتحاد السوفييتي، لكنه كان ينوى، أيضا، أن يصور كل ذلك. ولا أزال أحتفظ، حتى الآن، بهدية يوسف والى، وهى عبارة عن فيلم تم تصويره طبقا لكل الأصول، مصحوبًا بنص (للأسف باللغة العربية فقط) وموسيقى.

وقد كان طريقنا عبر الصحراء فى اتجاه الإسكندرية. وفى منتصف الطريق، تقريبا، انحرفنا إلى اليمين، فوجدنا أنفسنا على الأرض الجديدة التى ظهرت فى عهد ناصر "مديرية التحرير"، والتى أنشئت على الأراضى التى تم استصلاحها حديثا (كانت تمثل ٣٠٠ ألف هكتار فقط). وكان يصل إليها الماء بواسطة محطات مضخات من قنوات تم حفرها خصيصا. وقد أصبحت الآن هذه الأرض، التى كانت فى يوم ما صحراوية، مغطاة تماما بالزراعات، بما فيها أشجار حدائق عالية، بقدر ما نمت، أساسا، على جانبى الطرق الإسفلتية المستقيمة. كما أننا قابلنا، أيضا، حدائق حقيقية. وكان الوضع هنا كما فى أى مكان فى مصر، فحيث يمكن أن تكون هناك حياة نباتية، لا توجد أرض فضاء. وكانت الزراعات المختلفة تغطى كل الأراضي. لكن هنا كانت للحقول أشكال هندسية أسلم، كما أن مساحاتها كانت أكبر قليلا من العادة. وكما فهمت، كانت ملك الحكومة أو تعاونيات الفلاحين. وقد تميزت المنازل بشكلها الخاص، فهى كانت على شكل بيوت خلوية صغيرة. وكانت كل القرى متشابهة تماما حيث إن المنازل كانت متماثلة تماما؛ لأنه تم تنفيذها بتصميم واحد. باختصار، كان ذلك مثالا لمحاولة إعادة بناء حياة الريف على مستوى أحدث. لكن تغيير الأمور والعلاقات الاقتصادية التى ترسخت فى القرية ليس بهذه السهولة. وقد بقيت مديرية التحرير التى بذل فيها جهد كبير، ووضعت فيها موارد حكومية كبيرة، كجزيرة فى محيط من آلاف القرى المصرية،

التى استمرت فيها الحياة على المنوال نفسه الذى كانت عليه من مئات السنوات، عدا بالطبع أن المنازل الطينية أصبحت تنار بالمصابيح الكهربائية، وأنه كان يوجد بها أجهزة راديو وتليفزيون (أندر).

وقد تم إنشاء مديرية التحرير بمساهمة كبيرة، ومتعددة الأشكال، للاتحاد السوفييتي. فقد تم بناء كل من محطة المضخات، وشبكة قنوات الرى، والطرق، ومبانى القرى، والورش، والكهرباء، بمساعدة خبرائنا، وباستخدام معداتنا. وكان المشروع، الذى نزوره، عبارة عن هدية من الاتحاد السوفييتى لشعب مصر. فقد تم توريد كل احتياجات هذا المشروع مجانا. ومن هنا، جاءت تسمية المشروع بكلمة "الصداقة".

وكان من الواضح أنه لم يتم أخذنا إلى هناك مباشرة، لكن درنا فى المنطقة قليلا؛ حتى نستخلص تصورا كاملا عما عليه المديرية الجديدة. أما فى طريق العودة، فقد وصلنا إلى الصحراء بسرعة جدا. وكانت كل الرئاسات المحلية فى انتظارنا فى "الصداقة"، حيث إن زيارة الوزير، الذى كان أيضا نائبا لرئيس الوزراء، تمثل حدثا لا يتكرر إلا مرة كل سنة، وكذلك زيارة الدبلوماسيين السوفييت. لذلك شاهدنا المشروع فى مجموعة كبيرة.

وكما هو متبع عندنا أيضا، كانت الرئاسة المحلية ترغب فى عرض البضاعة - وفى نفس الوقت- الشكوى؛ اعتمادا على كرم الوزارة، وأملا فى الحصول على مساندة مالية، بما فيها مساندتنا. لكن كل ذلك لم يكن جديدا على يوسف والى، فقد بدا لى أنه كان شديدا، لكن فى حدود. وقد يكون مراعيا لوجودنا، أو على الأدق، لوجود فليكوف ومترجم آخر يفهمان ما يدور من حديث.

وقد عرضت علىَّ آلات الورش السوفييتية فى ورش إصلاح المعدات، وكانت كلها تعمل. وقد تم مدح قدرتها على الأداء. ورأينا فى الحقول معداتنا الزراعية التى كانت تعمل بها. لكن كانت هناك شكوى من صعوبة الحصول على

قطع الغيار. وللتغلب على هذا الوضع، كان يتم تصنيع بعض قطع الغيار يدويا، هنا فى الموقع. وقد شاهدت سياراتنا "الزيل" فى الجراج وعلى الطرق. وكانوا راضين عنها، لكنهم كانوا أيضا يشكون من نقص قطع غيارها. ودون "شيفانكوف" كل الشكاوى رغم أنها لم تكن موجهة له، لكن لمن كان عليه شراء قطع الغيار. كان المشروع كبيرًا ومتعدد المجالات. لكن كانت زراعة النباتات مجاله الأساسى. وكما هو متبع فى مصر، كان هنا أيضا يعمل بدورة ثلاث سنوات، تتتابع فيها زراعة القطن والقمح والذرة والخضروات والبرسيم.

وتجولنا تحت الشمس كثيرا؛ لأن والى كان طوال الوقت يريد أن يرينا شيئا آخر، وأن يشرح ما يتم عمله، وكيف يتم ذلك؟ ولماذا تستخدم هذه الطريقة بالذات فى مصر دون غيرها؟ وأثناء ذلك كان دائما يقارن مع الخبرة السوفييتية، خاصة مع جمهوريات آسيا الوسطي. وكان من الواضح أن سفرياته إلى الاتحاد السوفييتى لم تكن من أجل السياحة. فعلى سبيل المثال، امتدح آلاتنا المستخدمة لجمع القطن، حيث أثبتت كفاءتها جيدا فى مصر. كما أنه أعطى تقييما جيدا لمتانة وقوة تحمل مكينات حصاد القمح والجرارات. لكنه ركز - بصفة خاصة - على ضرورة إعادة العلاقات بأقصى حجم ممكن؛ للتعاون فى استصلاح الأراضى الجديدة، ومكافحة التصحر. وقد شكى من أن هذه المشكلات الحادة المصرية لا تهم الأمريكان، ولو بصورة بسيطة. فالولايات المتحدة الأمريكية لم تقدم أية استثمارات فى هذا المجال، على طول سنوات الانفتاح. وقد تحدثنا - بصفة خاصة - عن استمرار التعاون فى مجال المضخات (الأمر الذى كان يسير بطريقة جيدة فى ذلك الوقت أيضا)، وعن بناء محطات القوى الكهربائية للمناطق الريفية. لكن كرر والى، مرة أخرى، (فقد تحدثنا معه عن ذلك أيضا فى شهر ديسمبر) أنه يجب تنشيط تبادل وفود الخبراء فى مختلف المجالات الزراعية.

وانتهت زيارتنا "للصداقة" بغداء متأخر بمبنى الإدارة المحلية. ولم يتم الأمر دون إلقاء كلمات. وكان مرضيا أن نسمع كلمات جيدة موجهة لبلدنا والخبراء

السوفييت الذين عملوا بجد على الأرض المصرية. وفى طريق العودة، تحدثنا، أنا ويوسف والى، فى موضوعات أخرى هذه المرة. وكنت تحدثت معه من قبل أيضا عن تزايد الكسود فى العلاقات السوفييتية المصرية. والآن مرة أخرى، ذكرته بها، وشرحت موقفنا من مشكلة الديون، ومن طرق حلها، التى من أجلها نحصل من مصر على بضائع (بأسعار مبالغ فيها) مثل "البرتقال، البصل، الثوم، النبيذ". وكان ذلك كله يهمه بصفته وزيرا. وتناولت موضوعا آخر هو إعادة تكوين جمعية الصداقة المصرية السوفييتية فى مصر. فعلت ذلك، حيث إن والى كان رئيسا لجمعية الصداقة المصرية الصينية، وإنه كان عنده صلاحية تامة للحديث عن هذا الموضوع فى كل من الحكومة، ورئاسة الحزب الحاكم، على الأقل من حيث "التوازن" بين موقف مصر من هذا الموضوع تجاه "الاتحاد السوفييتي" و"جمهورية الصين الشعبية". وقد وعد والى بجس نبض الرئاسة لإعادة الجمعية. وقد ذكر أنه، بصفة شخصية، لا يرى أية موانع، من حيث المبدأ.

وقد تمت زيارتنا ليوم واحد لمديرية التحرير على النحو الذى ذكرته.

الباب السابع
متابعة سياسة مصر الخارجية

تحتل متابعة علاقات مصر مع الدول الأخرى مكانة خاصة فى العمل اليومى بالسفارة، خاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية، التى "تلاكم" معها الاتحاد السوفييتى، فى ذلك الوقت، فى كل الحلبات الدولية، خاصة فى الشرق الأوسط، وبنشاط كبير. ثانيا، كان هناك اهتمام كبير موجه لسياسة مصر نفسها فى هذه المنطقة. ثالثا، كانت هناك أهمية خاصة لموقف جمهورية مصر العربية من المواضيع الدولية الهامة بالنسبة لنا فى ذلك الوقت، مثل "أفغانستان". وكان مطلوبا جمع المعلومات المتعلقة بكل هذه المواضيع، وتحليلها، وإرسال ملاحظاتنا إلى موسكو، وتقديم الاقتراحات. ومن ناحية أخرى، توصيل وجهات نظر وتقييم موسكو بخصوص كافة المواقف الدولية للرئاسة المصرية، ولوزارة الخارجية، وفى خلال ذلك، الاجتهاد من أجل التأثير على موقف مصر منها. وقد كنت أنا، أيضا، أقوم بذلك مع الوزير المفوض والدبلوماسيين الآخرين، خاصة العاملين فى إدارة السياسة الخارجية، التى كان يرأسها المستشار "ألكسى بوريسوفيتش بودتسيروب".

حالة العلاقات الأمريكية المصرية

وسأبدأ بالعلاقات الأمريكية المصرية، التى صنفتها القاهرة نفسها بأنها "خاصة".. لقد ورث مبارك عن السادات ارتباطًا سياسيًا واقتصاديًا وغذائيًا وعسكريًا قويًا جدا لمصر بالولايات المتحدة الأمريكية. ولم يكن هناك هذا الارتباط فى عهد ناصر. فقد كانت الروابط السياسية والعسكرية مع واشنطن ضعيفة فى هذا الوقت. وكانت التجارة محدودة. كما أن المساعدة الاقتصادية، التى كانت تقدمها الولايات المتحدة الأمريكية رغم ذلك، كانت فى حدود ٣٠ مليون دولار سنويا،

وهو ما كان يمثل قيمة تافهة جدا بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية. وبعد "حرب الأيام الستة" فى عام ١٩٦٧، عندما فقدت مصر بترول سيناء ودخل قناة السويس، أصبحت الدول العربية تقدم للقاهرة مساعدة اقتصادية فى حدود واحد ونصف مليار دولار، تقريبا، سنويا. وقد توقفت هذه المساعدة بمجرد قيام السادات بالاتفاق المنفصل مع إسرائيل. وقد اضطر الأمريكان لأن يعوضوا هذه الخسارة، ثم بعد ذلك، إلى أن يزيدوا كل عام المنح المقدمة للاحتياجات المدنية والعسكرية إلى ملياري دولار.

لقد بدأ برنامج المساعدة الاقتصادية الأمريكية لمصر منذ عام ١٩٧٤، عندما أعيدت العلاقات الدبلوماسية بين واشنطن ومصر، التى كانت قد قطعت فى عام ١٩٦٧. وكان سبب تقديم هذا البرنامج هو تحفيز التحول النهائى للسادات تحت اللواء الأمريكي. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية قد قدمت، فى إطار هذا البرنامج، حوالى ثمانية ونصف مليار دولار حتى عام ١٩٨٤. ومنذ عام ١٩٧٧، خصصت قيمة ثلث إلى نصف حجم المساعدة الأمريكية، فقط، لتغطية تكلفة استيراد البضائع من الولايات المتحدة الأمريكية، مما أفقد مصر إمكانية استخدام هذه الأموال لأغراض أخرى. وكان الهدف واضحا، وهو ربط الاقتصاد المصرى، بصورة أقوى، بالاقتصاد الأمريكي. وأصبحت التوريدات من الولايات المتحدة الأمريكية تمثل ثلثى ما تستورده مصر من المواد الغذائية الهامة؛ فقد كانت تغطى ٤٠% من الاحتياج للخبز من القمح الأمريكي. وكان من نتيجة ذلك أن الاقتصاد المصرى قد أدمن المعونة الاقتصادية الأمريكية، خاصة الغذائية، بل إنه لم يكن يستطيع الاستغناء عنها. وكانت واشنطن تسعى لذلك. ومن المفهوم كذلك أن البنك الدولى للبناء والتنمية، أو صندوق النقد الدولى، لم يكونا يمنحان أية قروض لمصر دون موافقة واشنطن. فقد كانت شروط مثل هذه القروض تعتمد، فعليا، على الولايات المتحدة الأمريكية.

وكانت تستخدم، تقريبا، نصف قيمة معونة المليارين لتوريد المعدات العسكرية لمصر، من معدات وذخائر، وكذلك لدفع مرتبات المدربين والخبراء العسكريين الأمريكيين. وقد زادت قيمة المعونة العسكرية السنوية، بعض الشيء، مع مرور السنوات، لكن بقدر بسيط. فقد وصلت فى أعوام ١٩٧٩-١٩٨٤ إلى ٦.٥ مليار دولار. أما فى العام المالى ١٩٨٥، فقد تم تحديدها لتكون ١.١٧٥ مليار دولار. هل هذا كثير أم قليل؟ كانت الصورة معبرا عنها ماديا كما يلى، طبقا لمعلوماتنا: من عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٨٤، حصلت مصر من الولايات المتحدة الأمريكية على ٨٠٠ دبابة، وحوالى ١٤٠٠ سيارة مدرعة، و٤٠ طائرة مقاتلة F-16، وأكثر من ٣٠ طائرة قاذفة مقاتلة. وفى نفس الوقت، كانت معدلات إعادة التسليح باستخدام معدات جديدة قد بقيت عامة غير عالية. وكان يثير مصر أن واشنطن لم تكن ترغب أبدا فى وضع مصر وإسرائيل على مستوى واحد، من حيث حجم ونوع السلاح المورد لهما.

ورغم أن جزءًا كبيرًا من المعونة العسكرية، و٢٥-٣٠% من المعونة الاقتصادية، كانت، عامة، عبارة عن منح لا ترد، إلا أن ديون مصر للولايات المتحدة الأمريكية تزايدت باستمرار. وقد حدث، تقريبا، نفس الشيء مع الدول الرائدة بأوروبا الغربية، ومع الهيئات المالية الدولية. وكانت زيادة الديون مرتبطة أيضا بالعجز الحاد فى التجارة المصرية الخارجية. وفيما يلى بيان لما آلت إليه تجارة مصر مع الولايات المتحدة الأمريكية، على سبيل المثال. كان إجمالى حجم دورة التجارة مع هذا البلد فى عام ١٩٧٠ لم يتعد ١٠٠ مليون دولار، إلا أنه نما فى خلال العشر سنوات التالية بمقدار ٢٥ ضعفًا. وقد بلغ إجمالى ما صدرته الولايات المتحدة الأمريكية لجمهورية مصر العربية فى عام ١٩٨٤ مبلغ ٢.٧ مليار دولار بينما كان الاستيراد منها فى حدود ١٦٩ مليونا فقط. كان ٩٠% منه عبارة عن بترول مصري. ولم تنجح محاولات مصر لجعل الأمريكان يستوردون البضائع المصرية الأخرى بصورة أكبر.

أما ما يخص إجمالى ديون مصر الخارجية، فيتم تداول أرقام متفاوتة. فطبقا للبيانات المصرية الرسمية، فقد كانت تساوى ٢٤ مليار دولار فى عام ١٩٨٥. أما طبقا لبيانات المعارضة، فهى تمثل ٣٠.٨ مليار دولار. أما السفير الإنجليزى "ألان أورفيك"، فقد قدرها بمبلغ ٣٤ مليار دولار، فى خلال حديثه معى. ويمكن تفسير الفرق بأنه ناتج من طريقة الحساب (فهل أخذت فى الاعتبار الفوائد أم لا؟ ومدة الدين؟... إلخ). لكن على أية حال، وبغض النظر عن طريقة الحساب، فإن إجمالى المبلغ كان ضخما، بالنسبة للاقتصاد المصري، وكان ذلك، أساسا، بسبب الدين للولايات المتحدة الأمريكية.

وفى خلال سنوات حكم السادات، رسخ الأمريكيون وجودهم فى جمهورية مصر العربية. وظهر لهم رجال فى الكثير من الهياكل المصرية، وتكون لوبى سياسى قوى. وأصبحت تعمل فى مصر حوالى ٤٠٠ شركة أمريكية (رغم أن ١٥ فقط منها كانت فى مجال الإنتاج)، وأصبح الوجود العسكرى الأمريكى عنصرا مهما رغم أنه لم يعلن على الملأ. نعم لم تكن توجد قواعد عسكرية يتحكم فيها الأمريكيون تماما، لكن كان الأمريكان يستخدمون، فى حدود معينة، بعض القواعد العسكرية الجوية والبحرية، مثل قاعدة "راس بناس"، على ساحل البحر الأحمر. وكان يوجد باستمرار ١٢٠٠ من الجنود الأمريكيين فى سيناء، يمثلون، تقريبا، نصف القوات متعددة الجنسيات، الموجودة هناك لضمان أمن كل من مصر وإسرائيل. وأصبحت التدريبات العسكرية الأمريكية المصرية سنوية تقريبا، وكانت عبارة عن تدريبات للقوات البرية "برايت ستار"، أو تدريبات عسكرية بحرية وتدريبات عسكرية جوية "سى ويند". وبالطبع كان كل ذلك لا يعجب موسكو، ففى كل مرة كان يرتفع الضجيج فى الصحافة؛ بسبب التدريبات، ودخول سفت الأسطول السادس الأمريكى إلى الموانئ المصرية... إلخ.

وقد توافقت سنوات عملى فى مصر مع الفترة الأولى لرئاسة "رونالد ريجان"، عندما بولغ فى استخدام تعبير "إمبراطورية الشر"، وتعامل بشدة زائدة مع

الاتحاد السوفييتي. وأدى تزايد "الحرب الباردة" إلى زيادة الروح العدائية لأمريكا، التى عمت فى كل اتجاهات السياسة الخارجية السوفييتية. كما أنها ألقت بظلالها على مصر، التى كان يتم التعامل معها بمعيار علاقاتنا مع الولايات المتحدة الأمريكية. وأدى ذلك إلى "حيود بؤرة" الوضع الحقيقى فى مصر بعض الشيء، وإلى التقييم السلبى له، رغم أن الوضع فى البلد كان أكثر تعقيدا، كما أن علاقات القاهرة نفسها بواشنطن كانت متعارضة.

ومن المفهوم أن حكومة مصر كانت تحاول زيادة حجم المعونة الأمريكية، وتحسين شروطها، وأنها حققت هنا بعض الإنجازات. فقد زادت المعونة العسكرية، وأصبحت اعتبارا من عام ١٩٨٥ منحة لا ترد. لكن تم هذا التقدم بكثير من الصعوبات، وبزيادة المرارة لدى المفاوضين المصريين الأساسيين. واضطر أعضاء الرئاسة المصرية إلى أن يتواجدوا فى واشنطن أكثر مما تواجدوا فى أية عاصمة أخرى. فعلى سبيل المثال، طار مبارك نفسه فى عام ١٩٨٥ إلى هناك مرتين، بالإضافة إلى زيارات رئيس الوزراء، ووزراء الدفاع والخارجية، والشخصيات الرسمية الأخرى.

وكانت توجد الكثير من الخلافات فى وجهات النظر بين القاهرة وواشنطن. فكان لا يعجب الأمريكان أن القوى الساداتية لم تعد مؤثرة بنفس القدر السابق، وأن مبارك اتخذ إجراءات لتقوية القطاع العام فى الاقتصاد، بدلا من أن يحله، وأن مصر استمرت فى استصلاح الأراضى الصحراوية، وأنه زاد من رقابة الدولة على نشاط البنوك، وعلى العمليات المالية، وأنه يقاوم طلبات الولايات المتحدة الأمريكية، وهيئات المال الدولية؛ لإلغاء دعم الدولة للمواد الاستهلاكية الضرورية للشعب... إلخ. ومن جانبهم، نجح المصريون فى الحصول على موافقة واشنطن لتخفيض الديون (تم ذلك جزئيا فقط فى عامى ١٩٩٠-١٩٩١، عندما كانت واشنطن محتاجة جدا لتأييد مصر؛ نظرا لموقف احتلال العراق للكويت).

وكانت توجد أيضا خلافات فى مجال السياسة الخارجية. لم تكن تتعلق، فقط، بعلاقات مصر مع الاتحاد السوفييتى، لكن مع إسرائيل أيضا، ومع منظمة تحرير فلسطين. كما أنها طالت بعض سمات السياسة الخارجية المصرية الأخرى. وفى الواقع، لم تكن العلاقات بين واشنطن والقاهرة علاقات بين صاحب العمل والزبون، التى يعطى فيها أحدهم أوامر، ويقوم الثانى بتنفيذها. وللاقتناع بذلك، يكفى النظر إلى تصرفات مصر فى هيئة الأمم المتحدة، التى اختلف فيها موقف مصر مع الموقف الأمريكى عند التصويت على القرارات، أكثر مما اتفق معه (كان اتفاق تصويت البلدين يتم فقط فى خمس حالات).

وفى خلال المناقشات الرسمية مع القادة المصريين، ومع وزارة الخارجية، لم أكن أتطرق إلى مواضيع علاقات بلدهم مع أمريكا بمبادرة منى، حيث إنى كنت أرى أن اقتحامى لهذا الموضوع المؤلم لهم سوف يصعب من مهمتى، بدلا من أن يسهلها. وكنت أجتهد لكى أبين أننى موجود هنا لتحسين علاقات الاتحاد السوفييتى مع مصر، وليس لبث الخلافات بينهم وبين أمريكا. وكان محدثىَّ يجتهدون هم أيضا لتجنب هذا الموضوع الحساس. لكن فى بعض الحالات الفردية، كان يظهر فى كلامهم عدم رضاء عما تقوم به أمريكا من تصرفات بحرية وبوقاحة. لكننى لم أخجل من إبداء رأيى خلال أحاديثى مع المسئولين المصريين فى السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية عامة، وفى حالات محددة فى الشرق الأوسط، وفى المناطق الأخرى. وبناء على طلبي، بدأت موسكو تكليفى بإخطار القيادة المصرية عن الأحداث الهامة في مفاوضاتنا مع الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت الحالة الأولى تتعلق بإعلامهم عن مفاوضات أ.أ.جروميكو مع وزير الخارجية ج. شولتس فى جنيف. ثم دخل ذلك فى النظام الذى سمح بجعل مصر على علم بمفهومنا بخصوص مختلف الأحداث. وقد بين ذلك أن موسكو تتعامل مع مصر كشريك جاد، يستحق الثقة فيه.

ولم يكونوا يحبون الأمريكان تماما فى مصر، مثلما يحدث فى معظم بلاد العالم. والسبب فى ذلك هو الغرور والثقة بالنفس، والاقتناع الأمريكى بأن على الجميع أن يتبعوا الوصفة الأمريكية. لكننا لاحظنا أن الأمريكان أنفسهم لم يكونوا راضين عن الكيفية التى تسير بها شئونهم فى مصر. وفيما يلى، نوعية التقييم الذى سمعه دبلوماسيونا فى إحدى حفلات الاستقبال بسفارة الولايات المتحدة الأمريكية بالقاهرة، من زميل أمريكي. أقدمه باختصار: "لم تؤد المعونة الاقتصادية لمصر إلى التأثير المنتظر، ولا يمكن الحصول على أية فائدة من المصريين، غير بعض الفوائد السياسية المشكوك فيها، بل على العكس، يشكون على جميع المستويات من جدوى المساعدة الأمريكية، حيث يعلنون أن الاتحاد السوفييتى قد قدم مساعدات ملموسة لمصر فى الماضى، ببناء سد أسوان وعدد من المشروعات الضخمة الأخرى، وأنهم فى أثناء ذلك ينسون أنهم يأكلون الخبز الأمريكى، وأنهم يحسبون أموالهم على الحاسبات الأمريكية، كما أن عملية السلام فى الشرق الأوسط، التى انضمت لها مصر، لا تتطور فى الاتجاه الذى كانوا ينتظرونه فى واشنطن، وكان على المصريين الذين يعيشون بأموالنا أن يؤيدونا، لكنهم يسكبون الماء على الطاحونة السوفييتية، وعامة يبدون كثيرًا جدا من الاستقلالية".

وأظن، أنه رغم أن هذا الدبلوماسى (كان من المستوى الأوسط للعاملين بالسفارة) قد بالغ فى بعض شكاويه، إلا أنه كان يوجد ببعضها الكثير من الحقيقة. وبالطبع كان مظهر الأمريكان ضعيفا، على خلفية ما فعله الاتحاد السوفييتى لمصر. حيث كانت استثماراتهم موجهة أساسا للبنوك، ووسائل الاتصال، والبنية الأساسية، وإلى بناء الفنادق... إلخ. لكن ليس إلى مجال الإنتاج المادى (الاستثناء كان فى استخراج البترول). وكان للمصريين أسس كثيرة لكى يبدو ارتيابهم فى جدوى المعونة الاقتصادية الأمريكية. ولم يكن أيضا يريد المصريون أن يسيروا كالعمى فى ركاب السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط. حيث كانت لمبارك سياسته الخاصة. وكانت فى بعض مواضيعها تتفق مع السياسة الأمريكية، وفى

بعضها تختلف عنها. على أية حال، كان المصريون يضعون مصالحهم الخاصة في المرتبة الأولى، وهو ما كان يثير العاملين بالسفارة الأمريكية.

وكنت أعتقد، في قرارة نفسي، أن تبعية مصر للمعونة الأمريكية كانت، في بعض جوانبها، شيئًا لا يمكن أن يستغني عنه مبارك، أو أي قائد مصري آخر حكيم ومسئول. وكان الرئيس فاهما أن الاتحاد السوفييتي لم يعد قادرا على دعم الاقتصاد المصري، وأنه لن يفعل ذلك حتى لو كان يستطيع. وكان يمكن لأوروبا الغربية أن تقوم بذلك، لكنها لم تنو عمله. وكان يمكن أن يكون البديل الوحيد لأمريكا هو مجمل الدول العربية، لكن مضى الزمن الذي كانوا مستعدين فيه لعمل ذلك، أو حتى فعلوه. فلم تعد هناك الآن حاجة للزعامة المصرية، كما كانت عليه في عهد ناصر. ومن هنا، كانت الحدود التي يجب أن يراعيها رئيس مصر. وكنت أتصور أنه فيما يخص الاتجاه الأمريكي، فإن مبارك يسير طبقا للحاجة على خط حذر جدا وثابت، يهدف إلى استعادة مواقع مصر في العالم، التي أضاعها السادات، بما فيها بعض البعد عن واشنطن كأساس لذلك. كما كان من الواضح لي أنه لا يوجد أي اتجاه لإعادة النظر جذريا في العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت، وعلى الأرجح، لن يحدث في المستقبل القريب نظرا للأوضاع القائمة، ويجب فهم ذلك.

والآن، سأنتقل إلى أمور الشرق الأوسط.

موقف مبارك من السلام مع إسرائيل ومن العلاقات مع الدول العربية

حصل مبارك من السادات على ميراث خاص بالشرق الأوسط لا يمكن وصفه بالبساطة. فمن ناحية، تم توقيع اتفاقية سلام مع إسرائيل، وحل إحدى المهام القومية الهامة - إرجاع شبه جزيرة سيناء لتكون تحت السيادة المصرية. ومن ناحية أخرى، كانت مصر في حالة عزلة في العالم العربي. فقد قطع السادات نفسه

العلاقات الدبلوماسية مع بعض الدول المكونة لما سمى "جبهة الصمود والتحدى" فى ديسمبر ١٩٧٧، أما الدول العربية الأخرى فقد قطعت العلاقة مع القاهرة؛ تنفيذا لقرارات اجتماع القمة الذى عقد فى بغداد فى أكتوبر- نوفمبر ١٩٧٨. وقد خرجت عن ذلك السودان والصومال وعمان، واحتفظت بعلاقاتها الدبلوماسية مع مصر.

وكانت توجد لاتفاقية السلام المنفصلة مع إسرائيل نتائج أخرى مؤلمة بدرجة كافية للقاهرة؛ فقد تم وقف عضوية مصر بجامعة الدول العربية بناء على قرار منها، وتم نقل مقر جامعة الدول العربية من مصر إلى تونس. وتم تعيين سكرتير عام لها من تونس، بدلا من السكرتير العام المصرى. ثانيا، تم تجميد عضوية مصر فى منظمة مؤتمر الدول الإسلامية، بقرار من غالبية الدول الإسلامية. ثالثا، تم فصل جمهورية مصر العربية من عضوية منظمة الدول العربية المصدرة للنفط، ومن الهيئة العربية للإنتاج الحربي. ومهما فعل السادات، بعد ذلك، للتقليل من قيمة الإجراءات التى اتخذت ضد مصر، ومهما تعجرف على القادة العرب، بوصفهم "بالأقزام"، فلا يمكن لأى شىء أن يخفى ما هو واضح تماما - وهو أن مصر قد تحولت فى عهد السادات من زعيمة ذات هيبة معترف بها للعالم العربى إلى طريد سياسى؛ فقد تم رفض مصر بطريقة علنية من الدول العربية والإسلامية، وتوجيه اتهام شخصى للسادات بخيانة مصالح كل العرب، والشعب الفلسطينى بصفة خاصة (كانت منظمة تحرير فلسطين ضمن من قطع علاقاته بمصر آنذاك). وقد اعتبر الكثيرون فى العالم العربى أن عملية قتل السادات جزاء مستحق، لكن لم يغير على الفور الوضع بين مصر والدول التى تم قطع العلاقات معها. وظهرت فقط مقدمة لتطورها، حيث إن السلطة فى مصر قد انتقلت إلى شخص آخر.

كيف تصرف مبارك؟ بالطبع، من المفهوم أنه لم يكن يستطيع خرق اتفاقية السلام مع إسرائيل، بل إنه عمل كل ما يمكن؛ لكى لا يظهر سبب لدى حكومة إسرائيل للامتناع عن الخروج من أرض سيناء. وفى أبريل عام ١٩٨٢، خرج الجيش الإسرائيلى منها، مما منح الرئيس الجديد مكاسب سياسية داخلية إيجابية.

وبعد ذلك، بدأت تفتر العلاقات بين مصر وإسرائيل. وقد ساعدت إسرائيل على ذلك رغمًا عنها، بهجومها الموسع على لبنان فى عام ١٩٨٢. فاحتجت القاهرة بصوت عال، وسحبت سفيرها من تل أبيب، مؤكدة أنه لن يعود ثانية إلا بعد خروج إسرائيل من لبنان، و"علقت" تنفيذ بعض الاتفاقيات التى تمت فى عهد السادات للتعاون مع إسرائيل. وقد استقبل العالم العربى كل ذلك بصورة إيجابية، خاصة أن القاهرة قطعت المفاوضات التى بدأت فى عام ١٩٧٩ مع إسرائيل، بخصوص الحكم الذاتى الفلسطينى، والتى جرت تنفيذا لاتفاقيات "كامب ديفيد". وأعلنت القاهرة مرة أخرى فى أبريل ١٩٨٤، أنها لن تجرى مفاوضات بخصوص المشكلة الفلسطينية دون مشاركة الأردن والفلسطينيين فيها.

وأدخل مبارك تصحيحات فى السياسة العلنية لعلاقات القاهرة مع الدول العربية. فقد اختفى منها الهجوم على القادة العرب، كما أن نغمتها العامة أصبحت أكثر هدوءا وقبولا. لكن كان التركيز الأكبر على "الدبلوماسية الهادئة"، والاتصالات الشخصية. وقد نجح ذلك فى بعض الأماكن، وفى أماكن أخرى لم ينجح. والأخير يتعلق، قبل أى شيء، بكل من "ليبيا"، و"سوريا"، و"جمهورية اليمن الشعبية الديموقراطية"، التى استمرت تطلب من مصر الرجوع عن اتفاقية السلام مع إسرائيل، كشرط لعودة مصر إلى الصفوف العربية. وأصبح بسرعة كل من "حافظ الأسد"، و"القذافى"، بصفتهم أنشط وأقسى منتقدى السياسة المصرية، معارضين مقنعين لنظام مبارك بكل النتائج المترتبة على ذلك، بما فيها محيط الدعاية المصرية.

وكان يبدو مستقبل تحسين العلاقات مع بغداد واعدا أكثر. فصدام حسين، الذى دخل فى حرب مع إيران، قد أصبح يعانى من مشاكل متنامية مع المعدات والأفراد. لذا توجهت بغداد بنفسها إلى القاهرة طلبا للمساعدة، فقدمتها لها. وتوجه إلى بغداد عشرات الآلاف من المصريين؛ لكى يحلوا محل من ذهبوا إلى الجبهة، فعملوا فى الزراعة والصناعة. وفى خلال بضعة سنوات، أصبح فى العراق مئات

الآلاف من المصريين. وأصبحت الصناعات الحربية المصرية تنفذ الطلبات العراقية. ورغم ذلك، ورغم الضغط السياسى من جانب القاهرة، فإن القيادة العراقية لم تكن على عجل لإعادة العلاقات الرسمية الدبلوماسية. وقد اعتبرت القاهرة ذلك جحودًا أسود. وكنت أسمع مثل هذه الأقاويل فى الأحاديث غير الرسمية مع المصريين، لكنهم هم أنفسهم اعترفوا بأنه لم يبق شىء إلا الانتظار، والتحلى بالأمل، والاستمرار فى مساعدة صدام حسين.

ويجب أن أذكر أن الغالبية الكبرى من الدول العربية لم تسعد بفتور العلاقات، وخفض الاتصالات مع القاهرة. لذلك فإنهم، شكليا، لم يخالفوا قرارات مؤتمر القمة فى بغداد بقطع العلاقات الدبلوماسية، لكنهم، ما عدا ليبيا وسوريا وجمهورية اليمن الشعبية الديموقراطية، فعليا، أعادوها بفتح أقسام لرعاية مصالحهم فى القاهرة، تحت مظلة سفارات أخرى. وكانت هى نفس تلك السفارات التى كانت موجودة من قبل، وكانت موجودة فى نفس المبانى التى كانت تشغلها فى الماضي، كما كان يرأس بعضها دبلوماسيون فى مستوى السفراء. فعلى سبيل المثال، كان يضم قسم رعاية المصالح السعودية ٤٥ دبلوماسيا... إلخ. لكن كون أنه ما عدا السودان والصومال وعمان، فإن باقى الدول العربية لم تتخط بعض الحدود؛ لأسباب سياسية، ولم تعد العلاقات الدبلوماسية بشكل قانونى، ترك إحساسًا بالمرارة لدى القيادة المصرية. لكنها لم تتوقف عن بذل الجهد، وظهرت أول نتيجة فى أكتوبر عام ١٩٨٤.

التقلبات حول عودة العلاقات مع الأردن

دعانى الباز إلى مكتبه فى العشرة أيام الثانية من ديسمبر، وأبلغنى أن مصر والأردن قد اتفقتا على التطبيع الكامل للعلاقات الدبلوماسية، وعبر عن رغبته، بهذا الخصوص، بألا يكون رد فعل موسكو سلبيا على ذلك الحدث الهام لبلده، أى ألا تصدر أى بيان رسمى يحمل نقدا له. وقد بين الباز أيضا أن إعادة العلاقات الدبلوماسية مع عمان ليس فى مصلحة جمهورية مصر العربية والأردن فقط، لكنه

فى صالح كل العرب أيضا. فشكرته على إخطاره لنا بإعادة العلاقات الدبلوماسية مع عمان، لكنى امتنعت عن تقديم أية وعود؛ لأنى كنت مدركا أن، على الأقل، سوريا وليبيا سوف تغضبان من هذه الخطوة وأنهما على الأرجح لن تجعلا موسكو تتجه لعمل مماثل. لكن، بالطبع، قلت إننى سأبلغ هذا الطلب، وقمت بذلك. ولا أعرف ما الذى أثر على موسكو، لكنها لزمت الصمت. وبعد عدة أيام، شكرنى الباز على ذلك. وقد كنت راضيا عن هذا الوضع، حيث إنى كنت أعتقد أن الاتحاد السوفييتى، الذى قام بنفسه منذ زمن قريب بتبادل السفراء مع مصر، ليس فى وضع يسمح له بانتقاد آخرين على القيام بذلك.

وكان من الواضح أن هذا الموقف قد أقلق رئيس سوريا. فظهر حافظ الأسد فى موسكو بعد عدة أيام، ونتج من المفاوضات السوفييتية السورية بيان مشترك، تم فيه مرة أخرى الهجوم على معاهدة كامب ديفيد، كما أنه احتوى على صياغات قاسية تتعلق بمحاولات الاستمرار، بشكل أو بآخر، فى تنفيذ الاتفاقيات المنفصلة. وكان من الواضح "فى أية حديقة تم إلقاء الحجارة". لذلك عندما جاءتنى دعوة للذهاب لمجيد، فورا، بعد إعلان البيان، لم يكن من الصعب علىَّ تخمين عما سيدور الحديث.

قال مجيد إن الرئيس قد كلفه بعمل خطوة سياسية؛ للتعتيم على هذا القدر من النقد غير المقبول من مصر لمعاهدة كامب ديفيد فى وثيقة رسمية لدولة تبادلت معها مصر للتو السفراء، وإن ذلك يصيب بخيبة الأمل... إلخ.

ولم يبق لى إلا تصنع الدهشة من القيام بخطوة سياسية للتعتيم، حيث إنه لا يوجد شيء جديد فى البيان السوفييتى - السورى المشترك؛ فإننا كنا دائما وسنبقى مؤيدين للجهود الجماعية، ولذلك نقف ضد أسلوب الاتفاقيات المنفصلة. وقلت أيضا إن هذا الموضوع سيبقى هاما، حيث إنه يوجد فى أساس "خطة ريجان"، التى قدمها رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٨٢، إشارة إلى البعد عن الحلول الجماعية المركبة للنزاع العربى- الإسرائيلى، وأن كل شىء يقود إلى تحقيق

اتفاقيات منفصلة بخصوص الحكم الذاتى الإدارى الفلسطيني. ومن المعروف أين توجد جذور هذه الفكرة. واضطررنا إلى أن نتذكر فى البيان أن كل ذلك بدأ فى كامب ديفيد بالذات. وبذلك فإنه لم يجر تشويه الصورة التاريخية.

وخيل لى أن مجيد لم يكن يميل إلى تأزيم ما حدث. على أية حال، فقد أنهى الحديث بقوله: "إنه على أية حال، فإن الرئيس مبارك يرى أنه يجب تنمية كل جوانب علاقات الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفييتى بشكل نشيط، وهو ما يجب العمل على أساسه". ورأيت أن الحدث قد انتهى بذلك، ولم أكن مخطئا. حيث اتضح من البرقية التى جاءت أن السفير المصرى فى موسكو هو أيضا تلقى تكليفاً بعمل خطوات. وقد استقبله نائب وزير الخارجية "ج. م. كورنيونكو" بمبنى وزارة الخارجية، وقدم له لومًا غير مبرر، وقام بذلك بطريقة قاسية إلى حد ما وبتعالى، اعتمادا على مركزه الرسمى، موضحا أننا نقف، وسوف نستمر فى الوقوف، ضد اتفاقيات كامب ديفيد. لكن أشار، أيضا، إلى أننا لا نربط تنمية العلاقات السوفييتية – المصرية بموقفنا من كامب ديفيد. وكانت تلك ملاحظة هامة تتفق بشكل ما مع رغبة المصريين فى إبقاء كامب ديفيد فى الخلف، والتقدم إلى الأمام، بعيدا عن جوانبها غير المفيدة سياسيا لهم، والبحث عن أطر جديدة لاستمرار المفاوضات بخصوص الأمور الفلسطينية. كما أن كورنيونكو وجه نظر السفير، كنوع من النصيحة، إلى أننا لا نثير أزمات مع القاهرة، بخصوص أن مصر تصبح مع مرور السنوات مشاركة فى وضع صياغة قرارات الجمعية العمومية للأمم المتحدة بخصوص أفغانستان، رغم أن ذلك لا يعجبنا. لكننا نفهم، ببساطة، أن لنا مواقف مختلفة نحو هذا الموضوع. ويمكن أن نقول نفس الشيء عن كامب ديفيد.

وقد تلقيت من موسكو، على غير انتظار منى، تكليفاً بزيارة مجيد، وإبلاغه برد الفعل الرسمى على حديثه معي. ورغم أنه لم يكن هناك أى شيء جديد إضافى إلى ما سبق أن قلناه، كورنيونكو وأنا، للمصريين، لكن كان علىَّ تنفيذ هذا التكليف. وقد استمع لى مجيد، ثم كرر أنه من الأحسن عدم النفخ فى موضوع كامب ديفيد،

والنظر إلى الأمام، خاصة أن موقف مصر يتسم بالمرونة. ثم أكد أن لكل من بلدينا هدفًا نهائيًا واحدًا هو حل مشكلة الشرق الأوسط وإقرار السلام فيه، وتكوين موطن خاص بالفلسطينيين. (جرى الحديث فى اتفاقيات كامب ديفيد، فقط، عن الحكم الذاتى الإدارى للفلسطينيين، لكن فى عهد مبارك، أصبحت القاهرة تزيد من تكرار الحديث عن حق الفلسطينيين فى تحديد مصيرهم، مع التلميح فى بعض الأحيان إلى أن تحديد المصير يمكن أن يفهم كإنشاء دولة مستقلة. كما كان تكوين دولة فيدرالية أردنية – فلسطينية مقبولاً تماما من المصريين).

وبما أنى أشرت إلى حل مشكلة الشرق الأوسط، فإنى أضيف أن القاهرة فى الواقع لم تكتف بالتمسك بطريقة ما واحدة لتحقيق هذا الهدف. فطريقة السادات التى كان يتم فيها تقرير كل شيء بين مصر وإسرائيل، وبتوسط الولايات المتحدة الأمريكية، لم تلق الدعاية فى عهد مبارك. حيث إنه اعتبر أن كامب ديفيد قامت بدورها، وأنه من الأجدى الآن أن تنتقل إلى الظل. لكن عند عرض "دونالد ريجان" لخطته، أيدتها القاهرة ، بل إنها وصفتها بأنها بناءة. لكن لم تلق "خطة ريجان" أى حماس عند العرب الآخرين، وكذلك لدى إسرائيل. لذلك توقفوا عن مدحها فى القاهرة، وأعلنوا أنهم مستعدون لاتخاذ موقف إيجابى من أى اقتراح آخر قادر على تحريك موضوع الحل إلى الأمام. وقد أيدت القاهرة أيضا بالكلام الخطة المجددة السوفييتية التى صاغتها موسكو فى ٢٠ يوليو ١٩٨٤، والتى تفيد بقيام مفاوضات ثنائية أيضا فى إطار مؤتمر مفوض، تحت رعاية هيئة الأمم المتحدة، مع تحفظها بخصوص ضرورة الحصول على موافقة كل من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية على هذا المخطط .

الوضع فى منظمة التحرير الفلسطينية والقاهرة

وأعود إلى الحديث مع مجيد. الذى تحول بسلاسة من كامب ديفيد إلى خطط الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى التى أشرت إليها، وإلى موقف الدول

الأخرى منها، بما فيها دول أوروبا الغربية، وإلى الوضع فى منظمة التحرير الفلسطينية. وقد أبدى مجيد أسفه وقلقه لما يوجد بها من انشقاق، واتهم سوريا بالتسبب فى ذلك، حيث إنها تحاول، بواسطة المجموعات الموالية لها فى الحركة الفلسطينية، إزاحة عرفات من منصب رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، وفرض تحكمها على كل المنظمة. وكنا نعرف تماما وجهة النظر المصرية عن أسباب الأزمة فى هيئة الأمم المتحدة، وكذلك محاولات المصريين أن يحذرونا من الثقة الزائدة بحافظ الأسد لم تكن شيئًا جديدًا لنا. وقد اتفقنا فقط على أن الانشقاق فى منظمة التحرير الفلسطينية يسيء لكفاح الفلسطينيين من أجل حقوقهم، وأنه يجب التغلب عليه.

وكانت منظمة التحرير الفلسطينية تعانى، فى ذلك الوقت، من أزمة خطيرة مزدوجة: فأولا، حدثت خسائر كبيرة مادية فى رؤوس جسورها العسكرية، وسلاحها ورجالها. وقد حدث ذلك نتيجة للهجوم الموسع لإسرائيل فى لبنان فى يونية ١٩٨٢، عندما تمكن الجنرال شارون من الوصول إلى بيروت، وحاصرها، وقام بقصف القواعد الفلسطينية والعاصمة اللبنانية بلا رحمة. وكان الفلسطينيون أنفسهم مسئولين إلى حد ما عن ذلك التحول فى الوضع. حيث كانوا قد استقروا بمعسكراتهم وبفرقهم المقاتلة فى لبنان، وتصرفوا فى البلد كأنهم أصحابها، مستغلين الانقسام الدينى والسياسى للبنانيين، وضعف جيشهم. وكان السكان المحليون هم أيضا يعانون من الفلسطينيين، خاصة المسيحيون منهم. فكانوا يقومون بقصف مدفعى لإسرائيل، وبأعمال عسكرية أخرى من أرض جنوب لبنان، فتسببوا فى توجيه ضربات معاكسة على مدن لبنان، ومناطقها المسكونة ردا على ذلك، ثم فى النهاية، منحوا الحكومة الإسرائيلية أوراقًا رابحة كافية، تمكنت بواسطتها من الحصول على سماح واشنطن لهم باقتحام لبنان. وكان من المخطط لهذه العملية أن تكون قصيرة جدا (بضعة أيام فقط)، وأن يكون عمقها محدودا. لكنها كانت شيئًا مخالفًا، فقد كانت موسعة، وفى العمق، ودموية جدا.

وفى النهاية، اضطر عرفات المحاصر فى بيروت إلى الاتفاق على خروج فرقه، ومركز قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، عن طريق نائب وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية "حبيب"، الذى أرسلته واشنطن. وتم نقل مركز قيادة المنظمة إلى تونس، بالقرب من جامعة الدول العربية التى كانت موجودة هناك، وأما الفرق المقاتلة، فقد تم توزيعها فى مختلف الدول العربية: سوريا، العراق، اليمن، المغرب... إلخ. وقد أكملت الكتائب اللبنانية "حل المشكلة"، بتشجيع من شارون، وقامت بمذبحة كبيرة فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين "صابرا" و"شاتيلا"، اللذين بقيا بلا حماية عسكرية. وأدى ذلك إلى تقلص كبير لقدرة منظمة التحرير الفلسطينية على القتال. وقد بقيت بعد ذلك القاعدة التى تنطلق منها العمليات ضد إسرائيل هى فى الأساس الأراضى المحتلة فى عام ١٩٦٧، أى الضفة الغربية لنهر الأردن، وقطاع غزة.

وقد تصرف عرفات وكأن الملحمة اللبنانية كانت انتصارا، لكن كان أمامه، وأمام الهيئات العليا الفلسطينية – مجلس قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، والمجلس الوطنى الفلسطينى (البرلمان)، سؤال يصبح أكثر إلحاحا مع مرور الزمن، هو:"ماذا نفعل بعد ذلك؟". لم يكن هناك رأى واحد بخصوص هذا السؤال: فأحد الآراء (أولا رأى عرفات) يميل إلى بدء مباحثات سلمية، وفى البداية، يفوض ملك الأردن "حسين" للقيام بها باسم الفلسطينيين (حيث إن الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل لم تكونا تنويان الحديث مع منظمة التحرير الفلسطينية بشكل مباشر). أما الآخرون فكانوا حتى لا يريدون السماع عن حسين، وعن المفاوضات، وكانوا مصرين على حل المشكلة الفلسطينية عن طريق تصعيد المقاومة الحربية مع إسرائيل. وأصبح هذا الخلاف أحد خطوط الانشقاق.

وثانيا، قامت أزمة فى منظمة التحرير الفلسطينية، حول سؤال: "من يكون فى قيادة المنظمة؟". وقد حدث هنا توتر كبير بين فتح عرفات والهيئات الموالية لسوريا، خاصة مع "الجبهة الوطنية لتحرير فلسطين"، و"الجبهة الديموقراطية

لتحرير فلسطين". وكان يرأس الأولى "جورج حبش"، أما الثانية فكان يرأسها "ح. خواتمة". وقد أضيف إلى ذلك العداء الشخصى بين رئيس سوريا الأسد، وياسر عرفات. وانتهى ذلك بأن دمشق منعت عرفات من الظهور فى سوريا، وفى وادى البقاع اللبنانى، حيث استقرت القوات المسلحة السورية، وبعض الوحدات الفلسطينية. وكان يرغب الأسد تماما فى إسقاط عرفات، وفى أن تصبح منظمة التحرير الفلسطينية تابعة تماما لتأثيره. وبفضل فتح، احتفظ عرفات بمنصب رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، لكن موقفه أصبح أضعف، وحرية حركته أصبحت أضيق.

وقد راهن المصريون فى هذا التوزيع للقوى على عرفات. وهذا مفهوم:"كانوا يريدون أن يكون على رأس منظمة التحرير الفلسطينية زعيم مجموعة معتدلة مثل فتح، وليس أى من اليساريين، من ذوى الأفكار الموالية لسوريا". كما أن المواجهة مع الأسد بدورها، دفعت عرفات نحو القاهرة. وبسرعة، وبعد الأحداث اللبنانية، قام زعيم منظمة التحرير الفلسطينية بأول زيارة له إلى مصر منذ فترة طويلة. وهكذا حدث تقارب تدريجى بين عرفات ومبارك، فضل الجانبان ألا يعلنا عنه فى الوقت الحاضر؛ فلم يكن من السهل على عرفات أن يغمض عينيه عن كامب ديفيد، والضرر الناتج من فكرة "الحكم الذاتي" الفلسطيني، كما أنه كان على مبارك أن يراعى عداء الموالين للسادات لعرفات.

وكانوا يعرفون عرفات جيدا فى مصر، فقد حصل على دراسته العليا فى جامعة القاهرة، ثم بعد ذلك حينما بدأ نشاطه السياسى، ودمج المنظمات الفلسطينية المتفرقة فى واحدة – "منظمة التحرير الفلسطينية"– أخذه ناصر تحت حمايته. وكان ناصر بالذات هو من أحضر عرفات إلى موسكو فى أول مرة فى عام ١٩٦٨، دون أن يخطرها بذلك مسبقا. وبناء على طلب ناصر، كلف "بريجنيف"– سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى – "ب. بونوماريوف" بالتحدث مع الضيف غير المنتظر. ورغم أن مركز قيادة منظمة التحرير الفلسطينية كان فى ذلك الوقت فى

الأردن، فإن عرفات كان يحضر كثيرا إلى القاهرة. وقد حدثت القطيعة بعد زيارة السادات للقدس.

وكانت الصعوبة بالنسبة لى، كسفير فى مصر، تتلخص فى أنه كان ينظر فى موسكو، وبشكل أدق فى القسم الدولى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى، إلى الشرق الأوسط من خلال "منظار سورى". وبعد خيانة السادات، تم الرهان على سوريا والأسد، الذى استفاد من ذلك، حيث إنه لم يكن فقط ذكيا، بل سياسيا محنكا. وكانت فى موسكو الإدارة الدولية للجنة المركزية هى التى تتعامل مع "حركات التحرير الوطنية". وبالطبع، كانت المنظمات الفلسطينية: "منظمة التحرير الفلسطينية"، و"الجبهة الوطنية لتحرير فلسطين"، و"الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين"، وغيرها، تمثل مجال عملها. وكما اعترف فى مذكراته بعد ١٥ سنة "ك. ن. بروتنس" (نائب رئيس القسم الدولى، الذى كان ينسق شئون الشرق الأوسط): "فإن السمة الغالبة على سياسة الاتحاد السوفييتى بقيت فى علاقتها مع منظمة التحرير الفلسطينية كما هى. فقد كانت دائما تراعى، وأحيانا بشكل مبالغ فيه عن اللازم، موقف سوريا". وقد كتب: "ساد برود فى العلاقات بين منظمة التحرير الفلسطينية وموسكو فى عامى ١٩٨٣ و١٩٨٤، وعلى الأدق ما يخص عرفات نفسه. بل كان هناك فى بعض الوقت حظر ما لزياراته لموسكو". [1]

وكنت بالطبع، فى خلال أحاديثى مع المصريين، أضطر إلى مراعاة سمة موقف موسكو من سوريا، الذى لم يكن فى رأيى مبررا تماما، وبروده مع عرفات. لكنى لم أكن أتجنب الحديث فى هذه المواضيع، حيث إنها كانت تسمح لى بتصور أحسن عن السياسة المصرية وتفاوتاتها. وكان الحديث مع مجيد، الذى ذكرته من قبل، قد جرى فى يوم ٤ نوفمبر ١٩٨٤، وفى يوم ١٢، أكمله الباز، مبرهنا لى أنه

---

(١) К.Н.Брутенц,Тридцать лет на старой площади, М. "Международные отношения", 1988,С.414,417

يجب أن تعرض منظمة التحرير الفلسطينية موقفها الخاص من حل مشكلة الشرق الأوسط. وقد عبر عن هذا الرأى مبارك علنا، أثناء زيارته لأوروبا الغربية. وطبقا لكلمات الباز، فإن الأمريكان يتخذون موقفا كئيبا نحو هذه النداءات، أما الفلسطينيون فهم مستمرون فى التفكير.

ثم طلب منى نائب وزير الخارجية "محسن فهمي"، بعد حوالى أسبوع، ألا تتفاعل موسكو مع الخطوات التى يمكن أن تتخذها كل من "الجبهة الوطنية لتحرير فلسطين"، و"الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين"؛ لكى تجذب الاتحاد السوفييتى للوقوف ضد ياسر عرفات، بمناسبة "اجتماع المجلس الوطنى لفلسطين" بعمان. وقد طلب أيضا التأثير على سوريا، بحيث لا تعضد أعمال هؤلاء، أو غيرهم من الفلسطينيين "الذين يؤدون إلى الانشقاق". ثم تبع ذلك (هذه المرة من الباز) وساطة؛ لكى يتم فى موسكو استقبال عضو مجلس قيادة منظمة التحرير الفلسطينية "أبى مازن" (محمود عباس)، الذى كلفه عرفات بإخطار موسكو عن الوضع القائم فى منظمة التحرير الفلسطينية (بعد ذلك بسنوات، قابلت أبا مازن فى موسكو عدة مرات، وكان يحضر إليها من أجل الاستشارات التى أصبحت فى هذا الوقت دورية).

وكان يشهد كل ذلك على الاتصالات النشطة التى تتم بين القاهرة وعرفات، وكذلك على التقدم فى العلاقات بينهما، بالمقارنة بما كان، عندما كانت منظمة التحرير الفلسطينية ضمن أكثر منتقدى السياسة المصرية قسوة. وقبل ذلك، أعادت منظمة التحرير الفلسطينية فتح مكتب تمثيلها الرسمى فى القاهرة، برئاسة نائب المدير العام للإدارة السياسية بمنظمة التحرير الفلسطينية "زهدى القدرة".

وقد تمكن المصريون بعملهم مع كل من الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية من أن يجددوا الحوار الأردني- الفلسطينى، بهدف الوصول إلى تلك الوصفة التى تسمح للفلسطينيين والأردن بالانضمام لمفاوضات السلام مع إسرائيل. وأصبح أحد اتجاهات الجهود المصرية هو دفع منظمة التحرير الفلسطينية للاعتراف بقرارى

مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و٣٣٨، الذى كان أولهما أساس وقف "حرب الأيام الستة" فى عام ١٩٦٧، أما الثانى فقد أوقف العمليات الحربية الإسرائيلية ضد مصر وسوريا فى عام ١٩٧٣. وكان كل من القرارين يفيد بالتحول إلى الحل السلمى للأزمة العربية - الإسرائيلية. وبذلك فإن اعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بهذين القرارين (وهى حتى الآن ترفض ذلك) كان يعنى الاعتراف غير المباشر بحق إسرائيل فى الوجود كدولة.

وفى ذلك الوقت، كان لموسكو موقف مزدوج نحو اعتراف الفلسطينيين بهذه القرارات. فمن ناحية، كان الاتحاد السوفييتى نفسه قد بذل جهدا كبيرا لكى يتخذ مجلس الأمن هذه القرارات، وبالطبع وضعهما، فيما بعد، فى أساس اقتراحاته الخاصة لحل الأزمة العربية - الإسرائيلية. ومن ناحية أخرى، فإنه رأى أنه من وجهة النظر السياسية، ليس الوقت المناسب الآن لكى تعترف منظمة التحرير الفلسطينية بهما، خوفا من أن هذه الخطوة ستسهل للولايات المتحدة الأمريكية تنفيذ مخططاتها للحل عن طريق الاتفاقيات المنفصلة، خارج هيئة الأمم المتحدة. وهذا يعنى أن يتم ذلك دون مشاركة فعلية لموسكو فى عملية السلام. لذلك فقد اختلفنا مع المصريين، بخصوص موضوع اعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بقرارات مجلس الأمن، كما ساورنا بعض الشك نحو اتصالاتهم بمنظمة التحرير الفلسطينية والأردن.

لماذا كانت القاهرة تسعى للتقارب بين عرفات وملك الأردن

كان الموقف بخصوص تسوية مشكلة الشرق الأوسط غير واضح. وكان للولايات المتحدة الأمريكية ميزة اعتمادها فى سياستها على إسرائيل، رغم أنه كانت لواشنطن صعوباتها معها. أما ما كان سلبيًا لدى واشنطن فهو أنها، مثل إسرائيل، تتجاهل منظمة التحرير الفلسطينية، وتعتبرها منظمة إرهابية، كما أنها لا

تعترف بحق الفلسطينيين فى إنشاء دولة لهم. وكل ذلك جعل موقف واشنطن غير مقبول عند غالبية الدول العربية، التى كانت تقف معا بدرجة كافية ضد فكرة المفاوضات المنفصلة نفسها. وعلى العكس، لم تكن فقط غالبية الدول العربية فى جانب الاتحاد السوفييتى، بخصوص تسوية مشكلة الشرق الأوسط، لكنه، أيضا، لقى تأييدًا واسعًا فى هيئة الأمم المتحدة، بما فيه تأييد الدول الأوروبية الرائدة. وكانت هذه هى الميزة التى نتمتع بها بالمقارنة مع الولايات المتحدة الأمريكية، لكنها هبطت كثيرا؛ نتيجة للتحالف الأمريكى - الإسرائيلى ضد الخطة السوفييتية، وعدم وجود علاقات للاتحاد السوفييتى مع إسرائيل، وبالطبع آلية للتأثير على سياسة إسرائيل بخصوص مسائل التسوية.

وأعتقد أنه سيكون من المناسب هنا توضيح رأيى فى عدم وجود علاقات دبلوماسية للاتحاد السوفييتى مع إسرائيل فى ذلك الوقت. لقد قطعتها موسكو فى عام ١٩٦٧؛ لأن إسرائيل لم توقف عملياتها الهجومية بعد إنذارنا بأنها إن لم تفعل ذلك، فإن الاتحاد السوفييتى سيضطر إلى إعادة النظر فى علاقاته معها. لكن "إعادة النظر" لا تعنى "قطع". وكان يمكن التصرف دون اللجوء إلى مثل هذه الإجراءات الجذرية- بسحب السفير مؤقتا، و"تجميد" تنفيذ مختلف الاتفاقيات... إلخ. وهذا هو الرأى الذى عرضته فى يونية أو يولية ١٩٦٧، فى اجتماع إدارة تخطيط أنشطة السياسة الخارجية، بوزارة خارجية الاتحاد السوفييتى التى كنت قد بدأت عملى فيها للتو. ولقد محا الزمن من الذاكرة ما قلته، بالإضافة إلى هذا الفكر أيضا بأنه يجب أن نحاول فى أول فرصة مناسبة أن نعيد العلاقات مع إسرائيل، حيث سيكون من الصعب بدونها مساعدة تقدم موضوع الحل السياسي.

وهذان الموضوعان حفرا فى ذاكرتى، حيث إننى عانيت بسببهما. ففى اليوم التالى فورا، تمت دعوتى "إلى البساط"، عند نائب وزير الخارجية "ألكسندر ألكسييفيتش سولداتوف"، الذى كان فى ذلك الوقت رئيسا لإدارة تخطيط أحداث السياسة الخارجية. وكان ألكسندر ألكسييفيتش يعرفنى من أيام لندن، حيث إنه كان

سفيرا هناك، وكان يعرفنى من الجانب الحسن، وإلا لما دعانى للعمل عنده فى إدارة تخطيط إجراءات السياسة الخارجية. فلم يؤنبنى بل بيَّن لى بطريقة مقنعة تماما أية نتائج محزنة يمكن أن يعنى لى وصف قطع العلاقات الدبلوماسية بالخطأ، فقد تم اتخاذ هذا القرار بالمكتب السياسى مباشرة. وكان يعمل فى الإدارة ممثلو مختلف الجهات، وكان يمكن أن يبلغوا عن ذلك جهات عملهم. كما أن جروميكو لم يكن سيربت علىَّ عند وصول "فكرتى الحرة". لكنى أحس ببعض الرضاء؛ نتيجة لأن العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل أعيدت، عندما كنت مشرفا على شئون الشرق الأوسط، كنائب لوزير خارجية الاتحاد السوفييتي. فقط من المؤسف أنه مضت ٢٤ سنة منذ أن تم قطع العلاقات إلى عودتها، وقد فات الكثير، وعانى الكثيرون، فى خلال هذه الفترة.

وبدا موضع مصر فائزا على الخلفية التى تكونت بسبب غياب علاقات الاتحاد السوفييتى مع إسرائيل، وعلاقات الولايات المتحدة الأمريكية مع منظمة التحرير الفلسطينية، حيث إنها كانت مرتبطة، تقريبا، بكل الجهات الهامة المؤثرة (ما عدا سوريا) التى لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بأزمة الشرق الأوسط، وهي: إسرائيل، منظمة التحرير الفلسطينية، الأردن، لبنان، الولايات المتحدة الأمريكية، الاتحاد السوفييتي. ومن هنا، كانت رغبة القاهرة الطبيعية، وهى تقوم بدور الوسيط، فى أن تساعد الفلسطينيين، وتكسب فى نفس الوقت عدة نقاط سياسية أمام العالم العربى وبقية العالم. وبالطبع، كانوا فى القاهرة مدركين لكمية الأحجار المختلفة المستترة على هذا الطريق. لكن رغبتها فى أن تلعب دورا دفعتها إلى القيام بمختلف الأعمال كوسيط، سواء كانت أعمالاً دبلوماسية سرية أو علنية.

وكانت القاهرة مدركة أنه فى ظل الأوضاع الراهنة لا يمكن أن تكون منظمة التحرير الفلسطينية شريكا مباشرا فى المفاوضات مع الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، لذلك فقد ركزت جهودها لكى يجد كل من الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية لغة مشتركة، وأن يتفقا على سياسة مشتركة خاصة بمفتاح

التسوية - مصير الأراضى العربية المحتلة. لذلك سوف أتناول، باختصار، خصائص وضع العلاقات الفلسطينية- الأردنية.

فى عام ١٩٤٧، اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا بتقسيم الأرض الفلسطينية التى تحت الانتداب الإنجليزى إلى جزأين، وإنشاء دولتين عليها، إحداهما عربية، والثانية يهودية. لكن اليهود فقط استخدموا هذه الفرصة، وأنشئوا "إسرائيل" على الأرض التى خصصت لهم. أما العرب الفلسطينيون المقيمون، فبدلا من أن يبنوا دولتهم الخاصة، دخلوا فى تحالف مع كل من العرق، وسوريا، ولبنان، ومصر، وهجموا على إسرائيل؛ لتدمير هذه الدولة الجديدة فورا. والنتيجة معروفة: "لقى العرب أول هزائمهم، وحركت إسرائيل قليلا حدودها، أما الجزء الباقى الذى كان مخصصا لإنشاء دولة عربية فلسطينية، فقد قسمته مصر والأردن فيما بينهما. فانتقل قطاع غزة إلى الأولى، بينما آلت الضفة الغربية لنهر الأردن إلى الأردن. ولم يفكر أحد فى ذلك الوقت فى إنشاء الدولة العربية الفلسطينية. وقد بدأ بالفعل الحديث عنها فقط بعد "حرب الأيام الست" فى عام ١٩٦٧، عندما احتلت إسرائيل غزة والضفة الغربية، وعندما أصبح مئات ألوف جدد من الفلسطينيين لاجئين. واستقر الكثير منهم فى جارتهم الأردن. وفى ذلك الوقت، استقر فى عمان مجلس قيادة منظمة التحرير الفلسطينية.

لكن لم يدم التحالف الحميم بين عرفات والملك حسين طويلا. ففى سبتمبر ١٩٧٠، الذى دخل التاريخ الفلسطينى باسم "أيلول الأسود"، دفع حسين بالدبابات والمدفعية ضد الفرق الفلسطينية المسلحة، و"أقنع" الفلسطينيين بأن عليهم احترام نظم وتقاليد البلد الموجودين بها، وألا يحاولوا إنشاء دولة داخل الدولة، وبالأحرى ألا يتعدوا على سلطة الملك. وأصبح حسين وعرفات أعداء لعشر سنوات، إلى أن وقعت الأحداث الدامية فى لبنان، التى انتهت بطرد الفلسطينيين من بيروت، فدفعت بعرفات وحسين لكى يبدآ علاقتهما مرة أخرى بشكل ما.

وفى يناير ١٩٨٥، جرت عدة أحاديث بينى وبين الباز فى موضوع المفاوضات الفلسطينية - الأردنية الجارية. وكان الباز ملما بها جيدا، ولم يخف اهتمام المصريين بأن تكون لها نتائج إيجابية. وقد انتهت فى عمان فى ١١ فبراير، بتوقيع حسين وعرفات اتفاقا عن حدود العمل المشترك التى تتلخص فى أنهم سوف يشكلون كونفدرالية أردنية - فلسطينية، بعد تحرير الأراضى الفلسطينية المحتلة (أى الضفة الغربية وغزة). وكان ذلك بالذات هو ما رؤى تنفيذه، بخصوص فكرة تقرير المصير الفلسطينى ذاتيا، والدولة الفلسطينية.

وتمت دعوتى فى اليوم التالى للذهاب إلى الباز، الذى قال لى إنه شارك بنفسه فى المرحلة الأخيرة للمفاوضات بين حسين وعرفات، وقام بتحليل الاتفاقية التى تم توقيعها، وتوجه بطلب لكى يكون رد فعل موسكو على هذه الوثيقة إيجابيا. وكان فى رأى الباز أنه راعى الأساس الوحيد الممكن للمفاوضات التالية للملك حسين (مع مشاركة الفلسطينيين فيها) مع الإسرائيليين، رغم أنه لا أحد يمكنه ضمان سهولة موافقة الإسرائيليين على التفاوض. كما طلب الباز الضغط على سوريا لضبط النفس، حيث إنها، طبقا للمعلومات التى عند عرفات والمصريين، تجهز للهجوم على معسكرات اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان.

وبعد اتفاقية عمان التى رحب بها المصريون رسميا، ظهرت مبادرة مبارك (أو خطة مبارك) بخصوص ثلاث مراحل لتسوية المشكلة الفلسطينية. المرحلة الأولى- هى حوار بين الوفد الأردنى - الفلسطينى والولايات المتحدة الأمريكية. وقد تم توضيح أن الجانب الفلسطينى فى الوفد يجب أن يمثل الفلسطينيين "المعتدلين" من الأراضى المحتلة، وليس منظمة التحرير الفلسطينية، التى لم تكن لا واشنطن ولا إسرائيل تريدان التعامل معها أبدا. والمرحلة الثانية - ضم إسرائيل إلى المفاوضات. والثالثة - مؤتمر دولى يشارك فيه الخمسة أعضاء الدائمون بمجلس الأمن، وكل الأطراف المعنية.

وقد قابلت فى نهاية فبراير وزير الخارجية مجيد؛ لكى أبلغه عن المشاورات التى تمت فى فيينا بين السوفييت والأمريكان، بخصوص الشرق الأوسط. وكانت هذه المعلومات هامة جدا للقاهرة، وقد أبدى مجيد خالص امتنانه لذلك. ومن جانبى، أكدت على أهمية اتفاقية عمان، التى أصبحت رصيفا رسميا لمنظمة التحرير الفلسطينية، رغم أن بعض المنظمات الفلسطينية استمرت فى مهاجمتها. وقد أبدى الوزير رضاءه عن موقف موسكو الرسمى "المعتدل"، كما وصفه، من اتفاقية عمان. لكنه أبدى أسفه من أن بعض الصحفيين السوفييت قد وجهوا نقدا فى مقالاتهم إلى هذه الوثيقة وهم يقيمونها. فدافعت عن صحفيينا، مبينا أنهم لم يصطنعوا البحث عن نقاط ضعف فى اتفاقية عمان، لكنهم عبروا فقط عن تلك التصورات التى تتناولها الصحافة العالمية، بما فيها الصحافة العربية. كما أنى قلت له أيضا إن الدور الذى تعطيه مصر لمؤتمر دولى يجذب انتباههم بحق. وإذا كان الحديث يدور حقا عن أنه، كما عبر الرئيس مبارك، "سوف يبارك" ما توصل إليه الجانبان من اتفاقات، فإن هذا الدور المتواضع جدا قد لا يمثل أهمية للمشاركين المفترضين فيه، أو على الأقل للبعض منهم.

وقد استقبلت اتفاقية عمان ببرود فى بعض الدول العربية. بل إنه تم استقبالها بعداء علنى فى عدد محدود منها (سوريا وليبيا). وكانت سوريا تفكر أولا فى مرتفعاتها بالجولان، ولم تكن تريد أن يتم الاندفاع للأمام ببعض المواضيع الأخرى للتفاوض، وفى هذه الحالة، كان الموضوع الفلسطينى هو ما يتم التفاوض عليه. كما لم ترغب دمشق فى التقوية الكبيرة للأردن، فى حالة قيام الكونفدرالية الأردنية- الفلسطينية. لكنهم أثاروا ضجيجًا علنيًا أكبر؛ لأن الاتفاقية تلغى قيام الفلسطينيين بإنشاء دولتهم الخاصة المستقلة، وهو ما يعنى هنا الخروج عن الموقف العربى العام، الذى تقرر فى اجتماع القمة العربية بمدينة "فاس" المغربية... إلخ. كما طار، بالطبع، الكثير من سهام النقد فى اتجاه "خطة مبارك". فاصطدمت القاهرة برد الفعل العالمى غير المريح، لذلك فضلت عدم المجادلة، بل اتخاذ موقف

الانتظار، خاصة أنه لم يكن كل شيء فى العلاقات بين عرفات وحسين سلسا تماما، كما أن واشنطن أعلنت رفضها لإجراء حوار مع الوفد الأردنى- الفلسطينى.

ومن ثم، أصبحت القاهرة تركز علنا، كما فى السابق، على استعدادها لتأييد أية خطوات سوف تؤدى إلى تقريب غالبية العالم إلى السلام الشامل فى الشرق الأوسط. وفى خريف ١٩٨٥، ساند مبارك فكرة الدعوة إلى مؤتمر دولى، بخصوص حل مشكلة الشرق الأوسط، باشتراك منظمة التحرير الفلسطينية، والجهات المعنية الأخرى. وكذلك أيد اقتراحنا بتشكيل لجنة تحضيرية لهذا المؤتمر، فى إطار هيئة الأمم المتحدة. واتخذت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة قرارا بذلك، وصوتت مصر لصالحه، لكن مرة أخرى تعطل الأمر؛ بسبب رفض كل من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية المشاركة فى هذا المؤتمر، والقيام بالتحضير له.

فى الطريق إلى عودة مصر إلى العالم العربى

كان يوجد بين مصر وغالبية الدول العربية حجم كبير من التبادل التجارى، والثقافى، والعلمى، وفى المجالات الأخرى، بما فيها، فى كثير من الحالات، المجال العسكرى، رغم العقوبات السياسية والاقتصادية المعلنة فى وقتها، باجتماع القمة العربية فى بغداد. وقد أجاب رئيس قسم رعاية مصالح الكويت، السفير "عبد القندرى"، على سؤالى عن تقييمه لحالة العلاقات بين جمهورية مصر العربية والكويت، فقال: "إنها رائعة"، وأكد على نموها الديناميكى، وتبادل المعلومات السرية. كما أنه أشار أيضا إلى أن الجالية المصرية فى بلده هى الثانية، من حيث التعداد بعد الجالية الفلسطينية. وطبقا لأقوال السفير، فإن الكويت تعمل على مساعدة مصر فى حالات محددة اقتصاديا. وكل ذلك أقنعنى أن عودة مصر

الرسمية إلى العالم العربى ليست بعيدة أبدا، وأن الأردن ليست فقط البادرة الأولى، لكن سيكون هناك غيرها أيضا.

وكان المصريون يعملون على ذلك بنجاح. وكانت ليبيا وسوريا تمثلان الاستثناء، فلم تكن لا تتقدم إلى الأمام شئون القاهرة معهما فقط، لكنها كانت أيضا تتأزم دوريا. وحيث إنه كانت هناك علاقات حميمة للاتحاد السوفييتى مع هذين البلدين؛ فإن القاهرة كانت راغبة فى جرنا إلى خصامها مع دمشق وطرابلس. ولقد سبق أن تحدثت عن بعض هذه المحاولات. وسوف أذكر بإحداها. فى نهاية نوفمبر ١٩٩٤، دعانى مجيد، وأخبرنى أنه، بناء على تكليف من الرئيس، يطلب منى أن أبلغ القذافى إنذار مصر له بأن يمتنع عن نيته القيام بعمليات انتقامية تجاه مصر. وطبقا لما قاله الوزير، فإنه قد تم القبض على إرهابيين أرسلتهم ليبيا إلى مصر، وإنهم يقدمون شهادات بأنهم كلفوا باغتيال رئيس الوزراء الليبى السابق "البكوش"، الذى يعيش هنا. وقد أخبرنى مجيد أن القائد الليبى يجهز عملية ما؛ للانتقام لفشل عملية اغتيال البكوش. وقد يكون ذلك تخريبا لسد أسوان، أو نسف سفينة فى البحر الأحمر، أو خطف طائرة مصرية، وأن ذلك سوف يؤدى إلى رد فعل قوى من جانب مصر ردا عليه. ومن هنا، كان الطلب الموجه لموسكو لتوصيل التحذير المصري.

وقد قلت له إن هذا الطلب ليس سهلا، وإن موسكو قد لا تتدخل فى ذلك. لكن الوزير أصر على أن أبلغ طلبه إلى موسكو (وبالمناسبة، أبلغنى الباز، قبل ذلك بشهر، بأن الإنجليز قد عثروا على لغم من إنتاج الاتحاد السوفييتى فى البحر الأحمر. وأنه غير معروف من الذى وضعه. وأن المصريين يتهمون الليبيين بذلك). وبعد فترة، أبلغت مجيد أن موسكو لا تعتقد أنه من الممكن أن تقوم بدور موصل للإنذار المصري. وقد خيل لى أن مجيد لم يكن يتوقع شيئا آخر، فقد تقبل الرفض بهدوء. وقال لى إنهم قد أبلغوا القذافى بإنذارهم عن طريق قنوات أخرى، وإنهم يأملون فى أنه سيؤدى الغرض منه.

وقد استمرت العلاقات بين مصر وليبيا محمومة لعدة سنوات أخرى. وساعد على ذلك أن الحدود بين مصر وليبيا، التى تم تحديدها طبقا لاتفاقية بين إيطاليا ومصر فى ٦ ديسمبر ١٩٢٥، لم تكن بها علامات فى بعض أجزائها فى الصحراء، مما أدى إلى مختلف الخلافات.

وسوف نعود ثانية فى هذا الكتاب إلى العلاقة بين القاهرة وطرابلس. أما الآن، فسوف أتحدث، باختصار، عن وجهة النظر بخصوص إسرائيل فى السياسة الخارجية للقاهرة.

مشكلة طابا فى العلاقات مع إسرائيل

كانت القاهرة تحاول ألا توتر العلاقات مع إسرائيل، التى كانت باردة بلا داع خاص. لكن الجانب المصرى أصر تماما على طرح موضوع واحد- هو موضوع إعادة "طابا" (جزء صغير من الأرض فى سيناء، على الحدود مع إسرائيل؛ يمثل فقط ٢ كيلومتر مربع) إلى مصر. وقد كان هذا مكانا للاصطياف، قام الإسرائيليون بتزويده بكل وسائل الراحة فى أثناء احتلاله، ولم تكن عندهم أية رغبة فى إعادته. أما المصريون فقد أثاروا هذا الموضوع على مستوى عال مبدئى. وكان كل من الطرفين يعتبر أن طابا له. ومن هنا، كان النزاع الذى لم يمكن حله بأية وسيلة عن طريق المفاوضات. وقد كانت هناك ثلاث جولات منها فى عام ١٩٨٥. وقد انضم إليها الأمريكان كوسطاء. وفى النهاية، تلخص الحل الوسط فى عرض النزاع للتحكيم الدولى، الذى حكم فى النهاية لصالح مصر. وقد حدث ذلك فى عام ١٩٨٨ فقط. وكنا فى ذلك الوقت نتابع هذا الموضوع. وكان محدثاى يبلغانى عن مسار تقلباته، عندما كنا نناقش موضوع إسرائيل وسياستها، وعلاقتها مع الدول الأخرى. وقد تكون انطباع بأن إسرائيل مهتمة أكثر من مصر بتدفئة جو العلاقات الثنائية مع جمهورية مصر العربية، وإثرائه بالمحتويات المادية. وإذا تحدثنا عن المجتمع فى مصر، فإن العداء لإسرائيل لم ينخفض. بل

على العكس، كان دائما يتم تسخينه بالأحداث فى المناطق المحتلة، وفى لبنان، وكذلك بالمواعظ فى المساجد. وكان ذلك يؤدى إلى أحداث دامية، مثل اغتيال دبلوماسى إسرائيلى فى القاهرة، وبعض السائحين الإسرائيليين فى سيناء. وهذه كانت تجاوزات، وكانت السلطات المصرية تحاربها.

عامة، فقد كانت مصر تصبح قطعة يتزايد نشاطها تدريجيا على رقعة شطرنج الشرق الأوسط، رغم كل الصعوبات فى علاقتها بالدول العربية، خاصة بالبعض منها، وبإسرائيل. وقد لاحظ ذلك السلك الدبلوماسى القاهرى، حيث كان الوضع فى الشرق الأوسط موضوعًا لا ينتهى فى مناقشاتنا، وكذلك موضوع تفاوتات سياسة القاهرة فى هذه المنطقة. وكنا، من جانبنا، نجتهد لأن نبقى أصابعنا على نبضها، وأن نخطر موسكو بكل النقاط التى تستحق الاهتمام.

القاهرة وبعض المشاكل فى أفريقيا وآسيا

فى أثناء عمل السفارة، كان يجب أيضا أن يوجه اهتمام كبير لسياسة مصر فى أفريقيا. فمصر لها أهميتها كثانى دولة فى أفريقيا، بعد جمهورية جنوب أفريقيا، من حيث التطور، ولأنها كانت تنمى علاقاتها مع الدول الأفريقية بنشاط كبير، ساعية إلى زعامة ما، كما أنها كانت تشعر باهتمام من الناحية الأخرى فى اتجاهها. وكان ذلك يظهر فى القاهرة فى زيارات رؤساء دول وحكومات الدول الأفريقية. وتقريبا، كنت أرسل شيئًا يتعلق بكل زيارة من هذه الزيارات، مراعيا أنه فى تلك السنوات، كانت تتميز السياسة الخارجية السوفييتية تجاه أفريقيا بنشاط كبير.

وبالنسبة لمصر، كان أهم موضوع فى ذلك الوقت هو العلاقات مع السودان. حيث كان السودان يمثل أهمية خاصة لمصر، حيث إنه قريبٌ منها، وله معها علاقات اقتصادية وعلاقات أخرى حميمة. وعندما كان "النميرى" رئيسا للسودان كانت علاقات مصر معه فى القمة (ففى عام ١٩٨٢، تم توقيع ميثاق

التكامل، كما سبق ذلك توقيع اتفاقية الدفاع المشترك). لكن وقع انقلاب عسكرى فى السودان فى أبريل عام ١٩٨٥، واضطر النميرى إلى الهرب إلى مصر، والاختباء فيها. وتوترت فورا العلاقات بين العاصمتين. وعندما رفضت القاهرة تسليم النميرى، بدأ السودان التقرب من ليبيا بطريقة مسرحية. وفى النهاية، تمكنت القاهرة من تغيير الوضع، وبدأت مرة أخرى فى تحسين العلاقات مع جارها الجنوبى. وكثيرا ما كانت العلاقات بين مصر والسودان موضوع مناقشاتى مع المصريين، خاصة مع بطرس غالى.

وكان أكثر ما يهمنا فى سياسة القاهرة مع آسيا هو علاقتها بالصين، وبالهند، وبباكستان، وبالطبع تجاه أفغانستان. وفى ديسمبر ١٩٨٤، قمت بخطوة سياسية أمام مجيد. فقلت إنه طبقا لمعلوماتنا، فإنه يتم إرسال أسلحة من مصر إلى باكستان للجماعات الإجرامية بأفغانستان، وإننا لا يمكننا أن نسكت عن ذلك، حيث إن هناك فرقا فى أن يكون هناك اختلاف فى وجهات نظر كل من القاهرة وموسكو بخصوص أفغانستان، وأن يكون الأمر يتعلق بإرسال أسلحة سوف تستخدم ضد الجنود السوفييت فى أفغانستان. فقال عندئذ مجيد إنه ليس لديه معلومات محددة عن ذلك، لكنه لا يوجد اتجاه فى مصر لكى ترسل الأسلحة لأية عناصر من المعارضة الأفغانية.

وعامة، فإن القاهرة لم تبد نشاطا خاصا بخصوص أفغانستان. فقد كان ينظم مرة فى السنة أسبوع للتضامن مع الشعب الأفغانى، عند حلول الذكرى السنوية لدخول القوات السوفييتية فى أفغانستان. وكانت تظهر مجموعة من المقالات فى الصحف، لكن كان الأمر ينتهى على ذلك. وكان يوجد قسم فى سفارة الهند بالقاهرة لرعاية مصالح جمهورية أفغانستان الديموقراطية، وكنا نحتفظ بعلاقات حميمة معه. ولم يكن هناك أية شكاوى خاصة لديه من السلطات المصرية. وعامة، لم تجر بينى وبين المسئولين الرسميين المصريين أحاديث حادة بخصوص موضوع

أفغانستان، رغم تبادلنا الدورى للآراء. ولم يكن أى من الجانبين يرغب فى تأزيم علاقتهما الثنائية بسبب أفغانستان.

وقد كانت القاهرة تمثل برج مراقبة جيدًا لكل ما يجرى فى الشرق الأوسط، وفى المناطق المجاورة له. وكانت السفارة تزيد تماما حجم المعلومات التى ترسلها إلى مركز معلومات السياسة الخارجية، مجتهدة فى أن تكون كذلك ذات صفة ملائمة. وطبقا للتقييم الوارد من هناك، فإن جهودنا كانت ملحوظة. وكان ذلك محفزا لى ولزملائى فى العمل.

الباب الثامن

على ساحل البحر الأبيض المتوسط وفى سيناء

الإسكندرية كما رأيتها

كنا نسافر، أنا وناتاشا، أحيانا فى أيام الإجازات إلى الإسكندرية حتى نكون وحدنا فى فيللا السفارة ولكى نقوم بالقراءة بهدوء ونتجول فى المدينة الجميلة، وأيضا للسباحة فى البحر، أو فى حمام السباحة الذى كان يعمل عندنا من شهر مايو إلى شهر نوفمبر. وكان الجو دائما أبرد فى الإسكندرية مما فى القاهرة. وكنت أشعر بالنسمات المنعشة القادمة من البحر. وفى الماضى كان كل من الأسرة الملكية والبلاط الملكى وكل الحكومة ينتقلون طوال شهور الصيف إلى الإسكندرية هربا من حر القاهرة. وكان يذهب إلى هناك أيضا الموظفون والدبلوماسيون، وببساطة كل الأغنياء المصريون. وكانت الإسكندرية تلعب فى ذلك الوقت دور العاصمة الثانية. وبعد ثورة ١٩٥٢، استقرت الحكومة تماما فى القاهرة ، ولكن من كان قادرا كان يستمر فى المعيشة فى منزلين. أما فى شهور الشتاء، عندما تسقط الأمطار فى الإسكندرية، وعندما يكون هناك أحيانا ضباب، يقل عدد سكان المدينة بدرجة ملحوظة. ويحدث العكس فى الصيف، فيزيد عددهم. أما أغنياء مصر فيفضلون قضاء الشتاء فى الجنوب، فى أسوان.

ولقد سحرتنى الإسكندرية عندما تعرفت عليها، كما أنها أصابتنى بخيبة أمل. فقد سحرتنى بسمتها الساحلية الجنوبية وتعدد الثقافات فيها، والسهولة، والاستمتاع بالحياة، والجمال، وديناميكية أداء الأعمال، وفى نفس الوقت بنوع من الإهمال، كما هو موجود تماما فى المدن الساحلية التى يستجم فيها الكثيرون. وكان عندى نفس الانطباع عن مدن الاتحاد السوفييتى الساحلية "أوديسا، يالطا، سوتشى"، حيث يوجد

بينها شيء مشترك يؤاخى بين المدن الساحلية التى على البحر الأسود، وتلك التى على البحر الأبيض المتوسط.

و"الكورنيش" جميل وفخر الإسكندرية. وهو عبارة عن طريق ساحلى من الجرانيت ممتد على شكل قوس لعدة كيلومترات. وهو المكان المحبب لتجول سكان المدينة وضيوفها. وقد تم بناء المبانى فيه متقاربة تماما من بعضها البعض، ولكن لا يمكن أن تجد مبنيين متماثلين. كما لا توجد به تقريبا أية أبنية كئيبة. فمعظم المبانى السكنية حوفظ على طرازها الإيطالى الجميل، الذى كانت عليه فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. والإسكندرية هى أكثر مدن مصر خضرة. وبها شوارع عريضة وميادين وحدائق عامة وحدائق زهور، وهو ما يريح نظر من يرى فقط الرمال والصخور على ٩٥% من الأرض المصرية المحيطة به. وليس هناك جدل فى أن الإسكندرية هى لؤلؤة مصر. وبها الكثير من الفنادق والمحلات والأندية والكازينوهات والمطاعم والبلاجات، ومساجد مندمجة فى معمار المدينة ويافطات تذكرنا بأننا لسنا فى إيطاليا أو فرنسا بل فى بلد مسلم.

أما خيبة أملى، فكانت بسبب توقعاتى الخادعة. فقد كنت أتوقع أنه نظرا لأن عمر المدينة أكثر من ألفى عام، فيجب أن يكون بها الكثير من الآثار التاريخية الشيقة. لقد أنشأها الإسكندر المقدونى فى عام ٣٣١ قبل الميلاد. وبالإضافة إلى كونها عاصمة مصر فى عهد البطالسة، فقد أصبحت مركزا ثقافيا كبيرا لكل العالم الهيلينى. وفى عهد ازدهارها كان تعداد سكانها يصل إلى المليون. وكانت فى هذه المدينة معابد عظيمة وقصور رائعة الجمال، وأكاديمية عمل بها علماء عظام، منهم "أرشميدس" و"أكليد"، وأكبر مكتبات العالم، حيث حفظت حوالى ٧٠٠ ألف من المخطوطات بمختلف اللغات، ومسارح وأبنية عامة أخرى. وكانت الإسكندرية فى ذلك الوقت أكبر مدينة على كل ساحل البحر الأبيض المتوسط، ومركزا تلتقى فيه أهم طرق التجارة الدولية.

وكنت أعرف بالطبع من الكتب التى قرأتها أنه بعد فترة ازدهار الإسكندرية بستمائة سنة جاءت فترة انهيارها. ولكنى لم أتمكن من تصور أن الانهيار كان لهذه الفترة الطويلة، وأنه كان لمدى هدام بعيد، ففى عام ١٨٠٥ كان يعيش بالإسكندرية فقط ٧ آلاف! ولم يبقى حتى ذلك الوقت من تلك المدينة التى كانت فى يوم ما عظيمة على وجه الأرض إلا عامود من الجرانيت الأسوانى الوردى ارتفاعه ٢٧ مترا تم بناءه على شرف الإمبراطور الرومانى "ديوكليتيان" فى عام ٢٩٧ م. وهى معروفة باسم "عامود بومبى" على اسم النائب الذى بنى فى عهده، وهو ما يتفق مع الكتابة الموجودة أسفل قاعدة العامود. وبقى أن نأمل بأنه ما زالت تحفظ تحت الأرض شواهد مادية على العظمة السابقة. ولكن للقيام بعملية البحث يجب إزالة طبقة من التربة سمكها ٨-٩ أمتار تراكمت منذ ذلك الوقت، وهو ما يصعب عمله فى مدينة مكتظة بالأبنية، كما أن ذلك يتطلب أموالاً كثيرة. لذلك بقى الاعتماد أكثر على الصدفة.

وقد حدثت إحداها فى الستينيات من القرن العشرين، عندما كان يوضع أساس بيت جديد فعثر على بناء حجرى. اتضح أنه قمم صفوف مدرج من القرن الثانى إلى السادس بعد الميلاد. وتم كشفه بالكامل، وأصبح يزين المدينة مرة أخرى. وقد قمنا بزيارته فى إحدى زياراتنا الأولى للإسكندرية. والمدرج ليس كبيرا ولكنه مريحا وحفظ جيدا، ويضم بقايا من صفوف الأعمدة التى كانت تحيط به فى الماضى. وقد استمتعنا بمشاهدة المناظر المرسومة بالفسيفساء، وجلسنا على المقاعد الحجرية للصفوف المتراصة لأعلى المسرع، واختبرنا صوتيات المكان.

وحلم الأثريين هو "العثور على قبر الإسكندر المقدونى". لقد مات فى بابل، ولكن نقله بطليموس إلى مصر، وتم دفنه فى البداية فى ممفيس، حيث كان قد تم تتويج الإسكندر فيها على الطريقة الفرعونية بتاجى مصر العليا والسفلى، بعد طرده للفرس من مصر. ولكن فيما بعد، عندما كان يستكمل بناء الإسكندرية تم نقل رفاته إلى العاصمة الجديدة، ووضعه فى مدفن وصلت أنباء عن عظمته إلى أيامنا

هذه. وتواجد فى هذا المكان لفترة طويلة. وعلى أية حال، فقد زاره الأباطرة الرومان بعد ذلك بقرون من الزمن. ولكن لا أحد يعرف ما الذى حدث له بعد ذلك. قد يكون قد هدمه زلزال. أو يمكن أن يكون الآن تحت الماء بعد أن ابتلعت مياه البحر الأبيض المتوسط جزءًا من المدينة (قد يكون ذلك أيضا أثناء حدوث زلزال). وأخيرا، يمكن أن يكون قد هدمه الناس نفسهم، أثناء إحدى نوبات الشغب التى تكررت كثيرا داخل مصر، كما حدث على سبيل المثال، مع مكتبة الإسكندرية العظيمة التى تم حرقها.

ويجب أن أقول بضعة كلمات عن الإسكندرية المسيحية. كانت هذه المدينة إحدى مواطن بداية المسيحية. فقد أصبحت الإسكندرية ملجأ لأول المبشرين بالمسيحية، حيث إنها كانت مدينة يسكنها قوميات متعددة، وبها العديد من المعابد الخاصة بآلهة قدماء المصريين واليونانيين والرومانيين والآلهة الأخرى. وهم كانوا يجدون فى المدينة أعدادًا متزايدة من الأتباع. ورغم أن عهود التسامح الدينى تخللها، كما حدث فى كل الإمبراطورية الرومانية، فترات كان يتم فيها اضطهاد المسيحيين بقسوة شديدة (خاصة فى عهد "ديوكلتيان")، فإن المسيحية استمرت فى الانتشار. وعندما أصبحت المسيحية هى الديانة الرسمية فى الإمبراطورية الرومانية، صاحب ذلك تطرف زائد فى الإسكندرية. فقد اندفع المتطرفون المسيحيون يحطمون معابد الوثنيين. وكان من بين ما هدموه أكبر وأعظم معابد الإسكندرية الذى بنى لحامى المدينة الإله المصرى القديم "سيرابيس"، الذى كان يرمز له بثور. وقد دمرت مع هذا المعبد (وكان يسمى "سيرابيوم") المخطوطات المتبقية من مكتبة الإسكندرية، التى أحضرت إلى هنا لحفظها. وقد بقى فقط عامود بومبى الواقف فى الساحة الداخلية للسيرابيوم، وفقط على ما يبدو لأنه كان ضخم جدا، حيث إن قطر قاعدته يبلغ ثلاثة أمتار.

وكانت الإسكندرية دائما ما تتضائل كمركز اقتصادى وثقافى مع استمرار سكرة موت الإمبراطورية الرومانية أولا ثم البيزانطية. وقد حطم مكانة الإسكندرية

تماما فتح العرب لمصر، خاصة بعد نقل العاصمة إلى القاهرة. وفى عهد الأتراك الذين فتحوا مصر فى بداية القرن السادس عشر وحكموها لمدة ٣٠٠ عام، فإن الوضع كان فقط يسوء. وقد لعب دوره كون أن الإسكندرية لم تصبح نقطة نهاية الطريق إلى البحر المتوسط عن طريق النيل. كما هو معروف، كان الإسكندر المقدونى قد اختار مكانا لعاصمته عند مكان التقاء أبعد فرع للنيل فى الغرب مع البحر. ولكن هذا الفرع اختفى مع مرور الزمن بسبب انسداده، واختار النهر طرقا أخرى للاتجاه إلى البحر. وبذلك تحولت الإسكندرية بفعل مختلف العوامل الطبيعية والإنسانية قبل نهاية القرن التاسع عشر إلى بلدة صغيرة.

وقد انتعشت الإسكندرية مرة أخرى فى عهد الوالى "محمد على"، الذى عينه الأتراك لحكم مصر فى عام ١٨٠٥. وقد استمر حكمه حتى عام ١٨٤٩، وقد نجح فعليا فى الحصول على حكمه الذاتى من الباب العالى. وكان أحد أهم أعماله هو شق القناة الموصلة للنيل بالإسكندرية. وقبل بداية عام ١٨٥٠، كان يعيش الإسكندرية ١٠٠ ألف ساكن. أما الآن وأثناء كتابة هذه السطور، فقد تجاوز تعداد سكانها ٤ مليون. وبذلك فإن الإسكندرية مدينة جديدة جدا، أصغر من مدينة بيتربورج بمائة عام فعليا. وهى تظهر فعلا بهذا العمر، وهى ما زالت تنمو بسرعة فى اتجاهى الشرق والغرب على امتداد البحر، بحيث إن طولها زاد عن ٣٠ كيلومترا. بينما تعاكس بحيرة مريوط الواسعة نمو المدينة فى اتجاه الجنوب، وقد نمت فى كثير من الأماكن بها نباتات السمار. وعند السفر من القاهرة إلى الإسكندرية عبر "الصحراء"، فإنك تقطع جزء من هذه البحيرة عند مدخل المدينة، ويشم فمك رائحة الماء العطن. وأنا متأكد أنه سوف يتم حل هذه المشكلة أيضا مع الوقت فى مصر التى تنمو بسرعة.

والإسكندرية الحديثة تمثل مركزا صناعيا وتجاريا وثقافيا كبيرا، وكذلك مركزا كبيرا للنقل. وتوجد كل من منطقة الميناء والمنطقة الصناعية فى الأحياء الغربية والشرقية من المدينة. وزد على ذلك، أن أرصفة الركاب والبضائع فى

الغرب وأن ميناء الصيادين فى الشرق. وتعمل فى الإسكندرية مصانع تكرير البترول ومصانع منتجات كيميائية، وترسانة بحرية (تم بنائها بمساعدة الاتحاد السوفييتى)، ومصنع لتجميع السيارات، ومصانع نسيج، وشركات لتفصيل الملابس وصناعة الأحذية والأثاث والمواد الغذائية. وفى عهدى كانت تمر ٧٠% من التجارة الخارجية لمصر عبر الإسكندرية.

أما الجزء الأوسط من المدينة فهو فى الأساس سكنى وتجارى وثقافى وترفيهى. ويحكم السائحون وأيضا الدبلوماسيون على الإسكندرية من هذا المكان. وعادة ما تبقى عندهم أحسن الانطباعات عنها.

وكما فى كل مدينة شرقية، فإن الأسواق من الأماكن الضرورية بالإسكندرية. ولا يمكن مقارنتها بأسواق القاهرة، ولكنها فى حد ذاتها مثيرة هى أيضا. ويزورها السائحون عن طيب خاطر. ويوجد مكان آخر يمكن لقائهم فيه- جبانة كوم الشقافة، التى عثر عليها بطريق الصدفة أثناء العمل فى محجر فى عام ١٩٠٠. وهى عبارة عن جبانة تحت الأرض تنتمى إلى المدينة، وتعود إلى القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد. وللمقابر ثلاثة سراديب بها فجوات لوضع التوابيت والمقاعد الحجرية والتماثيل الممثلة للآلهة. وتوجد بها العديد من الحجرات المنحوتة فى الصخر التى استخدمت كمدافن. وكانت تتم بعض عمليات الدفن مباشرة فى الجدران. ويلفت النظر فى الزخرفة الخارجية وجود ضفائر على الطراز المصرى القديم واليونانى والرومانى، لكن يسود فيها الطراز الأول. ولقد أدى اكتشاف جبانة كبيرة مماثلة من نفس هذا العصر بالواحات البحرية فى نهاية القرن العشرين إلى توضيح أحد الأمور الرائعة: أن اليونانيين والرومانيين الذين عاشوا وماتوا فى مصر كانوا يفضلون أن يتم دفنهم طبقا للطقوس المصرية، أى أن يتم تحنيطهم، وأن يوضع على وجوههم قناع بشكل وجههم (ذهبى أو من الفخار المطلى) وأن يوضعوا فى تابوت، أو أن يتم حفظ أجسادهم بشكل آخر مضمون. ويمكن أن نستنتج من ذلك أن ديانة قدماء المصريين بثقافتها المفصلة الموضوعة

عن عالم الأموات والإيمان بعودة الروح إلى الجسد الذى تركته، كانت لها جوانب جذابة أيضا لغير المقيمين الأصلاء فى مصر.

وتقريبا، لا توجد آثار عن الحضارة العربية فى العصور الوسطى فى الإسكندرية. وأهم مبنى أثرى يرجع إلى هذه الفترة يتمثل فى قلعة "قايتباى"، التى شيدت فى القرن الخامس عشر فى المكان الذى كانت تقف به منارة فاروس العظيمة، والتى اعتبرت إحدى عجائب الدنيا السبع. وفعلا كانت أعجوبة العمارة المصرية القديمة وتقنيتها. وكان يمكن رؤية نارها من على بعد عشرات الكيلومترات من الشاطيء، حيث إن ارتفاع المنارة وصل إلى ١٢٠-١٧٠ مترا (المراجع القديمة تقدم أرقامًا مختلفة عن ارتفاعها). وقد تم بناء المنارة على جزيرة فاروس فى عهد "بطليموس الثانى" فى الأعوام ٢٩٩-٢٨٣ قبل الميلاد، ودمرها تماما زلزال عام ١٣٧٥. وهى بذلك قد بقيت واقفة ١٦٠٠ عام.

أما فى الوقت الحاضر، فقد التحمت جزيرة فاروس تماما مع البر؛ بسبب تكرار توسيع الجسر الذى تم بناءه من عدة قرون مضت لربط المنارة بالأرض وتسهيل خدمتها. وقد فقدت قلعة قايتباى من زمن بعيد أهميتها العسكرية، لكنها تبدو حتى الآن مرعبة.

وأنا أتحدث عن الأماكن التى تبقى فى الذاكرة فى الإسكندرية، أريد أن أذكر حديقة "المنتزة"، التى كنا نذهب إليها دائما أنا وناتاشا للتجول. وكانت فى الماضى حديقة الملك، وكان يسمح فقط للصفوة المنتقاة بالدخول خلف أسواره الحجرية. ويوجد فى الحديقة أحد القصور الصيفية الملكية. ومعمار المبنى جميل جدا، وقد تم اختياره بذوق عال، وطرازه الأساسى من النوع المسمى "موريتانى". والآن، مسموح بزيارة كل من الحديقة والقصر. ولا يوجد شيء ملفت للنظر داخل القصر، ولكن الحديقة ما زالت شيقة، حيث جمعت فيها نباتات مختلفة : نخيل وشجيرات وصبار... إلخ.

وبعد إغلاق القنصلية العامة للاتحاد السوفييتى فى الإسكندرية، لم يبقى مبناها خاليا، بل وضعنا بها قسم من ممثليتنا التجارية فى القاهرة؛ حتى لا يكون مهجورا. وكان من الضرورى أن يكون لنا جزء من ممثلينا التجاريين بالمدينة، حيث إن تقريبا كل التجارة بين بلدينا كانت تتم عبر ميناء الإسكندرية. كما تم استخدام المركز الثقافى السوفييتى بالإسكندرية لغرض آخر، فقد عملت به مؤقتا ممثلية وزارة الأسطول البحرى للاتحاد السوفييتى. وبذلك تمت المحافظة على كل المبانى المملوكة للاتحاد السوفييتى فى هذه المدينة، وحوفظ عليها فى حالة جيدة انتظارا لزمن أحسن. وكنت متأكدا من أنه سيأتى بالتأكيد. ولكن كان يجب فقط التحلى بالصبر. وقد حدث ذلك لبعض الوقت.

وبقى على فى الوقت الحالى، بصفتى رئيس السفارة، أن أعتنى فقط بالفيللا الخاصة بالسفارة. وكان على أن أحافظ باستمرار على حالة الجدران من الخارج والداخل (وإلا لكانت المحارة ستنهار، وتتكون الطحالب، ويفقد الطلاء لونه)، حيث إن مناخ البحر الأبيض المتوسط بشمسه وأمطاره كان سيفسدها. وقبل وصولى لم يعتن أحد بالمنزل السكندرى لمدة ثلاث سنوات، بحيث إنها كانت ملفتة للنظر فورا عندما دخلناه لأول مرة. ولم نتمكن من أن نصلح حاله فورا، لكن تمكنا من ذلك فى خلال عام. وقد قام فريق من عمالنا بذلك داخلها، أما الترميمات الخارجية فقد قام بها مصريون. وأصبحنا الآن لا نخجل من استقبال ضيوف بها، وهو ما فعلناه باستقبال من يوم لآخر لسفراء الدول الاشتراكية. وكان من النادر أن ينزل بها ضيوف من موسكو. ودعونا مصريين أيضا، عامة من المقيمين بالإسكندرية إقامة دائمة. وكنا نريد أن نوسع من استخدام الفيلا لأهداف التمثيل، لكنى لم ألحق تنفيذ ذلك قبل انتهاء عملى بمصر.

وكانت الفيلا تستحق العناية بها. فقد كانت فى الجزء الأوسط من المدينة، وتطل مباشرة على البحر الذى كان يفصلها عنه طريق للسيارات من أسفل. وكان المكان مميزا جدا، حيث كان يوجد بجوارها أحد منازل الرئاسة، ولذلك كنا نشعر

دائما بأننا فى حماية يوثق فيها. وكانت الفيلا مبنية من الأحجار وتتكون من طابقين، وتخطيطها موفق ولها شرفتان كبيرتان. ويبدو أنه تم بناؤها لشخص غنى جدا. والحديقة محاطة بسور حجرى - هو أيضا ضخم، به بوابة كبيرة وغرفة للبواب وأبنية أخرى. وكان يراعى كل ذلك قومندان وزوجته، ومصرى عجوز جدا هو البستانى. ولسبب ما لم نكن نشعر بضجة المدينة، ولكننا كن نسمع صوت اضطراب أمواج البحر جيدا. وطبعا كانت أهم ميزة للفيللا هى هواء البحر النقى، الذى كنا لا نجده فى القاهرة. وللأسف لم نكن نذهب كثيرا، أنا وناتاشا، إلى الإسكندرية. نتذكر الإسكندرية ونشتاق لها، فقد دخلت هذه المدينة الرائعة حياتنا، حتى لو كان ذلك لفترة قصيرة.

رحلة إلى العلمين

كان أحد ضيوفى فى الإسكندرية هو ى.م. بريماكوف، فقد توافقت فترة زيارته فى القاهرة جزئيا مع أيام عطلة - يومى جمعة وسبت. وفى هذه الأيام، سافرنا كلنا من القاهرة إلى الإسكندرية. وأقصد بكلنا هنا: أنا وناتاشا وابنتنا الكبرى لينا، التى حضرت إلينا لقضاء شهر معنا، ويفجينى ماكسيموفيتش، ومرافقه روبرت ماركاريان، وم.س.تسفيجون وابنه. وقد تجولنا وشاهدنا المدينة، وجلسنا عند البحر، وفى اليوم التالى، توجهنا فى الصباح إلى العلمين على بعد ١٠٠ كيلومتر.

وقد دخلت العلمين كل المراجع باعتبارها مكانًا جرت به أكبر معركة فى شمال أفريقيا، أثناء الحرب العالمية الثانية. وكانت المعركة بين الجيش الألمانى- الإيطالى تحت قيادة المارشال "رومل"، والجيش الثامن البريطانى بقيادة الجنرال "مونتجومرى". وقد اندفع رومل إلى الشرق للوصول إلى قناة السويس، وقطع الطريق التى كانت تسير فيه البضائع القادمة من الهند وسنغافورة وماليزيا وأوستراليا ونيو زيلاندة وباقى دول جنوب شرق آسيا والمحيط الهادى إلى

بريطانيا العظمى. وكانت مهمة مونتجومرى تتلخص فى إفشال هذه الخطة بأن يواجه رومل بمعركة حاسمة، وأن يدمر قواته، ثم أن يطرده من أفريقيا.

وبدأ رومل حملته بنجاح فى عام ١٩٤١ فى شمال أفريقيا، ولقب بناء على ذلك بلقب "ثعلب الصحراء". واستمر فى دفع الإنجليز بإصرار إلى الشرق، ودخل أرض مصر عندما حانت له "لحظة الحقيقة". وحدث ذلك فى نوفمبر ١٩٤٢، فى موقع العلمين غرب الإسكندرية. وكان لرومل ١٢ فرقة ، بينما كان لمونتجومرى ١١ فرقة وأربعة لواءات. ولكن كان الجيش البريطانى متفوقا على الجيش الألمانى- الإيطالى بأكثر من ضعف العدد من الدبابات والطائرات. وقد حسم هذا التفوق مصير المعركة، فقد هزم رومل شر هزيمة. وكانت خسائر كلا الجانبين كبيرة. ولكن كان قد تم حسم مصير الحملة العسكرية الأفريقية. وطردت قوات رومل من مصر، ثم من ليبيا، ثم أجبرت على الخروج من أفريقيا تماما.

ويميل مؤرخو الغرب إلى المبالغة فى قيمة معركة العلمين. وهى فى الحقيقة كانت تمثل فقط أحد مشاهد الحرب. كان بلا شك هاما، ولكن لا يمكن بأية حال مقارنته بالمعارك الضخمة التى دارت على الجبهة السوفييتية – الألمانية. ولكن كل بلد يمجد تاريخه وأبطاله. ولذلك فإن معركة العلمين تمثل للإنجليز رمزا لصلابة وبطولة الجندى البريطانى، وموهبة القائد العسكرى البريطانى، خاصة أن "برنارد مونتجومرى" أصبح بعد ذلك مارشالا، وقاد بنجاح إنزال القوات البريطانية فى عام ١٩٤٤ بنورماندى. حتى أن الملكة منحته لقب "فيكونت العلمين". وقد عاش مونتجومرى حتى عام ١٩٧٦. أما مصير رومل فقد اختلف. فبعد محاولة اغتيال هتلر فى عام ١٩٤٤، تم التنكيل بعدد كبير من كبار الضباط. وقد بقى لرومل أحد اختيارين: أن تتم محاكمته، أو ينهى حياته بالانتحار. وقد فضل أن يتجرع السم.

لم نذهب إلى العلمين لمشاهدة المكان الذى دارت فيه المعركة. ولا ينصح بذلك، حيث بقيت الكثير من حقول الألغام التى لم تتم إزالتها. ولكن كان الهدف هو المتحف الحربى، والمقابر العسكرية التى تحظى بشهرة كبيرة. وكان الجزء الأكبر

من الطريق الإسفلتى يسير مرتفعا عن شاطئ البحر الأبيض المتوسط. وكنت أقطعه لأول مرة، ولذلك كنت أنظر إلى المناظر الظاهرة على اليمين (كانت الصحراء على اليسار). وقد سرنا بالقرب من خلجان رائعة. وأدهشنا اختلاف ألوان المياه بها. وقد يكون ذلك بسبب اختلاف عمق كل منها أو بسبب أملاح ما. وكان لونها زمردى أو بدرجات مختلفة من الزرقة. كما أن الشواطئ كانت رائعة ولا يوجد بها أحد على الإطلاق. ولا توجد أية أبنية ولا أشجار- فقط الشمس والبحر والرمال والأحجار، وفى أماكن متفرقة شجيرات.

ولم تكن مصر فى ذلك الوقت قد أصبحت بعد مكانًا يحضر إليه الناس للراحة على البحر. حيث كانوا قد بدأوا للتو فى بناء الفنادق والمعسكرات السياحية على الساحل. وكانت قليلة ولم يكن قد تم استصلاح الأراضى التى فى غرب الإسكندرية على الإطلاق.

وها هى لوحة إرشادية ظهرت على الطريق، مكتوب عليها باللغتين العربية والإنجليزية "العلمين. المقابر العسكرية". عدة دقائق أخرى، ووصلنا إلى المدخل الرئيسى. وكان أمامنا مبنى طويل من طابق واحد، لكنه عال وتقطعه أقواس منحوتة فيه. دخلنا عبر القوس الأوسط، فوجدنا أمامنا أرضًا رملية فسيحة جدا، ومنشور فيها كلها لوح حجرية رأسية عليها أسماء الذين قتلوا. واللوحات متماثلة تماما، وارتفاعها حوالى متر وطرفها العلوى مقوس قليلا. وتقف فى صفوف مستقيمة على أبعاد متساوية من بعضها. ولا توجد أية مقابر مشابهة لها- فحولها من كل جانب رمال مستوية فقط. وتمتد مشاية عريضة بعيدا من القوس الأوسط، ومزروع على جانبيها نوع من الشجيرات. هذه هى كل النباتات التى فى المقابر إذا لم نأخذ فى الاعتبار بضعة أشجار نخيل وصبار على طول المدخل الرئيسى. ويوجد صليب عال على بعد فى المركز مركب على بنية منشورية الشكل. ويبدو أنه يبين نهاية المقابر أو بداية المقابر التالية. وهى أربعة مقابر فقط: البريطانية والألمانية والإيطالية واليونانية. والآن، لم أعد أتذكر كم ألف دفنوا فيها. لكنهم

كثيرون. وكما فهمت، تم بناء الأربعة مقابر كلها، وتتم المحافظة عليها على حساب الحكومات المعنية، وجمعيات المحاربين القدامى القومية. وإلا لم نكن لنجد هذه النظافة وهذا النظام فى المقابر رغم أن الزوار الذين يجيئون إلى هنا بالطبع قليلون، فقد مضى على نهاية الحرب أكثر من ٤٠ عامًا. كما أن الوصول إلى هنا من ألمانيا أو إنجلترا صعب بسبب بعد المسافة.

وقد أدهشتنى شخصيا المقابر. ليس بسبب حجمها، بل لأنه قد دفن هنا باحترام كل من المنتصرين والمهزومين، وبدون تفرقة بالرتب والألقاب. ويمكن من ناحية أخرى، أن تكون هذه البساطة بسبب أنهم كلهم غرباء، وأن السكان المحليين لا يصنفونهم "كأبنائهم وغرباء"، ولكن كمحتلين، ومن حارب المحتلين. وبالمناسبة، ففى سنوات الحرب لم يكن الكل فى مصر "يميلون" إلى الإنجليز، فقد كان هناك من يتمنى هزيمتهم، حيث إنهم ملوا من السيادة البريطانية التى كانت قد امتدت لعشرات من السنوات. ولكن على أية حال، فإن المقابر فى العلمين ظاهرة شيقة من كلا الناحيتين السياسية والأخلاقية.

كما يوجد هنا متحف قريب تحفظ به بعض المعروضات المتعلقة بالمعركة. وتوجد عدة قاعات داخل المتحف، جمعت فيها أسلحة وخرائط وصور ووثائق ولوح ومختلف المعدات الحربية ومانيكانات فى ملابس عسكرية. ولم أر هناك أيضا أية تفرقة إلى "رجالهم وأعدائهم". كما يوجد معرض مفتوح: دبابات، مدافع ذاتية الحركة، وأسلحة مدفعية. وكانت كلها مدهونة بلون الرمال للتمويه كما فى السابق. ويجوز أنه يتم تجديد الدهان، حيث إن الشمس قوية هنا. لم ترحمنا نحن أيضا، رغم أننا كنا ما زلنا فى منتصف أبريل. لم نجد شيئًا آخر شيقًا، فصعدنا إلى سياراتنا التى سخنت تماما، وتحركنا فى طريق العودة إلى الإسكندرية أولا ثم إلى القاهرة. وكان ينتظرنا هناك اللقاء مع مبارك، الذى سبق أن تحدثت عنه.

فى بورسعيد

بورسعيد هى ثانى أكبر مدينة مصرية على البحر الأبيض المتوسط. تم تأسيسها فى عام ١٨٥٩ فى نفس الوقت الذى بدأ فيه شق قناة السويس، وهى قد تحولت منذ ذلك الوقت إلى مركز صناعى وتجارى هام (طبقا للمقاييس المصرية)، وعاصمة لمحافظة تحمل نفس الاسم. أما دورها الرئيسى فهو نفسه منذ عام ١٨٦٩، الذى فتحت فيه قناة السويس للملاحة وهو أنها بوابة بحرية لها، يتم فيها تشكيل قوافل السفن للمرور عبر القناة، والقيام بخدمات الميناء والخدمات الأخرى لها. وهذه المدينة الشابة، تقع على الجانب الغربى (الأفريقى) للقناة. أما الجانب الشرقى فبه مدينة ميناء أخرى هى "بور فؤاد". ولكنها أقل فى المنافسة لأختها فى الجانب الغربى؛ بسبب كثير من العوامل.

وقد ذهبت إلى بورسعيد عدة مرات. وكنا نسافر إلى هناك بالسيارة حيث إن الطريق كان جيدا، وكنا نقطع مسافة ١٧٠ كيلومترا عادة فى أكثر قليلا من ساعتين. وأول مرة ذهبت إلى هناك بعد وصولى إلى مصر بفترة وجيزة، كانت بهدف "مشاهدة" الوضع الذى عليه مبنى القنصلية السوفييتية التى أغلقها السادات، وإعطاء إشارة للسلطات المصرية نفسها بأننا ما زلنا مهتمين بتجديد نشاطها. وبدا المبنى نفسه فى حالة جيدة نسبيا، ولكن كل شىء بداخله كان ينم عن أنه كان مهجورا. ولكى لا يعد مهجورا تماما كان أحيانا يستخدمه ممثلو وزارة الأسطول البحرى؛ لقضاء الليل به، عندما كانت أعمالهم تقضى بسفرهم من الإسكندرية إلى بور سعيد.

وكان يوجد فى بورسعيد حى يحظى بشعبية خاصة عند أعضاء السلك الدبلوماسى. وهو ما يطلق عليه اسم "المنطقة الحرة" حيث كانت تباع البضائع الأجنبية الواردة إلى مصر بدون ضرائب جمركية. وكانت أساسا عبارة عن بضائع شعبية من الصين والهند وباكستان ومن الدول الأسيوية الأخرى عامة، ولذلك كانت أسعارها غير مرتفعة. وكانت تمر السيارات الحاملة لأرقام دبلوماسية بحرية إلى

المنطقة الحرة ومنها. لذلك فإن أعضاء السلك الدبلوماسى القاهرى كانوا يحبون الهجوم على بورسعيد. ولم يمثل دبلوماسيونا استثناءا من ذلك.

وكانت لنا علاقات تقليدية حسنة مع السلطات فى بورسعيد ومع إدارة قناة السويس. وقد بدأت هذه العلاقات عندما أيد الاتحاد السوفييتى بحسم تأميم قناة السويس فى عام ١٩٥٦. وفى ذلك الوقت رفض المرشدون الإنجليز والمرشدون الغربيون الآخرون المشاركة فى إرشاد السفن كنوع من الاعتراض على التأميم، فقام المرشدون السوفييت بمعاونة المصريين. وبعد ذلك لعب الاتحاد السوفييتى دورا حاسما فى وقف العدوان الإنجليزى – الفرنسى – الإسرائيلى على مصر منذرا بإرسال قواته المسلحة إلى منطقة النزاع لمعاونة مصر. وقد عانت بورسعيد فى ذلك الوقت بشدة من الهجوم العسكرى للتحالف الثلاثى. كما أن بورسعيد عانت بشدة مرة أخرى فى عام ١٩٦٧. وفى كلتا الحالتين، أظهر سكانها رجولة عظيمة. وقد حدث تآخى بين مدينة بورسعيد ومدينة فولجوجراد بروسيا فى عهد ناصر، حيث إن بور سعيد أصبحت رمزا مصريا للصمود. وكانت الاتصالات بين المدينتين نشطة ولسنوات متعددة. ولم يتم نسيانها رغم الفترة الصعبة للعلاقات السوفييتية مع مصر فى عهد السادات.

وقد أحسست بكل ذلك عند حضورى إلى بورسعيد فى زيارة رسمية. حيث جرت أحاديث شاملة مع المحافظ ومسئولين آخرين عن المدينة والميناء. وكان الحديث يدور عن زيارة المحافظ المرتقبة لفولجوجراد، وعن أنسب طرق الاتصال بين المدينتين، وعن مشاركة الاتحاد السوفييتى فى تحديث بعض المشاريع الصناعية فى بورسعيد، ومنها ما يخص الميناء.

وقمت أنا ومرافقى المستشار "أ.ن. جافريوشنكو" برحلة شيقة على زورق بخارى فى منطقة الميناء. وكان طول أرصفته يزيد عن ١٥ كيلومترا. وكان المرفأ نفسه واسعا ومحميا تماما بواسطة حواجز الأمواج، وهو ما كان يسمح

بتكوين قوافل السفن؛ لكى يتم بعد ذلك قيادتها عبر القناة. وقد أتيحت لنا فرصة مشاهدة عملية تكوين إحداها.

وقد قال لنا مرافقونا من العاملين فى الميناء إن عدد السفن يمكن أن يختلف فى القوافل. فعادة يكون عددها ١٠-١٢ سفينة. ولكنه يمكن أن يزيد أو يقل تبعا لحجم السفن نفسها. ونظرا لأنه بعد أن تم تعميق القناة، والقيام ببعض الأعمال لإعادة بنائها أصبح من الممكن أن تمر بها بوارج عملاقة حمولتها ٢٥٠- ٢٧٠ ألف طن. ويمكن أن يشغل طول هذه البارجة مكان ٣، أو حتى ٥ سفن عادية. لكنه عادة لا يكون انتظار الدور طويلا رغم أن الكثير يتوقف على العوامل غير المتوقعة. ويستغرق المرور نفسه عبر القناة ١٤-١٥ ساعة.

وحيث إن عرض القناة لا يسمح بالحركة فى كل الأماكن فى الاتجاهين، فقد تم بناء قنوات جانبية أخرى تسمح للسفن بتفادى بعضها البعض. وعامة فإن الحركة كبيرة. ولكن حالة الأسواق الاقتصادية تحدد الكثير، خاصة فى مجال البترول، حيث إن الكثير من السفن المستخدمة للقناة هى ناقلات بترول.

وقد أمضينا فى تلك المرة، أنا وجافريوشنكو، يومين فى بورسعيد. فشاهدنا المدينة ومعالمها، ومنها مبنى إدارة القناة المكون من ثلاثة قبب. وزرنا الأحياء الجديدة النظيفة جدا والفاخرة. واقتنعنا بأن المدينة قد أعيد بناءها تماما بعد أن خربتها الحرب. وسرنا قليلا بجانب القناة. والجانب الأفريقى منخفض، وأحيانا إذا نظرت من على بعد يخيل لك أن السفن تتحرك على البر وببطء شديد، حيث إن سرعتها تكون صغيرة. ويبلغ إجمالى طول القناة ١٦١ كم. وفى طرفها الآخر، توجد مدينة السويس التى مررت بها فقط، للأسف. وكنت أنوى أن أتعرف عليها أحسن، لكننى لم أتمكن من ذلك.

وتنتمى قناة السويس إلى مجموعة الطرق ذات الأهمية العالمية. وقد استخدمها الأسطول السوفييتى كثيرا، ليس فقط المدنى ولكن الحربى أيضا. ففى

عام ١٩٨٥، عبرت ٢٢٣٧ سفينة تحمل علم الاتحاد السوفييتى قناة السويس، منها ٤٠ سفينة تنتمى إلى الأسطول البحرى الحربى للاتحاد السوفييتى. وكان هذا هو سبب دعوتى لمحافظ بورسعيد أثناء حديثى معه أن يطلب من حكومته سرعة إعادة فتح قنصليتنا فى مدينته؛ لكى تساعد البحارة الروس عند ظهور مشاكل عندهم. وهذه المشاكل كما هو معروف (والمحافظ يعرف ذلك) موجودة عند بحارة كل الدول. وقد عبر المحافظ عن ثقته فى أن القنصلية سوف تفتح حتما، وأن هذه كلها مسألة وقت- هكذا وجهوه فى القاهرة.

الخلفية السياسية لزيارة سيناء

كما هو معروف، تقع مصر فى قارتين. وكنت قد زرت كل الجزء الأفريقى منها من الشمال إلى الجنوب. وقد بقى لى أن أزور الجزء الآسيوى - سيناء. بالإضافة إلى رغبتى الشخصية فى التعرف على البلد، كان هناك أيضا حافز سياسى لذلك. فقد علمت من المناقشات مع الذين عاشوا هنا فترات طويلة أنه منذ تحرير سيناء من الاحتلال الإسرائيلى، الذى بدأ من عهد السادات وانتهى فى عهد مبارك، لم يقم أى مسئول سوفييتى بزيارة سيناء. وكان ذلك فى البداية، كما فهمت، نتيجة للعلاقة العامة السلبية تجاه اتفاقية كامب ديفيد، واتفاق السلام المنفصل لمصر مع إسرائيل الذى كانت نتيجته خروج إسرائيل من سيناء. ولكن هناك تساؤل، هل يستحق الأمر التظاهر بأن استرجاع مصر لسيناء- أمر مشين، وأنه يجب أن نكون بعيدون عنه؟ كنت لا أعتقد ذلك. وبالإضافة إلى ذلك، كنت أفترض أن الاستمرار فى هذا الموقف سوف يجلب عناصر تعقيد لا داعى لها فى تحسيننا لعلاقاتنا مع القاهرة. لذلك قررت أن أتوجه إلى شبه جزيرة سيناء فى أول فرصة تتاح، وأن تكون زيارتى لها رسمية، وأن تتضمن لقاء المحافظ المحلى، وأن أخطر بها كل من وزارة الخارجية والباز.

وظهرت نافذة صغيرة للقيام بهذه الزيارة فى بداية أبريل عام ١٩٨٥. وقد استغلها بنجاح المستشار التجارى "ن.أ. شيفانكوف"، الذى كان من المفروض أن يريه الدكتور شمس مناجم الكاولين المهملة الموجودة فى سيناء. وكان فى ذلك الوقت يجرى الإعداد لعمل الجدوى الفنية والاقتصادية بمشاركة الاتحاد السوفييتى لإعادة بناء وتوسيع مصنعى هندال والتبين للحراريات. وكان على شيفانكوف أن يقتنع بكفاية الخامات المتاحة. فمن المعروف أنه حدث فى الماضى أن الاتحاد السوفييتى قد بنى فى أفريقيا مصانع غالية، بناء على طلب الحكومات المعنية، ثم تبين أنه لا يوجد فى البلد مخزون من الخامات أو الوقود أو الطرق التى كان يمكن أن تنقل عن طريقها كل هذه المواد. لذلك كان حذر شيفانكوف وفريقه المتسم بالحكمة يستحق أن أحييه. وكان من دواعى سرورنا أيضا، أنا وناتاشا، أن نكون فى صحبة أشخاص سبق أن سافرنا معهم من قبل فى مصر.

وقد سافرنا من القاهرة فى ثلاث سيارات، واتجينا إلى الشرق فى اتجاه قناة السويس. وقطعنا هذا الجزء من الطريق بدون أى توقف، ثم عبرنا القناة عبر النفق الذى فتح للحركة منذ فترة قصيرة، والذى يبلغ طوله كيلومترين، فوجدنا أنفسنا فى جزء آخر من العالم- فى آسيا. وبعد ذلك، اتجه الطريق إلى الجنوب محاذيا للقناة، لكن على بعد قليل منها.

على خط بارليف

وقطعنا بضعة عشرات من الكيلومترات، ثم انحرفت قافلتنا، التى كانت تقودها سيارة د. شمس، فجأة إلى اليمين، وتوقفت بسرعة عند بعض الأطلال. وتبين أن د. شمس قد تذكر حديثنا عن حرب "يوم الغفران"، وعبور القوات المصرية لقناة السويس، فقرر أن يرينا ما يسمى "بخط بارليف"، وهو شريط من التحصينات بناه الإسرائيليون بعد حرب عام ١٩٦٧. وكان يشرف على بنائه

الجنرال "حاييم بارليف". ومن هنا، كانت تسمية هذا البناء التحصينى الممتد على طول القناة لعشرات كثيرة من الكيلومترات.

ولم يكنْ هناك أية نفس حولنا، فقمنا بسرور بتسلق ما بقى فى هذا المكان من التحصينات الإسرائيلية. وقياسا على شكل الأجزاء المعدنية الملتوية والخرسانة المهشمة فإن المعركة هنا كانت شديدة. ولكن الكثير بقى سليما. وقد تجولنا فى ممرات الاتصال المحفورة التى يبلغ علوها طول الإنسان كاملا، وكانت جدرانها مثبتة بالألواح المعدنية، حتى لا تنهار الرمال. وقد دخلنا التحصينات الخرسانية وفى نقاط الرماية الثابتة، ونظرنا من خلال المزاغل إلى الضفة الأخرى للقناة، كما كان يفعل على الأرجح الجنود الإسرائيليون فى الماضى.

وأدهشتنى إحدى التفصيلات. فقد استخدمت فى تشييد التحصينات كمية كبيرة من مختلف الزلط، الذى كان معبأ فى شبكات معدنية كبيرة حتى لا ينفرط. وكانت هذه الشبكات مرتبة فى عدة صفوف مكونة جدارًا حجريًا سميكًا. وغالبا لم تكن تستطيع كل رصاصة أو دانة مدفع أن تخترق هذه الكتلة الحجرية. وفى الأعلى، كانت توجد أسلاك شائكة وحلزونات معدنية ما زالت باقية.

وكما شرح لنا شمس، فإن خط بارليف تميز بمستوى عالٍ من الميكنة العسكرية. فكانت الكثير من العمليات تتم آليا بالكامل، خاصة تحريك أسلحة المدفعية من المخابئ إلى مواقع القتال، ثم الإجراءات فى الاتجاه العكسى لحمايتها من مدفعية العدو (استعمل النزال بالمدافع عبر القناة بعد حرب عام ١٩٦٧، لعدة سنوات أخرى – وقد كانت هذه ما سميت بحرب الاستنزاف). وكانت المعدات فى خط بارليف أساسا أمريكية. وبهذا يظهر حجم النجاح الذى حققته القوات المسلحة المصرية، التى تمكنت من اختراق القناة والسيطرة على خط بارليف. وقد علمهم المدربون العسكريون السوفييت ما يجب أن يفعلوه بعد انتهاء حرب ١٩٦٧ فورا. ويجب أن نعترف أنهم أحسنوا تعليمهم. كما لم تخنهم المعدات الحربية السوفييتية المستخدمة فى عبور القناة، واختراق خط بارليف.

على الطرف الغربى من سيناء

أمضينا حوالى ساعتين على خط بارليف، ثم استمررنا فى الحركة فى اتجاه الجنوب. وكان سير الطريق بعيدا عن شاطئ خليج السويس بحيث إننا لم نر البحر الأحمر إلا فى أبو زنيمة، وهو نقطة موجودة تقريبا فى منتصف شبه جزيرة سيناء. وكان الطريق ما زال يسير بجانب سلاسل جبال جميلة المنظر، عانت على مدى ملايين السنوات من الرياح القوية التى كشفت عن مختلف أنواع الخامات المعدنية، التى ظهرت على هيئة خطوط أحيانا رأسية وأحيانا أفقية. وفى بعض الأحيان، ظهرت بعض الطبقات تحت تأثير هذه الرياح كأعمدة بارزة، وبعضها على العكس، ظهرت كحفر عميقة بينها. وتنوعت أيضا الألوان: فكانت الخطوط أحيانا لونها "بيج"، وأحيانا وردية اللون، وأحيانا أخرى رمادية أو سوداء. وأحيانا كانت تظهر على قمم الجبال أشياء تماثل أغطية الرأس- وهى أيضا نتيجة للرياح. وقد بدت الكتل الجرانيتية الوردية اللون جميلة بشكل خاص. وكان المنظر العام غير معتاد للعين الروسية. ففى أحد الجانبين رمال فقط، ومن الناحية الأخرى، جبال ما من كوكب آخر أشكالها غريبة جدا.

وتبين أن المكان المقدر له أن يكون محطتنا الأساسية كان بعيدا عن أية منطقة سكنية. وكان عبارة عن منزل بسيط من طابق واحد وله شرفة تطل على البحر، ويقف على الشاطئ الرملى المرتفع للبحر الأحمر. وقد تم دهانه بلون أزرق فاتح، وكان يظهر جيدا للعين على خلفية التلال الرملية اللانهائية المنبسطة حوله من ثلاثة جوانب. وبقي الطريق الذى قطعناه فى مكان ما فى الخلف. ولم تكن هناك شجرة واحدة أو شجيرة فى أى مكان من حولنا. وكان البيت نفسه غير مسكون. وكانت تظهر فقط على بعد مائة من الأمتار منه خيمة البدوى الذى يحرس البيت، وبجانبها جمل.

وتبين أن البيت الذى يظهر من بعيد وكأنه لعبة تقريبا واسع تماما، حيث إن به ثلاث حجرات نوم، ودورتى مياه وحجرة طعام ومطبخ. واتضح أنه ملك شركة

مصرية تعمل فى سيناء على استخراج المنجنيز، وكان عبارة عن مسكن مؤقت لرؤسائها عندما كانوا يسافرون إلى سيناء. وقد منحوه من باب الذوق لعدة أيام لشركة شمس، التى كانوا يتعاونون معها. وكان كل شيء فى البيت معروفًا لشمس وزوجته، فقد سبق أن أقاموا هنا. سكنا فيه بسرعة وبدرجة كافية من الراحة، وبدأت زوجاتنا - زوجتى ناتاشا، وايما ميخايلوفنا شيفانكوفا، ومارجريتا جيورجيفنا شمس - فى تجهيز العشاء. وجمعنا ما أخذناه فى القاهرة من مخزون فتبين لنا أننا لن نواجه أى نقص فى الطعام أو فى الشراب. وطبخنا على غاز أنبوبة، وأضأنا مصابيح كيروسين وشموع، حيث لم تكن الكهرباء متوفرة فى هذا البيت الواقف وحيدا.

استيقظنا، أنا وناتاشا، مبكرا كعادتنا فى القاهرة، وحيث إن كل الباقين كانوا ما زالوا نائمين ذهبنا إلى شاطئ البحر. وكان علينا أن نعبر منحدر حاد إلى أسفل، ولكن استحق الأمر ذلك. فقد كان الصباح رائعا. وكانت هناك نسمة باردة آتية من جهة البحر، كما أن الجو لم يكن ساخنا بعد. وشاطئ كبير جدا ليس به أحد على الإطلاق، وبه تشكيلة كبيرة من القواقع. وكانت ناتاشا قد جمعت مجموعة كبيرة منها فى ديسمبر من على الضفة المقابلة، وسنحت لها الفرصة الآن لكى تثريها بعينات من الضفة الشرقية للبحر الأحمر. وقد قمنا بذلك إلى أن تمت دعوتنا لتناول الإفطار.

ثم حضرت إلى البيت عدة سيارات جيب مجهزة للسير فى الأراضى الوعرة، وتوجهنا بها إلى أعماق شبه جزيرة سيناء والجبال حيث يتم استخراج الكاولين. ولم يكن هناك طريق بالمعنى المفهوم. وقد سرنا على الرمال حيث إنها كانت متضامة ومضغوطة رغم أنها كانت مغطاة بأحجار كثيرة، بعضها كبير الحجم بحيث كان يجب أن ندور حولها. وكان المكان المستهدف على بعد حوالى من خمسين إلى ستين كيلومترا، ولكننا احتجنا عدة ساعات للوصول إليه. وفى النهاية وصلنا. وسرنا الكيلومتر الأخير أو ما شابه ذلك مترجلين، حيث إن

السيارات لم تكن تستطيع أن تعبر هذه المسافة. وكان الموقع عبارة عن مناجم أفقية ممتد داخل الجبل. وكانت توجد عنده كومة من الأحجار الرمادية اللون مختلفة الأحجام. وكان هذا هو الكاولين- معدن الكاولنيت الذى تكون نتيجة تهشم الجرانيت والصخور البلورية، وغيرها من المعادن المحتوية على الفلسبار، الذى يمثل المادة الأساسية لصناعة الحراريات وطين الخزف، وبالطبع يعتبر المادة الأساسية لصناعة الأنواع المختلفة من المواد الحرارية من قوالب ودهانات... إلخ... ومن ضمنها ما يخص صناعة إنتاج المعادن.

ولم يدخلونا إلى داخل عمق المنجم بعيدا. وكان يبدو أن هذه مناجم قديمة وأنه ليس آمنا هناك. ولكن كان المهندسون المرافقون لنا يشرحون طوال الوقت لشيفانكوف، وللخبير الذى معه، أحجام الاحتياطى المضمون ونوعية الخامة الموجودة، وطرق استخراجها ونقلها، والتكلفة التقريبية لطن الكاولين، والعوامل الأخرى التى كان يجب أخذها فى الاعتبار عند تجهيز دراسة الجدوى الفنية والاقتصادية للمشروع. وبأمانة، كانت كل هذه المعلومات لا تعنينى كثيرا، لكن على أية حال، كان من المفيد سماعها، وكذلك المشاهدة، فالتعلم لا يكون متأخرا أبدا، وعلى السفير أن يعلم الكثير. والأهم هو أن شيفانكوف كان راضيا عما رآه. وعندما عدنا إلى أبى زنيمة تمت مناقشة كل هذه المجموعة من الأسئلة بموضوعية كبيرة. وقد بقيت لدينا كذكرى عن هذه الرحلة بجانب الانطباعات قطعتان من الحجر عليهما طبعة لفرع نبات قديم يشبه نبات الخنشار فى وقتنا هذا. عثرنا عليهما تحت أقدامنا تماما، عندما تسلقنا أحد مواقع المنجم، وهى ما زالت محفوظة لدى إلى اليوم فى الداتشا. ومن وقت إلى آخر، أتناولهما من على الرف، فتظهر فورا فى ذاكرتى صور رحلتنا فى سيناء.

فى دير سانت كاترين عند جبل موسى

تحركنا فى الصباح التالى مرة أخرى فى الجبال، لكن فى اتجاه آخر وفى سياراتنا، حيث إنه كان يمكن أن نصل إلى هدفنا على طريق جيد ممهد. وللحق

يجب أن أقول إن الطرق الحديثة أنشأها الإسرائيليون فى سيناء، أثناء سنوات احتلالهم لشبه الجزيرة، وهذا يدلنا على نيتهم فى عدم الخروج من هناك (على الأقل بسرعة). وكان طريقنا يؤدى إلى منتصف سيناء تماما فى اتجاه جبل "حورب" المقدس، وهو الاسم الذى يحمله جبل سيناء وجبل موسى. وطبقا للكتاب المقدس، فقد قام "يهوه" على قمة هذا الجبل بالذات بتسليم موسى ألواحًا حجرية عليها الوصايا العشر. وقد أمضى موسى هناك ٤٠ يوما و٤٠ ليلة. كما علم الله وأرشد رسوله، وهو ما تمت روايته فى كتاب موسى الثانى "الخروج".

وترتبط بسيناء أيضا حوادث سابقة أخرى من حياة موسى. فهو قد هرب إلى هنا من مصر؛ خوفا من الانتقام بسبب المصرى الذى قتله دفاعا عن أحد أفراد قبيلته. وهنا، قابل امرأة أصبحت زوجته، وأنجب منها ولدين. وهنا أيضا، قام برعى غنم حماه "يوفور"، قسيس "ماديام". وهنا أيضا، ظهر إله "يهوه" لموسى فى النار الحارقة، ولكن لم تحترق العضاه (العليقة المحترقة)، ودعاه للعودة إلى مصر لتخليص شعب إسرائيل من الأسر المصرى، وعلمه كيفية إقناع فرعون لكى يحرر هذا الشعب. ولم يكن يجب على موسى أن يحضر الإسرائيليين إلى أى مكان، لكن إلى جبل "حورب"، حتى يتم إعطائهم الوصايا المقدسة لسير الحياة عن طريق موسى. وكما جاء فى الكتاب المقدس، نفذ موسى كل ذلك. وقد استغرق الطريق من مصر إلى جبل "حورب" خمسين يوما. كما أنه من المعروف الزمن الذى قاد فيه موسى قومه، قبل أن يصلوا إلى أرض الميعاد.

وبالطبع كنت أريد أن أرى بعينى جبل حورب، لكن كان الأهم بالنسبة لى موجودًا عند سفحه، وهو أحد أقدم وأشهر الأديرة الأرثوذكسية - دير سانت كاترين. فلم يكن من الممكن أن أكون فى سيناء ولا أزور هذا الدير الذى ترعاه روسيا منذ عهد القيصر الروسى "إيفان الرهيب". لقد أنشئ الدير فى القرن السادس، ولكن كانت هناك قصة سابقة لظهوره، وسوف أقدمها أولا.

فنظرا لعدم وجود قوم يعيشون فى سيناء وبعدها عن المدن المأهولة، أصبحت سيناء أحد الأماكن المفضلة التى كان يختبئ فيها المسيحيون فى الماضى ممن اضطهدهم. لذلك ظهر فيها أولا النساك الوحيدون، ثم مجموعات سكنية من المسيحيين، ثم أديرة رهبان. وقد ظهرت فى منطقة جبل حورب فى القرن الثالث. ونالت منطقة العليقة المحترقة تبجيلاً خاصًا، خاصة أنه يوجد جنبها عين ماء، والماء فى سيناء نادر جدا. وقد أوقف الملك قسطنطين فى عام ٣١٣ مطاردة المسيحيين، وسمح بحرية العبادة واعتناق الديانة المسيحية. وأصبح ذلك حافزا إضافيا لانتشار الرهبنة، وكذلك فى سيناء. وبناء على طلب الرهبان المحليين أمرت أم قسطنطين الإمبراطورة "ايلينا" (التى اعتبرت فيما بعد من القديسات) ببناء معبد صغير عند سفح الجبل فى مكان العليقة المحترقة، على شرف السيدة مريم العذراء.

ويعتقد أن موسى لم ير فقط فى نار العضاه "يهوه"، لكنه رأى أيضا هيئة السيدة العذراء. لذلك يقدم علماء الدين المقارنة كما يلى: العضاه تحترق ولا تحترق، وولدت السيدة مريم المسيح وبقيت عذراء. لذلك يوجد ارتباط وثيق بين العليقة المحترقة والمقدسة السيدة العذراء. إذا فقد ظهر المعبد الذى بنى عند سفح جبل حوريب على شرف السيدة مريم العذراء فى عام ٣٣٠، وحفظ جزئيا حتى زمننا. وفى القرن السادس، وبأمر من الإمبراطور "يوستينيان" تم دمجه فى بناء كنيسة أكبر بكثير سميت "بازيليكا يوستينيان"، وتمت إحاطتها بجدران ضخمة محصنة بناء على رغبة يوستينيان. وبذلك تم وضع بداية الدير المحتوى على الكثير من الأبنية الداخلية الأخرى، وعدد كبير من الرهبان، وحوالى مئتين من عائلات العبيد الذين تم إرسالهم بأمر يوستينيان من مصر وأناتوليا. وعاش الأخيرون بالقرب من الدير لخدمته وحراسته. وقد حملت الكنيسة الأساسية فى الدير، كما فى السابق، اسم مريم العذراء، أما الدير نفسه فكان اسمه فى البداية "التجلى".

وحمل بعد ذلك بفترة اسم دير سانت كاترين، بناء على حدوث معجزة عثور رهبان الدير على رفات الشهيدة "كاترين"، على قمة أعلى جبل فى سيناء (٢٦٣٧ متر). وأصبح الجبل يحمل اسم البطلة المقدسة كاترين، وكذلك الدير نفسه أصبح يحمل اسمها، حيث إنه يضم رفاتها فى كاتدرائية يوستينيان.

من كانت "المقدسة كاترين"؟ ولدت فى الإسكندرية فى عام ٢٩٤ فى عائلة أريستوقراطية غنية. وكانت فتاة جميلة ومتعلمة جيدا، فقد درست الفلسفة والشعر وعلم البلاغة والرياضيات والفلك والموسيقى. وكان يمكن أن تعيش فى بحبوحة وثراء تام إذا لم يكن قد وجه انتباهها أحد الرهبان السوريين إلى المسيحية، التى كانت تضطهد بقسوة فى ذلك الوقت. وفى رواية أخرى، ظهرت السيدة العذراء للفتاة فى الحلم، وأنها استيقظت فى الصباح وفى أصبعها خاتم جعلها تؤمن بأنها قد أصبحت الآن عروس المسيح، وهو ما جعلها ترفض الزواج من الإمبراطور. وحيث إن "دوروسى"، التى حصلت على اسم كاترين عند تعميدها، لم تكن تخفى إيمانها بل إنها جاهرت باتهام الإمبراطور بالوثنية، فجاءت النتائج بسرعة. ورغم أنها ألقت كلمة بليغة فى المحكمة بل إنها، طبقا للرواية،أقنعت عدد من أعضاء أسرة الإمبراطور بعظمة ديانتها، فقد حكم بإعدامها بطريقة قاسية. وقد اختفى جسدها بعد ذلك بطريقة غامضة، وكما تقول الرواية، حملته الملائكة إلى قمة أعلى جبل فى سيناء. وبعد مرور ٣٠٠ عام، ظهرت رؤيا كمعجزة لرهبان فعثروا على رفاتها.

وبعد عدة قرون من ذلك، انتشرت أسطورة الشهيدة كاترين عن طريق الصليبيين فى أوروبا، وأصبحت هى إحدى أكثر المقدسات تبجيلا. ونتيجة لذلك؛ يحتل دير سانت كاترين فى سيناء مكانة مميزة بين الأديرة المسيحية. وكان هناك نزاع بين بطاركة عدة كنائس عمن يؤول إليه الدير، إلى أن قرر مجمع القسطنطينية أنه يجب أن يكون الدير مستقلا.

وأغرب شيء، هو أنه لم يتم الاستيلاء أبدا على دير سانت كاترين، ولم ينهب أو يدمر أبدا. فعلى مدى ١٤٠٠ سنة، كان يشعر بأمان تام إذا لم نأخذ فى الاعتبار الإصابات المحدودة التى تسببت له فيها الزلازل والحرائق. وإذا لم نتحدث عن حماية خاصة من جانب قوى سماوية، فيمكن تفسير متانة الدير بعوامل مختلفة: فأولا، متانة البناء. لقد تم بناء جدران الدير مثل كاتدرائية يوستينيان من كتل جرانيتية كبيرة. وعلى سبيل المثال، سمك جدران الدير يتراوح من ١.٨ متر إلى ٢.٧ متر، أما السقف فهو محمول على ١٢ عامودًا، كل منها عبارة عن قطعة واحدة من الجرانيت. ثانيا، كان الدير دائما ما يحظى بحماية جيدة بناء على عهود حماية. ويتميز العهد الذى قدمه النبى محمد مؤسس الإسلام بأهمية خاصة. حيث يعتقد أنه كان يحظى بضيافة الدير، عندما كان يمارس التجارة، لذلك منحه عهد حماية كنوع من العرفان بالجميل، ووضع عليه طبعة يده. كما منح الدير بعد ذلك السلاطين الأتراك عهود حماية للدير، عندما كانت سيناء تحت سيطرة الإمبراطورية العثمانية. ومنح أيضا نابوليون بونابارت عهد حماية للدير أثناء حملته على مصر. كما أن كون سيناء ظلت تقريبا غير مسكونة كان له دور هام، كما أن السكان الأصليين- البدو- تقريبا لم يكونوا يتعاملون مع الدير. باختصار، فإن الدير لم يضايق أحدًا أبدا.

وفى نفس الوقت، عرف الدير أزمنة مختلفة: فكانت له فترات ازدهار وفترات خمود. فالقرنان التاسع عشر والعشرون ينتميان بالتحديد للفئة الثانية. وهذا يتضح من العدد الصغير للرهبان. فقد مضى الزمن الذى كان فيه عددهم بالمئات. ففى عام ١٩٨٥، عندما كنت هناك، كان عددهم ١٧ فردًا فقط. وكانوا كلهم من اليونانيين. وقد قيل لنا إن الدخل الأساسى للدير يأتى من السائحين. وفى ذلك الوقت كان عددهم قليلاً. من المفترض أن الوضع قد تغير إلى الأحسن منذ ذلك الحين. ولكن السؤال هو: بأى قدر؟

وإذا نظرت إلى الدير من بعيد، خاصة من أعلى إلى أسفل من الطريق الجبلى، فإنه يبدو صغيرا جدا على خلفية جبل حوريب، كأنه بقعة صغيرة زاهية فى محيط ضخم عابس، وخال من الحياة وبلون الرمال. ورغم وجود جزء من الأرض تمت العناية به عند الجزء الغربى من الدير (هو حديقة الدير)، وأنه توجد القليل من الخضرة على طول الجدار الجنوبى، فإنها لا تغير من السمة العامة للانطباع عن سيناء، كأنه جزء من العالم نسيه الله؛ فكل شيء عار فى الجوار فلا توجد إلا رمال وحجارة. وتشعر فورا بأن حياة الرهبان هنا ليست عذبة، ولكنها تماثل كفاحًا دائمًا للحياة. كما أن المناخ ليس مفرحا؛ فتقريبا طوال العام النهار حار، وفى الصيف لا يطاق الحر، كما أن الليل فى الجبل يميل إلى البرودة، بل إنه حتى ببساطة بارد. بالإضافة إلى الرياح وعدم وجود أمطار تقريبا أبدا. لماذا وضع الله القادر على كل شيء الأماكن المذكورة فى الكتاب المقدس، المرتبطة بموسى فى هذه المنطقة؟ فهذا ليس مفهوما تماما. ولكن ليس علينا نحن أن نحكم على إرادة الرب. ويمكن أن تكون الطبيعة كانت مختلفة هنا بعض الشيء منذ ٣٣ قرنا عندما كان يعيش موسى. فقد كان يجب أن يجد غذاء للغنم الذى كان يرعاه؟

ولكن الواقع يبقى واقعا - فإن هذه الأماكن لم تعد تجذب إليها الرهبان. وعندما تقترب من الدير ترى كم هو ضخم فى الواقع من حيث الأبعاد، وترى أن به الكثير من المبانى، وكم عدد الأخوة الذين كان يمكن إسكانهم هنا. وبالفعل يترك الدير انطباعًا، ولكنه متضارب بعض الشيء: فمن الخارج جدران حصينة كئيبة، تم تجديد بعض أجزائها فقط. ولكنها عامة احتفظت بضخامتها التى بنيت بها فى البداية؛ بسبب الخوف من الاعتداء على أمان وسلامة الدير. وعلى العكس، توجد فى الداخل اختلافات معمارية عن الشكل العام. ولكن جاذبيتها تسعد العين بدلا من أن يشعر الإنسان بضآلته. لا يظهر هذا الإحساس فقط بسبب كاتدرائية يوستينيان المجاورة التى تم الانتهاء من بنائها فى عام ١٥٥١، وبرج الأجراس الجميل الذى تم بناءه فى عام ١٨٨١، ولكن بسبب المبانى الأخرى أيضا الكثيرة التى تملأ كل

الحيز الداخلى للدير المرتبطة ببعضها البعض بمختلف أشكال السلالم والممرات والشرفات... إلخ. وتبدو أديرتنا الروسية متفوقة من ناحية التأثير على الشخص الذى أتى للصلاة.

لم يكونوا ينتظروننا فى الدير حيث إننا لم نبلغهم مسبقا عن نيتنا زيارته. ورغم ذلك فقد أظهروا لنا كرم ضيافة واهتمام. وبالمناسبة، نحن لم نفسد مسار الأعمال العادية فى الدير. فلم تكن الصلاة قائمة فى ذلك الوقت. فكما شرحوا لنا تقوم الصلاة كل يوم من الساعة ٤ صباحا إلى ٧:٣٠، وفى النهار، من الساعة٣ إلى ٥. وقد صاحبنا فى زيارة الدير نائب رئيس الدير(حيث كان الأخير مسافرا). وكنا نتحدث بالانجليزية التى كان يجيدها اليونانى ذو الذقن الشائبة والمظهر الحسن. وكان من الواضح اعتياده القيام بدور المرشد. وقد يكون ذلك هو واجبه الرئيسى.

وقد بدأنا الزيارة من أقدم الأجزاء – كاتدرائية يوستينيان. وبدأت المفاجآت من عند المدخل. فقد اتضح أن الصليبيين قد صنعوا الأبواب الخارجية للكنيسة فى القرن الحادى عشر، وأنها بقيت على هذا الشكل. وأدهشتنا أكثر الأبواب التالية. وكانت مصنوعة من الخشب وعمرها قد أصبح ١٤٠٠ عام. وقد صنعها حرفى بيزنطى من خشب الأرز اللبنانى. وكانت مزخرفة برسوم محفورة على الخشب. وكان يمكن بسهولة تمييز مختلف الحيونات والطيور والزهور وأوراق النباتات عليها. وقد أدهشتنى رؤية أبواب خشبية بهذا العمر الطويل صالحة فى دير يعمل. وطبقا لما رواه الراهب فإن الخشب الذى يغطى كمرات الأسقف هو أيضا قد حفظ من عهد يوستينيان. وقد اضطروا فقط أن يبنوا سطحًا جديدًا فوق السقف القديم. أما فى الداخل، ففى الحقيقة اختلفت بعض الأشياء: ففسيفساء الأرضية ترجع إلى القرن السابع عشر، بينما الحامل الخشبى للأيقونات المشغول والمذهب يعود إلى القرن الثامن عشر. ولكن الأيقونات من القرن السادس وما بعده. وأدهشتنا كمية المصابيح

المعدنية فقد كان عددها كبيرا جدا. وخطف نظرنا عدم التناسق الكامل من حيث الطراز.

وكانت توجد ثلاث كنائس صغيرة فى الكوات الجانبية على كل جانب، وثلاث أخرى فى الجزء الذى بعد المذبح. وبدت لى زخرفتها زاهية أكثر من اللازم، بل حتى بدون ذوق. فلم تكن بها البساطة والالتزام اللذان يجب أن يحس بهما فى الكنيسة، خاصة فى كاتدرائية ترجع إلى القرن السادس، حيث يجب أن يدعو عمر الكنيسة نفسه إلى التبجيل وإلى شعور مناسب.

وكان ما رأيته داخل الكاتدرائية لا يميزها بأى شىء عن الكنائس البسيطة العادية، على الأقل من وجهة نظرى. وخيل لى أنه كان يمكن التعامل مع هذا البازيليك الفريد وما به من أيقونات نادرة جدا وغيرها من زينات الكنائس بشكل أحسن.

وقد لفت نظرنا فى المذبح تابوتان. أحدهما كان فضيًا، وطوله حوالى مترين، وعلى غطاءه رسوم ذهبية للقديسة كاترين. وكان ذلك كما قيل لنا عبارة عن هدية قدمتها "يكاترينا" زوجة القيصر الروسى "بطرس الأول". أما التابوت الثانى فكان فضيا أيضا ومن روسيا. ولكن من أهداه؟ لم نستوضح ذلك (فقد ذكر اليونانى فقط مدينة أوديسا، وإحدى الأميرات الروس، ولكنه لم يذكر اسم عائلتها). وكان كل من التابوتين مقدما لحفظ رفات القديسة كاترين. وكان يوجد أيضا بالمذبح تابوت من المرمر- وكان أيضا لنفس الهدف. ما هو الغرض الذى لعبه كل من هذه الأشياء؟ هذا أيضا بقى غير واضح تماما. وقيل لنا فقط إن التابوت الأول يضم رأس ويد القديسة، ولكنهم لم يقوموا بفتحه، حيث إن عيد الفصح كان يقترب ومن المفروض أن يبقى التابوت مغلقا فى هذه الفترة. ولكنهم أرونا هدية أخرى، مقدمة من "كاترين الأولى": شمعتان طول كل منها متران ونصف، إن لم يزد على ذلك، وسمكهما عند القاعدة لا يقل عن ٢٠ سم. والشمعتان مزينتان برسوم ملائكة وكتابات.

وكانت بالنسبة لنا زيارة المصلى الذى خلف المذبح، والذى بقى من كنيسة القرن الرابع شيئًا مميزًا بالنسبة لنا. وقد تم تشييد مذبحها فوق جذور "العليقة المحترقة". والمصلى صغير ومزخرف كله، لكنه يعتبر أكثر الأماكن تبجيلا فى المعبد. وكان علينا أن نخلع أحذيتنا لدخولها. ويتم ذلك منذ أن ظهر الله لموسى فى لهب العليقة المحترقة، وقال له:"لا تقترب إلى هنا، اخلع حذائك من قدميك، فهذا المكان الذى تقف فوقه أرض مقدسة" (ارجع فى ذلك إلى الكتاب المقدس). ويسمح فقط للقساوسة والرهبان بدخول مصلى العليقة المحترقة كما قيل لنا، وتتم فيه الصلاة فى أيام السبت فقط.

والآن نتحدث عن "العليقة المحترقة" نفسها. تنمو الآن هذه الشجيرة بجانب مصلى يحمل نفس الاسم، ولكنها ليست على الأرض (ولكن تمتد إليها جذورها)، ولكن على ارتفاع أربعة أمتار تقريبا، حيث تستند على كمرات خشبية. ويبدو أنه تم رفعها إلى هذا الارتفاع حتى لا يقطع منها الزوار فرعًا كتذكار. والعليقة المحترقة هى نوع خاص من نبات "العضاه"، الذى لا يوجد فى أى مكان آخر من أرض شبه جزيرة سيناء. ويؤكدون أيضا أن كل محاولات زراعته فى أى مكان آخر فشلت. وفروع العليقة المحترقة رفيعة وطويلة وبها أوراق صغيرة. وتشبه سيقان هذه الفروع فروع الصفصافة الطويلة أو فروع أشجار البتولا الباكية، التى تتأرجح بتأثير أية رياح تهب. وتنبت من هذا النبات زهور صغيرة صفراء.

وبالطبع التقطنا صورًا لها كما صورنا أجزاء كثيرة من الدير. وقد أرونا هدية روسية أخرى - كل الأجراس التسعة المركبة على برج أجراس ذى ثلاثة طوابق، كانت مهداة من قياصرتنا. كما كانت هناك أيضا الكثير من المنح النقدية. فعلى سبيل المثال، استخدمت نقود القيصرة الروسية "أنا ايوانوفنا" لترميم الدير بعد حريق. وكان ارتباط الدير بروسيا وبالكنيسة الأوثوذكسية بروسيا الماضى هو أحد المصادر الرئيسية لدخله. كما كان للدير فى روسيا قبل الثورة ممتلكات تدر عليه دخلاً، لكنه فقدها كما حدث لأديرة وطننا.

ورغم ذلك لا يمكن وصف دير سانت كاترين بأنه فقير، فهو يحتل بعد الفاتيكان المكانة الثانية من حيث ثراء مكتبته بالمخطوطات والكتب الكنسية النادرة. كما أن مجموعة أيقوناته غنية بطريقة مميزة، حيث إن بها ٢٠٠٠ أيقونة من مختلف المدارس والقرون، ولكن أغلبها قديم. ومعروض منها فقط ١٥٠ فى صالة معرض الدير. كما يمكن مشاهدة عدد آخر فى الكاتدرائية وفى المصليات.

وفى نفس الوقت، كانت قاعة الطعام القديمة جاذبة للاهتمام. ولم تعد تستخدم للغرض المباشر الذى شيدت من أجله. وكانت توجد رموز للصليبيين فى زخارفها، كما أن قبة سقفها المقوسة تشبه طراز "الجوتى". كما تشد المائدة الممتدة بطول القاعة الانتباه بالزخارف المنحوتة علي الخشب، التى جلبت من جزيرة "كورفو" فى القرن الثامن عشر.

باختصار، يوجد فى الدير ما يستحق المشاهدة. وبالطبع لم نزر كل الأماكن به. فإننا لم نشاهد المسجد الموجود بسلام فى الدير بجنب الكنائس الأورثودكسية. ولكننا شاهدنا أهم ما به بقدر ما سمح وقتنا القصير. وكنا راضين تماما، أنا وناتاشا، بأننا تواجدنا فى هذا المكان المدهش. كما أن الرهبان لم يكونوا غاضبين لأننا قد شغلناهم بعض الشيء عن الروتين الكنائسى. كما أننا لم نبخل فى شراء الهدايا فاشترينا، أنا وناتاشا، الكثير فى محل بيع التذكارات بالدير. وقد وقعوا بإمضائاتهم على بعضها. كما كتبت كلمة فى سجل الضيوف الهامين.

ونحن منصرفون خارج جدران الدير، قمنا بزيارة قصيرة لأحد معالم المكان الأخرى- مقبرة من سكنوه من قبل. رغم أن مقابر الرهبان كان يمكن أن تكون مساحتها أكبر من ذلك بكثير بدون حدود، فإن الرهبان قد فضلوا أن يعملوا شيئًا آخر. فقد اخترعوا الأسلوب التالي: كانوا بعد أن يدفنوا الميت بفترة يقومون باستخراج الرفات، ويفككوا الهيكل العظمى تماما، ويضعون الجمجمة فى مدفن واحد مع الجماجم الأخرى، أما باقى العظام فتوضع فى مدفن آخر. وتوضع علامة على الجمجمة تعرف بصاحبها. وقد شاهدنا المدفن الذى به الجماجم. ولم يكن

المنظر لطيفا، عندما تنظر إليك عدة مئات من الجماجم بعيون فارغة. وقد يكون ذلك للتذكير بأن كل إنسان فان، وهذا صحيح، ولكن هذه الصورة تذكرنا بشيء كئيب من العصور الوسطى. على أية حال، فما زال رهبان دير سانت كاترين يتبعون هذا التقليد الغريب.

وقبل أن نتحرك فى طريقنا، درنا حول الدير، وشاهدنا باهتمام أبراجه وجدرانه، وبعض الرسومات على أجزاء سفلية منه، وكذلك فتحات كان يتم من خلالها فى الماضى إمداد الدير بالغذاء والوقود باستخدام آليات رفع ميكانيكية، إذا ما خشى الرهبان فتح البوابة. وقد اقتنعنا بأن الدير كان فى الماضى حصنًا حقيقيًا، وأنه كان يستطيع أن يصمد لهجوم كبير؛ نظرا لوجود عين ماء خاصة بالدير. ثم صعدنا على المرتفع المجاور، وشاهدنا مرة أخرى من هناك أبنية الدير، بعد أن عرفنا الآن الغرض من كل منها.

ثم عدنا إلى أبى زنيمة من طريق آخر. ورأينا منتجعًا سياحيًا صغيرًا على بعد عدة كيلومترات من الدير فأكلنا قليلا فى مطعمه. وكان الطريق إلى شمال الغرب يمر بعد ذلك بجانب أماكن جبلية جميلة. وقابلنا فى طريقنا "واحة فيران" بأشجار نخيلها ونباتاتها المختلفة. وزرنا هناك أيضا ديرًا أورثودوكسيًا آخر، لكنه صغير جدا، وكان جداره الخارجى الحجرى الذى لا يتعدى ارتفاعه ارتفاع سور عادى كله مكلس باللون الأبيض. وكان هو أيضا قديمًا فى العمر، ولكن كان يبدوا كما لو كان عمره ٢٠٠-٣٠٠ سنة فقط. وكان يسكنه راهبان اثنان فقط. وقد كانت فيران فى الماضى أحد مراكز المسيحية. وقد هدمه تماما العرب فى القرن السابع. وجلسنا قليلا مع الراهبين فى الحديقة المظللة. وكان من النادر أن يحضر إليهما ضيوف، لذلك كانوا سعداء بنا. وقد اضطررنا للحديث معهما باللغة العربية بمساعدة مارجريتا شمس. وكان الراهبان يونانيين ومسنين. وكانت الكنيسة التى يقيمون فيها الصلاة على شرف النبى موسى.

وقد وصلنا إلى أبى زنيمة على موعد العشاء.

فى شرم الشيخ وعلى شاطئ خليج العقبة

بدأنا رحلتنا إلى أبعد مكان فى سيناء فى صباح اليوم التالى. وكان قد تم التخطيط لها لكى يكون مسارنا فى دائرة مغلقة- نهبط محازين للضفة الغربية لشبه الجزيرة إلى طرفه الجنوبى، ثم نصعد على طول الشاطئ الشرقى تقريبا إلى نفس الخط العرضى الذى تقع عليه أبو زنيمة، ثم نعود إليها بعد أن نكون قد عبرنا كل شبه الجزيرة من الشرق إلى الغرب. وكنا نعرف أننا لن نتمكن من اختراق سيناء فى خط مستقيم؛ نظرا لعدم وجود طرق جيدة، ولكن سيكون علينا فى البداية أن ننزل إلى الجنوب، ثم بعد ذلك أن نخترقها، ثم مرة أخرى أن نرتفع على طول الشاطئ الغربى إلى الشمال، حتى نصل إلى أبو زنيمة.

وهكذا تحركنا فى ٣ أبريل إلى الجنوب عدة ساعات بدون أية مشاكل حتى وصلنا إلى الطرف الجنوبى لسيناء، حيث توقفنا فى شرم الشيخ. وكانت فى هذا الوقت شرم الشيخ عبارة عن بلدة صغيرة، وكانت أهم معالمها ذلك الفندق الذى يحمل اسم "مارينا شرم"، والذى بناه الإسرائيليون أثناء فترة الاحتلال. وكانت عبارة عن مبنى طويل من أربعة طوابق لا يوجد به أية وسائل للترفيه، ومغطى ببلاستيك أحمر. وكانت توجد أمامه مجموعة من المنازل العائلية ذات شكل مميز، حيث كانت مبنية على هيئة نصف كور من البلاستيك، ويمكن أن يسكن كل منها ٣-٤ أشخاص. ولم تكن توجد ردهات فى الفندق، وكانت تحل محلها ممرات مفتوحة تمر من خلف البناية. وكانت الغرف متواضعة ولكنها كانت باهظة الثمن.

وقد أمضينا الليل فى "مارينا شارم"، ثم خصصنا اليوم التالى كله للتعرف على العالم الأسطورى الموجود تحت الماء- حقول من الشعب المرجانية كاملة من كافة ألوان قوس قزح: الأبيض، والرمادى، والبيج، والوردى، والأصفر، والبنفسجى، والأزرق. وقد شاهدناها عبر نوافذ زجاجية فى قاع زورق بخارى. وكان المكان الذى عمنا فيه فوق حقول الشعب المرجانية، وأسراب الأسماك الصغيرة متعددة الألوان التى تسبح بينها، يبعد عن المملكة العربية السعودية بأربع

كيلو مترات. وأهم ما يجذب السائحين الأجانب فى شرم الشيخ هو عالم ما تحت الماء بكل جماله.

وقد قضينا ليلة أخرى فى الفندق، ثم تحركنا فى الصباح التالى إلى الشمال بجانب الشاطئ الشرقى لشبه جزيرة سيناء، وبالطبع خليج العقبة، الذى تؤول ضفته الأخرى للسعودية. والمركز الإدارى لجنوب سيناء هو مدينة "دهب" حيث توقفنا لمقابلة المحافظ. وتحدثنا معه فى مكان مفتوح تحت أشجار النخيل، ونحن جالسون فى مقاعد من القش المجدول نرتشف العصير. وقد حكى لنا المحافظ "ماجد سليمان" الذى كان جنرالا فى السابق عن خطط تطوير أعمال السياحة، التى مازالت حتى الآن فى حالة بدائية ولكن مستقبلها واعد، وأهم شيء أنه واقعى. وكان يمكن تحويل كل الشاطئ إلى قرى سياحية بها فنادق جيدة إلا بعض الأجزاء منه. كان الأمر يتطلب فقط تمويل لتجهيز البنية الأساسية من محطات توليد قوى وشبكات ماء ومجار، وكذلك معالجة النفايات حتى لا يتم تلويث المنطقة... إلخ. أما باقى العناصر اللازمة لنجاح الأعمال فهى: الشمس والبحر والشواطئ الرملية والظروف الممتازة المتاحة لممارسة الغطس تحت الماء، والتزحلق على الماء، والأشكال الأخرى لأنشطة الاستجمام. على أية حال، فقد أصبحت سيناء الآن جنة سياحية. لكن فى ذلك الوقت، كانت الخدمات المقدمة للمستجمين تتمثل فى الشماسى ذات الأسقف المصنوعة من القش المجدول، وحواجز للهواء مصنوعة من الغاب والقش المجدول، وبضعة ملاعب تنس وملاعب لرياضات أخرى، وفقط قريتين سياحيتين أو ثلاث، وبضعة فنادق صغيرة. وقد ناقشنا مع المحافظ الأشكال الممكنة للتعاون الفنى، لكنه كان مهتما أكثر بالمشاركة فى بناء محطات حرارية صغيرة لتوليد الكهرباء. وكان هنا يوجد ما يستحق التفكير فيه.

ثم تحركنا من دهب التى تمثل مدينة صغيرة إلى الشمال حتى نويبع التى تجولنا فيها فى القرى السياحية. ولكن دفعتنا الرياح القوية للعودة إلى السيارات. وعدنا من نويبع ثانية إلى الجنوب ثم إلى الغرب، عبر كل عرض شبه جزيرة

سيناء، عن طريق ممرات بين جبال ضخمة؛ لكى نعود مرة أخرى إلى أبى زنيمة. وسرنا بلا توقف حيث إن الوقت قد سرقنا رغم أنه ظهرت أمامنا مناظر طبيعية جميلة. وقد تعرج الطريق بين جبال صغيرة عارية تماما كانت تكتسب مع غروب الشمس ألوانًا جديدة متعددة. وفى لحظة أصبح المنظر كأننا على سطح القمر. ثم أكملنا السير تقريبا فى نصف ظلام فى طريق العودة ، ولكن كانت النجوم مضيئة بوضوح، كما أن القمر كان طالعا على شكل هلال مختلف عن هلالنا، حيث كانت أطرافه متجهة إلى أسفل.

آخر يوم لنا فى سيناء

راقبنا فى صباح اليوم التالى، أنا وناتاشا، منظرا شيقا. حيث كنا ننظر من مرتفعنا العالى إلى البحر، فرأينا فجأة أن شيئًا تحرك عند الشاطئ تحتنا تماما. ولم ندرك ما الذى يحدث هناك فورا. ثم تبين أن بضعة من أسماك القرش دفعت بسرب من الأسماك الصغيرة إلى الشاطئ وكانت تلتهمها بشهية. وكانت تطارد الفرائس، أما الأسماك الصغيرة فكانت فى حالة هرج وتقفز فوق الماء. وكانت سمكة القرش تنقلب، بحيث تكون بطنها إلى أعلى لكى تمسك بالأسماك وتلتقطها فى فكها المفتوح. ثم كانت تندفع وراء غيرها، وهلم جرى. وكان المنظر مرعبا، فقد كان طول كل سمكة قرش حوالى مترين أو مترين ونصف. على أية حال، هذا ما اعتقدناه. وقد استمرت عملية المطاردة ثلاث أو أربع دقائق، ثم اختفت أسماك القرش فجأة كما ظهرت.

وكان ذلك هو آخر يوم لنا فى سيناء، فخصصناه بالكامل للراحة. وتبين أن لشمس معارف يملكون بيتا وحيدا مماثلا لذلك الذى نعيش فيه على بعد كيلومترين تقريبا. فذهبنا جميعا لزيارتهم. وقد اختلف بيتهم عن بيتنا بأنه كان مبنيا على شاطئ خفيف الانحدار، على بعد حوالى ٣٠ مترا من البحر. وكان يقف قارب بخارى كبير مملوك لصاحب البيت تقريبا عند حافة البحر على الشاطئ عارضا لنا

سطحه وقاعه أخضرا اللون. وكان هو هدف عائلة شمس عندما اقترحا هذه الزيارة؛ لكى نقوم برحلة بحرية. وقد تم تنفيذ الفكرة فورا. ولكن كان علينا أولا أن نعرق ونحن ندفع جميعا القارب إلى الماء. وكان القارب واسعا، واتسع بسهولة لعشرة مقاعد من القش المجدول جلسنا عليها. ثم أدار صاحب البيت المحرك فانطلقنا. وكان هدفنا الأول هو صيد الأسماك؛ لذلك كانت معنا معدات الصيد التى استخدمناها فورا. ثم ابتعدنا حوالى ٣٠٠ متر من الشاطئ، ومضت ساعة حتى الآن ولم نصطد أية سمكة. وفجأة صرخت زوجة صاحب البيت التى كانت تستمتع بأخذ حمام شمس، وطارت من على الكرسى إلى باطن القارب. وتبين أن سمكة قرش كانت تسبح على بعد خمسة عشر مترا من القارب، وقد رأت المصرية زعنفتها الظاهرة فوق الماء. وكانت السيدة خائفة جدا، وطالبت بعودتنا فورا إلى البر. فاضطررنا إلى تلبية طلبها حتى لا تصل إلى حالة الخوف الهيستيرى. وهكذا انتهت بسرعة رحلتنا فى خليج السويس بالبحر الأحمر، وبدون صيد أية سمكة.

وبعد أن دفعنا القارب إلى مكانه على الشاطئ قرر الرجال فورا السباحة. وانضمت لنا أيضا ناتاشا. وطبعا لم يسبح بعيدا أى منا بعد ما رويناه عن وليمة أسماك القرش التى شاهدناها فى الصباح، وعن اللقاء الذى تم الآن مع إحداها. لكن كان من الممتع الاستحمام عند الشاطئ. كانت درجة حرارة الماء ١٨-١٩. فكانت بالنسبة للمصريين باردة جدا، وأنهوا استحمامهم بسرعة. أما نحن فقد استمتعنا بالبحر فى هذه المرة لفترة طويلة.

ثم أقمنا حفل وداع فى منزلنا - أى فى أبى زنيمة. وكان شمس منطلقا، وأنا لم أره فى هذه الحالة من قبل. وتبين أنه يكتب الشعر والنثر وأنه سوف يصدر قريبا كتاب به مجموعة من قصصه. وظهر أيضا أنه متحدث بارع، وقد رفه عن الجميع بوصفه المختصر الشفوى لحياة وعادات القرى المصرية، والموظفين والأفراد العاديين. وكانت خبراته كبيرة، وكان عنده ما يقدمه. عامة، كانت الليلة جميلة جدا ومريحة.

وقد قمنا فى الصباح بترتيب البيت تماما، وجمعنا أمتعتنا واتجهنا إلى القاهرة. فكنا فى بيتنا فى الساعة الثالثة. وبذلك انتهت رحلتنا فى سيناء، وتركت عندنا الكثير من الانطباعات والذكريات الجميلة.

وذهب من بعدى فورا ممثل البطرياركية الموسكوفية ببطرياركية الإسكندرية وكل أفريقيا القس "ديميترى أندرييفيتش نيتسفيتايف" إلى دير سانت كاترين. وقد كانت العلاقة بيننا جيدة جدا، وكنا نتقابل دوريا فى القاهرة أو فى الإسكندرية. وكان عنده هناك أبرشية صغيرة وكنيسة، حيث كان يقوم بالطقوس الدينية. وكان ضيفا دائما فى كل حفلات الاستقبال الكبيرة التى أقمناها. وكنا نستقبل معا رجال الدين الكنسيين القادمين من موسكو، وخاصة مطران مدينة أوديسا.

وبعد ذلك، أرسلت اثنين من الدبلوماسيين إلى سيناء هما المستشار "ن. س. ستيبانيان"، والملحق "ف.ى. تينورينكو". وقد تجولا فى كل جزيرة سيناء، وكتبوا تقريرا عن رحلتهم قمت بإرساله إلى موسكو. وهكذا تم "الإلمام" بهذه المنطقة التى لم تطأها قدم أى مواطن سوفييتى طويلا.

وكانت هناك أيضا نتيجة مباشرة أخرى لظهورى فى سيناء. ففى خلال رحلتنا قابلتنا سيارة بها مراقبين من الأمم المتحدة، أعضاء فى فريق مراقبة تنفيذ الهدنة فى فلسطين. فقمنا بتحية بعضنا وتبادلنا بضعة عبارات. ولكنها كانت كافية لفهم أنه رغم كون الاتحاد السوفييتى مع الولايات المتحدة الأمريكية وبضعة دول أخرى أعضاء كاملين فى فريق مراقبة تنفيذ الهدنة فى فلسطين، فإن الضباط السوفييت يختلفون عن باقى زملائهم بأنهم لا يشاركون فى الدوريات بسيناء، وأنهم لا يبتعدون أكثر من البر الغربى لقناة السويس "لأسباب سياسية". وقد اقتنعت بعد حديثى فى القاهرة مع ضباطنا المكلفين ضمن فريق المراقبين المعنى، بأن ما قيل لى حقيقى: فقد اتخذ شخص ما قرارًا فى مكان ما وفى وقت ما (على الأرجح، من باب الاحتياط) بأنه بما أن مصر استرجعت سيناء عن طريق مباحثات منفصلة،

فإنه لا يجب على المراقبين العسكريين السوفييت أن يظهروا فى سيناء، كما لو كان خط وقف إطلاق النار يمر بطول قناة السويس. وهكذا جلس ضباطنا دون أية فائدة بعيدا عن الحدود مع الإسرائيليين لمدة خمس سنوات. وكانوا سيستمرون فى الجلوس إذا لم أكن أرسلت إلى موسكو برقية عاجلة بتوصية أن يتم إعطاء ضباطنا المراقبين عن طريق القناة العسكرية تعليمات جديدة. وبعد شهر، كانوا يشاركون فى الدوريات مثلهم مثل باقى زملائهم فى سيناء.

نعم يجب على السفير أن يسافر داخل البلد الذى يتم تعيينه فيها؛ لتنمية مصالح وطنه. فقط من المؤسف أن الأعمال عادة ما تربط السفير إلى مكتبه بقوة– ويحدث أن يكون البعد، حتى لو لبضعة أيام، صعبا.

الباب التاسع

مشاغل وهموم السفراء

يكون الجو في الفترة من يولية إلى أغسطس حارا جدا في مصر. وكل من يستطيع في هذا الوقت يحاول أن يختبئ من القاهرة الساخنة. فتتوقف الحياة السياسية ومعها نشاط الدبلوماسيين. وهذا هو الموعد المناسب لأخذ إجازة، وهو ما يفعله غالبية أعضاء السلك الدبلوماسي.

وبعد سفر وفد ألخيموف، استعددت أنا أيضا للسفر إلى موسكو. وكان سيعقد هناك اجتماع للسفراء السوفييت في الدول العربية، وكان على أن أشارك فيه. كما أن ذلك كان شيقا حيث إنه كان قد حدث تغيير للتو في رئاسة وزارة الخارجية؛ فقد تم تعيين "أ.أ. شيفارنادزة" وزيرا لخارجية الاتحاد السوفييتي، بدلا من "أ.أ. جروميكو" الذي شغل هذا المنصب لمدة عشرين عاما. ولم أكن قد قابلت الأول أبدا، ولم أكن أتصوره لا كإنسان ولا كدبلوماسي قادم حيث إنه طبقا لمعلوماتي، لم يكن له أية علاقة قبل ذلك بالعلاقات الخارجية. وقد بدا لي أن اختيار جورباتشوف مفاجئ، ولكني لم أكن أشعر بعدم الرضاء حيث إنني كنت أعرف أن جروميكو رغم كل خبرته وتبحره كان قد "تجمد" تماما في تعاملاته مع "الحرب الباردة"، والمواضيع المتعلقة بها، ومنها موضوع الشرق الأوسط. فقد كانت في حاجة إلى التجديد؛ ونتيجة لذلك حان وقت استبدال الكوادر.

وكانت زوجتي وابنتي قد سافرتا منذ مايو إلى موسكو. وقطعتا الطريق من الإسكندرية إلى أوديسا بالباخرة، وكانتا سعيدتين جدا بالرحلة البحرية. وحيث إن هذه الرحلة تستغرق خمسة أيام فقط، قررت أن أفعل مثلهما، خاصة أنه تبقى وقت على الاجتماع يسمح بذلك. وكان قراري سليمًا تماما؛ فقد استرحت ورأيت الكثير

من الجديد والمثير، حيث إننى لم أزر من قبل لا أثينا ولا إسطمبول التى توقفت فيها الباخرة لعدة ساعات.

إجازة العمل وأحداث تلك الفترة

عرفت بمجرد وصولى إلى موسكو أنه لن يكون هناك اجتماع (ببساطة يبدو أنه لم يكن عند شيفرنادزة وقت لذلك). لذلك اكتفى السفراء المتجمعون بالجزء الثانى من البرنامج المخطط لهم، بالسفر معا إلى جمهورية "مولدافيا" السوفييتية، للتعرف على جياة هذه الجمهورية. وقد استقبلونا هناك بكل مظاهر كرم الضيافة الجنوبية. ورأينا الكثير، كما أنه كان من المفيد وجود فرصة تعامل السفراء مع بعضهم البعض نفسها، وأن يتحدثوا عن الأعمال. على أية حال، أصبحت أتصور بصورة أفضل المشاكل التى قابلت زملائى.

كالعادة، اضطررت فى موسكو أن أمر على مختلف الهيئات، وأن أذهب إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى، وأن أتبادل الحديث مع الرفاق فى مختلف إدارات وزارة الخارجية. كما أنى بذلت جهدا كبيرا للحصول على تمويل لترميم السفارة والمبانى الأخرى. وقد عملنا على شراء كل ما يمكن شراؤه فى موسكو بالروبل؛ لتوفير المصاريف بالعملة الصعبة. لذلك كنت أذهب مع زوجتى وممثل الإدارة إلى الشركات والمصانع الموسكوفية (كنا نشترى أساسا أقمشة تنجيد وستائر)، كما أننا اخترنا اثنين من نجارى الأثاثات المنزلية الثمينة لترميم الأثاث. باختصار، استخدمت إجازتى الأولى بدرجة كبيرة من أجل الذهاب إلى مختلف الأماكن ومشاغل المشتريات. ولكنى لم أندم على ذلك. وكنت مسرورا بملاحظة أن أول نصيحة حصلت عليها كانت مصاغة ببساطة وبطريقة مشجعة – "أكمل بنفس الطريقة!". أما ثانيا، فهو أننى نجحت فى الحصول على إمكانية للقيام بهذا القدر الكبير من أعمال الترميم اللازمة، والاتفاق على مواعيد حضور فرق العمل

اللازمة إلى القاهرة... إلخ. ولكنى لم أتمكن من الحديث مع شيفرنادزة بسبب انشغاله وسفرياته، وفى النهاية سفره إلى اجتماع الجمعية العامة.

ولكن شد من همتى أننى علمت، طبقا لحكم زملائى فى الجهاز المركزى للوزارة، أن الوزير الجديد يتعامل بديموقراطية. كما أنه لا يخجل من الاعتراف بعدم معرفة موضوع ما، ولكنه يفهم أساسه بسرعة، عندما كان يقدم له شرح. وعامة، أنه دخل بنجاح فى مواضيع وزارة الخارجية غير البسيطة. وأنه كان دائما لبقا مع مرئوسيه؛ فلم يكن هناك شخط أو تعنيف، وهو بصراحة ما كان يخشاه العاملون بوزارة الخارجية، عندما تم تعيين رئيس من إحدى جمهوريات القوقاز فى منصب الوزير. وأسرنا أيضا أن شيفرنادزة لم يجلب "أصدقاءه" من جمهورية جورجيا إلى هنا. وأخذ معه شخصا واحدًا فقط هو الصحفى الموهوب "تيموراز ستيبانوف"(وكان معروفا باسم آخر فى جورجيا هو "مامالادزة"، حيث كان عليه المشاركة فى تحضير الخطب العامة للوزير. "سنعيش- وسنرى"- كان يقول ذلك أصدقائى بوزارة الخارجية غير المتعجلين للاستنتاجات. وكنت أنا أيضا أفكر بالمثل وأنا عائد مع ناتاشا إلى القاهرة.

وبينما كنت فى إجازتى، حضر إلى موسكو وفد برلمانى مصرى لأول مرة بعد فترة توقف استمرت على مدى ١٣ عامًا. فاستقبله نائب رئيس مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتى "ف.ف. كوزنتسوف". كما أنه التقى مع رئيس مجلس الاتحاد[١] "ل.ن. تولكونوف"، ووزير خارجية جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية "ف.م. فينوجرادوف" (السفير السابق فى ج.م.ع.)، وزار أيضا معاهد "أفريقيا" و"الاستشراق" واتحاد جمعيات الصداقة السوفييتية، وقام برحلة إلى مدينة "لنينجراد".

---

[١] الغرفة العليا بالمجلس الأعلى للاتحاد السوفييتى

وبعد عودتى إلى مصر بوقت قصير، قابلت فى الإسكندرية "عبداللاه" الذى رأس هذا الوفد (كانت الإسكندرية هى موطنه). وكان عبد اللاه سعيدا جدا بزيارة موسكو، حيث تم استقباله بشكل حسن، وحيث جرت الكثير من الأحاديث المفيدة. لقد أعطى أهمية خاصة للأحاديث عن الوضع فى الشرق الأوسط. واتفقنا مع عبد اللاه ومع رئيس لجنة برلمانية أخرى "الخوالقة" على أن يكون موعد رد الزيارة إلى مصر فى ربيع ١٩٨٦ مبدئيا.

وأذكر أيضا أننا تحدثنا عن مستقبل العلاقات السوفييتية- المصرية. فقال عبد اللاه إن مبارك من مؤيدى تنمية العلاقات مع الاتحاد السوفييتى، ولكن من الصعب عليه تحقيق ذلك، حيث إن الولايات المتحدة الأمريكية وأغنياء مصر يضغطون عليه. ويرى كلاهما أن تنمية العلاقات مع الاتحاد السوفييتى سوف تفيد اليساريين المصريين وسوف تؤدى إلى تقوية طرق إدارة الاقتصاد التى كانت موجودة فى عهد جمال عبد الناصر. وهم لا يرغبون فى كل ذلك على الإطلاق ويقاومون أية خطوات للرئيس وللحكومة إذا رأوا أنها يمكن أن تؤدى إلى زيادة التأثير السوفييتى فى مصر. لذلك فإنه لا يمكن أن تكون تنمية العلاقات السوفييتية – المصرية سريعة رغم أن ذلك مؤسف. ولكن ليس هناك شك فى أن ذلك سوف يحدث. وقال عبداللاه إن الخطوة التالية يجب أن تكون إعادة فتح القنصلية العامة فى الإسكندرية مرة أخرى. وعلى أية حال فإنه شخصيا سيعرض هذا الرأى بالذات فى اللحظات المناسبة.

ويجب أن أقول بخصوص ذلك إن الحديث مع عبد اللاه سبق إخبار الباز لى بأن الرئيس مبارك قد اتخذ قرارًا بإعادة المبنى السكنى المكون من ٢٠ طابقا والذى لم يستكمل بناءه، والذى صادره السادات إلى السفارة. وقد اعتبرنا ذلك خطوة حسنة وخطوة أولى ومحددة لتصفية التراكمات التى تسبب فيها السادات. فى الواقع، لم يذكر أن المبنى سوف يعاد لنا فورا حيث إن ذلك كان يتطلب اتخاذ الإجراءات القانونية اللازمة. وقد امتدت هذه الإجراءات على مدى سنة ونصف،

واضطررت أكثر من مرة لتذكير المسئولين ومبارك أيضا، بأن القرار الحسن الذى اتخذه لم ينفذ بعد.

وفاتنى خلال إجازتى حدثان دوليان كان لهما صدى سياسى كبير فى الشرق الأوسط وخارج حدوده. حدث أحدهما فى أول أكتوبر، عندما قطعت ست طائرات إسرائيلية من طراز "فانتوم-٦" أكثر من ألفى كيلومتر؛ لكى تضرب مركز قيادة منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس بالقنابل. وكان ذلك ردا على مقتل أربعة إسرائيليين فى قبرص بأيدٍ فلسطينية. وقد قتل أكثر من ستين فلسطينيا فى تونس، لكن لم يصب عرفات، حيث إنه كان موجودا فى مكان آخر (ولكن داخل تونس أيضا) أثناء هذا الهجوم. وقد استنكرت القاهرة تصرف إسرائيل بعنف بسبب هذا الهجوم. وقد قامت الكثير من العواصم بنفس الشيء ومنها موسكو.

ولم تتمكن الأوضاع بعد أن تهدأ نتيجة الهجوم الجوى، إلا وحدث أن استولت مجموعة مسلحة مكونة من ٤ إرهابيين فلسطينيين فى يوم ٧ أكتوبر على السفينة الإيطالية "أكيللا لاورو"، التى كانت تقوم برحلة سياحية فى البحر المتوسط وعلى متنها مجموعة من السائحين. فأصبح ٥٤٥ شخصًا رهينة، وقتل الإرهابيون واحدًا منهم. وكان مواطنا أمريكيا معوقا يتحرك على مقعد بعجل. وقد ألقى الإرهابيون بجثته مع مقعده فى البحر. ونفت منظمة التحرير الفلسطينية رسميا مسئوليتها عن عملية القرصنة هذه، وبدأ عرفات وحكومة مصر مفاوضات مع الإرهابيين من أجل إطلاق سراح الرهائن. وفى يوم ٩ أكتوبر، سلم الأربعة إرهابيون نفسهم للسلطات المصرية، بشرط أن يتم نقلهم بطائرة مصرية إلى تونس.

وهنا حدث ما لم يتم توقعه أبدا فى القاهرة؛ فقد قبضت طائرات مقاتلة أمريكية على الطائرة، التى كان بها بالإضافة إلى الأربعة فلسطينيين عدد من الدبلوماسيين المصريين، وأجبروها على الهبوط فى قاعدة عسكرية بجزيرة "صقلية". وهناك تم إلقاء القبض على الإرهابيين فورا. وقد تسبب ذلك فى غضب

كبير فى مصر، ليس فقط من جانب الرئيس والحكومة، ولكن فى الشارع المصرى أيضا. وعند عودتى إلى القاهرة لحقت بالمظاهرات ضد أمريكا، التى لم تكن فقط فى القاهرة ولكن فى العديد من المدن المصرية الأخرى. وفى تلك الأيام، أصدر مبارك العديد من البيانات الحادة بخصوص هذا الاستبداد الأمريكى. وتوسعت الصحافة المصرية فى سردها لذلك. ولم يخف المسئولون المصريون فى أحاديثهم معنا غضبهم من التصرف الأمريكى، الذى وضع بلدهم فى وضع مهين تماما. وقد أرسل الأمريكان بسرعة إلى القاهرة نائب وزير الخارجية بالولايات المتحدة الأمريكية "ج. وايتهيد" لإخماد الفضيحة. وكان على واشنطن أن تفتح صرتها. وقدروا فى الأوساط الدبلوماسية أن ذلك قد كلف الأمريكان ١٥٠ مليون دولار كمساعدات إضافية. لكن رغم ذلك بقى غضب فى ذاكرة المصريين وإحساس بطعنهم فى كرامتهم.

الحديث مع رئيس الوزراء الجديد

جرى حدث آخر فى أثناء غيابى عن القاهرة، فقد تم تغيير رئيس الوزراء، وأصبح الاقتصادى "على لطفى" يشغل هذا المنصب. وكان معروفًا عنه براجماتيته فى التعامل مع مواضيع التنمية الاقتصادية للبلد، وتأييده لزيادة رقابة الدولة على النشاط الاقتصادى لرؤوس الأموال الأجنبية فى مصر. وكان يشغل منصب وزير الاقتصاد فى الفترة ١٩٧٨-١٩٨٠، لكنه اضطر للاستقالة بسبب دسائس "القطط السمان"، التى كان يريد إجبارها على دفع الضرائب. وكان يفضل أن تعدل سياسة "الأبواب المفتوحة" بحيث تكون "الأبواب نصف مفتوحة"، لكنه كان يرى أن يتم الحفاظ على سياسة تنمية العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية. ورأى أعضاء السلك الدبلوماسى أن توقف اختيار مبارك على "على لطفى" كان لاعتقاده بأن الأخير قادر على تقديم خطة محددة؛ لانتشال البلد من الصعوبات الاقتصادية والمالية، التى كانت تمثل فى ذلك الوقت للرئيس أكثر المشاكل إلحاحا وحدة.

طلبت مقابلة رئيس الحكومة الجديد، فاستقبلنى تقريبا فورا. وكانت المناقشة موضوعية، وتناولت العلاقات الثنائية، وكذلك المواضيع الدولية. وكان هناك انطباع أن رئيس الوزراء استعد لها. وكان الدليل على ذلك دقة الصياغات واختيار مجموعة المواقف التى عرضها. وإذا قدمناها طبقا للموضوعات التى عرضتها فإنها كانت تتمثل فى ما يلى: "تم النجاح فى تخطى مرحلة صعبة فى علاقاتنا. أما الآن فالوضع حسن، فإنها قد تحركت كثيرا إلى الأمام فى الفترة الأخيرة، وبدأ تبادل الوفود، واتخذ الرئيس قرارا "شجاعا وسريعا" بخصوص مبنى سكن العاملين بالسفارة. وأنه هو (على لطفى) كان دائما نصيرا لنمو العلاقات السوفييتية المصرية "على أحسن وجه"، وأنه مدرك تماما لمدى أهميتها، وأنه واثق أن تلك المشاكل التى بقيت من الماضى سوف يتم بالضرورة حلها. فعلى سبيل المثال، هو مدرك تماما أنه يجب إعادة النظر فى سعر الجنيه الإسترلينى المستخدم فى التجارة مع الاتحاد السوفييتى. كما توجد مجموعة من المواضيع جارى العمل فيها- فائض الميزان التجارى، والديون العسكرية. وسوف يجرى وزير المالية "سلطان أبو على" مفاوضات فى موسكو بخصوص هذه المواضيع. كما أن الحكومة تعمل من أجل فتح مجالات جديدة للتعاون مع الاتحاد السوفييتى. فعلى سبيل المثال، من المخطط فى الخطة الخمسية القادمة أن يتم رى ٥٠٠ ألف فدان من الأرض (الفدان =٠.٤٢ هكتار). وحيث إن للاتحاد السوفييتى خبرة كبيرة فى استصلاح الأراضى الجديدة، فإن التعاون فى هذا المجال واعد جدا فى المستقبل. وقال إنه كلف الوزارات المعنية بتقديم تقارير عما يجرى عمله بالتحديد فى هذه المجالات، فى إطار التعاون مع الاتحاد السوفييتى، وعرض مقترحات لتوسيعه".

أما ما يخص الأمور الدولية، فقد كانت الموضوعات التى عرضها على لطفى كما يلى: "رغم اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل فإنه لا يوجد سلام فى الشرق الأوسط. كما أنه لم يتم وقف النزاع العربى- الإسرائيلى. وما زالت الحرب بين العراق وإيران مستمرة منذ ست سنوات، ولا تبدو لها نهاية. أما فى لبنان، فما

زالت هناك حرب أهلية منذ ١٢ سنة. ويدركون تماما فى الاتحاد السوفييتى ما تمثله الحرب، ولذلك يفهمون أكثر من كثيرين غيرهم الحاجة الملحة لأن يسود السلام فى الشرق الأوسط. وأنهم فى مصر يحترمون دور الاتحاد السوفييتى فى مواضيع السلام، وأنهم سوف يرحبون بنموه فى الشرق الأوسط. وأنهم فى مصر أيضا، وبناء على إدراكهم موضوعية ضرورة التعاون بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية لصالح العالم كله يتابعون برضاء الدفعة الجديدة فى المفاوضات السوفييتية - الأمريكية. وكان آخر ما عرضه على لطفى هو مكافحة الإرهاب الدولى، وأكد أن مصر تقف ضد أى نوع من مظاهره".

ولم يكن بالطبع الحديث مع رئيس الوزراء "مونولوجا" من جانب واحد. وقد سردت هنا فقط ما أعتقد أنه الأهم من بين ما قاله. كما أنى عرضت وجهة نظر الاتحاد السوفييتى بخصوص كل المواضيع الدولية التى تناولها، ومواضيع العلاقات الثنائية. وقد كنت راضيا عن المناقشة، وكذلك عن التغييرات الأخرى التى جرت فى المستويات العليا للحكومة. وكان للطفى أربعة نواب فقط. أصبح ثلاثة منهم أشخاصًا، طبقا لرؤيتنا، يؤيدون أن تكون السياسة الخارجية للبلد متوازنة أكثر: وزير الخارجية "مجيد"، ووزير الزراعة وأمين عام الحزب الحاكم "يوسف والى"، ووزير التخطيط والتعاون الدولى" الجنزورى". ولقد احتفظوا بحقائبهم الوزارية، وأصبحوا الآن أيضا نوابا لرئيس الوزراء. وكان ذلك يدعو للتفاؤل.

اقتراحاتى لشيفرنادزة

تقريبا فور عودتى من الإجازة إلى السفارة، وصلنا منشور عام بأن نرسل فى أقرب بريد دبلوماسى مذكرة باسم شيفرنادزة بتصورنا عما يجب أن يكون عليه خطنا السياسى، وعن الخطوات العملية فى العلاقات مع البلد الذى نحن به فى الوقت الحالى وفى المستقبل. وكان من الواضح أن الرئاسة الجديدة راغبة فى الحصول على معلومات حديثة من الأماكن المختلفة عن الكيفية التى يجب أن تدار

بها الأمور بعد ذلك. وكما فهمت، كان الحديث يدور عن تحديث السياسة، فقررت استغلال هذه الفرصة لعرض التصور الذى تكون عندى خلال عملى فى مصر لمدة سنة، عن المكانة التى يجب أن يحتلها هذا البلد فى سياستنا، وكيف يجب أن تدار الأمور معها. ولم يكن عندى شك فى ضرورة إدخال بعض التصحيحات فى سياستنا. فقد ترسخت عندى هذه الفكرة بعد ذهابى إلى الإجازة وتجولى فى "دهاليز السلطة".

ولم أقم بتكليف أى أحد بتجهيز المذكرة، بل قمت بذلك بنفسى. وقد اضطررت لبذل جهد حيث إنه لم يكن من المطلوب فقط أن تكون مقنعة، لكن أيضا شاملة وقصيرة. فلم أنجز ذلك من أول مرة، ولكنى فى النهاية كنت راضيا عنها بشكل عام. ولكن قبل أن أعرف القارئ بمحتواها أريد أن أتوقف هنا قليلا.

كنت قد قرأت تأكيدا بأن السفراء، مثل الكثير من الرؤساء الآخرين، هم أشخاص "لا يكتبون"، لكنهم يوقعون فقط. وهذا صحيح وليس صحيحا. فأولا طبقا للنظام المتبع، فإن كل البرقيات المشفرة، والخطابات السياسية، وخطابات السفارة الإعلامية، ومختلف التقارير، بما فيها التقرير السياسى السنوى، وبعض المستندات الأخرى، يجب أن تجىء إلى السفير لتوقيعها (أو فى حالة غيابه إلى القائم بالأعمال). لذلك يكون على السفير توقيع عدد كثير من مختلف الأوراق، يكون الكثير منها ثمرة عمل جماعى. لكن إذا كان السفير محترفا، فإنه لا يعمل فقط كمنظم لعمل مجموعة العاملين فى السفارة، لكن، إذا احتاج الأمر، يستخدم قلمه فى نصوص المشاريع المعروضة عليه. كما أنه بالطبع يكتب الكثير بنفسه، خاصة البرقيات. وللأسف، ففى العهد السوفييتى كان نصف سفرائنا فقط من المحترفين. أما الباقون، فكانوا معينين من مختلف المستويات الحزبية - سكرتيرو لجنة مقاطعة، أو لجنة إقليمية، أو لجنة مدينة، أو أشخاص من جهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى... إلخ، وكان بالطبع يوجد بينهم أذكياء جدا فتمكنوا بسرعة من الإلمام بعملهم الجديد؛ وبذلك ثبتوا أنفسهم فى نظام وزارة الخارجية.

لكن كان هؤلاء على الأرجح، يمثلون استثناء من القاعدة العامة. وقد وصل الأمر إلى ما كان يثير الاستغراب. لذلك فإنه كان يوجد أيضا الكثير من السفراء الذين يقوم لهم العاملون بالسفارة بكل العمل.

وكان عليَّ أن أكتب الكثير فى القاهرة. ولا أقول ذلك كعتاب للدبلوماسيين بالسفارة الذين أدوا عملهم بأمانة، وكانوا منتجين فى تلك السنوات فى القاهرة. وقد يكون سماع ذلك غريبا، ولكنى اضطررت أن أكتب كثيرا؛ لأنى لم أكن أعرف اللغة العربية. وسوف أشرح كيف كان ذلك. كانت تتم كل أحاديثى مع المصريين فى مكاتبهم عن طريق المترجم فكيلوف، وحيث إنه لم يكن يوجد أبدا لدى محدثيى مترجمينهم، فقد كان يحتاج الأمر للترجمة فى الاتجاهين، أى من الروسية إلى العربية ومن العربية إلى الروسية. وكان فكيلوف متمكنا تماما من فن الترجمة الفورية، وكان ينتهى من الترجمة تقريبا فى نفس الوقت مع من كان يتحدث. ولا يتمكن من ذلك الكثير من المترجمين، وكنت أقدر له ذلك تماما. فبفضله كان الحوار يصير حيا وديناميكيا وطبيعيا. ولكن يوجد وجه آخر للعملة: كان فكيلوف أثناء قيامه بالترجمة الفورية لا يتمكن تماما من تسجيل صورة مفصلة للحديث، أما أنا، فكنت وأنا أتحدث، وأنا مركز تماما على ما يقال، أنجح فقط فى كتابة بضعة نقاط فقط فى مفكرتى عن مسار الحديث. لذلك عند عودتى للسفارة بعد أية مناقشة هامة يجب تقديم تقرير عنها لموسكو، كنت عادة أنفرد مع فكيلوف فى مكتبى، وأكتب فورا برقية بالشفرة، بينما الحديد ما زال ساخنا، معتمدا فى ذلك على ذاكرتى وذاكرته، وعلى الملحوظات فى مفكرتينا. ولم يمكن العمل بطريقة أخرى، فلم تكن من قدرات فكيلوف كتابة البرقيات.

وهكذا كان شكل توزيع العمل عندنا. ولم أكن أرغب فى أخذ أحد آخر ثالث معنا إلى اللقاءات مخصوص للتسجيل ، حيث إن هذا كان سيعطى اللقاء على الفور شكلاً أكثر رسمية. فالأمر يختلف إذا كان الحديث يدور وجها لوجه (حتى لو عن طريق مترجم) عما إذا كان يدور فى وجود شخص أو أشخاص للتسجيل. لذلك

اخترت عن قصد أسلوب العمل هذا رغم أنه مقترن بقيامى شخصيا بإعداد البرقيات، وإلا كان سيعد مسوداتها موظفون آخرون فى السفارة.

وأعود إلى المذكرة التى كتبتها لشيفرنادزة. لقد احتفظت بشكلها الأخير، وقد نفعنى كثيرا فيما بعد بموسكو. وسوف أتحدث عن ذلك فى نهاية الكتاب. أما الآن، فها هو محتوى المذكرة نفسها.

"دخلت فورا فى صلب الموضوع: بقيت مصر البلد المفتاحى للعالم العربى، حيث إن به أكبر مقدرات اقتصادية وحربية وإنسانية، وهو يتفوق كثيرا على كل دول المنطقة بمستوى تطوره الفنى. فهو ما زال محتفظا بمكانته كمركز حضارى للمشرق العربى، ويعتبر المورد الأساسى له للمدرسين والعلماء والمهندسين، وكذلك للأعمال السينمائية والتليفزيونية، ومختلف الأعمال المطبوعة العربية. ورغم أن سياسة السادات أصابت مصر بضرر كبير، فإنه لم تستطع أية دولة أخرى أن تملأ الفراغ الذى تكون فى الزعامة. ولا يوجد أى شك فى أن مصر سوف تعيد مع الوقت علاقاتها الرسمية مع غالبية الدول العربية، وهو ما سيؤدى بدوره إلى زيادة دورها وإمكانياتها".

وقد رسمت صورة لمكانة ومستقبل مصر، ثم انتقلت إلى موضوع آخر هام هو الكفاح من أجل مصر. كتبت:"أهمية مصر كأكبر وأكثر الدول العربية تطورا، وقدراتها السياسية وقدراتها الأخرى كعنصر محورى للعالم العربى، وموضعها الاستراتيجى الهام، يجذب اهتمام الغرب الخاص بها. ومن المفهوم أيضا أن طبيعة الاتجاه الاجتماعى والسياسى لمصر، والعلاقات الثنائية معها تحظى بأهمية كبيرة للاتحاد السوفييتى. ولم يضع اقتراب السادات من الولايات المتحدة الأمريكية نقطة النهاية فى الكفاح من أجل مصر. فإن مصلحتنا الأساسية تتمثل فى مساعدة مقاومة النظام المصرى للولايات المتحدة الأمريكية . كما أن أهمية العلاقات مع جمهورية مصر العربية تتحدد أيضا بأننا نستخدم قناة السويس بتوسع، وكذلك مجالها الجوى لطيران طائراتنا إلى جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية والحبشة وموزمبيق

وإلى بلاد أخرى...". وأشرت إلى أننا نحصل من مصر على بضائع نحتاجها، خاصة القطن والغزل، وأنهيت هذا الجزء من أفكارى بكلمات: "كل ذلك يتطلب زيادة الاهتمام بمصر".

وبعد ذلك، انتقلت إلى تقييم الوضع فى مصر. فأشرت إلى أن إمكانية تنشيط علاقاتنا مع مصر ناتجة من التغييرات الإيجابية، وفسرتها كما يلى:" لقد تغير بعض الشيء التوجه الاجتماعى للنظام، فقد تركت البرجوازية الاستهلاكية، المعتمدة على الوساطة فى الاستيراد من الخارج، واحتكار السلطة فى مصر فى عهد السادات، مكانها جزئيا للبرجوازية الوطنية التى من مصلحتها إضعاف تبعية جمهورية مصر العربية الاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية، وتوفير تقوية "الرأسمالية الوطنية". وقد توقفت فى المجال الاقتصادى هوجة بيع القطاع العام. أما فى مجال السياسة الداخلية، فقد ضيق مبارك على الموالين لسياسة السادات فى هيكل الحكومة، وفى الحزب الحاكم، وفى البرلمان (ولكنه مضطر لعمل حسابهم). كما سمح بنشاط المعارضة. وتوجد معركة لاختيار طرق التنمية وخط السياسة الداخلية. وفى عهد مبارك، قويت مكانة جمهورية مصر العربية الدولية". وقمت فورا بعمل استنتاج منحته أهمية مبدئية: "بالنسبة لنا، يهمنا نوع الأمتعة السياسية التى تعود بها مصر إلى العالم العربى. وحيث إن هذا البلد لا يستطيع أن يستغنى عن المساعدة الخارجية فإن تجديد الحصول على المعونة الاقتصادية من جانب العرب هو البديل الوحيد لتقوية استقلالها عن التبعية الاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية. ويجب مراعاة ذلك، ونحن نحدد علاقتنا بخط مبارك لإعادة مصر إلى العالم العربى".

وأكملت فى تحليلى: "فى عهد مبارك، خرجت مصر من الخط المعادى للاتحاد السوفييتى. فقد أدركت الرئاسة المصرية أن التوتر فى العلاقات مع الاتحاد السوفييتى لا يمكن أن يؤدى إلى النتائج التى كان يعول عليها السادات. ففى مصر، أصبحوا يدركون أكثر خطورة البقاء على حدة مع أمريكا. فمبارك يدرك أن

التحول إلى الأحسن فى العلاقات مع الاتحاد السوفييتى يزيد من هيبة مصر، ويزيد من أهمية مصر أمام الغرب". كما أشرت إلى اهتمام مصر بتجديد العلاقات فى المجال العسكرى، وأن، عامة، جو العلاقة مع الاتحاد السوفييتى قد أصبح مختلفا، وأنه مازال يوجد مخزون كبير من حسن النية نحو دولتنا. وقد استنتجت أن"كل هذا يسمح بالنظر بتفاؤل إلى المستقبل" على أساس الإمكانية الحقيقية للتغيرات الإيجابية، والتغلب على ما حدث من أزمات فى الماضى".

وانتهيت من كل الذى أشرت إليه أعلاه، وانتقلت إلى ما يجب عمله. وحتى لا أتوه، تناولت فقط ثلاث مجالات: السياسى، والتجارى والاقتصادى، والعسكرى. فبالنسبة للتوصيات المتعلقة بالسياسة، فهى كانت تتلخص فى متابعة سياسة تنمية الاتصالات السياسية، وأن نرسل نحن رسائل لمبارك، وألا نكتفى بالرد عليه، وأن نخطره دوريا عن سير المباحثات مع إدارة ريجان، وأن نقيم خط اتصال شخصى على مستوى وزراء الخارجية (لم يكن قد تم بعد اللقاء المخطط له بين مجيد وتشيفرنادزة فى نيويورك)، وضم القاهرة إلى مسار مبعوثى موسكو، وقيام وفد برلمانى برد الزيارة.

أما فى المجال الاقتصادى، فالأهم هو سرعة تسوية مشكلة ديون مصر العسكرية لنا، وسعر تحويل العملات الصعبة، واحتياطى فائض الميزان التجارى الذى قمنا بتراكمه. وقد عرضت فى المذكرة الأساس الذى أدى إلى هذا الوضع، وطبيعة العلاقات الموجودة بين هذه المواضيع التى يبدو أنها مختلفة عن بعضها البعض. وأشرت أيضا إلى أهمية تجارتنا مع مصر وجدواها المالية.

وفى النهاية، قلت فى المذكرة بخصوص المجال العسكرى، إنه "ليس من مصلحتنا أن يتم استبدال السلاح السوفييتى فى مصر بسلاح أمريكى".

وفى الختام، قلت إن خط الدعاية يجب أن يكون عامة حسن النية تجاه مصر، وإن العلاقات السوفييتية المصرية لها أهمية كبرى بصفة خاصة، وإنه يجب متابعة تنميتها.

كان هذا ما كانت عليه المذكرة التى أرسلتها لشفيرنادزة فى أكتوبر ١٩٨٥، وأرسلت صورة منها للنائب الأول للوزير "ج.م.كورنيونكو". وقد بين الزمن فيما بعد أن التقديرات والتنبؤات التى تضمنتها كانت سليمة، فيما يخص مصر نفسها وسياسة مبارك، بما فيها موضوع استعادة مكانة مصر فى العالم العربى، وكذلك بخصوص تنمية العلاقات بين الاتحاد السوفييتى ومصر. وأنا مسرور أيضا بأن أجد أن هذه المذكرة، على قدر حكمى، اعتمدت على تطور الأحداث فى المستقبل، ولعبت دورا فى تكوين وجهة نظر أكثر موضوعية عند الرئاسة السوفييتية عن الواقع المصرى، وبالطبع أيضا عن سمة علاقة الاتحاد السوفييتى بالنسبة لمصر.

فى حفل الاستقبال بمناسبة العيد القومى فى نوفمبر

كما هو متبع فى يوم ٧ نوفمبر، أقيم حفل استقبال فى السفارة، احتفالا بالعيد القومى الـــ ٦٨ لثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى. وقد جاء إليه عدد كبير غير مسبوق من كبار الضيوف، ومنهم اثنان من نواب رئيس الوزراء، ورئاسة البرلمان، ورؤساء الأحزاب، والوزراء، ومحافظ القاهرة، وعدد من رؤساء الوزارة، ووزراء الخارجية السابقين. وقد قال لى مجيد وهو يودعنى منصرفا إن ذلك لم يكن حفل استقبال دبلوماسى بمناسبة العيد القومى، ولكن مظاهرة تعبر عن إحياء الصداقة السوفييتية – المصرية.

وقد كان الحفل ناجحا بوضوح رغم أنه كان فى أحد جوانبه غير عادي على الإطلاق: فلم تقدم فى بار الضيوف أية فودكا روسية، أو كونياك أرمينى، أو أذربيجانى أو مولدافى، أو أى نوع آخر من المشروبات الكحولية. وقد أجبرنا

خطاب جاء من موسكو على التخلى عن عاداتنا، حيث أفاد بالمنع التام لتقديم الكحوليات فى الاحتفالات البروتوكولية. وكان ذلك تصرفا أحمقا بالطبع، ولكننا اضطررنا لتنفيذه لفترة ما، إلى أن أدت الحياة إلى تغيير هذا المنع أيضا، مع كل ما نفذه جورباتشوف من حملته ضد المشروبات الكحولية.

وكان "حدث الحفل" هو حضور ياسر عرفات على غير انتظار أبدا. وقبل ذلك حتى الدبلوماسيون لم يكونوا يعلمون أنه فى القاهرة. وبالطبع كانت هذه مفاجأة لأصحاب الحفل وللضيوف. وقد اندفع المصورون الصحفيون يصورون لقاءنا. والباز كان هو من أحضر لنا عرفات، لذلك أدركنا أن ذلك لم يكن عفويا. وفعلا طلب منى عرفات أن أخصص له عشر دقائق- خمس عشرة دقيقة. وكنت مدركا أن الحديث لن ينجح أمام مئات من الأشخاص، لذلك اقترحت على عرفات أن يتعامل مع الضيوف المجتمعين، ثم بعد ذلك ننفرد أنا وهو فى مبنى إقامة السفير.

وبعد بعض الوقت، تركت زوجتى وتسيفوجين يستقبلان ويودعان الضيوف، ودخلت مع الباز وعرفات وبعض الفلسطينيين إلى مبنى إقامة السفير. وكنت لا أستطيع التغيب طويلا عن الحفل، لذلك اتفقت فورا مع عرفات على اللقاء مرة أخرى لحديث تفصيلى. فاقترح أن يتم اللقاء عنده، فوافقت. أما فى الوقت الحالى، فقد طلب منى توصيل تهانيه بالعيد للرئاسة السوفييتية، كما قال لى عرفات إنه يعتبر مفاوضاته فى القاهرة هامة وإيجابية، بل كنقطة تحول فى العلاقات الفلسطينية – المصرية. وأعطانى نص مستند أصبح مشهورا باسم "ميثاق القاهرة". كان يدور فيه الحديث عن موقف منظمة التحرير الفلسطينية بالإرهاب، وعن حق الشعب الفلسطينى فى النضال من أجل حقوقه، حتى النضال المسلح، وعن الدعوة لمؤتمر دولى لتسوية مشكلة الشرق الأوسط، كطريقة لحل الأزمة العربية- الإسرائيلية. وكان محتوى المستند يمثل لنا بالفعل أهمية، فأرسلته فى نفس الليلة إلى موسكو، مع التفسيرات التى سمعتها من ياسر عرفات فى هذا اليوم. وكانت

الروح المعنوية للباز عالية جدا، وأبدى تأييده الكامل للكيفية التى قيم بها ياسر عرفات المفاوضات التى تمت فى القاهرة.

لم ألتق قبل ذلك بعرفات، لذلك فقد تفحصت باهتمام هذا الشخص الذى حظى بشهرة عالمية، بهيئته التى لا يمكن تخيل عرفات بدونها: ذقن غير محلوقة، بذلة دائمة خضراء اللون نصف عسكرية، وغطاء رأس أبيض بمربعات على رأسه مثبت بحبلين أسودين. وقامته أقل من المتوسط، يبدو نحيفا، ولكنه فى الحقيقة ممتلئ، ومتحمس على الطريقة الشرقية- يتحدث بسرعة، ويشوح بيديه، وحركات وجهه معبرة. كما أن نظرات عينيه حالكتي السواد كانت مميزة. وكان لا يمكن أن يثبت عينيه على شيء (كانت دائما عيناه تتحركان من شيء لآخر). وأخيرا، كانت دائما شفتاه لسبب ما مبللتين. كان هذا شكل الزعيم الفلسطينى كما رأيته أول مرة. وكان فى العام السابع والخمسين من عمره، وكان قد اكتسب سمعة بأنه سياسى بارع بدرجة غير عادية، وبأنه قادر على الخروج من أصعب المواقف، وهو بالطبع ما بينته تماما كل حياته. وخيل لى أنه يستطيع التأقلم مع أى موقف، ولكن فى خلال كل حيله العجيبة ومرونته وتقلباته، كان دائما محافظا على هدفين- الإمساك فى يديه بأكبر عدد ممكن من خيوط السلطة الفعلية فى حركة المقاومة الفلسطينية، ومحاولة الوصول إلى أن يكون للفلسطينيين موطنهم القومى. وكانت ابتسامة عرفات وتفائله العلنى يتجاوران مع صرامته، وأحيانا قسوة القائد عنده، وهو إلى حد ما يؤدى إلى التفكير فى أن ذلك يفسر بقاءه لسنوات طويلة كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية، دون أن يكون له بديل.

الحديث مع عرفات

أكملنا الحديث، أنا وعرفات، فى العاشر من نوفمبر. حيث ذهبت إلى سكنه المؤقت أنا والمستشار "بودتسيروب" و"فكيلوف". وكان يصاحب عرفات: عضو المجلس الوطنى الفلسطينى "سيد كمال"، وعضو مجلس قيادة منظمة التحرير

الفلسطينية "أبو عياد"، ونائب المدير العام للدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية "زهدى القدرة". وقد بدأ عرفات بصفته شخص اندمج فى الدبلوماسية بالحديث فى أشياء كانت يجب أن تبين كيف أن مصالحنا قريبة من قلبه. فقال أولا، إن منظمة التحرير الفلسطينية تعمل بنشاط فى لبنان وخارجه؛ من أجل إطلاق سراح الأربعة مواطنين السوفييت المخطوفين فى بيروت كرهائن، وإنه أعطى أوامر "بألا يبخل" فى بذل الجهد من أجل ذلك. وأنا لست أعرف، هل لعبت منظمة التحرير الفلسطينية أى دور فى تحرير ثلاثة منهم (فالرهينة الرابعة قتلت)، لكن فى الواقع، كان هذا الموضوع هام جدا، وطلبت موسكو من كل الشركاء العرب، ومنهم منظمة التحرير الفلسطينية تقديم المساعدة. ثانيا، طلب عرفات إبلاغ شيفرنادزة أنه سيحاول إقناع رئيس "الإمارات العربية المتحدة" الشيخ "زايد آل نهيان" بتبادل السفراء مع الاتحاد السوفييتى، وأن الأخير أعطى أوامر بالعمل على ذلك فى وجوده. وكما قال عرفات، فقد تحدث فى نفس الموضوع مع "فهد"، ملك "المملكة العربية السعودية"، وحكام كل من "قطر" و"البحرين". وكان موضوع تبادل السفراء مع دول الخليج الفارسى يمثل لنا فى ذلك الوقت أهمية، فقمت بالطبع بالتعبير عن عرفاننا لعرفات على جهده مع الرهائن، وبخصوص وجودنا السياسى فى منطقة الخليج.

ثم انتقل الحديث إلى وجود عرفات فى مصر. فأكد أنه راض عن النتائج الخاصة بالعلاقات المتبادلة مع القاهرة، التى وضعت فيها نقطة بداية مرحلة جديدة، وبأن القاهرة أصبحت تتحرك تجاه المؤتمر الدولى للتسوية الشرق الأوسطية، كوسيلة لحل النزاع العربى- الإسرائيلى. وبالطبع وضع عرفات نفسه كمؤيد بنسبة ١٠٠% للمقترحات السوفييتية بخصوص المؤتمر. أما عن العلاقات بين منظمة التحرير الفلسطينية مع مصر، فأشار عرفات إلى أن المعارضة اليسارية المصرية كانت ضد زيارته إلى مصر، حيث إنها رأت فى ذلك اعترافا غير مباشر للفلسطينيين باتفاقيات كامب ديفيد. أما جناح الموالين لسياسة السادات،

من الحزب الحاكم والموالين للولايات المتحدة الأمريكية، فهم أيضا كانوا ضدها لأسباب مضادة تماما. لذلك كان اللقاء مع أعضاء الحزب الوطنى الديموقراطى النشطين، الذى اشتركت فيه كل الجماعات، طويلا وصعبا. لكن عامة فهو راض عنه، وكذلك عن كونه قد تم فى حد ذاته.

وعند انتقال عرفات بعد ذلك إلى "إعلان القاهرة"، ركز على أنه فى الأساس لا يوجد به شيء جديد، ولكنه موضوع على أساس قرارات المجلس الوطنى الفلسطينى (البرلمان)، وعلى الوثائق التى وقعها القادة العرب فى مدينتى "فاس" و"الدار البيضاء". وكانت الحاجة إلى الميثاق نتيجة لضرورة نفى اتهام منظمة التحرير الفلسطينية بالإرهاب. وقد تلخص الهدف من الميثاق فى هذه النقطة بالذات. أما ما يخص السياسة الحقيقية، فإن منظمة التحرير الفلسطينية ستستمر فى الكفاح المسلح، وليس فقط فى الأراضى العربية المحتلة، لكن على كل أرض فلسطين (و بكلمات أخرى على أراضى إسرائيل). وإذا لم يتوقف الإسرائيليون عن "الهجمات الإرهابية" ضد الفلسطينيين فى الخارج، فإن منظمة التحرير الفلسطينية ستجدد عملياتها فى كل مكان. وكنت أفكر وأنا أستمع إلى عرفات فى السبب الذى جعله فى حديثه معى ينزع من ميثاق القاهرة مجده عن قصد، وأن يستنكر الإرهاب، ولماذا كان يؤكد أنه فى الواقع لم يتغير أى شيء فى الأساليب العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية. وكان الاستنتاج الذى يظهر هو أن عرفات يتصرف بهذه الطريقة؛ حتى لا يكون لموسكو شك بخصوص تقاربه مع مصر، وأن يبين أنه لا يوجد فى فكره ما يجعله يسير على الطريق الذى سار فيه السادات. ويبدو أن عرفات أكد لهذه الأسباب أنه جاء فى الميثاق أنه يجب الدعوة إلى مؤتمر دولى باشتراك كل من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية والأعضاء الآخرين الدائمين بمجلس الأمن.

وأفاد عرفات أن الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل أعلنتا فى هذا اليوم احتجاجهما للقاهرة على زيارة الوفد الفلسطينى لها، برئاسة رئيس منظمة التحرير

الفلسطينية، ووجوده فى عرض الطيران العسكرى، وأن ميثاق القاهرة دوى بصوت عرفات فى حضور مبارك. وقال أيضا عرفات إن واشنطن غير راضية عن الخط السياسى لرئيس مصر، بما فيه موقفه من التسوية الشرق أوسطية وتحسين العلاقات مع الاتحاد السوفييتى.

وبناء على طلبى، عرض عرفات رؤيته للوضع فى حركة المقاومة الفلسطينية، وكذلك فى منظمة التحرير الفلسطينية. ولم يمر الأمر بدون توجيهه لانتقاد لسوريا التى تقوم بنشاط انشقاقى، كما قال، وبمساندة المنظمات الفلسطينية التى تحت حمايتها. وكان الطلب الوحيد الذى خرج من فم عرفات فى هذه المرة – هو أن يتم التأثير على سوريا لضبط النفس.

افترقنا على وئام. وبالطبع أبلغت موسكو فورا بحديثى مع عرفات، وكذلك عن حديثى الذى تم فى نفس هذا اليوم مع وزير خارجية مصر.

رأى وزير خارجية جمهورية مصر العربية

عن زيارة عرفات للقاهرة

شدد مجيد بشكل خاص على بعض العناصر بصورة مختلفة. فأشار عند حديثه عن زيارة عرفات إلى مصر إلى أن منظمة التحرير الفلسطينية قد وعيت إلى أهمية دور مصر فى تسوية أزمة الشرق الأوسط، وفى حل القضية الفلسطينية، وأن ذلك جاء مع بعض التأخير. وأنه كان عليها منذ زمن بعيد أن تقوى علاقاتها بالقاهرة. وقد أعطت هذه الزيارة فرصة توضيح الموقف المصرى من العناصر المختلفة لتسوية المشكلة الشرق الأوسطية لعرفات وزملائه، وقد كان الاهتمام الأكبر موجها لتبادل الآراء حول الأمور الفلسطينية. وقال الوزير إن هذه الزيارة بينت وحدة فهم الأهداف النهائية، مبينا فى نفس الوقت بعض الاختلافات فى طرق تحقيقها. وقد أشار مجيد ببعض الأسى إلى أن عرفات قد امتنع مرة أخرى عن

اعتراف منظمته بقرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و٣٣٨، التى كانوا يحاولون فى القاهرة توجيهه إليها.

وأشار مجيد ببعض الأسف إلى أن القيمة الأساسية للميثاق الذى أعلنه عرفات هى ما به من إدانة للإرهاب. فهذه الإدانة ليست فقط واقعية، لكنها ضرورية حيث إن كل عملية إرهابية جديدة من جانب المنظمات الفلسطينية تضرب هيبة منظمة التحرير الفلسطينية أمام الرأى العام فى مختلف البلدان، ومن الصعب التوصل إلى اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية فى مفاوضات السلام، وحتى فى الاستعداد للحوار معها، إذا تم الإجماع على اتهام منظمة التحرير الفلسطينية بالمشاركة فى عمليات الإرهاب التى يقتل بسببها أناس مسالمون. وقال الوزير إن عمليات الإرهاب لا تقرب بل تبعد التسوية السلمية. لذلك فإن الرئيس مبارك يأمل فى أن موسكو سوف تتعامل بفهم مع إعلان منظمة التحرير الفلسطينية رسميا إدانتها للإرهاب، مؤكدا فى نفس الوقت على حق الشعب الفلسطينى فى النضال ضد الاحتلال الإسرائيلى بكل الطرق الممكنة، ما عدا بالإرهاب. وقد وصف مجيد النقد الموجه من سوريا لميثاق عرفات بأنه غير موضوعى. وقد ربطه بعداوة الأسد الشخصية نحو عرفات، ملاحظا الضرر الذى ينتج بالضرورة عندما تنتقل الأمور الشخصية إلى مجال السياسة. وقال مجيد، إننا كنا نرغب فى ألا يؤثر موقف سوريا الخاص، وغير الموضوعى تماما من ميثاق عرفات بالقاهرة، على موقف موسكو.

المقابلة الدافئة مع مبارك

فى نهاية نوفمبر، كانت لى مقابلة مع حسنى مبارك. وكانت المبادرة من جانبى؛ نظرا لأن موسكو قد طلبت منى إبلاغ رئاسة مصر بنتائج المباحثات بين م.س.جورباتشوف ورونالد ريجان فى جنيف. وبالطبع كان يمكن لمبارك أن يتصرف بأسلوب آخر، بأن يكلف الباز أو مجيد أو أى شخص آخر باستقبالى، كما

يحدث غالبا فى مجال العمل الدبلوماسى، وكذلك عندنا؛ فالرؤساء طيور تطير عاليا جدا، بحيث إنها لا تنخفض فى كل مرة إلى مستوى السفراء، عندما يتطلب الأمر إبلاغ رئاسة البلد بشىء ما. ولكن فى هذه المرة فضل مبارك مقابلتى شخصيا. وكان ذلك على الأرجح من جانبه حركة سياسية؛ بسبب رغبته فى التأكيد على الأهمية التى يعطيها لتنمية الحوار مع موسكو. وقد قدرت ذلك، خاصة أن الغالبية من السفراء العاملين فى القاهرة لم يكونوا يستطيعون التفاخر بالمناقشات الخاصة مع الرئيس. وكان الكثير منهم قد قابلوه فقط عند تسليمهم لأوراق اعتمادهم. وبالنسبة لى، كانت هذه خامس مرة فى سنة وبعض السنة.

وفى هذه المرة، جرى الحديث مع مبارك فى وجود الباز. فأديت ما كلفت به. وكان اللقاء الذى تم فى جنيف فى ١٩-٢٣ نوفمبر هو اللقاء الأول على مستوى القمة السوفييتية - الأمريكية فى الست سنوات والنصف الأخيرة، وقد جذب إليه اهتماما كبيرا. وقام أكثر من ثلاثة آلاف ونصف صحفى بتغطيته. وكان سبب الاهتمام هو أنه قبل هذه القمة سادت فترة مواجهة شديدة بين القوتين العظمتين بسبب أفغانستان، وبسبب الطائرة الكورية الجنوبية التى أسقطها الاتحاد السوفييتى، والصواريخ متوسطة المدى فى أوروبا، واستمرار سباق التسلح، وما سمى "مبادرة الدفاع الاستراتيجى" لريجان، والتى أطلقت عليها الصحافة اسم برنامج "حرب النجوم". وكان لقاء جنيف فى الأساس "لتعارف" كل طرف على الآخر. وهو قد منح قائدى الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية فرصة الاتصال المباشر، واختبار بعضهما البعض، والتأقلم بشكل ما كل مع الآخر، والإحساس بالمزاج العقلى الآخر. ولم يتوقع أى من الطرفين أى منجزات، لكنهما لم يرغبا فى فشله. كان النقاش أيديولوجيًا وقاسيًا جدا. وكانت مواضيع مراقبة التسليح، وخفض الأسلحة الاستراتيجية، ومبادرة الدفاع الاستراتيجية الريجانية، هى المواضيع الأساسية فيه. ولم يكن الجانبان مقترين فى تبادل العتاب، لكن رغم ذلك توصلا إلى الاتفاق على عقد قمتين أخرتين فى واشنطن وفى موسكو، كما صدر

بيان ختامى ينم عن حسن النوايا، جاء ضمنه "عدم السماح بحرب نووية لا يمكن أن يكون فيها منتصرا، وأن أى من البلدين لن يسعى إلى التفوق العسكرى". وقد قيمت موسكو لقاء جنيف تقييما إيجابيا، وهو ما مثل جوهر المعلومات التى عرضتها على مبارك.

وقد استمع باهتمام، وطلب التعليق على بعض الأوضاع فى ما ذكرته، فقمت بذلك. فأعرب الرئيس عن رضاه عن بداية تحسين العلاقات السوفييتية - الأمريكية. وامتدح جورباتشوف على الأهمية التى يعطيها لموضوع منع خطر الحرب النووية، وخفض أسلحة الدمار الشامل، وتمنى النجاح لجهوده المستمرة فى هذا الاتجاه. وأبدى بعض خيبة الأمل على أن الشرق الأوسط لم يكن موضوعا لبحث خاص فى لقاء الرئيسين، وعن أنه سوف يتم ملأ هذا الفراغ فى خلال المشاورات السوفييتية- الأمريكية بخصوص المواضيع الإقليمية. وطلب مراعاة أنه فى اتصالاته بالولايات المتحدة الأمريكية يطرح فكرة أن وجود الاتحاد السوفييتى فى الشرق الأوسط يعتبر عنصرا لاستقرار المنطقة. وقال أيضا إنه عندما تشاور معه ملك "عمان"، بخصوص جدوى إقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتى وتبادل السفراء، فإنه أعطاه ردا إيجابيا (وفعلا، تم هذا التبادل بعد وقت قصير).

وعندما تحدث عن صعوبات الوضع فى الشرق الأوسط، نصح "بألا نعطى ظهرنا لياسر عرفات، كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية" وألا نقلل من دعمنا له، حيث سينفرط عقد منظمة التحرير الفلسطينية بدون عرفات إلى جماعات مختلفة، سوف تصبح بالتأكيد تابعة لواحدة أو أخرى من الدول العربية، وسوف يكون ذلك انهيارا لحركة المقاومة الفلسطينية. ودعا مبارك: "لا تفقدوا منظمة التحرير الفلسطينية، وكونوا حذرين". واستمر مبارك فى نفس الخط السابق، فقام بنقد لاذع لسوريا وليبيا؛ لأنهما يؤديان إلى انشقاق فى صفوف منظمة التحرير الفلسطينية. كما أكد بأن سوريا ليست فى جانب الدعوة لمؤتمر دولى بخصوص الشرق

الأوسط، وأن من الأفيد لها هذا الوضع المتأزم حيث إن ذلك يجعلها مستمرة فى الحصول على معونات اقتصادية ضخمة من الدول العربية. وقال مبارك إنه مدرك لأن دمشق أصبحت لا تتشاور مع موسكو بنفس القدر الذى تتشاور به عادة، لكن الوضع فى الشرق الأوسط يتلخص فى أن الكثيرين يعتقدون أن موسكو تقف دائما وراء ليبيا وسوريا. وأنه بنفسه يقنع القادة العرب بأن ذلك ليس صحيحا أبدا، لكن يجب أن تراعوا هذا الفهم للأحداث حيث إنها لا تضع دائما موسكو فى الوضع الجيد. (بعد عدة سنوات، اقتنعت بنفسى بأن هذه التقديرات كانت سليمة، عندما انشغلت بالإعداد لمؤتمر مدريد لموضوع الشرق الأوسط).

وفى هذه المرة، كان مبارك يتعامل بحرية ، فقد تحدث كثيرا وبرغبته عن بلدنا، وعن العلاقات السوفييتية المصرية. وقد أكد أنه لا يجب النظر للعلاقات المميزة بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية كحاجز لإقامة علاقات صداقة قوية مع الاتحاد السوفييتى، وأنه رغم الفترة الصعبة التى مرت بها إلا أنه لم تنمو مشاعر سيئة عند المصريين تجاه الاتحاد السوفييتى، وأن المصريين يذكرون تماما التعاون المتعدد الجوانب مع الاتحاد السوفييتى، وأية نتائج مثمرة منحه لمصر. وقال مبارك إنه سيرحب بقيام الوفد البرلمانى السوفييتى برد الزيارة، وبإنه عامة مؤيدا لتنمية الحوار السياسى مع موسكو، وإنه جارى الاستعداد فى القاهرة من أجل استكمال المفاوضات معنا، بخصوص الديون العسكرية وفائض الميزان التجارى. وقال: "ولكن لا تضغطوا علينا كثيرا بخصوص الديون، فأنتم تدركون وضعنا الصعب".

شكرت الرئيس على قرار إعادة المبنى السكنى للسفارة، وسألت عن متى يمكن انتظار خطوات جديدة؟ كان الرد مباشرًا وصريحًا: "يجب على الانتظار قليلا حتى لا أغضب الأمريكان تماما. فلنعد ثانية إلى هذا الموضوع بعد عدة شهور".

استغللت هذا اللقاء لكى أتحدث عن موقف الأوضاع فى التعاون الاقتصادى السوفييتى- المصرى، وعن ما قمنا به بخصوص إعادة بناء مجمع الحديد والصلب

بحلوان، وتحسين كفاءة مجمع الألومنيوم بنجع حمادى، والتعاون فى العديد من الصناعات الأخرى. وقد أشرت إلى وجود بعض الأماكن الضيقة الموجودة فى هذا المجال، والمتعلقة بعدم الوضوح بخصوص نية الجانب المصرى فى التوقيع على المستندات اللازمة. فكلف الرئيس الباز فى وجودى للعمل على أن تعمل الهيئات والشركات المصرية المعنية بدرجة مناسبة من النشاط بحيث لا يسمح بتأخر فى اتخاذ القرارات.

وكان مبارك يتذكر فى خلال الحديث وبدفء شديد فترة وجوده فى بلدنا. وقال إنه كان دائما يشعر بالراحة بين السوفييت. وقد ذكر بصفة خاصة فترة دراسته بأكاديمية فرونزة، والأماكن التى كان يذهب إليها بكثرة فى موسكو، وعن أن رقص الباليه" قد أعجبه جدا فى بلدنا، وأنه يخيل له أنه عندما كان فى موسكو لم يفوت أى عرض من عروض "بحيرة البجع" بمسرح البولشوى. وعبر عن أمله فى مشاهدته من جديد رغم أنه من الصعب الآن معرفة متى سيكون ذلك. "لم يحن الوقت بعد" - كان هذا هو تعبيره. (حضر مبارك إلى موسكو أكثر من مرة فى زيارات، ولكن حدث ذلك من بعدى).

وقد كانت هذه إحدى ألطف المقابلات مع الرئيس. ورغم أنها زادت عن ساعة، فإنه لم يظهر فيها أى شيء صعب. لذا تمنيت وأنا منصرف من القصر الرئاسى دوام هذا الوضع.

تهدئة المشاعر المعادية لليبيا

وبعد ثلاثة أيام، كان لى حديث طويل مع الباز. وكان السبب هو الغضب الشديد الذى تسبب فيه العمل الإرهابى الموجه ضد طائرة الركاب المصرية فى مالطا، الذى أدى إلى قتل عدة ركاب. فقد خطفت الطائرة وأجبرت على الهبوط فى مطار "فاليتى". واتهمت الصحافة المصرية فورا ليبيا بمسئوليتها عن هذا العمل الإرهابى. وكان الباز ثائرا جدا فى خلال حديثه معى. فلم أره بهذا الشكل أبدا من

قبل. وطلب منى باسم الرئيس "أن تجبر" موسكو (والأحسن جورباتشوف نفسه) القذافى على الوعد بالامتناع تماما عن القيام بأعمال إرهابية ضد مصر. وأعلن الباز أن مصر تقوم الآن بمراجعة المعلومات عن مسئولية ليبيا عن خطف الطائرة، وأنه إذا تأكدت هذه المعلومات فلن يمكن تفادى ضرب ليبيا عسكريا، وأن صبرنا قد نفذ. وأضاف أن القذافى، وهو يحس أنه تحت المظلة السوفييتية فى أمان تام، لا يراعى أى شيء، وقد فقد إحساسه بالحدود وبالواقع، وأنه يتصرف بطريقة عديمة المسئولية، واستفزازية".

واضطررت لتهدأة محدثى الثائر. فتحدثت عن نقطتين. أولا، أن الحرب ليست رحلة ترفيهية، وأنه يمكن التورط فيها بسهولة، ولكن كما تبين الخبرة فى العراق فإنه من الأصعب جدا الخروج منها. وعامة فإن أى استخدام لقوة السلاح خطر جدا مهما كان الدافع له. فهل يمكن لأحد ضمان أن ليبيا لن ترد على الضربة العسكرية المصرية بضربة منها؟ فهى تمتلك طيران ودبابات والكثير من الأسلحة الأخرى. وهذا يعنى أنه ستكون هناك خسائر فى الجانبين. وهل مصرتحتاج ذلك؟ ثانيا، مصر تقوم بجهود كبيرة للعودة للصف العربى، وإعادة الوحدة العربية. فهل سوف تقترب مصر من تحقيق هذا الهدف بعد توجيه ضربة لليبيا؟ على الأرجح سيحدث العكس. وسوف يكون العالم العربى أكثر انشقاقا. وكذلك إذا ما أخذت بعين الاعتبار طبيعة العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية وليبيا، فإن الكثير من العرب سوف يميلون إلى رؤية اتفاق بين القاهرة وواشنطن فى العمل العسكرى المصرى تجاه ليبيا. وهذا أيضا لن يكون فى صالح مصر ودورها فى العالم العربى. كما أنى ركزت بصفة خاصة على عمل الكثيرين من الخبراء السوفييت فى ليبيا، وأن ذلك سوف يلعب دورا كبيرا فى تحديد رد فعل موسكو، فى حالة قيام عمليات عسكرية ضد ليبيا.

أما بخصوص طلب التأثير على القذافى، فقد قلت إنه توجد هنا نقطة حساسة: فقد أعلن القذافى رسميا عدم مسئولية ليبيا. لذلك فإن أية محاولة من جانبنا

لكى يعد القائد الليبى بأنه لن تحدث أية أعمال إرهابية أخرى موجهة ضد مصر. تعنى فى الواقع أننا ننضم إلى من يتهمون ليبيا. وفى نفس الوقت، فإن المصريين غير متأكدين من مسئولية ليبيا ، بل إنهم حتى لم ينتهوا من تحقيقاتهم فى الحادث. وبينت أن ذلك هو فهمى المبدئى، وأن الرد الأخير سيكون بالطبع من موسكو، التى أصابها القلق بالتأكيد بسبب التوتر بين البلدين العربيين الصديقين لنا.

وقد نقلت إلى الباز رد موسكو فى الرابع من ديسمير. وسوف أعرضه بالكامل حيث إنه عكس جيدا فى رأيى سمة السياسة السوفييتية فى منطقة الشرق الأوسط:

"يقلق القيادة السوفييتية، وليس هى فقط، التأزم الخطير فى العلاقة بين مصر وليبيا. ونحن مقتنعون بأن تأزيم الموقف أكثر من ذلك ليس فى صالح أى من الطرفين، ومن ضمنها مصلحة مصر. ويجب عمل كل ما هو ممكن لعدم السماح بذلك.

ومن المعروف أنه توجد مشاكل تمنع مصر وليبيا من الحياة فى جيرة حسنة. وهذا لا يمكن ألا يسبب أسف من القلب للأصدقاء الحقيقيين لكل من الشعبين المصرى والليبيى، ولكل الشعوب العربية. والسؤال هو ما الذى يمكن استخلاصه من هذا الوضع؟ يرون فى الاتحاد السوفييتى بوضوح أن ذلك يتطلب من رئاسة الدولتين حرص خاص فى الأحكام، ودرجة عالية من ضبط النفس؛ حتى لا يسمح بزيادة الخلاف الموجود، وعلى الأخص، عندما يبدأ الحديث عن التهديد بالحرب وباستخدام القوة.

ومن الواضح جدا أن أول الخاسرين من هذا التحول فى الأحداث سيكونون العرب نفسهم. وأن الذى سيفوز هو من يقوم باستمرار بدق الأسافين فى العلاقات بين الدول العربية، والذى يوجههم لكى يعادوا بعضهم البعض، وذلك لتحقيق مصالحه الخاصة. وهذا يتضح من الرضاء فى إسرائيل عما يحدث الآن، والذى

لا يتم اخفاؤه. كما لا يمكن عدم القلق من زيادة النشاط العسكرى الاستخبارى الموسع للأمريكان فى هذه المنطقة فى الفترة الأخيرة.

وكان الاتحاد السوفييتى وسيبقى مناهضا حاسما للإرهاب فى أية صورة يظهر بها. ونحن نشارك فى الأحاسيس بالحزن والأسف التى يشعرون بها فى مصر، بخصوص الضحايا البشرية للحادث المأسوى للطائرة المصرية فى مالطا.

وفى نفس الوقت، فإن موقفنا نابع من أنه يجب ألا تتحكم فينا الانفعالات فى السياسة. فإن الصلابة والمبادئ ليست مرادفة للتهديد باستخدام القوة أو بالقيام بعمليات عسكرية. وكما نفهم فإن استخدام القوة أو التهديد باستخدامها لا يتفقان مع مبادئ السياسة الخارجية لمصر والتى تدعو إليها قيادتها.

ويأملون فى موسكو أن مصر ستستخدم ما تملكه من إمكانيات سياسية لمعالجة التوتر القائم وهو ما سوف يعطيه المجتمع العالمى حق قدره.

وقد تعاملنا مع قيادة ليبيا بنفس الطريقة. ونفترض هنا أن إمكانيات تدخل مجموعة كبيرة من الدول العربية يمكن أن يكون هو أيضا مجديا".

شكر الباز الاتحاد السوفييتى باسم الرئيس لفهمه خطورة الوضع، وعلى الخطوات التى قام بها تجاه ليبيا. ولكن فى نفس الوقت، أشار إلى أن موسكو لم تتفاعل رسميا علنيا ببيان عن موضوع الطائرة المصرية. وفى الوقت نفسه، كان من الملاحظ أن محدثى كان أكثر هدوئا، وأنه كان يرتب الأهميات بأسلوب مغاير. يقول الباز الآن إن القاهرة لا تريد خلق أزمة مع ليبيا، ولكن لا توجد عنده ثقة فى ليبيا. وكما قال محدثى، فإن مبارك قد استقبل مبعوثى القذافى ١٤ مرة فى مناسبات مختلفة، لكن كان فى كل مرة وبعد كل زيارة يتم عمل ضد مصر.

وبعد ذلك بثلاث أسابيع، وفى أثناء احد اللقاءات الدورية مع الباز، قال لى إن مصر تنظر إلى ليبيا كبلد عربى صديق، وإنها على استعداد للمحافظة على علاقات طبيعية تماما معها، وإن مبارك على استعداد للقاء القذافى بنفسه إذا

أظهرت ليبيا استعدادًا للتقارب، وفى هذه الحالة فإن مصر لن تمتنع عن ذلك. وطبقا لقول الباز فإن مبارك يؤيد نية رئيس الجزائر "بن جديد" لقاء القذافى خصيصا لكى يساعد على تحسين العلاقات الليبية- المصرية. وبذلك انتهت إحدى دورات المواجهة بين ليبيا ومصر.

قابلت السطور التالية فى كتابات أحد الصحفيين الإيطاليين، وهى قد بدت لى صحيحة تماما. لقد كتب عن "التغيرات الحادة جدا فى السياسة العربية التى بسببها لم يتم أبدا الوصول إلى اتفاق ثابت بدرجة كافية، ولا أى تباعد نهائى، ولا أى حليف مخلص إلى النهاية، ولا أى خلاف لا يوجد أمل فى تسويته"[1]. وكان كل ذلك موجودا فى علاقات مصر مع ليبيا، وسوريا، ومنظمة التحرير الفلسطينية، والأردن، والعراق، وعدد من الدول الأخرى.

أول تبادل للرسائل الشخصية بين مبارك وجورباتشوف

بدأت فى عام ١٩٨٥ المراسلات الشخصية بين حسنى مبارك وم.س.جورباتشوف. وكانت المبادرة من جانب الرئيس المصرى الذى أرسل إلى كل من جورباتشوف وريجان رسالة قبل لقاءهم فى جنيف، دعا كل منهما إلى الوصول إلى اتفاق لصالح السلام والأمان العام. وكان الرد هو إخطار مبارك بنتائج القمة.

وقام مبارك بمبادرة أخرى فى يوم ١٠ نوفمبر. بمجرد استلامنا أصل الخطاب من يد مجيد، قمنا بترجمته إلى الروسية وإرساله إلى موسكو. وكانت الرسالة دافئة، وتميزت بروح الصداقة، وكانت تتناول كلها مواضيع دولية. وقد راعى هذا الخطاب دروس الماضى، عندما كان يقدم نقد لاذع لليبيا وسوريا، فكان

---

(١) Антонио Рубби. Палестинский марафон. М.: "Международные отношения",2001.С.159

يؤدى إلى رد فعل حاد عند القيادة السوفييتية، ففى هذه المرة تفادى الخطاب تماما كل النقاط الحرجة، وكان من الواضح أن هناك رغبة للحديث فقط عما يمكن أن يوحد بين الاتحاد السوفييتى ومصر. وقد سرنى ذلك.

تناول الخطابان موضوعين: أولا، الحد من انتشار السلاح النووى وإزالة خطر الحرب النووية. وكان هذا الموضوع كما لو كان تمهيديا فقد شغل فقط فقرة واحدة، وفى الأساس قاد إلى موضوع أن مصر تعمل فى إطار حركة دول عدم الانحياز، وهيئة الأمم المتحدة، وأنها "تؤيد كل خطوة إيجابية تتخذ بهدف تقليص البعد بين مواقف مختلف الأطراف والوصول إلى مخرج مشترك".

أما باقى الخطاب، فكان كله مخصصا للشرق الأوسط الذى كان يمكن وصف الوضع فيه بأنه على وشك الانفجار، وأنه يحتاج إلى اهتمام خاص وبأسبقية أولى. وكانت أهم نقاط الخطاب كما يلى: إن مصر مهتمة بأن "يلعب الاتحاد السوفييتى دورا نشطا وإيجابيا فى عملية تحريك الجهود المبذولة من أجل السلام إلى الأمام". أى " من الممكن أن تقوى المشاركة السوفييتية بشكل ملموس العوامل التى تسهل الوصول إلى اتفاق عادل بالإضافة إلى أننا نقدر تأييد الاتحاد السوفييتى للحقوق الشرعية للعرب، ومطالبته بخروج القوات الإسرائيلية من الضفة الغربية وقطاع غزة، كشرط حتمى لقيام السلام".

وقد جاء فى الخطاب أن التسوية الشاملة العادلة يجب أن تضمن "التناسب المتساوى لحقوق ومصالح كل الأطراف"، ومنح "الشعب الفلسطينى حقه فى تقرير المصير، وفى إنشاء دولته الخاصة على أرضه". كما ورد فى الخطاب "أننا نعتقد أن الوسيلة المثلى لتحقيق تسوية سلمية هى الدعوة لمؤتمر دولى، تشارك فيه كل الأطراف المعنية، وأولها منظمة التحرير الفلسطينية – الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى". وبعد ذلك، جاءت فقرة مركبة يتم فيها التعبير من ناحية عن أن الاتحاد السوفييتى "يؤيد منظمة التحرير الفلسطينية، ويساعدها فى الوقت الذى تتعرض فيه إلى حملة ضخمة تهدف إلى استبعادها من بين المشاركين فى

المباحثات السلمية، وتصفية وتهميش دورها كممثل للشعب الفلسطينى". ومن ناحية أخرى، تعترف بأن للاتحاد السوفييتى "اعتراضات وملحوظات نحو بعض المواقف المعينة لمنظمة التحرير الفلسطينية فى الوقت الأخير (فمن الواضح تماما أن المقصود هنا عدم رضاء موسكو عن الاتفاقية بين الملك حسين وعرفات). وعرض فكرة عن أن ذلك فقط" خلاف فى بعض النقاط الفردية، لا يؤثر على صلب الموضوع، ولا ينتقص من الدور الذى يمكن أن يلعبه الاتحاد السوفييتى".

وعبر فى الخطاب مبارك عن الاستعداد للتشاور "بخصوص سمة المؤتمر الدولى، وقائمة المشاركين فيه، وطرق عمله بحيث يضمن أن يكون قناة حقيقية لإجراء المباحثات التى يمكن من خلالها الوصول إلى اتفاق". وانتهى الخطاب بالتمنيات بالسعادة والازدهار للشعب السوفييتى، ولجورباتشوف شخصيا.

سلمت رد م. س. جورباتشوف المؤرخ ٢ ديسمبر أيضا عن طريق مجيد. وجاء فيه تأييد تبادل الآراء حيث، كما لوحظ فى الخطاب، أننا "نرى فى ذلك أيضا ضرورة عملية ودليلاً على تغييرات محددة فى العلاقات الثنائية بين الاتحاد السوفييتى ومصر إلى الأحسن". وكانت بنية رد جورباتشوف مماثلة بنفس الترتيب الذى كان عليه خطاب مبارك. ففى البداية، جاءت تحية لجهد مصر للقيام بدورها لحل المشاكل الأساسية فى العصر الحديث، وهنا تمت الإشارة إلى الإمكانيات الكبيرة للتعاون المثمر بين الاتحاد السوفييتى ومصر.

وما جاء فى الخطاب بخصوص الشرق الأوسط كان له ما يميزه. فإذا كان مبارك لم يشر لا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ولا إلى إسرائيل، فقد بدا فى خطاب جورباتشوف أن كل شىء مرتبط بهما. انطلاقا من أن الشعب والرئاسة المصرية تعرف كيف ساند الاتحاد السوفييتى الشعوب العربية فى نضالها من أجل تحقيق حقوقها ومصالحها. وبين الخطاب بعد ذلك أن "إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية التى تساندها بالكامل، كما فى الماضى، يتعاملون مع العرب، خاصة مع الشعب الفلسطينى، من موقف الإجبار والعدوان والتوسع. وتؤكد ذلك وقائع الفترة

الأخيرة التى أدت إلى استياء الرئاسة المصرية الذى نتفهمه: الهجوم على مقر رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية فى تونس، قبض الأمريكان على الطائرة المدنية المصرية، مخالفة لكل القوانين الدولية. وهدف هذه السياسة الأمريكية والإسرائيلية واضح تماما، وهو حصار التسوية العادلة للشرق الأوسط التى يجب أن تضمن المصالح الشرعية لكل البلاد، وأن توفر للشعب الفلسطينى حقه فى تقرير مصيره، وفى إنشاء دولته الخاصة".

وبعد ذلك، جاء فى الخطاب "دبوس" يمكن أن تعتبره مصر موجها لها، فقد كتب جورباتشوف:" ولكن للأسف، ففى رأينا أن البعض فى العالم العربى قد ضلوا الطريق تماما بخصوص الأفكار الأمريكية - الإسرائيلية، فلم يروا أنها موجهة من أجل دفع الدول العربية إلى طريق الاتفاقيات المنفصلة، وأن تبتعد تماما عن منظمة التحرير الفلسطينية، وأن "تغلق" القضية الفلسطينية فى حد ذاتها. حيث يقود عمل واشنطن وتل أبيب إلى ذلك بالذات محاولتان أرجحة موقف العرب بخصوص تلك المسائل المبدئية، مثل إنشاء دولة خاصة للفلسطينيين، والحق الكامل لمشاركة منظمة التحرير الفلسطينية فى المباحثات المتعلقة بتسوية قضايا الشرق الأوسط". ثم جاء كلام موجها للقاهرة بالتحديد:"أنتم بينتم بحق أهمية هذين الموقفين الأساسيين فى موضوع الكفاح من أجل إقامة سلام عادل ودائم فى الشرق الأوسط. ومن المهم جدا، أن يقوى هذا الرأى فى المستقبل فى الخطوات العملية لمصر. وفى هذه الحالة، سيكون من الأسهل على منظمة التحرير الفلسطينية أن تقف أمام الضغط الذى يقع عليها من جانب الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل".

وكان يمكن عدم اللجوء إلى هذا التلميح الواضح جدا للاختلاف فى القاهرة بين الكلام والفعل، خاصة أن موقفنا الخاص من منظمة التحرير الفلسطينية، ومن رئيسها كانت فى ذلك الوقت، إذا قلنا ذلك برفق، مزدوجة الفكر. ولم أفهم أبدا لماذا يجب فى المراسلات الشخصية بين الرؤساء اللجوء إلى الكلمات اللاذعة. فلم يساعد ذلك على أداء الأعمال أبدا، أما على مستوى تحسين العلاقات الثنائية فإنها

فقط كانت تسيء إليها. وللأسف كان رد فعل جورباتشوف على كلمات مبارك عن المؤتمر الدولى "بأنه الوسيلة المثلى" لتحقيق التسوية السلمية، مصاغا بنفس الأسلوب. فجورباتشوف لاحظ هذا الموقف المصرى بارتياح، ثم فورا بدأت مجموعة من المواعظ، التى كان يمكن أن يستشف منها عدم الثقة فى نوايا مصر الحقيقية. حيث كتب جورباتشوف: "كنت أريد أن أؤكد على شيء، فإن الحديث يجب أن يدور عن ندوة مؤثرة فعلا، عن مؤتمر متكامل. فليس من المقبول عندما تتم محاولة تشويه فكرة المؤتمر بأن تطوعه ليكون وسيلة للدفع إلى اتفاقيات منفصلة". ولم يكن من الممكن ألا يفهم مبارك "فى أية حديقة تم إلقاء هذا الحجر".

وقد انتهى خطاب جورباتشوف بالإعراب عن الاستعداد لأية مناقشة محددة بين ممثلى بلدينا لمختلف سمات تسوية الشرق الأوسط، بما فيها مواضيع الدعوة لعقد مؤتمر دولى بخصوص الشرق الأوسط.

وكانت هذه النقطة الأخيرة موضوع مناقشتى مع الباز فى نهاية ديسمبر. لقد قمت بالتعليق على موقفنا من المؤتمر، مركزا على تلك النقاط التى تطابقت فيها مواقف الاتحاد السوفييتى ومصر أو كانت فيها متقاربة. وكانت نتيجة المناقشة هى اقتراح حضور رئيس قسم دول الشرق الأوسط بوزارة خارجية الاتحاد السوفييتى "ف.ب.بولياكوف" إلى القاهرة لمشاورات سياسية. ولم تجب موسكو فورا، واضطررت إلى تذكيرها عدة مرات. وتمت الزيارة فى الربيع، وسوف أتحدث عنها فيما بعد.

حديث آخر عن مواضيع الديون والتجارة

دعانى وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية "سلطان أبو على" إلى مكتبه فى منتصف شهر ديسمبر عام ١٩٨٥. فزرته مع المستشار التجارى "أ.ف. كازانتسيف"، الذى كان قد تلقى فى ذلك الوقت أمرا من الرئاسة الموسكوفية بأن يسلم سلطان أبو على مذكرة وزارة التجارة الخارجية للاتحاد السوفييتى، بخصوص

سعر الحسابات بالجنيه الإسترليني. وبدأ الوزير بأن ذكر أنه يجب تأجيل الجولة الثانية من المفاوضات بخصوص الديون العسكرية إلى عام ١٩٨٦، مبدئيا إلى شهر مارس، مفسرا أن التأخير فى سفر الوفد المصرى إلى موسكو كان بسبب تغيير رئيس الوزراء فى الحكومة المصرية، حيث إنه ارتبطت بذلك عدت تغييرات، وإن هذا عطل تجهيز المواد اللازمة للمفاوضات. ولكن إلى أن يحين موعد سفر الوفد سيكون من المفيد أن تتم بعض المشاورات عن طريق القنوات الدبلوماسية؛ لتسهيل المباحثات القادمة وضمان نجاحها. وقد صاغ الوزير الموقف المصرى كما يلى: يجب الفصل بين موضوع الديون المصرية العسكرية وبين كل المواضيع الأخرى، وأن يتم تشكيل فريق عمل منفصل بخصوص الديون العسكرية، مع الأخذ فى الاعتبار أن مصر سوف تسدد الديون ولكن فيما بعد، عند تحسن الوضع الاقتصادى فى البلد بعض الشيء، كما يجب أن يسدد الاتحاد السوفييتى قيمة فائض الميزان التجارى المتراكم بالعملة الصعبة وبتوريد بضائع، وسوف تقوم مصر من جانبها، بخطوة على هيئة تنازل يبين حسن النية، يتمثلَ فى إعادة النظر فى سعر العملات الحرة.

وكان ذلك فى أساسه تكرارًا لنفس الموقف الذى ذكره الوفد المصرى فى الجولة الأولى للمباحثات. وقد رفضه وفدنا بحسم. وقد أكدنا، أنا وكازانتسيف، بأنه غير مقبول، سواء فيما يخص الفائض التجارى، أو ما يخص تأجيل سداد الديون العسكرية، وما يخص أيضا فصل هذه المواضيع عن بعضها البعض. كما أننا رفضنا فكرة المشاورات الأولية عن طريق القنوات الدبلوماسية حيث إنه تم تكليف وفدين للقيام بالمفاوضات، وأنهما سوف يقومان باستكمالها، عندما يكون الجانب المصرى مستعدا لذلك (انطلقنا فى موقفنا من أنه لا توجد أية فرصة لنجاح المشاورات فى حالة الموقف المصرى، الذى عرضه الوزير مرة أخرى، ويمكن استخدامها للمماطلة فى المفاوضات نفسها). وقد عبس وجه على لكنه لم يناقش.

ومن ناحيتنا، ضغطنا، أنا وكازانتسيف، على الوزير بخصوص موضوع حساب سعر تحويل العملات الذى يجب تغييره، وألا يلقى الموضوع فى"صندوق الانتظار"، حيث إنه إذا لم يحدث ذلك فإن الجانب السوفييتى سوف يضطر إلى إعادة النظر فى قائمة البضائع التى نشتريها مصر. وهنا فورا، أعطينا على المستند الرسمى الخاص بوزارة التجارة الخارجية للاتحاد السوفييتى؛ وذلك لتعضيد كلماتنا.

نظرة على نتائج العام

اقترب عام ١٩٨٥ من نهايته. وعندما نظرت إلى الطريق الذى قطع منذ سبتمبر ١٩٨٤، لما تم تبادل السفراء، رأيت تقدمًا أكيدًا إلى وضع أحسن فى العلاقات مع مصر. وأولا، كان ذلك يتعلق بالمجال السياسى. فالحوار الذى قد بدأ اكتسب طبيعة نشطة بدرجة كافية وصراحة، كما أنه أدير فى جميع المجالات التى كانت تهم كلا الطرفين. وكان من المهم من حيث المبدأ أن رؤساء الدولتين قد شاركا فيه بصورة مباشرة. وقد تكونت لى علاقات عمل طبيعية، كسفير، مع تقريبا كل المسئولين الكبار بما فيهم الرئيس، وهو فى حد ذاته أيضا مؤشر هام لاهتمامه بأعمال التفاهم المتبادل والتعاون مع موسكو. وكان مؤشر التقدم بهذا المعنى من ناحيتنا، هو أن موسكو بدأت فى إخطار القاهرة عن ثقة عن بعض عناصر سياستها. وقد عبر عن ذلك أيضا الاستقبال الدافئ للوفد البرلمانى المصرى.

كما أن أعمال التجارة مع مصر كانت تسير بشكل غير سيء أبدا فى عام ١٩٨٥: زاد التبادل التجارى بمقدار ١٢.٤% فى خلال عام، وقد زاد فى خلال هذه الفترة الفائض التجارى المتراكم إلى ٤٣٣ مليون جنيها إسترلينيا. وكانت بنية التجارة نفسها قد أصبحت ناجحة بالنسبة لنا، من حيث التصدير لمصر الذى كانت تمثل فيه نسبة الآلات والمعدات ٤٠%، وكذلك الاستيراد. وكان ذلك رغم أننا تمكنا

من توقيع بروتوكول التبادل التجارى لعام ١٩٨٥ فقط فى مايو (كان التأخير أساسا بسبب الخلاف على الأسعار). وقد زاد استيرادنا وتصديرنا، الأول بمبلغ ٣٣ مليون جنيه إسترلينى، والثانى بخمسة ملايين؛ ولذلك زاد الفائض التجارى.

ومن الناحية الاقتصادية، فإن هذا العام كان صعبا على مصر. فقد تقلصت موارد العملة الصعبة من تصدير البترول بشكل كبير بسبب الانخفاض الكبير فى أسعار البترول، ومن تحويلات المصريين العاملين فى الخارج، ومن السياحة. وقد تأثرت الأخيرة بسبب عدة أعمال إرهابية كان ضحيتها أجانب. وكان الضرر الأكبر بسبب حادث "أكيلا لاورو"، وخطف الطائرة المصرية إلى مالطا. وقد زادت الديون الخارجية. وفى عام ١٩٨٥، سددت مصر ٣.٢ مليار دولار، من الديون وفوائدها. وقد وصل العجز فى المجال التجارى الخارجى إلى ٥.٥ مليار دولار، مع حجم تبادل تجارى وصل إلى ٩.٥ مليار دولار فى العام المالى ١٩٨٥/١٩٨٤. وقد استوردت مصر موادًا غذائية فقط فى هذا العام بمبلغ ٣ مليار دولار. وفى ظل هذا الوضع، لم يكن من المنطقى أن نتوقع أن الجانب المصرى يمكن أن يتقبل تلك الشروط التى اقترحها وفد ألخيموف. فقد كان يجب البحث عن حل وسط.

ونظرا لأن الظروف عقدت فورا عدة مواضيع هامة فى عقدة واحدة، فإننى طلبت مرة أخرى من موسكو ألا توقف العلاقة مع مصر على موضوع ديونها الخاصة، لكن انطلاقا من مصالحنا طويلة الأجل فى اتجاه مصر. واقترحت عدم استبعاد إمكانية إدخال تصحيحات على موقفنا من نوعية التنازلات المعبرة عن حسن النية؛ لخلق مساحة أكبر للتعاون السياسى، وفى المجالات الأخرى، وفى نفس الوقت، عدم استبعاد تقديم قروض أخرى من أجل التعاون الاقتصادى، حيث إن المصريين يسددون بدقة هذه النوعية من الديون، وقد سددوا كل ما عليهم لنا لما تم بنائه من مشروعات من قبل.

ولوحظ أيضا اختلاف الوضع حول السفارة والهيئات السوفييتية الأخرى فى مصر، وهو ما وضح فى تصرفات المصريين عند تعاملاتهم مع مواطنيننا، كما أن سمة الأخبار فى الصحافة المصرية عن أحداث الحياة الداخلية للاتحاد السوفييتى قد تحسنت. فلأول مرة منذ عدة سنوات، نشرت جريدة "مايو"، الناطقة بلسان الحزب الحاكم، حديثًا مع السفير السوفييتى (وعادلت به حديثى فى الجريدة الناصرية "الموقف العربى").

لكن للأسف، فالتبادل الثقافى جعلنا نأمل فى الأحسن. ولكن سبب ذلك كان التقليص الكبير لميزانية وزارة ثقافة جمهورية مصر العربية، وهو ما أثر سلبيا على تنفيذ عدد من نقاط خطة التعاون الثقافى. ورغم ذلك فإن عروض الفرقة الحكومية الراقصة لروسيا البيضاء قد نجحت تماما. كما أن سينمائيينا قد شاركوا فى مهرجان القاهرة السينمائى. وحضر إلى مصر وفود اتحاد المؤلفين الموسيقيين السوفييت، واتحاد المعماريين السوفييت، وتمت مختلف الأنشطة الأخرى.

وعند تقييمنا للوضع السياسى فى مصر فى تقريرنا عن عام ١٩٨٥، لاحظنا أن مبارك كان قد اضطر إلى اللجوء أكثر من قبل إلى طرق المناورات السياسية، ومنها الحوار مع المعارضة اليسارية، والتماشى بشكل ما مع تزايد المشاعر الدينية فى مصر، وهو فى نفس الوقت، يسير فى خط السيطرة على كل التنظيمات الإسلامية، سواء الكبيرة أو الصغيرة التى تمثل فى الواقع خطرا أساسيا على النظام. وقد أوضحت السفارة نمو "المادة الحارقة" فى المجتمع المصرى، وأن الكثير من القوى المختلفة تعمل ضد مبارك، لذلك يجب عليه التعامل بحرص محسوب.

وقد بقى فى ذاكرتى حديثى مع سفير الأردن "حسين حمادى". وكان من الشيق سماع كيف سب البورجوازية المصرية الكبيرة، التى، طبقا لكلامه، لا يهمها أى شىء إلا ثرائها الخاص السريع. فهى على استعداد لأن تبيع مصر كلها إذا كان ذلك سوف يجلب لها ربح. وأطلق السفير تعبير "ورم سرطانى" على طبقة

البورجوازية، التى ما زالت تشبك الجهاز الحكومى وتصيبه كثيرا بالشلل. وقال السفير إن الأمر صعب على مبارك، حيث إنه يتم الضغط عليه من كل الأجناب. لكنه إنسان شريف، ولهذا السبب بالذات من الصعب عليه التعامل مع هؤلاء الذين يديرون فى مختلف الوزارات المصرية، وتدفع لهم البورجوازية المصرية الكبيرة.

وساد رأى فى السلك الدبلوماسى يقول إنه رغم كل الصعوبات، فإن مبارك يمسك بقوة كافية فى يديه بخيوط السلطة، وإنه يقوى وضعه تدريجيا فى القيادات العليا بالدولة. كما أنه ينجح فى الوقوف أمام الضغط من جانب هيئات التمويل الدولية.

وكنت أعتقد (وقد كتبت عن ذلك إلى موسكو) أنه يجب تنمية الاتصالات مع مبارك، وأن ننظر إلى الرئيس كشريك مهم يستحق الاحترام. وقمت تدريجيا بعمل اللازم لكى يتم تبادل الزيارات على أعلى مستوى، ولكن حاليا تتم لقاءات وزراء الخارجية. وقد أبدينا أسفنا أنه لم يمكن ترتيب لقاءات للوزراء فى عام ١٩٨٥، فى خلال دورة الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة (حيث إن فى الغالب شيفرنادزة، كشخص جديد، لم يكن مستعدا بعد للاتصالات النشطة)، واقترحنا أنه بدءا من الدورة التالية يجب أن يصبح ذلك قاعدة. كما قلنا إنه يجب إرسال ممثلين خاصين للقاهرة؛ من أجل أن يبحثوا مع قيادة مصر مواضيع محددة.

ويجب أن أقول، إنه بعد تمكن مبارك من المسئوليات الرئاسية، أصبح يشارك بنشاط كبير فى السياسة الخارجية. ففى عام ١٩٨٥، سافر بنفسه إلى الولايات المتحدة الأمريكية (مرتان)، وإلى كل من إنجلترا وفرنسا وألمانيا الغربية وإيطاليا واليونان والبرتغال والعراق والأردن والسودان وعمان والحبشة. كما أنه استقبل فى القاهرة رؤساء كل من فرنسا وألمانيا الغربية والبرتغال واليونان وملكى إسبانيا والأردن وسلطان بروناى ورئيس وزراء إنجلترا وألمانيا الغربية وإيطاليا والهند، وكذلك الكثير من رؤساء دول وحكومات أفريقيا. وفى عهد مبارك،

أصبحت تنظم فى القاهرة فى كل عام عشرات من المؤتمرات والندوات، وغيرها من الأنشطة السياسية والاقتصادية والثقافية، من دولية وإسلامية وأفريقية وغيرها.

عامة، كنت راضيًا عن الكيفية التى مر بها عام ١٩٨٥ بالنسبة لى كسفير وللسفارة. فقد كانت الإنجازات واضحة تماما فى العلاقات الثنائية السوفييتية المصرية، كما أنه تم إنجاز أمور جيدة للمستقبل.

وقد استقبلنا، أنا وناتاشا، عام ١٩٨٦ الجديد، كما هو متبع فى السفارة، مع مجموعة العاملين. ثم قمت بزيارة رفقائنا الذين (أيضا كمجموعة) احتفلوا بالعام الجديد فى الممثلية التجارية، وفى جهاز المستشار الاقتصادى. وكان علىّ إلقاء كلمات فى كل مكان. وقد لاحظت أن الحالة النفسية لزملائى كانت عالية ومتفائلة. وكانوا جميعا واثقين من أن العلاقات السوفييتية المصرية قد بدأت مرحلة جديدة. كما بدأ تأثير الآمال المعقودة على "البريسترويكا" التى بدأت فى الوطن.

الباب العاشر

مرة أخرى فى زيارات لمدن وقرى مصر

مر عام على قيامنا برحلتنا الكبرى فى مصر. وها هى أخيرا ظهرت فرصة للقيام برحلة جديدة. وكان الهدف هو نفسه - زيارة مشروعات التعاون المشترك، ومقابلة المسئولين المحليين، والتعرف فى الطريق على البلد ومدنها وآثارها التاريخية العظيمة. وقد قررنا السفر مرة أخرى مع المستشار الاقتصادى "ن. أ. شيفانكوف"، ودعونا أيضا "أ.ج. فكيلوف" للذهاب معنا، حيث إنى اقتنعت بضرورة وجود مترجم بجانبى، يكون ملما تماما باللغة العربية فى هذه الرحلات، خاصة أننا فى هذه المرة كنا سنقوم بزيارة أربعة محافظين. وكان من المخطط للرحلة كلها أن تستغرق تسعة أيام. وكنا ننوى أن نسافر محاذيين للنيل حتى نصل إلى الحدود مع السودان، ثم نعود مرة أخرى عبر نفس وادى النيل، لكن من طرق أخرى.

بدأنا الرحلة فى ٦ يناير. وكانت محطتنا الأولى فى أسيوط، حيث قابلنا مرة أخرى الخبراء السوفييت العاملين فى إنشاء مصنع الأسمنت، وكذلك قابلنا إدارته. كانت الإدارة راضية عن رفاقنا، فقد كانت أعمال التشغيل والضبط تسير بنجاح. وكانت عملية الإنشاء قد قاربت على الانتهاء. وبالطبع، تقلص عدد مجموعتنا هناك. وكان أمامنا سفريات أخرى، لذلك تحدثنا مع مواطنينا وأمضينا الليل، ثم تحركنا فى الصباح الباكر إلى الجنوب على بعد ١٠٠ كيلومتر، إلى سوهاج، حيث كان قد تم تحديد لقاء لنا مع محافظها فى التاسعة صباحا.

سوهاج ولقاء مع ملكة مجهولة

سوهاج تمثل المركز الإدارى لمحافظة تحمل نفس الاسم. وهى مدينة يسكنها الآلاف، وبها صناعات تحويلية ومعاهد دراسية، وبها أبنية مكتملة وسائل الراحة إلى حد ما، وهى خضراء. وقد جذب انتباهنا كثرة أشجار النخيل فى وسط

المدينة، وعلى شاطئ النيل. وكان مكتب المحافظ فى مبنى أحمر حديث استقبلنا به بكرم وضيافة. وقد كان الحديث أيضا حسنا. ويمكن أن أقول فورا إن كل زيارات المحافظين سارت على نفس المنوال: أنا أتحدث عن العلاقات السوفييتية-المصرية، وعن رؤيتى لمستقبلها المشرق، مؤكدا استعدادنا لتجديد التعاون الاقتصادى والفنى، كما كنت أبدى اهتمامى بخطة تنمية المحافظة. وكان المحافظ بدوره يشرح الوضع فى مجالى الصناعة والزراعة. كما أنه كان عادة يتحدث كثيرا، ومن القلب، عن الدور الذى لعبه الاتحاد السوفييتى فى الماضى فى تأسيس المجالات الرئيسية للاقتصاد المصرى، مؤكدا أن المصريين ما زالوا يحفظون مشاعر الامتنان الكبير والصداقة للاتحاد السوفييتى. كما أنه كان يعد بالتفكير فى المشاريع الممكنة للتعاون المشترك فى المستقبل. وكنت أنا وشيفانكوف ندون فى بعض الأحيان ملحوظات، لكن كان الهدف الرئيسى هو أن ندفع المحافظين إلى أن يقدموا بأنفسهم للقاهرة مقترحات مناسبة، وأن يشاركوا بنشاط فى تكوين حقيبة أفكار هناك، يمكن مناقشتها، فيما بعد، على مستوى مناسب بين الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية.

وعندما عرف محافظ سوهاج فى نهاية المناقشة أننا متجهون إلى دندرة؛ لمشاهدة أحد المعابد هناك، اقترح علينا أن يرينا أحدث الاكتشافات الأثرية، خاصة أنها غير بعيدة عن سوهاج. وبالطبع وافقنا بسرور. فلم تكن عندنا أية مواعيد أخرى فى هذا اليوم، وكنا أحرارا نسبيا فى استغلال الوقت.

ودعنا المحافظ عند مدخل مبنى مكتبه. وذهبنا فورا مع بعض موظفيه إلى منطقة "أخميم"، حيث عثر على تمثال الملكة المجهولة. وقد عثر عليه بطريق الصدفة، حيث إنه كانت قد بدأت عملية حفر فى الرمال القريبة من المدينة لغرض ما. ولم أر أبدا شيئا مماثلا حتى الآن. فقد كان يرقد تمثال كبير جدا، وزنه عشرات الأطنان، أبيض اللون على ألواح خشبية مرصوصة. ويمكن تخيل أبعاده إذا تصورنا أن طول رأسه فقط كان أكبر من طول الإنسان. وكان بالتمثال بضعة

تلفيات، لكن رأسه كانت سليمة، وهو ما لا يحدث كثيرا فى مصر للتماثيل التى بهذا الحجم. وأكثر ما أدهشنى هو وجهه - شاب، جميل، رقيق جدا، يبتسم بغموض. وكانت مبعثرة من حوله قطع من الحجارة، وجدت بجانب التمثال. لكن لم يعثر، على التمثال، أو على الحجارة، على الخرطوش الملكى أو كتابات يمكن أن يستدل منها لمن هذا التمثال. حتى العصر الذى يرجع إليه التمثال، لم يتمكن الخبراء من تحديده. وكما قيل لنا، كان من المخطط استكمال التنقيب والبحث. وقد يكونون فيما بعد وجدوا مفتاحًا لتفسير هذا السر الأثرى.

معبد إلهة الحب والسعادة فى دندرة

اشتريت فى موسكو فى عام ١٩٨٤، قبل سفرى إلى مصر، كتاب "تراجيديا الأهرام"، للألمانى "بيتر إليبراخت". وكان به عنوان فرعى "٥٠٠٠ سنة نهبًا للمقابر المصرية". وكان أحد الأبواب الأولى مخصصا لمعبد "حتحور فى دندرة". وقد عرفت منه أولا، أن هذا أحد أحسن المعابد التى حفظت من المبانى الخاصة بعبادات مصر القديمة (وكنت بعد الكثير من الأطلال، أريد مشاهدة شيئا كاملا). ثانيا، علمت أن المعبد كان هدفا لمعركة شديدة من المنافسة بين الباحثين الإنجليز والفرنسيين عن الكنوز المصرية. وقد انتهت المعركة بفوز الأخيرين عند قيام المهندس "لى لورين" بتنفيذ طلب جامع وتاجر آثار فرنسى، وتحين اللحظة المناسبة وقام بنزع خريطة - أبراج دندرة الشهيرة - ضخمة وثقيلة للسماء من سقف المعبد، وتمكن من إرسالها إلى فرنسا. وهى معروضة بمتحف اللوفر الآن، أما مصر، فمضطرة للاستمتاع بنسخة منها مصنوعة من الجبس، وضعت بعد الكثير من السنوات فى مكان الخريطة الأصلية. وقد أخذت معى إلى القاهرة كتاب إليبراخت، وهى دفعتنى إلى وضع دندرة فى برنامج رحلتنا.

وكان معبد دندرة أهم معبد للإلهة "حتحور"- إلهة الحب والأمومة والسرور- التى كانت تحظى بشعبية لدى قدماء المصريين. كما كانت لها بعض

الوظائف فى عالم الأموات، لذلك يمكن رؤية.رسوم حتحور تقريبا فى كل مدافن الفراعنة، أو المعابد الجنائزية. وكانت تصور، كما قلت من قبل، على هيئة امرأة على رأسها قرنا بقرة بينهما قرص الشمس، كرمز لمكانتها العالية. وفيما بعد، أصبحت "تزين" رأس حتحور بأذنى بقرة (كانت تعتبر البقرة المقدسة التى تمثل حتحور، كما كان الصقر هو صورة زوجها حورس). وكان الفراعنة يمجدون حورس وحتحور بصفة خاصة، حيث إنه طبقا للأسطورة المصرية، انتصر حورس على الشرير سيت - قاتل أبيه - وقام بتوحيد مصر العليا والسفلى، وأصبح ملكا للبلد. وكان كل الحكام التاليين لمصر يرغبون فى اعتبارهم من سلالة حورس وحتحور، وخلفائهما المقدسين، ولذلك اتبعوا عقيدتهما.

وقد بنى معبد حتحور بدندرة من قديم الزمان، وأعيد بناءه عدة مرات إلى أن أعاد البطالسة بناءه من جديد تماما. كما أن الأباطرة الرومان "أغسطس" و"تيبريوس" و"كاليجولا" و"كلاوديوس" و"نيرون" قد اهتموا به، وحفروا فيه أسماءهم. وبذلك فطبقا للمقاييس المصرية، فإن معبد دندرة تقريبا "جديد"- وهو يعود على أية حال، إلى أكثر من ألفى سنة فقط.

ولم يحفظ لا الصرح ولا الساحة الأمامية، لكن بقى الجزء الأساسى من المعبد - قاعة الأعمدة والمعبد والسقف الذى فوقه - الذى كانت تتم فيه الطقوس، إلى أيامنا هذه بحالة جيدة جدا. وما بقى منه يبدو كمبنى معبد مكتمل. ويقف المعبد على أرض خلية على بعد كيلومتر واحد تقريبا من النيل. وواجهته تجلب الانتباه؛ فبها ستة أعمدة مستديرة، وفى أعلى كل منها تاج على شكل رأس حتحور بأذنى بقرة. ويمكن الدخول إلى المعبد فقط من بين العامودين المركزيين. والحيز بين الأعمدة الأخرى ملىء تقريبا إلى ثلث ارتفاعها بكتل حجرية. وهى مع الستة أعمدة الخارجية تكون جدار الواجهة، التى توجد خلفها قاعة بها ١٨ عامودًا ضخمًا.

وكان كل التقسيم داخل المعبد تقليديا تماما؛ فخلف قاعة الأعمدة الكبيرة توجد قاعة أخرى بها ستة أعمدة، ثم بهوان، وفى النهاية معبد حتحور. وفى داخله،

توجد الكثير من الحجرات على الجدران الجانبية وفى طرفه مخصصة لأغراض مختلفة. ويعبر كل ذلك عن أنه فى خلال العصر اليونانى - الرومانى استمر بناء المعابد طبقا للمخطط الذى استمر لألوف من السنوات، كما رأيناه، على سبيل المثال، فى معبد إيزيس بجزيرة فيلة بأسوان. وهذا كان مميزا أيضا، ولتنفيذ ما بداخل المعبد- أقصد زخرفة الأعمدة والرسومات البارزة الكثيرة، ومنها رسم على الجدار لآخر ملكة مصرية "كليوباترة"، وابنها "سيزاريون" من "يوليوس قيصر" (تم تصويرهما هما الاثنين كما كان يصور من ينتمون إلى العائلة الملكية قبل ذلك بقرون. وقد أمكن تحديد أنهما هما بالذات أبطال موضوع الرسم، فقط عن طريق الكتابات الهيروغليفية).

أما فى القاعة الكبيرة، فأهم ما يشد انتباه الزوار ما هو مركز فى السقف، حيث إن كل تقسيماته السبعة مرتبطة بشكل أو بآخر بالسماء وبالفلك. ففى الأقسام الطرفية، مرسوم كيف أن الإلهة "نوت" منحنية ومستندة على الأرض الصلبة بيديها وقدميها، وترفع على ظهرها السماء. وهنا توجد رموز الأبراج السماوية. فعلى الجانب الأيسر أبراج: الدلو، الحوت، الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان. أما فى القسم الأيمن، فتوجد أبراج: الأسد، العذراء، الميزان، العقرب، القوس، الجدى. أما فى الأقسام الأخرى، فتوجد أشكال فلكية تمثل كل ساعة من الساعات الاثنتى عشرة للنهار، والاثنتى عشرة ساعة الخاصة بالليل، والشهر القمرى بأربعة عشر يومًا، ينمو فيها القمر، وأربعة عشر يصغر فيها... إلخ. ويبدأ رأسك يدور نتيجة لوجودك طويلا بين الأعمدة ورأسك إلى فوق. ولذلك فإنك تتحول بمتعة إلى مشاهدة الرسوم المنحوتة الكثيرة على ارتفاع أقل، وهى فى حالة جيدة جدا. وتبين فى قاعة الأعمدة الأولى كيف يبجل فرعون والكهنة الآلهة، وكيف أن الآلهة تبارك فرعون. ويظهر الثلاثى الأساسى "حتحور وحورس وابنهما خونسو" أكثر من غيرهم. أما الرسومات البارزة فى قاعة الأعمدة الثانية، فهى مرتبطة بتأسيس وبناء هذا المعبد، حيث تبين أن الآلهة تساند فرعون فى هذا المشروع.

ويوجد سلم داخل المعبد يتجه إلى أعلى. هو أيضا ملىء بالرسومات البارزة التى تبين الغرض من هذه السلم. فقد كانت تستخدم عند حلول كل عام جديد؛ لكى ينقلوا عن طريقها تمثال حتحور الذهبى على نقالة مقدسة من المعبد إلى السطح، ثم كانوا يهبطون به عائدين مرة أخرى. وكانت تنظر من فوق السطح إلى مملكتها، وتستقبل شروق الشمس، وتتصل بالإله الأكبر "آمون - رع"، وتحصل منه على مخزون جديد من القوة الذى كان يجب أن يكفيها لمدة عام كامل. وقد صعدنا نحن أيضا هذا السلم إلى السطح الحجرى المستوى. وكانت الرؤية من فوقه واضحة إلى مسافة بعيدة، لكن لم يظهر أى شىء جذاب إلا معبد آخر قريب - يسمى "بيت الولادة"، وقد تم بناءه فى عهد الإمبراطور "أغسطس".

ويوجد حرم قدسى صغير على سطح معبد حتحور مخصص لأوزوريس، وكانت توجد على سقفه خريطة النجوم والأبراج السموية، التى قطعها "لى لورين". وبالمناسبة، لم يكن هو آخر من نهب المعبد فى دندرة. وتوجد سراديب ممتدة تحت المعبد، كانت تحفظ بها فى الماضى النفائس التى كان يجمعها الكهنة. وكانت بعض هذه الدهاليز مزينة بالرسوم البارزة. وسرق اللصوص أجزاء منها، مستغلين أنه كان نادرا ما تتم زيارة السراديب. وقد حدث ذلك فى عام ١٩٧٣. فقد اختفت أكثر من ١٢ لوحة. ويعتقد أنها موجودة فى المجموعات الخاصة بكل من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا.

وبيت الولادة - هو معبد مخصص لحورس، وهو يحكى القصة التى يعرفها القارئ، عن كيف أن أمه إيزيس حملت فى ابنها من زوجها أوزوريس، الذى قتل غدرا، وكيف انتقم حورس بعد ذلك لموت أبيه. ويحيط بمعبد حورس من الجانبين مجموعة من الأعمدة العالية الجميلة، بتيجان على قمتها على شكل زهور اللوتس المتفتحة. وتوجد فى داخله وخارجه مجموعة من الرسومات البارزة، بقيت فى حالة جيدة، تصور مختلف الآلهة والطقوس التقليدية بينها وبين الملك. وقد استخدم

بيت الولادة لفترة ما ككنيسة للمسيحيين. وقد شيدوا فيما بعد كاتدرائية بالقرب منه، بقيت منها أطلال فقط الآن.

وقد أهمل كل من معبد حتحور وبيت الولادة لمئات السنوات، وغطتهما الرمال إلى نصف ارتفاعهما تقريبا، إلى أن قامت حملة نابليون على مصر بنشر موضة مصر في كل أوروبا، فتم فتح دندرة من جديد. وتم تنظيف وترميم المعابد بعد ذلك بكثير، وأصبح يزورها السائحون، لكن أندر مما يزورون معابد مدينة الأقصر. على أية حال، كنا في ذلك الوقت الزوار الوحيدين، وكان يحرس المعبد عجوز طويل القامة، يلبس جلابية وكوفية يلف بها رأسه ورقبته. وكان يفتح الأبواب، ثم يقفلها خلفنا على طول حركتنا، حيث إنه لم يكن يوجد أحد غيرنا لخدمته. وقد التقطنا عدة صور معه عند معبد حتحور للذكرى، وكان شخصا متحمسا وكريما، كما أنه كانت عنده روح الدعابة. وكان ذلك واضحا من النبرة التي كان يعلق بها على بعض المشاهد المرسومة على الجدران.

وقد أنهى الحديث عن دندرة، متذكرا أنه في قديم الأزمان كان يحتفل بمرح هنا مرتين بعيد "اتحاد" حتحور وحورس. حيث يوجد في إدفو على بعد بضعة عشرات من الكيلومترات معبد عبادة حورس. وفي يوم عيد ميلاد كل من الزوجين – حورس وحتحور– كان يحتفل بإحضار تمثالي هذين الإلهين من معبديهما، ثم كانوا يحملونهما على مراكب مزينة، بصحبة عدد كبير من المراكب؛ لكي يقابلا بعضهما. وأصبح لقاء الإلهين على النيل إحدى اللحظات المثيرة في العيد. وكان يتم ربط المركبين الرئيسين ببعضهما بالحبال، ثم كانوا يتوجهون بالمركبين المربوطين ببعضها، يصاحبهما قافلة من المراكب والقوارب، إلى دندرة أو إلى إدفو– إلى حيث يوجد معبد الإله الذى كان يحتفل بعيد ميلاده. وكان يحتفل هناك بنقل تمثالي الإلهين إلى المعبد، حيث كانوا يتركونهما معا طوال الليل. ثم كان يتم توصيل الإلهين الضيفين إلى مكانهما عائدين عن طريق النيل. وكان المصريون المجتمعون على طول ضفتي النيل، يحيون الآلهة الرحالة محولين عملية قرانهما

إلى عيد لهم هم أيضا، وطبقا للرسومات البارزة، كان يجرى هذا الاحتفال بمشاركة فرعون.

وقررنا أن نزور إدفو، ولكن فى طريق العودة، فقد كان علينا الذهاب على عجل إلى مدينة "نجع حمادى" للقاء الخبراء السوفييت، وتمضية الليل بها.

هناك، حيث ينتجون الألومنيوم

كانت نجع حمادى مدينة صغيرة، يعيش فيها فقط بضعة آلاف نسمة، عندما بدأت فى الصحراء بالقرب منها عملية بناء مصنع كبير لإنتاج الألومنيوم. كما حدث فى أسوان، وكان ذلك مشروعًا سوفييتيًا - مصريًا مشتركًا مرتبطًا مباشرة بمحطة توليد الكهرباء الهيدروليكية بأسوان. وكانت كهرباء هذه المحطة وحدها تسمح لمصر ببدء إنتاج الألومنيوم - فهو معدن مهم جدا، لكنه يستهلك كمية كبيرة من الطاقة. وقد قمنا ببناء المصنع بنظام "تسليم مفتاح". وقد بدأ أول صف خلايا فى الإنتاج عام ١٩٧٥، أما آخر مبنيي خلايا - ففى عام ١٩٨٣ (يبلغ إجمالى عددها ١٠). وهو ما سمح للمصنع بأن يصل إلى حجم الإنتاج المخطط له - أى إنتاج ١٦٦ ألف طن ألومنيوم فى السنة. وتم بناء المصنع طبقا لأحدث تقنية، وأصبح بسرعة أحد أكثر شركات القطاع العام المصرية تحقيقا للأرباح. وتمت استعادة تكلفة بناء المصنع فى سنوات معدودة، وأصبح المصنع يحقق أرباحًا كبيرة بالعملة الصعبة؛ لأنه يتم تصدير حوالى ٦٠% من إنتاجه. وقد سددت مصر ثمن مصنع نجع حمادى بالكامل للاتحاد السوفييتى، بتوريد البضائع المختلفة، ومنها الألومنيوم.

وقد نمت المدينة الكاملة المرافق فى وجود المصنع، فضمت المحلات ودور العرض والأنشطة الأخرى. وعندما دخلنا المدينة، لم يكن من الممكن تصديق أن الرمال كانت تغطى هذا المكان من قبل، فقد كانت المدينة ببساطة غارقة فى الخضرة. فقد صنعت مياه النيل، التى تم توصيلها إلى هنا، وكذلك المياه الارتوازية

معجزات. كما كان معمار الفيللات الصغيرة البيضاء، التى عاش فيها مهندسو وفنيو الشركة وموظفو إدارتها، لطيفا. وكان للخبراء السوفييت، الذين استمروا فى المعاونة بتقديم الاستشارات، أيضا منزلا مماثلا. وقد وضعت إدارة الشركة تحت أمرنا فيللا الضيوف، التى جعلناها قاعدتنا لعدة أيام، حيث كنا نسافر من نجع حمادى إلى المدن القريبة فى وادى النيل.

وقد تحدثنا بموضوعية مع رئيس مجموعة خبرائنا "ى.م.أنوخين" ورفاقه. وكانوا يعرفون المصنع كأصابع يدهم الخمس، وكانوا ملمين تماما بالوضع فى المصنع، وبمشاكل إدارته. وكان هذا الحديث مفيدًا لنا جدا حيث إنه سبق أحاديثنا مع رئاسة المصنع. وكان يجب أن يتم فيها مناقشة المواضيع الروتينية (توريد قطع الغيار... إلخ) بالإضافة إلى موضوعين هامين للمستقبل- تنظيم إنتاج المسطحات فى المصنع (درفلة الألومنيوم على البارد وعلى الساخن) وكذلك معالجة خام النفيلين المصرى لتحويله إلى خام صالح لإنتاج الألومنيوم. وكانت مصر تستورد خام الألومنيوم من الخارج، لكن كان يمكن تقليص هذه التبعية الاستيرادية، وبذلك تم زيادة العائد من الإنتاج أكثر من ذلك. وكانت كلتا الحالتين تتطلب عمليات إنشاء ضخمة جديدة، ولذلك كان يجب أن يتم حسابها جيدا. وفى الوقت الحالى، كان من الواقعى فقط إمكانية مناقشة إعداد دراسة الجدوى الفنية والاقتصادية لهذين المشروعين. وكانت قد جرت مناقشة مبدئية لبعض الأفكار المتعلقة بذلك. لكن كان يجب مواصلة النقاش.

ثم ذهبنا فى صباح اليوم التالى إلى "قنا"، المدينة الرئيسية فى المحافظة، حيث كان محددًا لنا لقاء مع المحافظ. لذلك كان علينا أن ننتقل من ضفة النيل اليسرى (الغربية) إلى الضفة الشرقية، ثم العودة إلى نجع حمادى ثانية. وخصصنا النصف الأول من اليوم للعمل. أما النصف الثانى، فقد أمضيناه فى رحلة إلى الأقصر، حيث شاهدنا مرة أخرى معبدى الكرنك والأقصر، وهو ما سمح لنا بترتيب ما لانطباعاتنا عنهما من سنة مضت. وقد خصصنا المساء مرة أخرى

للعمل. وفى الساعة السابعة والنصف صباحا، انطلقنا من نجع حمادى إلى أسوان، حيث كان علينا لقاء محافظها فى الساعة ١٢.

أسوان - أبو سمبل - أسوان

قطعنا ٣٣٥ كيلومترا إلى أسوان دون راحة، حيث إن الطريق لم يكن مزدحما تماما. وقد قطعنا هذا الجزء من مسارنا عبر طريق جديد علينا، على الضفة اليمنى للنيل؛ حتى نصل مباشرة إلى المدينة.

ويناير هو وقت جمع محصول قصب السكر- أحد أهم المحاصيل الزراعية فى هذه المنطقة. لذلك قابلنا فى طريقنا جمالاً محملة بالقصب، بحيث إنه لم يكن يظهر منها إلا رأس وقدمى الحيوان الذى كان يمشى بخطوات هادئة، وكذلك حميرًا محملة تماما أيضا، وقوافل السيارات، حيث كانت تسحب سيارات النقل الصغيرة مجموعة من العربات محملة بعيدان القصب. وكان الفلاحون يحملون محصولهم لتسليمه لمصانع السكر. ويوجد أحدها فى نجع حمادى.

وأحيانا كنا نرى على طرف قرية منطقة مقابر خالية من أية أشجار أو نباتات، حيث إن أى مكان يمكن أن ينمو فيه نبات كان مشغولا بالمزروعات. وكانت فقط بعض شواهد القبور القصيرة تقف رأسيا، لكنها لم تكن فى صفوف، بل دون نظام. لذلك زاد إحساسنا بعدم الراحة فى هذه الأماكن الحزينة حتى بدون ذلك. كما أن الطريق عامة، عندما تغلب الرمال وحدها على ما يحيط به من الجانبين، مع بعض المجموعات الصغيرة من الصبارات المتربة التى تنمو على جانب الطريق، لا يمثل مشهدا جذابا. لذلك كانت تعتبر القرى الصغيرة، التى كان يعبرها الطريق أحيانا، متعة للعين، هى والناس الذين بها، والحمير والجمال وعربات الكارو. وعامة، فإن طرق مصر لا تغذى كثيرا انطباعات الأجنبى الذى على الطريق. وقد تعنى أكثر من ذلك كثيرا لأهل البلد.

في أسوان، وبعد لقاء آخر ممتع بمحافظها الذى كنا نعرفه، ذهبنا إلى محطة توليد القوى الهيدروليكية. وفى المساء، توجهنا إلى جزيرة فيلة، لمشاهدة عرض "الصوت والضوء" فى معبد إيزيس. وقد استمعنا مرة أخرى هناك إلى قصتها مع مصاعبها. وكان العرض أقل جاذبية من العرض عند أهرامات الجيزة العظيمة. لكنه كان يستحق المشاهدة. بل إنه قد زود معلوماتنا عن الآلهة المصرية القديمة، وعن علاقاتها مع بعضها ومع الناس. وأمضينا الليل فى بيت ضيافة المحافظة بدعوة من المحافظ.

وفى صباح اليوم التالى توجهنا، مع عائلة شمس التى حضرت إلينا، إلى الجنوب، إلى أبى سمبل، على بعد ٣٠٠ كم من أسوان. وقد حصل اسم هذه القرية العربية على شهرة واسعة جدا؛ بسبب المعبدين القديمين اللذين بناهما رمسيس الثانى على ضفة النيل اليسرى. وأصبحا الآن يحظيان بنفس شهرة معبدى الأقصر والكرنك، رغم أنهما أقل منهما كثيرا فى الحجم. لكنهما يتميزان بصفة فريدة خاصة بهما: فأولا، لم يتم بناء هذين المعبدين باستخدام أحجار مرصوصة، لكنها مقطوعة بأكملها فى جسم الجبل القريب جدا من شاطئ النيل. أما الجانب الثانى من تميزها، فيتمثل فى أنه رغم أن المعبدين محفوران فى جسم الجبل فإن ذلك لم يمنع من تغيير موقعها الأصلى؛ حيث إنها تقف الآن على ارتفاع أعلى ٦٠ مترا من السابق. فقد تم نقل المعبدين لحمايتهما من الغرق تحت مياه بحيرة ناصر. وقد استلزم ذلك تقطيع المعبدين إلى ١٥ ألف كتلة حجرية (وصل وزن بعضها إلى ٣٠ طنًا) ثم إعادة تركيب المعبدين فى مكان آخر، مع المحافظة تماما على شكلهما الخارجى والداخلى. وحتى لا يحدث أى ضرر للمعبدين اللذين كانا فى الماضى مغطيين من أعلى ومن الأجناب بصخور الجبل، فقد تم تغطيتهما بهيكل ضخم من الخرسانة المسلحة. ويبدو جزؤه العلوى كغطاء ضخم. لكن عند رؤية المعبدين من جهة البحيرة، لا يمكن ملاحظة وجود الغطاء. فيظهر المعبدان كما فى السابق، كما لو كانا منحوتين فى جسم الجبل. لكن البناة تركوا الغطاء عاريا عن قصد فى

الجانب الآخر؛ حتى يعطى السائحون من تمكنوا من نقل المعبدين إلى مكان آمن حق قدرهم. ويمكن أيضا لمن يريد أن ينظر تحت الغطاء؛ لمشاهدة كيف تم ترتيب كل ذلك (وهو ما فعلناه نحن أيضا).

والمعبدان جذابان أيضا؛ لأنهما حفظا بحالة جيدة جدا. فقد تم إخفاؤهما عن عين الإنسان طوال عدة قرون بكميات ضخمة من الرمال. وقد اعتنت بذلك الصحراء الليبية. ثم اكتشف المعبدين مرة أخرى السويسرى "بوركهاردت" فى عام ١٨١٣. فقد اكتشف وجود أطراف أغطية رأس تماثيل ما ظاهرة من تحت الرمال (وبالمناسبة، يمكن تماما مقارنة هذه التماثيل مع تماثيل ممنون الضخمة- حيث إن ارتفاعها ٢٠ مترا). وبذلك فقد غطت كومة من الرمال تماما واجهتى المعبدين. وفى القرن التاسع عشر، بدأت إزالة هذه الكومة تدريجيا. لكن تم تحرير المعبدين تماما من أسر الرمال لهما فقط فى القرن العشرين. فبدأت عندئذ شهرتهما ومجدهما كأثرين لحضارة ولتاريخ عظيمين، أولا، بفضل طبيعة هذين الإنشائين الدينيين غير العادية، والحالة الرائعة التى عليها الزخارف الداخلية (حيث إن الرمال قد حفظت الشكل الخارجى أيضا أحسن مما حدث لأى معبد آخر من معابد مصر القديمة). وأصبح الآن السائحون يذهبون إلى أبى سمبل أفواجا بعد أفواج؛ بفضل طريق رائع لكنه ممل - فأنت تسير فعليا فى الصحراء. لكن عندما تصل إلى أبى سمبل تعرف أن هناك ما يستحق المشاهدة.

ويمر الطريق من جانب أبى سمبل، ويتجه إلى الآثار من الجنوب. واجهتا المعبدين الأماميتان متجهتان إلى الشرق كما فى الماضى. وتوجد مساحة واسعة مستوية مغطاة بالرمال، عرضها حوالى١٥٠- ٢٠٠ متر، بين سلسلة الجبال والمعبدين المركبين بها وجزيرة ناصر. لذلك يمكن مشاهدة المعبدين بسهولة من على بعد: فى اليسار معبد رمسيس الثانى، وعلى يمينه على بعد قصير معبد مثيل له، لكنه يختلف من حيث شكله الخارجى. وهو لزوجته الحبيبة "نفرتارى"

لماذا احتاج رمسيس الثانى إلى إنشاء معبدين هنا بالذات، فى النوبة، على أقصى أطراف إمبراطوريته؟ فى وقت ما فى الماضى، كانت حدود مصر الجنوبية عند جندل النيل الأول (أى عند أسوان)، لكن فى عهد رمسيس الثانى، تحركت إلى الجندل الثانى(أبعد قليلا، جنوب أبى سمبل). على أية حال، فقد كان هذا المكان تقريبا غير مسكون. وما زال العلماء يخمنون حتى الآن، لكنهم يميلون إلى فكرة أنه بدلا من بناء قلعة بها حامية، فقد بنى رمسيس الثانى معبدين، بحيث أصبحا إنذارا مرعبا أكثر للقبائل المجاورة: لا تفكروا فى معاداة فرعون العظيم، فهو جبار ولا يقهر، وهو سوف يسحق من يتجرأ على الوقوف ضده، حيث إن هناك آلهة عظيمة فى جانب رمسيس الثانى، كما أنه هو أيضا إله يقبل مثل كل الآلهة الهدايا، ولا يطيق التحدى. وكانت هذه هى بالتقريب الأفكار التى كان يجب أن يوحى بها المعبدان والكهنة الذين يعملون بهما.

وعندما تتعرف على المعبد، تشعر بأن كل شىء مسخر لاستعراض قوة وعظمة فرعون. ولكورنيش المعبد نسب جيدة، وتذكر بالصرح بصفة عامة. وتوجد خرطوشة هذا الفرعون فوق المدخل. وتوجد أربعة تماثيل متماثلة، ارتفاعها ٢٠ مترا، جالسة على عرش رمسيس الثانى. وعند أقدامها كانت توجد تماثيل صغيرة لأعضاء عائلته الكبيرة. وكما كانت العادة فى تصوير الفراعنة، يظهر فرعون شابًا وجبارًا وثابت الجأش.

وعند الدخول إلى داخل المعبد، نجد أولا، قاعة طويلة بها ثمانى أعمدة مربعة، متصل بها تماثيل متشابهة لرمسيس الثانى ارتفاعها ١٢ مترا. ويوجد فرق وحيد بينها هو أن الأربعة تماثيل التى على اليسار تحمل على رأسها تاج مصر العليا، أما تلك التى على اليمين، فتحمل تاج مصر الدنيا. وفرعون يقف فى وضع أوزوريس، أى ويداه معقودتان على صدره، وممسكتان بصولجانات السلطة. والأوجه عبارة عن نسخ دقيقة لتلك التى فى واجهة المعبد، وهى تدل على تشابه

معين مع الأصل، أو على الأقل، مع الشكل الذى كان يريد أن يظهر عليه رمسيس الثانى (لقد حكم مصر لمدة ٦٧ عاما، وعاش لفترة طويلة).

وكل جدران وأعمدة القاعة الواسعة مغطاة من الأرض إلى السقف برسوم بارزة تصور فرعون وانتصاراته الحربية. وتظهر مشاهد كثيرة يقاتل فيها رمسيس الثانى، أو يقود مجموعة من الأسرى. وتم على أحد الجدران الشمالية، حيث يدور الحديث عن موقعة قادش (سوريا الآن)، رسم أكثر من ١١٠٠ شخص. ويمكن مشاهدة هذا الرسم المفصل لمدة طويلة. لكن هذا فقط هو أحد جدران القاعة.

وإذا كانت القاعة كما يمكن أن نقول هى قاعة "المجد الحربى"، فإن القاعة الثانية تحكى عن قرب رمسيس الثانى من مختلف الآلهة. ولا توجد بها تماثيل، بل فقط زخارف كبيرة من الرسوم البارزة. لكن توجد فى قدس الأقداس الموجود بعدها تماثيل مرة أخرى. وهنا يصل رمسيس الثانى إلى أعلى نقطة فى ألوهيته- فقد وضع فى قدس الأقداس أربعة تماثيل تمثل ثلاثة آلهة جالسة وهو نفسه. أجلس ملك الآلهة آمون - رع عند يده اليمنى، وعند يده اليسرى رع آخر (رع - حرحتى). أما الثالث، فكان أحد آلهة عالم الموتى "بتاح". كما توجد تفصيلة أخرى غريبة؛ فإنه قد تم تصميم قدس الأقداس، وكل ما فى داخله، من حيث الاتجاه والارتفاع، بحيث يسقط أول ضوء للشمس أثناء شروقها على عين تمثال فرعون فى المعبد، فى يوم عيد ميلاد رمسيس الثانى، فكانت تضىء الأحجار الكريمة التى كانت موضوعة بها. والآن، وبعد أن تم نقل المعبد إلى أعلى لم يصبح التأثير هو نفسه. لكن على أية حال، فإن ذلك يدل على ذكاء قدماء المصريين، وعلى قدرتهم على عمل حسابات دقيقة! حيث إن عمق المعبد ليس قليلا، فهو يمثل ٦٣ مترا كاملة. حقيقة، يوجد فى أبى سمبل ما يدعو إلى التعجب. ولم تتزايد شهرة هذا المكان من قبيل الصدفة.

أما معبد نفرتارى المجاور، فهو أبسط وأصغر من حيث العمق. ولقد أدهشنى، قبل أى شىء، أن زوجة فرعون الرئيسية، فى تلك المعابد التى شاهدناها،

كانت إذا تم تصويرها، يكون ذلك بشكل متواضع جدا. فكان يوضع تمثالها عادة بين قدمى فرعون أو بجانب قدمه. وفى كلتا الحالتين، كان لا يزيد ارتفاعها عن ارتفاع ركبة زوجها. أما هنا، فقد تم بناء معبد كامل للملكة، وقد تم تمثيلها هنا تقريبا مساوية لزوجها رغم وجود فرق بسيط. وتوجد ستة تماثيل عملاقة واقفة فى كوات كرانيش المعبد: أربعة منها لرمسيس الثانى، واثنان فقط لنفرتارى. ويعتقد أن رمسيس الثانى قد شيد معبد نفرتارى فى مكان معبد قديم كان لحتحور (حيث إنها كانت تبجل فى النوبة). وقد يكون هذا هو سبب إعطاء المعبد هدفًا مزدوجًا - تمجيد كل من حتحور ونفرتارى. فتظهران معا فى الرسوم البارزة. لكن يجب أن أشير إلى أن رمسيس الثانى يمثل نفسه فى داخل هذا المعبد أيضا بكرم شديد: فرسوماته الشخصية مساوية لرسومات نفرتارى، إن لم تزد عنها. عامة، فإن المعبدين جيدان، لكن الأول مشوق أكثر من حيث محتوياته.

وقد أمضينا ثلاث ساعات فى أبى سمبل فى مشاهدة المعبدين (لا يوجد هناك شىء آخر يمكن مشاهدته، إلا ماء الخزان الكبير وهو يضوى فى الشمس)، ثم تحركنا عائدين. وخصصنا كل اليوم التالى لرحلات فى منطقة أسوان. وكان فندقنا فى جزيرة فيلة (الفنتاين) الصغيرة (طولها ٢.٥ كيلومتر)، التى سكنها قدماء المصريين منذ قبل التاريخ. وقد بقيت فيها أطلال بعض المعابد. فتجولنا فيها، وذهبنا إلى الجزيرة المجاورة "العطرون"، التى يوجد بها حديقة نباتات مثيرة، بها أكثر من ١٠٠ نوع من أشجار النخيل، كما استقللنا مركبًا بخاريًا صغيرًا تجولنا به حول جزر جميلة أخرى فى النيل. وبذلك انتهت زيارتنا لأسوان.

فى قصور الآلهة التى مثلت برؤوس

تمساح وصقر وحمل

ودعنا عائلة شمس فى صباح اليوم التالى، وتحركنا عائدين فى اتجاه الشمال. وكان برنامج اليوم يضم زيارة مدن: كوم أمبو، وإدفو، وإسنا؛ لمشاهدة

المعابد التى حفظت بها. وبعد ذلك كانت مخططة لنا مقابلة عمل. ورغم أن المسافة بين أسوان وكوم أمبو لا تزيد عن ٥٠ كيلومترا، فإننا قطعناها فى زمن طويل، وكان ما عطلنا هى قوافل السيارات، والجمال المحملة بعيدان قصب السكر الممتدة فى كل الاتجاهات، التى كانت تسير فى نفس هذا الاتجاه. وكان تخطيهم صعبا على هذا الطريق الضيق. واتضح أنه يوجد مصنع كبير للسكر فى كوم أمبو. وقد كان المعبد الذى كنا نتجه إليه موجودا على تل تقريبا بجانب النيل. وفى البداية، أصبنا بخيبة أمل، حيث وجدنا أن المعبد نصف مهدم، رغم أنه كان شابا نسبيا، طبقا للمقاييس المصرية، فقد بناه البطالسة، وأكمله الأباطرة الرومان. لكن لسبب ما كان القدر قاسيا عليه أكثر مما كان مع معبد دندرة ومعبد جزيرة فيلة، التى شيدت تقريبا فى نفس الفترة. لكن على أية حال، كان يستحق الأمر مشاهدته.

وأحسن حالة حفظ بها إلى يومنا ما تبقى من المعبد، الذى تبين لنا أنه تم بناءه على مدى ٤٠٠ عام، كانت حالة قاعة بها عشرة أعمدة عالية، تيجانها غنية بزخارف زهور اللوتس وأوراق النخيل. وقد حفظ أيضا السقف المزخرف بالرموز الفلكية وتماثيل الآلهة. لكن أثمن ما فى المعبد هو الرسوم البارزة الكثيرة المزينة لما بقى من الجدران الداخلية والخارجية والأجزاء الأخرى للمعبد. فقمنا بمشاهدتها.

ويتميز معبد كوم أمبو بأن نصفه الأيمن مخصص للإله "سوبك" المصور وله رأس تمساح، أما النصف الأيسر فللإله "حورس" الذى تم تصويره برأس صقر. وبالطبع، كان لكل من الإلهين معبده، ومداخله، وردهات الطقوس... إلخ. وكان كل شيء داخل المعبد متماثلا. وقد قيل لنا إنه لا يوجد معبد آخر فى مصر مماثل.

كان سوبك إله محلى، كما أن كلمة "أمبو" اسم من أسماء التمساح المقدس. وكان النيل فى الماضى مليئا بالتماسيح، وكان هذا المكان من النيل ينحرف قليلا، وكان مناسبا لسكنها. وقد أدخلونا فى بدروم المعبد إلى حجرة كانت تحفظ فيها

موميات التماسيح المقدسة. وخيل لى أنه كانت بها عشرات. كما كانت بعضها ملفوفة بنسيج كان المصريون يلفون الموميات البشرية، وغيرها بدونه. وليس منظر التماسيح ممتعا، لذلك لم نبق طويلا فى هذه المقبرة، خاصة أنه كانت بها رائحة خاصة جدا.

أما باقى المعبد فهو كأى معبد. على الجدران، رسوم بارزة تبين البطالسة والأباطرة الرومان فى ملابس فرعونية، وهم يتعاملون مع الآلهة – فى بعض الحالات سيبك كان يلعب الدور الرئيسى، وفى الحالات الأخرى كان حورس هو الرئيسى، وأحيانا كانا معا. وكان يوجد فى الرسومات صور الفراعنة وهى تحيى الآلهة الأخرى: إيزيس، حتحور، بتاح، وغيرها. وقد جاء فى الكتابات ذكر كل من بطليموس السادس، والتاسع، والثانى عشر، والأباطرة: تروپان، وتيبيرياس، ودومنيتسيان. كما لم تخل الرسومات من مشاهد تأديب الحاكم للقبائل المتمردة– أسد يقضم عظام يد. ولم تلفت نظرنا الرسومات المصورة للمعارك الحربية، وربما لم تكن موجودة هناك. لكن رأينا رسم أدوات طبية كانت مستخدمة فى ذلك الوقت. نظرت إليها ناتاشا بتمعن (كانت ناتاشا طبيبة)، ثم قالت إنها تشبه تماما الأدوات الحديثة، بل إن بعضها مماثل تماما.

وللأسف، لم نستطع البقاء طويلا فى كوم أمبو، فقد كان علينا مواصلة التحرك. والمسافة بين كوم أمبو وإدفو ستون كيلومترا، لكن المدينتين تقفان على ضفتين مختلفتين للنيل، لذلك كان علينا أن نعبر النيل على أول كوبرى من الضفة اليمنى إلى اليسرى. وقد تهنا بعض الشيء فى شوارع إدفو المزدحمة، ثم وجدنا فى النهاية المكان المحدد لاستقبالنا. وكان عبارة عن استراحة للضيوف لشركة مصرية حكومية، حيث إنها ملك مصنع الفيروسليكون بإدفو. وهو أحد مشاريع التعاون السوفييتي – المصرى. وكانت المعدات المستخدمة فيه سوفييتية الصنع، كما كان يعمل به عدد من خبرائنا. وكان من المخطط أن نتحدث معهم ومع رؤساء المصنع. وقد بدأ اللقاء فى الموعد المحدد، لكن أقنعنا أصحاب المكان المضيافون

بتغيير برنامجنا، وبالبقاء فى إدفو إلى اليوم التالى؛ لكى نتمكن من مناقشة كل شىء على مهل فى المساء، أما الجزء المنير من اليوم، فنقوم فيه بمشاهدة المدينة وأهم معالم المدينة- معبد حورس.

وكما قيل لنا فإن هذا المعبد من أكثر المعابد فى مصر التى احتفظت بحالتها. ولم يكن معروفا لماذا؟ حيث إنه يقع فى أكثر الأماكن المزدحمة، كما أن السكان المحليين استخدموه كسكن لهم فى عهد المسيحية، ثم ككنيسة ودير. ثم قاموا، على مدى عدة قرون، ببناء منازلهم الطينية على أرضه مباشرة. ولزم الأمر أن يتم إخراج المعبد من الرمال، وتحريره من طبقات التربة والرمال، التى تراكمت عليه (يبدو المعبد فى الصور الراجعة إلى عام ١٨٣٩، مغطى بالرمال تقريبا حتى تيجان الأعمدة).

وقد تم بناء معبد حورس فى عهد البطالسة. وقد بدأ البناء بطليموس الثالث فى عام ٢٣٧ قبل الميلاد، وأنهاه بطليموس الثانى عشر فى عام ٥٧ قبل الميلاد، وقد مثل نفسه على الصرح الأمامى بالأسلوب الفرعونى التقليدى: يقف أمام "حورس" و"حتحور" الحاميين له، ممسكا بشعر بعض الأعداء، وهاويا عليهم بهراوة.

وعندما عبرنا بوابة النخاس، لم أصدق عينى فى البداية، فقد كانت تقف أمامنا فى نهاية الساحة واجهة المعبد، كما رأيناها فى دندرة من قبل. وقد لاحظت الفرق فقط بعد تدقيق النظر. ففى دندرة كانت الأعمدة الستة للرواق تنتهى برأس الإلهة حتحور، أما هنا فبتيجان مزخرفة أساسا بزهور وأوراق شجر. وعامة، كانت الواجهتان مثل توأمين. وقد يكون تم تنفيذ ذلك عن قصد للتأكيد على العلاقة الوثيقة بين المعبدين، حيث إنهما كانا مبنيين لزوجين، هما "حتحور" و"حورس"، حتى أنهما كانا يزوران بعضهما البعض فى هذين المعبدين فى أعياد "الاتحاد"، كما سبق أن شرحت.

وبالفعل، احتفظ معبد حورس بشكله العام أحسن من باقى المعابد الدينية المصرية القديمة. فقد جفظت به كل عناصر المعبد بلا استثناء: البيلون المرتفع إلى ٣٧ مترا، والجدران الخارجية المرتفعة، التى كان يظهر بسببها البناء كأنه حصن، والساحة الأمامية المزخرفة بصفين من الأعمدة، ثم فى النهاية، المعبد نفسه الذى سلمت كل جدرانه وأعمدته وأسقفه وفواصله وسلالمه ورسوماته البارزة الرائعة: فهى موجودة فى كل مكان، فى الداخل، وفى خارج المعبد، وحتى على جانبى الجدران الخارجية، التى تحيط بكل هذا المكان الدينى وبالصرح.

والتقسيم الداخلى فى المعبد مماثل لما فى معبد دندرة، أى قاعتا أعمدة، وبهوان، وقدس الأقداس محاط من كل الأجناب بحجرات صغيرة لحفظ المستلزمات الدينية. لكن لا تنطبق بعض تفاصيل التخطيط والتنفيذ، وهو بالطبع يمكن تبريره؛ فإن الآلهة المختلفة لها معابد مختلفة عن بعضها بعض الشىء. فإذا كانت حتحور تنظر إلينا من أعلى أعمدة الكرنيش، ففى إدفو يوجد على الأرض أمام المعبد صقر ارتفاعه أربعة أمتار، مصنوع من الجرانيت، وعلى رأسه تاج مصر (وفى الحقيقة، يقال إنه فى الماضى كان يوجد تمثالان متماثلان مثله، وإنهما كانا واقفين معا أمام الصرح).

وقد بقينا طويلا فى المعبد، ثم تجولنا حوله لفترة طويلة لمشاهدة رسوماته. وكانت الكثير من مواضيعها مألوفة لنا؛ فقد سبق أن رأيناها فى دندرة، وهى تلك التى تتحدث عن عيد "الاتحاد"، وعن الطقوس التى كانت تقام من أجل ذلك، وعمن كان يشارك فيها، ومن كان يسير خلف من... إلخ. وكانت توجد كثير من المشاهد للآلهة والفراعنة. فهنا على سبيل المثال، بطليموس الثالث بصحبة ٢٤ من الكهنة يشعل البخور أمام الإلهة إيزيس. وهنا بطليموس التاسع يقدم الهدايا لحورس وحتحور. وفى مكان آخر، بطليموس الرابع يضع علامات بالعجل على الأرض التى سوف يتم عليها بناء المعبد. وهناك طقوس "تطهير" أحد الفراعنة، قبل دخوله معبد حورس... إلخ. ولا يمكن إحصاء عدد الرسومات، كما أن فهمها صعب. فقد

مثلا رجلا يجلس على ظهر سيد قشطة، وفى يده رمح. فاعتقدت أن هذا مشهد لعملية صيد. لكن تبين أن هذا هو حورس يستعد لأن يأخذ ثأره من قاتل أبيه أوزوريس - إله قوى الشر "ست" . وقد اضطر أولا، أن يتحول إلى سيد قشطة للثأر من ست. وتوجد مثل هذه الألغاز تقريبا فى كل خطوة. أو ها هو رسم كبير يبين رجلاً عاريا عضوه منتصب تماما. وتبين أنه كانت تتم بهذه الوسيلة الغريبة التعبير عن شكل إله الخصوبة. وعلى أية حال، يمكن فهم ذلك أكثر من تمثيل إلهة الحب والمرح والسرور على هيئة بقرة، أو امرأة بأذنى بقرة، أو قرون بقرة. ويمكن فقط للخبراء أن يفهموا صعوبات الأساطير المصرية الدينية. لكن بالنسبة لهم أيضا بقي الكثير غامضا. ولكن على أية حال، فقد استحق الأمر الشغف بمشاهدة الرسوم فإن الكثير منها ممتع. وقد أمضينا عدة ساعات فى معبد حورس، وتجولنا قليلا فى المدينة، ثم عدنا إلى مقر إقامتنا المؤقت، حيث تحدثنا مع رئاسة مصنع الفيروسليكون.

وتحركنا مرة أخرى فى الصباح إلى الطريق. وكانت مدينة إسنا فى منتصف الطريق إلى الأقصر، حيث كان يوجد معبد من العهد المتأخر للبطالسة والرومان. لم نكن نرغب فى تفويته. لذلك عرجنا على إسنا. وكان المعبد للإله "خنوم" الذى سبق أن شاهدنا رسمه فى معبد حتشبسوت، وفى أماكن أخرى: إنه أحد الآلهة الذين حظوا بشعبية فى مصر العليا. وعرفت عبادته منذ عهد الدولة القديمة، كما يفرض أنه لم يفقد أهميته بعد ذلك، بما أن البطالسة قرروا بناء معبد جديد مكان المعبد المهدم. وللأسف، فلم يبق إلى زمننا منه إلا الواجهة فقط، وقاعة أعمدته الأولى، وكذلك بيلون، وجزء من الجدران الخارجية فى حالة سيئة جدا. أما كل بقيته فقد تهدم، وامتصته مبانى المدينة.

إسنا مدينة قديمة جدا، ويمكن الاحتذاء بها لفهم كم هى كبيرة طبقة التربة المتراكمة. ويعتقد أن معبد إسنا كان فى الماضى يقع على الأقل فى مستوى واحد مع مبانى المدينة، أما الآن، فهو كأنه فى منخفض، ويجب النزول له على درج.

وقد تبين أن واجهة معبد إسنا نسخة دقيقة من معبد حورس بإدفو، وكما سبق أن قلت فإن الأخير يشبه تماما معبد حتحور بدندرة. ويبدو أنه قد ساد فى عهد البطالسة نموذج موحد لبناء المعابد. وكانت الآلهة مختلفة، لكن بنيت معابدها تقريبا متشابهة تماما. ويمكن الآن فهم لأى إله يؤول كل معبد منها؟ حسب الإله الأكثر تكرارا منها فى رسومات المعبد، أو من الكتابات الهيروغليفية الموجودة (لكن القليلين فقط يمكنهم فهم الكتابات الهيروغليفية).

وكان يمثل خنوم على هيئة إنسان برأس كبش، وعادة خلف قرص تشكيل الفخار. وكانت الأساطير المصرية القديمة قد أعطته دور خالق المخلوقات الإنسانية - فقد كان يشكلها من الطين على قرص كما تشكل الأوانى.

ولم نبقى طويلا فى معبد إسنا، لأننا اقتنعنا بأننا لن نرى شيئا أساسيا جديدا، وكانت توجد على سقف قاعة الأعمدة رسوم فلكية مماثلة لما رأيناه فى دندرة وإدفو، كما كانت تبين الرسوم البارزة البطالسة والأباطرة وهم يتعاملون مع خنوم، ومع الآلهة الأخرى. وقد بقى رسم واحد فى ذاكرتى كرسم غريب وممتع، حيث كان الإمبراطور الرومانى يسحب مع خنوم شبكة من النيل، وكان مشبوكا فيها بجانب مختلف الأسماك أجسام رجال لا حول ولا قوة لهم يطلبون الرحمة، يمثلون أعداء الإمبراطور. وكالعادة، كان فرعون الجبار على الصرح يستعد لتهشيم رؤوس الأعداء البشعين. باختصار، كان كل شىء فى معبد خنوم تقليديا تماما، عدا مجموعة من الخراطيش تحمل أسماء الأباطرة الرومان. فهنا كل من: كلاوديوس، وفسباسيان، ودوميتسيان، وترويان، وهادريان، ومارك أوريلوس، وسنتيموس سيفر، وقراقالا - وهو دليل واضح على أهمية مصر للرومان كمخزن حبوب رئيسى للإمبراطورية، وعلى رغبتهم فى أن ينالوا شعبية بين المصريين. لذلك فقد بنى الرومان المعابد ليس على شرف آلهتهم، لكن على شرف الآلهة المصرية.

الأقصر التى لا تنضب

بعد إسنا، انتقلنا إلى الضفة اليمنى لنهر النيل، ووصلنا بسرعة إلى الأقصر. فاستأجرنا هناك غرفتين بمنتجع سياحى مريح اسمه "جولى فيل"، وذهبنا بسرعة إلى البر الأيسر- إلى مدينة الموتى - لاستكمال زيارة ما لم نلحق مشاهدته فى السنة السابقة. بالمناسبة، قيلت كلمة "استكمال" ليس فى موضعها. ففى الحقيقة يمكن فى البر الأيسر للأقصر مواصلة المشاهدة، وليس استكمال مشاهدة كل شىء. بالطبع، لقد زودنا حصالة انطباعاتنا عن هذا المخزن للآثار القديمة بالقدر الممكن فى الوقت المتبقى إلى موعد إغلاق المكان فى الساعة الرابعة والنصف.

وقد بدأنا بوادى الملكات. وشامبوليون هو من أطلق هذا الاسم على هذا الجزء من المدافن، كما أطلق اسم وادى الملوك أيضا، لكن هذا الاسم مناسب جزئيا فقط. فهنا فعلا توجد مقابر بعض ملكات الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، لكنها أقل كثيرًا من عدد مقابر أبناء الفراعنة من الأمراء والأميرات، وكذلك من ذوى المكانة الرفيعة. وقد ذهبنا إلى هذا الوادى أساسا آملين التمكن من زيارة مقبرة "نفرتارى". التى اكتشفت فى بداية القرن العشرين، وحظت بشهرة واسعة كأجمل مقبرة فى جبانة الأقصر كلها. وكثيرا ما يمكن رؤية رسومات منقولة من على جدران هذه المقبرة بالذاتْ على أوراق البردى والأطباق والصوانى التذكارية. وتعطيها حقها من الاهتمام مختلف الدوريات شبه العلمية عن الآثار المصرية القديمة. لكن للأسف تبين أن مقبرة نفرتارى كانت مغلقة، كما فى العام السابق. فقد كانت تتم بها أعمال ترميم، أو كانت تجهز لها فقط. وعرفت فيما بعد أنه تم فتحها مرة أخرى للزيارة، فقط بعد عشر سنوات.

واضطررنا أن نكتفى بزيارة مقبرتي ملكتين أخرتين- "تيتى"، وواحدة أخرى لم يتمكن العلماء من تحديد اسمها. وكانت تحفر للملكات أيضا سراديب فى الصخور، لكنها ليست بنفس طول سراديب الفراعنة، وبعدد أقل من الحجرات. كما أننا لم نر فيها ما يسمى بالألبيار الطقوسية. باختصار، كان كل شىء أبسط كثيرا

وأكثر تواضعا. وهذا يتعلق أيضا بالزخرفة، حيث إنها عن المواضيع الدينية فقط كما عند الفراعنة. وزرنا أيضا مقبرتى أميرين من أبناء رمسيس الثانى. كان كلاهما قد مات وهو صغير. لذلك فقد تم تصويرهم على الجدران فى كثير من الحالات مع أبيهم وهو يقدمهم إلى أحد الآلهة، ثم لآخر من آلهة عالم الموتى. أما فى مقابر الفراعنة، فقد كان يقوم بعملية التقديم هذه واحد من مرافقى الميت إلى ملك الآلهة – عادة أنوبيس أو حورس. أما هنا، ففرعون نفسه قام بدور الإله – هنا أيضا بين بوضوح الشكل الذى كان يريد أن يراه عليه الكهنة وأتباعه.

ثم ذهبنا بالسيارات من وادى الملكات القريب إلى سفح سلسلة الجبال، حيث كانت توجد مجموعة كبيرة من مدافن النبلاء بطيبة على منحدراتها، بين وادى الملوك ووادى الملكات، تعرف بالأسماء العربية المطلقة حاليا على أماكن المدافن القديمة. وتلك التى زرناها كانت تسمى "شيخ عبد القرنة". وقد كان يحصى عدد مقابر علية القوم بها، وفى مدافن الضفة الغربية الأخرى، بالمئات، وكانت حوالى ١٢ منها فقط مفتوحة للسائحين. وغالبيتها فى قرية "شيخ عبد القرنة".

وإذا كنا قد غادرنا وادى الملكات بشىء من الإحساس بخيبة الأمل، فقد تم تعويض ذلك تماما بالانطباعات عن القرية المشار إليها. وبالطبع، من الغريب بعض الشىء رؤية منازل من طابق واحد أو طابقين موزعة فى المنطقة، مختلطة بمداخل المقابر. لكن هذا غالبا لا يثير المصريين أيضا أكثر مما يثير الموسكوفيين المقيمين فى أحياء مشيدة مكان مقابر تم تدميرها. وقد قرأت أن المصريين استخدموا الكثير من هذه المقابر منذ عدة قرون؛ لتكون بدرومات لتخزين المؤن، أو كحظائر للماشية. وقد تمكن القليل فقط من زخارف ورسوم هذه المقابر من البقاء. ويمكن أن يكون هذا تفسير سبب السماح فقط بدخول عدد محدود من المقابر العديدة لنبلاء طيبة. وقد قمنا بزيارة ست أو سبع منها. ولم يكفى الوقت لزيارة عدد أكبر من ذلك.

وكانت كلها لشخصيات من النبلاء فى عهد الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، أى مقابر عمرها ثلاث آلاف وخمسمائة سنة أو أقل قليلا. ولا يوجد بداخلها أى شيء إلا الزخارف، وكان ذلك كافيا للبقاء طويلا فى كل مقبرة؛ لمشاهدة الرسومات. وكان ذلك يستحق. لكن لنتحدث فى البداية عن داخل مقابر كبار الشخصيات. فإذا كان الفراعنة قد سمحوا لنفسهم ببناء معابد جنائزية فى السهول، بالإضافة إلى مقابرهم فى الجبال، فإن علية القوم كانوا يقيمون كلاً منها فى مكان واحد، كما كان يتم فى الماضى، عندما كانت تبنى المصاطب.

وتظهر المقبرة النمطية لشخصية من علية القوم كما يلى: كان يتم قطع جزء من الجبل، ويسوى، ويحول إلى ساحة أمامية، ثم كان يتم حفر بهو مستطيل، ودهليز عامودى عليه، يمثل قدس الأقداس، وكانت توجد فى نهايته كوة يوضع فيها تمثال صاحب المقبرة. أما غرفة الدفن نفسها، فكانت عادة تكون موجودة على مستوى أكثر انخفاضا، وكانت تصل إليها بئر من المقبرة كان يردم بعد ذلك. وفعليا، كانت هذه هى نفس المصطبة المعروفة، لكنها كانت موجودة داخل المنحدر الجبلى. وكما فى المصطبة، كان يستخدم البهو كغرفة جنائزية، ويفترض أنه كان يحضر إليها بصفة دورية أقارب الميت ومعهم هدايا رمزية له. وكان يزين البهو وقدس الأقداس بكثير من الرسومات الجميلة على طبقة محارة الجدار، لكن أحيانا برسومات محفورة على الحجر. وكانت أبعاد الحجرات تتوقف على مكانة صاحب المقبرة وقدراته وذوقه.

ما هو المثير فى هذه المدافن؟ تتميز هذه المقابر عن المقابر الملكية بأنه إذا كانت الزخارف تحمل فقط سمة دينية فى حالة المقابر الملكية، فإن مدافن علية القوم كانت تعكس على جدرانها الحياة اليومية لأصحابها، وبصفة عامة، سير الحياة اليومية لقدماء المصريين – أعمالهم، كيف كانوا يستريحون، ويرفهون عن أنفسهم، وكذلك بعض عاداتهم. وغالبا كان أصحاب المقابر يرغبون فى أن يسجلوا ما كان غاليا عليهم، وما كان يمثل أساس حياتهم الخاصة. كما أنهم كانوا مؤمنين

بالعودة إلى حياة الأحياء، وكانوا راغبين فى العودة إلى وضع جيد ومألوف لهم ولطيف، مثلما كانت تسجله ريشة الرسام وآلة نحت النحات بناء على أوامرهم. وكانت هذه الرسومات من الحياة تذكر الأقارب والأصدقاء بالميت، وبأعماله وإنجازاته، وبتعاملاته معهم. وكانت الرسومات ترتب فى عدة صفوف (أربعة، أو خمسة، أو أكثر) فوق بعضها؛ لكى يتم التعبير عن قدر أكبر، وفى كثير من الحالات فى ترتيب دورى.

وكان هناك نظام ثابت دقيق لتصوير الأسرة. فها هما الزوجان جالسان إلى مائدة بمنزلهما، على سبيل المثال. وها هما يجلسان فى الحديقة، ويحضر لهما الخدم مختلف المأكولات. وهنا يحضر ابنهما زهورًا لوالده. وها هما صاحبا البيت وأبناؤهم مع ضيوف. وهنا يرفه عنهم الموسيقيون والمغنيون والبهلوانات... إلخ.

وكان يوجه اهتمام كبير لعمل صاحب المقبرة، وبصفة خاصة إلى الكيفية التى كان يدير بها ممتلكاته، وكيف كان يتابع العمال الزراعيين، وكيف كان يلاحظ الماشية، ويستمع إلى تقرير المدير، وكيف كان يراقب وزن المؤن. وكان يظهر نشاطه الوظيفى، طبقا لوظيفة صاحب المقبرة، وكانت اثنتان من المقابر التى زرناها "لوزيرين"، ويمكن أن نقول عنهما الآن "رئيسى وزراء"، وكان معبرًا بها عن المشاهد التالية: يقوم الوزير بمحاكمة المتهربين من دفع الضرائب. يستقبل الوزير السفراء الأجانب. يتلقى الوزير الإتاوات من الحكام الأجانب- تبين كيف يحملون أنياب الفيلة، ويقودون الزرافات والقرود، ويحملون جلود الحيوانات والآنية والعلب المزينة، وكيف يتم وزن الذهب، وكيف يقدم الوزير تقريرا لفرعون ويحصل منه على مكافأة. وكيف يقدم الوزير الزهور لفرعون... إلخ. وتوجد مواضيع خاصة بوظائف كتاب الملك ونظاره فى مقابرهم، لكنها كانت أيضا تبرز أهمية مركز الميت.

وبينت فى بعض المقابر بالتفصيل دورة الأعمال الزراعية: فها هم الفلاحون يحرثون الأرض بواسطة محراث وثيران، وهنا يتم بذر الحبوب، وهنا يتم جمعها،

ويتم درسها هنا، ثم فصل البذور برميها إلى أعلى بالجاروف، ثم توضع فى سلال ويتم وزنها. وهنا يحفرون قناة لتوصيل الماء إلى حقل. أو مبين كيف يجمع العنب، وكيف يعصر عدة أشخاص العنب بأرجلهم فى خابية كبيرة، وبجانبهم آنية فخارية ستملأ بالعصير.

ومجموعة الرسوم التى فى مقبرة رئيس أعمال معبد الكرنك مثيرة. فهى تبين كيف كان يراقب أعمال مختلف الحرفيين، ومن خلالها نشاهد مرحلة تجهيز قوالب الطوب اللبن، وعمل صناع الفخار، والنجارين، وصناع الجلود، وصناع المصنوعات الذهبية، وكيف ينحت المثالون التماثيل الكبيرة، وكيف يخلط البنائون مخلوط المحارة... إلخ.

وقد أضاف هنا الرسامون بعض التفاصيل الحياتية. فعلى سبيل المثال، عرضهم لعمل الفلاحين فى الأرض، وكيف أن منهم من يروى عطشه من قربة معلقة على شجرة، أو كيف انحنى بحار من على سطح مركب وغرف الماء من النيل، أو كيف تساعد فتاة صديقتها فى إخراج شوكة من رجلها. وهذه المشاهد تكسب الموضوعات المرسومة صفة أكثر إنسانية ودفء.

كما توجد أيضا الكثير من صور الحياة اليومية العادية: خادمات يساعدن سيدتهم على ارتداء الحلى الثمينة، ويقمن بتسريحها، ويضعن باقة من الزهور، ويقدمن للضيوف طعامًا وشرابًا. كما توجد عدة مناظر لموسيقيين. ومنهم أحد العازفين يلعب على قيثار لمجموعة من السيدات الجالسات على بساط، وهن فى أثناء ذلك يتهامسن. وبجانب القيثار، رسمت آلات الفلاوت والناى والدفوف. كما توجد مناظر لطهو الطعام. وقد بقى المنظر التالى فى ذاكرتى: رسمت شبكة كبيرة مليئة بأنواع مختلفة من الطيور، ثم يبين المنظر التالى نتف ريشها، ثم إخراج أحشائها، وفى النهاية، نرى أجسام طيور معلقة تنتظر دورها لدخول الفرن أو سيخ.

والمواضيع المتكررة كثيرا هى مناظر صيد الحيوانات وصيد الأسماك، التى يبدو أنها أحب هوايات الرجال. فعلى سبيل المثال، يطلق صاحب المقبرة سهمًا من قوس على غزلان، وهو على عربة منطلقة. كما كان أيضا يتم صيد الأرانب البرية، وكذلك أيضا الضباع (يبدو أنه كان يتم إطلاق الأسهم على الأخيرة فقط لقتلها). كما كان يتم صيد البط والطيور الأخرى فى أماكن نمو البردى بدلتا النيل، كما نشاهد ذلك فى بعض الرسومات. أما الأسماك، فكان يتم صيدها بالشباك أو بالرماح، وهذا يدل على أن النيل كان مليئا بها. فعلى سبيل المثال، تبين الرسومات أن الرمح قد اخترق سمكتين كبيرتين مرة واحدة. ويجب الإشارة إلى اجتهاد الصيادين دائما للتفاخر بنجاحاتهم.

باختصار، وقياسا على الشكل الذى كان يجهز به النبلاء مقابرهم، يمكن أن نقول إنهم كانوا يحبون خير الأرض. وتحكى عن ذلك بعض الكتابات فى المقابر، وسوف أركز على اثنتين منها، وأقدم ترجمتها اعتمادا على كتاب دليل السفر فى مصر، الذى كانت تصدره سفارتنا بنفسها للخبراء السوفييت فى تلك الأيام، عندما كان يعمل مئات كثيرة منهم هناك. كانت الكتابة الأولى تقول: "كل واشرب وامرح، فإنك غدا سوف تذهب إلى أرض الهدوء الجميل، حيث لا يوجد شىء من هذا". أما الكتابة الثانية، فقالت: "أجبرهم على الغناء وعلى الرقص أمامك، وانسى الهموم وفكر فى المرح، إلى أن تضطر للذهاب إلى الأرض، إلى هذا الهدوء الرائع".

وبالطبع، فإن المواضيع الدينية هى الأخرى كانت موجودة على جدران مقابر النبلاء، من نصوص صلوات كان لا يمكن دونها تخطى محكمة أوزوريس بسلام، عندما كان يزن روح الميت، ويحدد مصيرها المستقبلى. لذلك كانت من عناصر مقابر كبار القوم الأساسية رسومات حج الميت إلى معبد أبيدوس، حيث تقول الأسطورة إن أوزوريس مدفون به. كما أن رسومات أوزوريس، وبعض الآلهة الأخرى بمملكته تحت الأرض، تنتمى أيضا إلى تلك الفئة، وكذلك المسارات الدينية التى يمر عليها الميت قبل دفنه. وما جعلنى أفكر بعض الشىء هو أنه كان

يتم بناء مقابر النبلاء وتزينها فى حياة أصحابها، لكن كان من المواضيع الضرورية بها - عرض عملية الدفن نفسها، كما لو كانت قد تمت قبل ذلك. وعلى الأرجح، فإن هذه الرسومات المعنية كان يجب أن تلعب دور وصية، أو أوامر بكيفية القيام بعملية الدفن. وقد علق بذاكرتى رسم فى إحدى المقابر يبين مجموعة من النساء، كانت شعورهن مرسلة، علامة على الحزن، وكن رافعات لأيديهن إلى أعلى من الحزن، بينما الجنازة تمر من جانبهن. وبخلاف تلك المناظر القليلة، فإن خط باقى انفعالات الرسومات ليس فقط غير متعلق بالحزن والدفن، لكنه على العكس ملىء بالحياة. وقد أعجبتنى مقابر النبلاء لهذا السبب. وتعتبر هذه المقابر دائرة معارف عن الحياة السلمية بمصر القديمة، بينما معابد الفراعنة (تلك التى على ضفة النيل اليمنى، وكذلك اليسرى) - فى الأساس رسومات للأعمال الحربية لحكام البلاد.

لكن يوجد إنشاء فرعونى فى الميراث الحجرى لقدماء المصريين، حفظت فيه رسومات عن حياة العائلة المالكة. وهو ما يطلق عليه اسم جناح رمسيس الثالث، فى "مدينة حابو"، وهو مكان صغير على الضفة الغربية، على بعد كيلومترين جنوب أطلال الرامسيوم. وقد توجهنا إلى هناك بعد مشاهدة مدافن النبلاء. لكن لم يسعدنا الحظ؛ فلسبب ما كان ممنوعًا الدخول إلى الجناح (الأصح ما تبقى منه. فاكتفينا بزيارة المعبد الجنائزى لنفس رمسيس الثالث، الموجود بالقرب). ويعتبر المعبد قد حفظ جيدا. وفى الحقيقة، يكون هذا بالذات هو انطباعك، عندما تنظر إلى المعبد من بعيد، والصرح تقريبا كامل ومهيب، وحتى الآن، الجدران العالية الخارجية قائمة (وهذا لا يوجد إلا نادرا تماما). والساحتان الأوليتان أيضا حالتهما جيدة نسبيا. لكن لم يحالف الحظ كل ما خلفهما: فتظهر فى رأيى فقط كعوب - قواعد أعمدة وبقايا الجدران الداخلية بارتفاع متر واحد، أو اثنين، أو ثلاثة. ويمكن بالطبع إذا كان خيالك واسعا أن تتخيل ما كان عليه كل ذلك من ضخامة؛ فقاعات الأعمدة وحدها ثلاث قاعات. لكن للأسف، كان كل ذلك فى

الماضى. أما الآن، فلا توجد إلا حجارة من الأعمدة المهدمة، والحواجز والجدران. والنظافة فى كل مكان تقريبا، لكن المنظر العام لهذا المعبد بما تبقى منه لا يلفت النظر بشكل خاص.

وأهم ما يتميز به المعبد هو الرسومات المحفورة الكثيرة على الصرح، وعلى الجدران الخارجية، وعلى أعمدة الساحتين الأولتين. وكل شىء على الصرح الأول تقليدى بدرجة كافية: رمسيس الثالث الضخم مشوحا بهراوة تجاه مجموعة من الأعداء يمسك بشعرهم. كما تم رسمه على أحد أبراج الصرح مع آمون - رع، حاملا على رأسه تاج مصر العليا. أما على البرج الثانى، فكان مرسوما مع الإله الكبير الثانى رع - حرحت، لكن حاملا على رأسه تاج مصر السفلى. موضحا كيف أن الإلاهين الراضيين عنه يسحبون الأسرى الذين أمسكوا بهم. أما الكتابات، فتعدد انتصارات رمسيس الثالث، والمدن التى تم الاستيلاء عليها. وقد كان على هذا الفرعون بالفعل أن يحارب فى ليبيا وفى النوبة وفى الشرق الأوسط، كما أنه كان عليه الدفاع عن مصر ضد "شعوب البحر" التى هاجمتها من الشمال (يفترض المؤرخون أن هذا كان هجومًا لمحاربين من إحدى جزر البحر الأبيض المتوسط الكبيرة). ويقيم علماء المصريات هذا المعبد بصفة خاصة، حيث إن رمسيس الثالث قد سجل على جدرانه حملاته ومعاركه بالترتيب، مقدما بذلك صورة تاريخية لفترة حكمه. وكل رسومات الساحة الأمامية، وجزء من الثانية فقط، رسومات لرمسيس المنتصر وهو يقود عربته بشجاعة، أو يطلق سهامه من القوس على أعدائه الذين يركضون من الخوف، أو وهو يقود الأسرى، أو وهو يتلقى الهدايا من المهزومين. وفى كل مكان قائمة مفصلة للغنائم. وقد سار رمسيس الثالث على نفس خط رمسيس الثانى فى الدعاية لنفسه. لكنى فقط لم أر تماثيل رمسيس الثالث فى المعبد. وعلى الأرجح، أنها قد تهدمت، حيث إنه من الصعب تخيل أن رمسيس الثالث قد اكتفى بتمجيد نفسه بالرسومات البارزة والكتابات فقط.

وقد حفظ البهوان الجانبيان اللذان فى الساحة الأمامية جيدا، بما فيهما من أعمدة ضخمة مستديرة على اليسار، ومربعة على اليمين. وتتكئ على الأخيرة سبعة تماثيل متماثلة لأوزوريس - وهى تدل على الصفة الجنائزية للمعبد. وبعض التماثيل مهشمة بشدة. أما الساحة الثانية، فتحل تدريجيا فيها المواضيع الدينية محل المواضيع الحربية فى الرسومات البارزة. وقد خصصت مساحات كبيرة من الجدران لرسم الطقوس الدينية المقدمة على شرف أحد الآلهة، أو إله آخر باشتراك فرعون وعائلته. وقد حفظت الرسومات جيدا، حيث إن الأقباط قد حولوا البهو الثانى فى عصر المسيحية إلى كنيسة، فغطوا الرسومات بالطين، مما ساعد على حفظها. لكن من ناحية أخرى، فإن الزخارف المنحوتة قد عانت بشدة من أيدى نفس هؤلاء المسيحيين.

وحتى الآن؛ تبدو الأروقة جميلة، خاصة أجزاؤها العلوية. وقد حفظت أيضا الألوان على الأعمدة، فى تلك الأماكن التى لم تتمكن أيدى الإنسان من الوصول إليها، عندما تم التوقف عن عبادة الآلهة القديمة. وتوجد أطلال بعض الأبنية الدينية الأخرى بالقرب من معبد رمسيس الثالث، ترجع إلى مختلف العصور. لكن لم يكن عندنا وقت لمشاهدتها. وكان الوقت قد حان للعودة إلى البر الأيمن، إلى الأقصر، إلى منتجعنا السياحي.

وفى اليوم التالى، كانت عندنا فرصة لكى نقضى بضع ساعات أخرى على البر الغربى- فى وادى الملوك. وقد حاولنا أن نزور مقابر الفراعنة التى لم نقم بزيارتها فى العام السابق. لكن لم تكن عندنا انطباعات جديدة. فإذا لم تكن تعمل فى مجال علم المصريات كمحترف، فلا يستحق الأمر غالبا أن تذهب إلى كل الأماكن المفتوحة للزيارة بوادى الملوك. فعندما تلتهم الرمزية الدينية المصرية القديمة بكميات كبيرة، فإنك تصاب بتخمة، وتتوقف العينان عن استقبال الطابور اللانهائى من الآلهة والإلاهات والفراعنة والجعارين المقدسة، والسحالى، والأختام، وغيرها من تلك المرسومة على جدران وأسقف المقابر الملكية ببعض التغييرات المختلفة.

لكن كانت نيتنا ألا نتوقف إذا كانت هناك فرصة لرؤية شيء آخر. ولذلك فقد سرنا "حتى النهاية"، إلى أن اضطرتنا ضرورة التوجه إلى نجع حمادى إلى الجلوس فى السيارات.

إلى القاهرة عن طريق نجع حمادى وأسوان

كان لنا لقاء ختامى مع خبرائنا ورئاسة المصنع فى المساء. أما فى الصباح، فكان علينا زيارة عنابره. ولم أكن قد زرت قبل ذلك مصانع لإنتاج الألومنيوم. فأدهشتنى أبعاد العنابر الضخمة وارتفاعها، لكن بصفة خاصة طولها. وقد أرونا كل خطوات الإنتاج حتى الحصول على المنتج النهائى. وكانت الانطباعات المتبقية كبيرة، وكذلك الإحساس بالفخر ببلدنا، التى ساعدت المصريين على إنشاء هذا المصنع الحديث العملاق.

ودعنا أصحاب المصنع، وتحركنا فى اتجاه أسيوط، حيث كان من المخطط مقابلة محافظها فى نهاية اليوم. وتحدثنا فى مواضيع مختلفة، منها العلاقة بين مختلف الديانات، حيث إنه، كما قلنا من قبل، كان يعيش الكثير من الأقباط فى أسيوط نفسها وحولها. وكان المحافظ يرى أن إجراءات الأمن، المتمثلة فى الحراسات الدائمة الثابتة، والدوريات، ووجود عدد كاف من الفرق العسكرية فى المنطقة – ضرورية بسبب الوضع القائم. لكنه افترض أنه سوف يتغير إلى الأحسن تدريجيا، حيث إنه لا يوجد مفر من أن يعيش الطائفتان فى سلام. لكن فى المرحلة الحالية، وحيث إن التطرف الإسلامى فى حالة تزايد ونشط جدا، فلا يمكن الاستغناء عن رقابة قوية للدولة، وإذا لزم الأمر استخدام القوة. وقد كنت متفقا تماما فى ذلك مع المحافظ.

وصلنا إلى القاهرة فى ظهر اليوم التالى. وكنا بالطبع قد تعبنا قليلا جسمانيا فى أثناء الرحلة، لكن كانت عندنا انطباعات كثيرة، والأهم أننا أصبحنا نعرف أكثر، وبصفة محددة، البلد، حاضرها وماضيها، وهو ما يعتبر للعاملين فى المجال

الدبلوماسى ليس فقط ضرورة، لكن أساس للعمل الناجح. كما أنى أحسست بظهور قوى جديدة عند انغماسى مرة أخرى فى أعمال السفارة.

الباب الحادى عشر

الفسيفساء الدبلوماسية فى نصف السنة التى أصبحت الأخيرة لى فى القاهرة

يناير هو شهر إعداد التقارير السنوية للسفارة، وكان الدبلوماسيون، بالطبع، يفضلون أن يكون ما يشغلهم عن العمل أقل ما يمكن. لكن لا يحدث أبدا أن يكون كل شيء هادئا تماما فى الشرق الأوسط. فلم يمر يناير عام ١٩٨٦ دون أحداث. وقد جرت، فى هذه المرة، فى جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية، أو اليمن الجنوبية ببساطة، حيث شبت حرب أهلية دموية. كان السبب الأساسى فيها هو المعركة على السلطة، والخلافات بين القبائل، حيث قامت الحرب بين الرئيس "على ناصر محمد"، ومنافسه "الأتاسى"، الذى تمكن مؤيدوه من التفوق تدريجيا. ورغم أنه يبدو أن هذه الأحداث جرت بعيدا عن الاتحاد السوفييتى ومصر، إلا أنها طالت مصالحهما بشدة. لذلك اضطررت، فى شهر يناير، أن أتناقش مع كل من مجيد والباز، وأن أتبادل معهم الآراء بخصوص الوضع فى جمهورية اليمن الديموقراطية الشعبية. وانتهينا إلى أن النزاع داخلى تماما، وأنه ليس من المرغوب فيه أى تدخل من الخارج، بما فيه تدخل الأمريكان. وقد أبدى محدثاى امتنانهما لموسكو؛ لمساعدتها فى ترحيل المصريين الذين كان يمكن أن يصيبهم الضرر أثناء العمليات الحربية.

وكان الموضوع الآخر لمحادثاتنا هو الوضع حول ليبيا. فقد تزايد، بشكل ملحوظ، نشاط الأسطول السادس العسكرى للقوات البحرية للولايات المتحدة الأمريكية، قرب شواطئ خليج سرت. ولم يكن من الواضح إلى ماذا ترمى واشنطن؟ وكان الباز يعتقد أن هذه، على الأرجح، عملية استعراض للقوة مخطط

لها؛ إخافة للقذافى، وأنها ليست لتوجيه ضربة فعلية. وقد أكد الباز أن كلاً من الدول الأوروبية والعرب، بما فيهم مصر، ضد قيام الأمريكان باستخدام القوة.

مبادرة جورباتشوف لنزع شامل للسلاح النووى

لكن هذه كانت، كما يقال، حوادث محلية. وها هى موسكو فى يوم ١٥ يناير، تطلق طلقة من المقاس "الكونى"؛ فقد خطب جورباتشوف معلنا بيانا قدم فيه برنامجا للتصفية الكاملة للسلاح النووى قبل عام ٢٠٠٠. وأصبحت هذه الخطوة مفاجأة؛ لأنه كان محددًا موعد للمؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتى فى بداية شهر مارس، وكان جاريًا الإعداد له بنشاط، وكان من المنطقى توقع أنه سيصيغ مبادرات سوفييتية للسياسة الخارجية السوفييتية، كانت تنتظر من القيادة السوفييتية الجديدة. لكنها تصرفت بأسلوب آخر، فيبدو أنها افترضت أنه فى حالة تقديم برنامج النزع الكامل والشامل للسلاح النووى خارج مجموعة قرارات المؤتمر، سيكون لذلك دوى أقوى. وغالبا كان التصرف بهذه الطريقة سليما تكتيكيا. وعلى أية حال، فإن تأثير المفاجأة كان ملموسا من جانب هؤلاء الذين كان البرنامج موجه لهم، ومن جانب من كان عليه، فى الجانب السوفييتى، شرحه وتوضيحه ونشره... إلخ. وكما هو متبع، فقد تم إطلاق آلة وزارة الخارجية فورا لهذا الهدف بكامل قوتها.

وعند تعرفى على البرنامج، نمت عندى أحاسيس متضاربة. فمن ناحية، رأيت فيه خطوة سياسية قوية، جاءت فى وقتها؛ فقد أبدت "إمبراطورية الشر" (طبقا لتعبير ريجان) استعدادها الكامل للتخلى عن ترسانتها النووية- استراتيجيا وتكتيكيا- وبالتالى، لم تعد تمثل خطرا على الغرب وقيمه. وقد نقلت المسئولية عن مصير الأسلحة النووية السوفييتية، بهذه الطريقة، إلى القوى العظمى الأخرى المالكة للسلاح النووى، وأصبح الأمر يعتمد على مدى استعدادهم لنزع سلاحهم النووى. وهنا، حصلنا على إيجابيات أكيدة للسياسة الخارجية السوفييتية. ثانيا، إن

البرنامج كان مفيدا فى أنه كان مقسما إلى مراحل زمنية، وأنه اختار خطوات محددة لنزع السلاح، يجب تنفيذها فى كل منها، بحيث لا يحصل أى من الأطراف على أى تفوق عسكرى على شركائه فى عملية نزع السلاح النووى، فى أية مرحلة من المراحل. وقد كان البرنامج موضوعا بدرجة عالية من الاحتراف من هذه الناحية، ولم يكن أحد يستطيع أن يتهم موسكو بسوء النية، وبأن لها حسابات خبيثة.

ومن ناحية أخرى، فإن برنامج جورباتشوف شغلنى؛ لأنه خيالي تماما. فلم أتمكن، فى ذلك الوقت، من فهم طبيعة ما يلى: ماذا كان ذلك، هل هى سذاجة حسنة النية؟ أم أنها كانت على العكس استهتارًا سياسيًا صريحًا؟ ولم تكن هناك أى رغبة لدى فى أن أربط جورباتشوف، أو شيفرنادزة، أو أيًا من باقى فريق القائد الروسى الجديد، بأى من هذين الفرضين. وكنت أنا شخصيا أعتقد أن قادة إنجلترا أو فرنسا لن يقوموا، لأى سبب كان، فى وقت قريب (على الأقل فى العشر سنوات المقبلة) بالتنازل عن مكانتهما النووية، حيث إنها وحدها تسمح لهذه الدول بالبقاء فى موضع القوى العظمى، والأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن (حيث إنها، من ناحية كل المؤشرات الأخرى، تؤكد أنها قد سمحت أن تسبقها كل من ألمانيا الغربية واليابان، وقد تسمح أن تسبقها دول أخرى). كما أن الصين، أيضا، لن تتنازل عن برنامجها؛ لكى تتحول إلى قوة نووية عظمى. كما أن الحماس النووى لدى واشنطن على درجة أعلى، رغم موافقتها بالكلام على بعض الصياغات فى بيان وزراء خارجية الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية بجنيف، الذى جرى فيه الحديث عن النزع الشامل للسلاح النووى كهدف. لكن كانت كل سياستها الفعلية تتحدث عن الرهان على رغبتها فى أن توفر لنفسها التفوق النووى، بما فيه استخدام الفضاء للأغراض العسكرية. وكنت أشك تماما، أيضا، فى إمكانية أن يسمح القادة العسكريون السوفييت، ومجمع صناعاتنا الحربية، بأن يقوموا بالانتحار على الطريقة اليابانية (طريقة الهاراكيرى للانتحار ببقر البطن بسيف). فقد خطب أيضا خروشوف، من منصة هيئة الأمم المتحدة، مدافعا عن النزع الكامل والشامل

للسلاح النووى، إنما فى الحقيقة، كان يسير بأقصى سرعة فى طريق تنمية التسليح بالصواريخ النووية. باختصار، كنت أتعامل بارتياب كبير مع بيان جورباتشوف فى يوم ١٥ يناير، وكنت أعتقد أن برنامجه كان سينجح فقط لو كان مؤلفه قد توقف فى مكان ما فى منتصف الطريق، وكان ذلك يعنى أن يكون أكثر واقعية وأكثر فعالية. لكن هذه كانت وجهة نظرى الشخصية، لكنى كنت، كسفير، أتصرف كما يملى على من تعليمات المنشورات العامة التى كنت أتلقاها، أى أننى كنت أروج البرنامج ككلمة جديدة وهامة للسياسة الخارجية للاتحاد السوفييتى.

ولم يكن من الصعب القيام بذلك فى مصر. فقد كانت جمهورية مصر العربية، كأية دولة نامية، تؤيد عن طيب خاطر أية اقتراحات، إذا كانت تستطيع أن تؤدى إلى تقليص المواجهة بين الشرق والغرب بالصواريخ النووية، وإلى خفض خطر الحرب النووية. وكانت تروق لكل دول "العالم الثالث" (ماعدا استثناءات بسيطة) فكرة النزع الشامل للسلاح النووى، حيث إنهم لن يكونوا هم من سوف ينزعون سلاحهم. لكن ذلك كان يمثل جاذبية إضافية عند العرب، حيث إنهم كانوا يشكون تماما فى امتلاك إسرائيل لسلاح نووى.

وقد قمت فى يوم ٢٢ يناير، بزيارة مجيد، وقدمت له نص رسالة جورباتشوف الشفهية لرئيس مصر، بخصوص برنامج تصفية السلاح النووى قبل عام ٢٠٠٠. كما أننى قدمت له أيضا بيان جورباتشوف فى ١٥ يناير نفسه، وعلقت عليه، طبقا للتعليمات التى تلقيتها. ولم أكن فى حاجة إلى خطبة بليغة، فقد قال لى مجيد فورا إن البيان، وكذلك البرنامج، هما خطوة إيجابية مشجعة، تعبر عن سعى الاتحاد السوفييتى للسلام، وإنهم يتقبلونه فى مصر بصورة إيجابية تماما، ووعد بتوصيل كل المستندات التى تلقاها لحسنى مبارك.

وقابلت، بعد يوم من ذلك، الباز بخصوص نفس الموضوع، حيث وصلتنى تعليمات بالحديث مع المصريين عن حضور ممثل خاص للرئاسة السوفييتية، للحديث مع مبارك بخصوص الاقتراحات المتعلقة بنزع السلاح النووى. وقد تم

تكليف "ج.ن. جورينوفيتش" بالقيام بهذا الحديث. ولم أكن أعرفه كخبير فى نزع السلاح على نفس القدر الذى كان خبيرًا فيه بالألمان. لكن لم يكن يكفى عدد الخبراء فى المواقف التى كانت تتطلب سرعة احتواء عواصم كثيرة على الفور بالمشاورات. وكنت سعيدًا أنه لم يتم تخطى القاهرة، فقد كان ذلك دليلاً على الاهتمام بالقاهرة. وأعطت القاهرة ذلك حقه من التقدير. فقد اتصل الباز، فورا، بالرئيس بالهاتف فى وجودى، وتلقى منه موافقة على حضور جورينوفيتش إلى القاهرة فى الأيام الأولى من شهر فبراير.

وقد قمنا، أنا وسفير المهمات الخاصة جورينوفيتش، بزيارة مجيد فى يوم ٣ فبراير. فقال جورينوفيتش كل ما هو مفروض أن يقوله، وسمع الرد على ذلك بأن مصر تعتبر اقتراحات الاتحاد السوفييتى بناءة، وأنها جاءت فى وقت مناسب. لكن استغل الوزير وجود رسول موسكو لكى يثير أيضا موضوعين. فقد وصف العلاقات السوفييتية - المصرية بأنها علاقات صداقة، وأنها قائمة على أساس من الاحترام المتبادل، وأنها تنمو بصورة حسنة. كما أنه أشار إلى أن القاهرة تحترم التزاماتها نحو موسكو، وأنها لن تتراجع عنها، لكنه يريد من الأصدقاء السوفييت، عند نظرهم فى مواضيع الديون المصرية، مراعاة الظروف الاقتصادية الصعبة الموجودة فيها مصر فى الوقت الحالى (كان هذا الطلب مرتبطا بالزيارة المرتقبة للوفد المصرى إلى موسكو، لإجراء مفاوضات بخصوص الديون). ثانيا، توقف مجيد عند الوضع فى منطقة الشرق الأوسط، وأعطى أهمية لتطابق مجموعة كبيرة من النقاط فى الموقف السوفييتي والمصرى.

عند مبارك، فى بيته

استقبلنا مبارك فى يوم ٦ فبراير، بمقره الشخصى الذى يقيم فيه مع عائلته. وقد ذهبت إلى هناك لأول مرة. فاستقبلنا الرئيس بمفرده. وكان كل ذلك كأنه يبرز الثقة المتبادلة فى اللقاء. وقام فكيلوف بالترجمة كالعادة. وبما أن المقابلة كانت

بخصوص عمل، فقد بدأ جورينوفيتش الحديث. واستمع مبارك بلا مقاطعة، وقدم في النهاية فقط بعض الأسئلة. وكانت متعلقة بالعلاقة بين نزع السلاح النووى، وتصفية الأسلحة الكيميائية، وخفض التسليح التقليدى. وكان القصد من السؤال واضحًا؛ فلم تكن الدول العربية مستعدة للتخلى عن السلاح الكيميائى، طالما كانت إسرائيل تمتلك سلاحًا نوويًا. كما كانت تسود بين العرب فكرة أن من يجب عليه نزع السلاح من هو مسلح بالزيادة، لكن بالنسبة لهم، فيجب أن يستكملوا تسليحهم أمام أعداء لهم قدرات أكبر (أذكر أنه فى هذه الفترة كانت الحرب بين العراق وإيران قائمة، وأنه رغم أن بغداد هى التى بدأتها، إلا أنها تحولت بالنسبة لها بسرعة إلى الدفاع، فى الوقت الذى كانت الدول العربية الأخرى، فيما عدا سوريا، تساعد العراق بالأموال وبالسلاح).

وبعد الحصول على توضيح جورينوفيتش، قال مبارك إنه متفق مع كل نقاط برنامج جورباتشوف لنزع السلاح النووى، وامتدحه على مناسبة وقته، وعلى سمة مبادرته الشاملة. وقال إن مصر سوف تؤيد سياستنا بخصوص نزع السلاح. وقد ذكر هنا الرئيس أنه قبل لقاء جنيف بين جورباتشوف وريجان، أرسل إلى كل منهما رسالة بارك فيها الدعوة إلى المؤتمر، وأكد فيها على أهمية سرعة وصول الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية إلى اتفاق بخصوص وقف سباق التسلح.

وقد تحول الحديث بعد ذلك إلى موضوع آخر. فقال مبارك إنه يسعى كرئيس إلى تنمية وتحسين العلاقات بين مصر والاتحاد السوفييتى. ثم أضاف: "وتلك الخلافات التى كانت موجودة عندنا مع بلدكم، فقد تركناها جانبا ونسيناها. لكننا لم ننس المساعدة التى قدمها الاتحاد السوفييتى، وما زال يقدمها، لمصر. وأنا لا أريد أن تبقى أية مشاكل بين بلدينا، فيجب حلها. وأنا أعمل على ذلك، رغم أننى أقوم بذلك بهدوء؛ نظرا للأوضاع هنا، وبالتدريج. وأنا مقتنع أن العلاقات الحسنة مع الاتحاد السوفييتى فى صالح الشعب المصرى. وسوف أستمر دائما فى اتباع

هذه السياسة". وبالنسبة لى، لم يكن هناك أى جديد فى كلمات مبارك هذه، لكننى كنت سعيدا بأنه كررها، وبأنه قام بذلك فى حضور زميلى الموسكوفى.

وبعد ذلك، بدأ الرئيس يتحدث بتوتر واضح عن أنه أثناء وجوده فى الولايات المتحدة الأمريكية، كانوا يحاولون هناك الضغط عليه؛ للتخلى عن تطبيع العلاقات السوفييتية المصرية. بل إنهم اتهموه بأنه قد حصل على عدد معين من الدبابات من رومانيا. وقال مبارك إنه رفض هذه الاتهامات، وأما فيما يخص الحصول على دبابات من رومانيا، فقد قال لهم فى واشنطن إن مصر حصلت عليها بسعر أقل، بكثير جدا، من الدبابات الأمريكية (كانت رومانيا فى ذلك الوقت تخفض من جيشها، وتبيع الأسلحة الزائدة عن حاجتها، ومنها دبابات من إنتاجنا. باختصار، يمكن أن أقول إن مبارك لم يكن ينوى أن يودع بسرعة السلاح السوفييتى الموجود فى مصر، وبصفة خاصة الدبابات. وقد قال لى السفير الإنجليزى "آلان أورفيك" إن الإنجليز قد ساعدوا مصر على تحديث الدبابات السوفييتية، فقاموا بتركيب أسلحة جديدة عليها، وأجهزة جديدة).

ثم طلب منى مبارك التحدث عن الجديد الذى ظهر فى العلاقات السوفييتية- المصرية، بعد حديثنا الأخير فى هذا الموضوع. فتحدثت بالتفصيل عن كيف تتحرك مختلف مشروعات التعاون الاقتصادى والفنى؟ فبعد حديثى الأخير مع الرئيس، عندما اشتكيت من مختلف المشاكل البيروقراطية، تحركت بسرعة مختلف السلطات المصرية المعنية. لذلك شكرت الرئيس على مساعدته، وعبرت عن أملى فى أنه سوف يستمر فى متابعته لمسار تجهيز مشاريع التعاون. ورويت له أيضا عن العملية الأخيرة، التى تم الاتفاق عليها للتبادل التجارى مع مجموعة شركات "يونيميج". وقد أبدى مبارك ارتياحه للتقدم الملحوظ، وأبدى اهتمامه بأن تعمل السفارة والهيئات السوفييتية الأخرى بنشاط، وأن تقوم، عند الحاجة، بتقديم مختلف المواضيع أمام الوزراء، وحكومة جمهورية مصر العربية.

ثم لم يلبث الرئيس أن أشار إلى قراره بإعادة المبنى السكنى للسفارة، مبينا ذلك كمثال على سياسته التى يتبعها، خطوة وراء خطوة، من أجل تحسين العلاقات مع بلدنا. وعندما قلت إن قرار الرئيس لم ينفذ حتى الآن ، وعد مبارك أنه سوف يتخذ اللازم، حتى لا تتعطل عملية التسليم. كما أنه أضاف أنه لم تكن هناك نية جادة لمصر فى الاستيلاء على المبنى؛ فقد كان السادات يريد فقط أن يوخزنا أكثر، لكن ذلك كان فى الماضى. والآن، لرئاسة مصر سياسة مختلفة تماما.

وطلب الرئيس، منهيا الحديث، توصيل أحر تحياته وتمنياته لجورباتشوف، وباقى القادة السوفييت. وقد وصف جورباتشوف، فى خلال ذلك، على الطريقة العربية "بالأخ"، وهو ما لم يسبق أن فعله. وكان ذلك، على ما أعتقد، كى يعكس دخول العلاقات المصرية – السوفييتية إلى مرحلة جديدة.

ولم ينته عملنا فى القاهرة حول برنامج نزع السلاح النووى بسفر جورينوفيتش، خاصة أنه أصبح بسرعة جزءًا من قاعدة السياسة الخارجية للمؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتى. ولقد كانت لى أحاديث أخرى، بهذا الخصوص، فى وزارة الخارجية، مع وزير الدولة "بطرس غالى"، والنائب الجديد لوزارة الخارجية "أ.ح. مخلوف"، الذى حل محل منسقنا "بدوى"، وكذلك مع رئيس مجلس الشعب بجمهورية مصر العربية "محجوب"، ومع رئيس مجلس الشورى "حكيم"، ومع الرؤساء الجدد للجان البرلمان. وكان الأساس الرسمى للمقابلات معهم هو إعلان لجنة الشئون الخارجية لمجلس الاتحاد ومجلس القوميات، وكذلك رسالة مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتى إلى كونجرس الولايات المتحدة الأمريكية. وقد استخدمت أشكال أخرى للعمل. وكما قلت، من قبل، لم يكن من الصعب القيام بذلك، حيث إن المصريين كانوا يؤيدون عن طيب خاطر فكرة نزع السلاح الكامل والشامل، وكذلك فى تلك الندوات الدولية التى اشتركوا فيها (فى إطار حركة عدم الانحياز، وهيئة الأمم المتحدة، إلخ) وهو ما كان مطلوبًا منهم، بشكل خاص.

الحديث الصعب مع عرفات

وكان لى لقاء آخر، غير متوقع، فى شهر فبراير مع ياسر عرفات. وفى هذه المرة كانت المبادرة من جانبى، بعد أن تلقيت من موسكو أمرًا بأن أحاول لقاءه؛ لكى أخطره برد فعلنا على مناقشاته مع سفرائنا فى الأردن ورومانيا. ولم يخطرونا بما دار فى أحاديثه معهما. لكن بعد أن تعرفت على ما طلب منى إبلاغه لعرفات، فهمت أنه من المتوقع أن يكون الحديث صعبا، حيث إنه كان يقدم له ما يمكن أن يقال إنه "رفض قاسى" لكل ما كان يقوم به فى الفترة الأخيرة، وهو يحاول أن يضع برنامجًا كاملاً للتعامل مع الأردن. وأنا لا أعرف لماذا وقعت على عاتقى هذه المهمة غير السارة؟ قد يكون عرفات قد ذكر لأحد سفرائنا أنه سوف يزور القاهرة قريبا. وأذكر أن مجلس قيادة منظمة التحرير الفلسطينية كان فى تونس، حيث كان يتواجد فيها هناك رئيسها أساسا، وكان الحديث معه هناك أنسب. لكن لسبب ما رأت الرئاسة أمرًا آخر. على أية حال، فقد كلفت، فقمت عن طريق ممثلية منظمة التحرير الفلسطينية بالقاهرة بإبداء اهتمامى باللقاء مع عرفات، الذى تم بعد وقت قصير فى قصر هذه الممثلية. وقد توجهت إلى هناك مع نفس الصحبة التى كانت معى فى اللقاء السابق، أى مع أ. بودتسيروب، وفكيلوف، أما من الجانب الفلسطينى، فقد كان يوجد مع عرفات "أبو مازن"، عضو مجلس قيادة منظمة التحرير الفلسطينية.

وفى البداية، كان كل شيء جيدا. حيث قال عرفات إنه موجود فى القاهرة فى زيارة قصيرة جدا، وإنه تمكن، حتى الآن، من التحدث بالتفصيل فقط مع الباز، لكنه راضٍ عن الحديث، حيث إن المصريين متفهمون لكل صعوبة وضع الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة، وفى معسكرات اللاجئين، وجهوده هو (عرفات) فى البحث عن شكل لعملية سياسية فى المستقبل، تكون قادرة على الاستمرار فى الحياة، وتكون مقبولة من الفلسطينيين. والتى يجب أن تؤدى إلى تحقيق الآمال الفلسطينية الوطنية. وما زالت الأمور، حتى الآن، تسير بصعوبة شديدة، حيث إن

للملك حسين مصالحه وأعماله، التى لا يعتبر تلاقيها مع المصالح الفلسطينية بهذه السهولة، بالإضافة إلى أن ذلك مجرد بداية للطريق. لكنه (عرفات) مؤمن بأنه بتأييد من الأصدقاء، وخاصة من الاتحاد السوفييتى، سوف يمكن التغلب، فى النهاية، على كل الصعاب.

وهنا، كان علىَّ صب ماء بارد على عرفات، على هيئة رد فعل موسكو بخصوص خطه السياسى. وكان ما قلته كما يلى: يتضح من أخبار رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية، بخصوص آخر مباحثاته مع الملك حسين، إمكانية استنتاج أن الحديث كان يدور فى هذه المباحثات حول صيغة لإشراك الوفد الأردنى- الفلسطينى فى ما يطلق عليه "عملية السلام"، على أساس اتفاقية عمان، وتكون مقبولة لكل من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل. وتعرف تماما رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية موقفنا من ذلك، حيث إننا لا نعتبر ذلك خطوة فى الاتجاه الصحيح. كما أننا لا نستطيع أن نقف بشكل آخر من أعمال الرئاسة الفلسطينية، التى تقوم بها من أجل تطوير هذا الاتفاق. فإن الأمريكان الآن، وهم يجرون منظمة التحرير الفلسطينية إلى مناقشة الصور المختلفة للاعتراف بقرارى هيئة الأمم المتحدة رقمى ٢٤٢ و٣٣٨، ونتيجة لذلك بإسرائيل، فإنهم يحاولون خلق انطباع كما لو أن الرئاسة الفلسطينية قد قبلت المخطط الأمريكى. لكن يمكن القيام بهذه الخطوة فقط، عندما تكون هناك مبررات قوية.

وكلما كنت أستمر فى حديثى، كان عرفات يزداد عبوسا، معبرا بنفس الوقت، بتعبيرات وجهه وحركات يديه، عن ضجره واندهاشه. وفى النهاية، قفز من مكانه، وبدأ يقول، وهو يجرى فى الحجرة، كيف أنه صدم، وغاضب مما سمعه. وأعلن أنه يوجد هنا سوء فهم ما، فإنه يوجد من يدس له، ويضلل موسكو عن قصد بالمعلومات. فهو لا ينوى أن يقدم أية تنازلات للأمريكان والإسرائيليين. وقد كانت المباحثات فى عمان مواجهة واشتباكا. وهناك محاولات لتشويه موقفه؛ لإقناع الفلسطينيين أن رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية تعمل بشكل مخالف

لمصالحهم. وهذا غير حقيقى. كما أنه ليس من الحقيقى ما يملونه عليه، بخصوص القرارين ٢٤٢ و٣٣٨. فإن منظمة التحرير الفلسطينية ستقوم بالاعتراف بهما فقط، فى مقابل الاعتراف بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره بنفسه، وفى إنشاء دولته الخاصة به.

قال عرفات كل ذلك، ثم انتقل إلى "مواضيع أخرى أغضبته". فقال إنه غاضب لأن موسكو لا ترد على طلبه أن ترسل له ممثلا مسئولا؛ لتبادل الآراء. كما أنه غاضب أيضا بشدة؛ لأن أحد المسئولين السوفييت (لم يذكر اسمه) أعلن أثناء وجوده فى الكويت ودمشق، أن الاتحاد السوفييتى سوف يساند منظمة التحرير الفلسطينية، حتى فى عدم وجود عرفات، وقد نشرت وكالة تاس للأنباء هذا الإعلان بتوسع فى العالم كله. وتساءل عرفات: هل أنا أستحق هذه المعاملة تجاهى؟ أليست هذه دعوة للتخلص منى؟ فموسكو حتى لم تحاول أن تنفى هذا الإعلان. والآن، هو يسمع من موسكو لومًا جديدًا وشكوكًا جديدة. وهنا تدخل أبو مازن فى الحديث، مضيفا لقائمة أسباب الغضب سببًا إضافيًا: فإن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ينتظر من زمن طويل ردا على رسالته لجورباتشوف، لكن لا يوجد رد، لا يوجد.

وكنت أعرف موقف موسكو، وسبب عدم رضائها عن عرفات، لذلك لم أدخل فى مناقشة أسباب غضبه التى عددها. وفى النهاية، فإنه كان لما كلفت به هدف هو الضغط فى اتجاه محدد على رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية. لذلك فقد اكتفيت بأن أكدت أننا ما زلنا مستمرين فى الوقوف إلى جانب الشعب الفلسطينى، وفى ضمان وحدة منظمة التحرير الفلسطينية، على أساس برنامج معادى للإمبريالية.

وكانت نهاية الحديث كما يلى: طلب عرفات أن يكون الفلسطينيون ممثلين فى المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى بوفد واحد. وكان من المفهوم أنه

يريد أن ترسل دعوة الاستضافة إليه شخصيا، كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية، وألا يحضر معارضوه المؤتمر. وقد أخطرت موسكو بهذا الطلب.

وقد بقى لى فقط تخمين، هل لعب تحذير عرفات عن طريقى دورا ما؟ أم أن الخلاف المستمر، الذى حدث بين عرفات والملك حسين، كان سيحدث، حتى دون سعى موسكو، بسبب الخلافات التى كانت قائمة، فى ذلك الوقت، بين منظمة التحرير الفلسطينية والأردن؟ وقد كانت دوافع أعمال موسكو فى هذه الحالة، كما اقتنع على الأرجح القارئ بنفسه، واضحة تماما من صياغة النصيحة نفسها التى قدمتها عن طريقى إلى عرفات: ألا يمنح الأمريكان فرصة تنظيم سلسلة من المباحثات، بخصوص المشكلة الفلسطينية، تحت رعايتهم. وكانت هذه فترة تنظر فيها القيادات السوفييتية إلى كل المشاكل الإقليمية والعالمية من خلال مواجهتها مع أمريكا. وسوف يقوم الكرملين قريبا (فى عهد جورباتشوف) بتصحيح موقفه من مواضيع الشرق الأوسط، ومن عرفات. لكن كما اعترف جورباتشوف نفسه، فإن "رئاسة الاتحاد السوفييتى الجديدة قد عملت بقوة الدفع الذاتى"[١] فى الشرق الأوسط.

تمرد الجنود

فجأة فى نهاية فبراير ١٩٨٦، أصبحت الحياة السياسية الداخلية لمصر، التى كانت تبدو للمراقبين من الخارج خاملة لدرجة ما، هائجة. فقد استيقظت فى صباح يوم ٢٦ فبراير، كالعادة مبكرا، وخرجت من مقر إقامتى إلى الحديقة؛ لاستنشاق الهواء الذى كان ما زال باردا، فرأيت، فجأة، دبابة واقفة خلف السور، على شاطئ النيل، وبجانبها مجموعة من الجنود. ولم أكن قد رأيت قبل ذلك فى شوارع القاهرة أية مدرعات، ولم يمكن ألا يقلقنى ظهور دبابة بجانب مقر الإقامة. وقد لاحظت وجود دبابة أخرى، عند الجانب الآخر من أرض السفارة، واقفة تقريبا عند بوابة

---

(١) М.Горбачев. Жизнь и Реформы. Книга 2. М.1995

السفارة، وبالقرب منها أيضا مجموعة من الجنود. وأصبح من الواضح أن السفارة ومقر إقامتى قد وضعتا تحت الحماية.

لكن لماذا؟ ما الذى حدث؟ ورغم أنه قد بقيت ساعتان إلى بداية يوم العمل، إلا أنى أعطيت أمرا باستدعاء أعضاء البعثة الدبلوماسية بسرعة إلى السفارة.

وجلست أنا إلى الهاتف؛ لأتصل بكل صحفيينا، فقد كانوا على اتصال بمختلف وكالات الأنباء، وكانوا عادة هم أول من يعرف الأنباء. وقد علمت من أحدهم أنه حدث تمرد لقوى الأمن المركزى فى القاهرة. وقد تأكد هذا النبأ بسرعة من المصادر الرسمية. فاتخذنا فورا إجراءات لكى نكون مستعدين لأية تطورات غير متوقعة، ولعدم السماح بوقوع ضرر لأى من مواطنينا.

وقد اتضح بعد ذلك، أن جنود أحد معسكرات المخيمات الموجود على حدود المدينة، بالقرب من الأهرام، قد أعلنوا التمرد، وأنهم قد خرجوا بأسلحتهم إلى أقرب شوارع فى المدينة، وأخذوا فى تخريب وحرق الكازينوهات والمطاعم والقصور. وكان هذا هو المكان المفضل "للقطط السمان" المصرية لقضاء الوقت. وقد أخرج جنود قوات الأمن المركزى عليهم غضبهم. وكان ذلك يمثل اعتراضهم على الظروف الصعبة لخدمتهم، والتفرقة الاجتماعية الصارخة.

وكانت قوات الأمن المركزى ضمن نظام وزارة الداخلية، وكان يدخل فى عملها حماية الهيئات الحكومية، والسفارات، والفنادق، وبقية الأماكن الأخرى فى المدن، وكذلك عمل دوريات فى الشوارع، خاصة فى تلك التى كان يعيش ويرفه فيها الأغنياء عن نفسهم. وكانت الخدمة فيها صعبة، وكانوا يقومون فيها بالوقوف ساعات متعددة فى الحراسة، وكثيرا ما تكون تحت الشمس، ودون أكل. وكان الجنود غاضبين من راتبهم الصغير، الذى كان يمثل ٦ جنيهات فقط فى الشهر (ثمن ١٢ علبة سجائر من الأنواع المنخفضة الجودة)، ومن الغذاء السيىء الذى لا يتغير، والقسوة والسخرية التى يعانون منها من الضباط، الذين كانوا يضربون

الجنود لأية غلطة صغيرة، ومن الحياة نفسها فى معسكرات الخيم أو فى ثكنات بدائية. وقد كان الجنود الذين يقومون بحراسة السفارة والقنصلية يشكون فى أحاديثهم مع دبلوماسيينا من أن الغذاء الذى يصرف لهم لا يكفى، وأنهم يضطرون لشراء مواد غذائية. كما أنهم قالوا لهم إنه كانت تصرف لهم الأحذية العسكرية مرة واحدة فقط طوال فترة خدمتهم، وإنها كانت تستهلك بسرعة، وإنهم كانوا يضطرون لشراء أحذية جديدة على نفقتهم الخاصة. ولذلك يعيش بطريقة محتملة فقط الجنود الذين يتلقون نقودًا من أقاربهم.

وقد لعب دوره فى حدوث التمرد أسلوب اختيار الجنود الذين يقضون فترة تجنيدهم ضمن قوات الأمن المركزى. فقد كان كما يلى: فى البداية، كان يقضى المجندون ثلاثة أشهر معا فى خدمة بالمعسكر. ثم كان أكثرهم تعليما وقوة جسمانية يوزعون إلى وزارة الدفاع، أما الباقون فإلى وزارة الداخلية، التى كانت تقسمهم بدورها بنفس المقاييس إلى ثلاث فئات. وكانت آخرها هى التى تستخدم لتزويد قوات الأمن المركزى بالجنود. وفى الواقع، كانوا تقريبا كلهم بلا استثناء فتيانا غير متعلمين من الريف، قصيرى القامة، غير أصحاء تماما. وكان من الواضح أنهم كانوا يتلقون ضربات الضباط بوفرة. وكان يقدر تعداد قوات الأمن المركزى بحوالى ٣٠٠ ألف فرد، وكانت مسلحة ببنادق فقط، كما أن الخدمة بها كانت لثلاث سنوات.

وكانت توجد أسباب كثيرة لانفجار نوبة غضبهم. لكن عندما تم تحليل الأحداث، فيما بعد، تم ذكر سببين أخيرين، من حيث زمن حدوثهما. كان الأول هو أنه قبل التمرد بقليل تم الإعلان عن أن الإجازات القصيرة التى كانت تمنح بعد ستة أسابيع ستمنح الآن بعد ١٢ أسبوعًا، وهو ما مثل ضربة مؤلمة لكثير من شباب الريف وعائلاتهم، حيث إنهم يتزوجون مبكرا فى الريف المصرى. ثانيا، كان قرار زيادة مدة الخدمة فى قوات الأمن المركزى إلى أربع سنوات (وهذا لم يمس الجيش) هو القطرة الأخيرة، على الأرجح.

هل كان التمرد عفويا تماما، أم أنه كانت تقف من ورائه قوة ما؟ بقى ذلك غير واضح تماما. وكان هناك انطباع أن الحكومة كانت مهتمة بالتمويه على أسباب الانفجار، وبألا تعطى مبررًا لاعتباره عملاً موجهًا ضد الحكومة. لكنه كان يعتقد، بين الدبلوماسيين، أن الأمر لم يكن يخلو من الأصوليين المسلمين - "الإخوان المسلمين" و"الجهاد". وقد لفت النظر أن التمرد لم يحدث فى القاهرة فقط، بل إنه حدث أيضا فى عدد من مراكز المدن الأخرى - أسيوط، سوهاج، الإسماعيلية، القليوبية. وقد يكون من المخطط أن المتمردين، الذين كان عددهم حوالى ٢٠ ألفًا، سيقومون بدور المفجر لعمل أوسع، أولا بين الطبقات الأفقر للسكان. لكن ذلك لم يحدث. ولقد استغرقت عملية القضاء على التمرد ٦-٧ أيام. وقد تم ذلك باستخدام قوات مشاة وزارة الدفاع والمدرعات. وتقول الأرقام الرسمية إنه قد قتل ١٠٧، وجرح ٧١٥ فردا من الجانبين. وقد تم إرسال عدة آلاف من المتمردين إلى المحاكم.

وتم إعلان حظر التجول فى القاهرة. وقد بقى الوضع هادئا فى وسط القاهرة، ومن ضمنه منطقة السفارة. وقد حوفظ على ذلك بواسطة عدد كبير من دوريات الحراسة العسكرية، والمدرعات التى وضعت فى النقط الهامة. لكن حدثت معارك حقيقية فى بعض الأحياء المتطرفة. وقد استولى المتمردون على أحد السجون، الذى هرب منه ١٢٠٠ من المسجونين بعد ضرب الحراس. وقد تم بعد ذلك البحث عنهم، والقبض عليهم.

ولم يشترك جنود الأمن المركزى الذين كانوا عادة يقومون بالحراسة عند مبنى سفارتنا وقنصليتنا فى التمرد، لكن تم تجريدهم من سلاحهم على وجه الاحتياط. فقاموا بنوبات حراستهم لبعض الوقت دون أى سلاح. ثم عاد كل شيء إلى وضعه الطبيعى.

وقد وصل التمرد فى أسيوط إلى حجم كبير. فقد تم هناك حرق مخزن للأرز، وقسم مرور، وحوالى ٢٠٠ سيارة. ولإخماد التمرد فى أسيوط استخدمت وحدات من سلاح المشاة والدبابات.

وللأسف، لم يخل الأمر من إلقاء ظلال على اليساريين، بل وعلى الاتحاد السوفييتى بخصوص التمرد، بادعاء قيام اليساريين بتنظيم هذا الهرج لمصلحة الأخير. وقد كتب ذلك رئيس حزب الأحرار الاشتراكيين "مصطفى مراد" فى "جريدة الأحرار"، فقمت بإصدار بيان بخصوص ذلك. وقد أخطرت بعده أن الرئيس مبارك سوف يدلى ببيان، موضحا فيه عدم وجود أية علاقة لليساريين المصريين بالأحداث التى جرت. وبالفعل، أدلى بهذا البيان للصحافة المصرية، وكذلك للصحافة الأجنبية.

العمل لتوسيع مجالات الاتصالات السوفييتية- المصرية

غطت أخبار التمرد، لفترة ما، على باقى الأحداث فى وسائل الإعلام المصرية. كما أن ذلك انعكس أيضا على ما كان يوجه من اهتمام فى الإعلام المصرى إلى المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى، الذى كان معقودا فى تلك الأيام. ولم تكن هناك أية نية للإمساك عن الكلام عنه، لكن كان ما ينشر عنه من مقالات قصيرا، وليس بشكل بارز. وكنت أريد تصحيح ذلك بشكل ما. وفى النهاية، قمنا بما يلى: قمنا، أنا والممثل التجارى أ.ف. كازانتسيف، بعقد مؤتمر صحفى للصحفيين المصريين، فى مقر وكالة الأنباء "نوفوستى"، عن المؤتمر وعن العلاقات السوفييتية – المصرية. وبالإضافة إلى ذلك، قمت منفردا بإعطاء حديثين صحفيين كبيرين، ألقيت الضوء فيهما عامة على قرارات المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى. وقد نشر الحديث الأول بجريدة "الأخبار" فى يوم ١٣ مارس، وشغل نصف صفحة بها، أما الثانى، فنشر فى جريدة "الأهرام" فى يوم ١٩ مارس. وخصصت له الجريدة صفحة كاملة. وقد قيل لى إن الجرائد المصرية لم تنشر منذ زمن بعيد مثل هذه الأحاديث الكبيرة مع

السفراء. وعلى أية حال، فطوال فترة عملى فى مصر، لم يتم نشر مثل هذه الأحاديث الطويلة فى الصحف المصرية، وقد قيمت ذلك بأنه دلالة أخرى على التحسن الذى يحدث فى العلاقات السوفييتية- المصرية.

وكنت أرى أن أحد واجباتى الهامة هو إعادة مختلف العلاقات بين الاتحاد السوفييتى ومصر، تلك التى كانت موجودة، وتم استخدامها بتوسع فى الستينيات، لكنها فقدت فى السبعينيات. وكان يعمل الكثير من موظفى السفارة فى هذا الاتجاه. فقد زاروا مختلف الوزارات والهيئات، والجهات العامة، والجامعات، والهيئات الثقافية، حيث اجتهدوا فى استيضاح درجة اهتمامهم، ومدى استعدادهم للاتصالات مع مناظريهم السوفييت. وكان نفس الشيء يتم بالتوازى مع الهيئات والجهات السوفييتية (لكن على شكل مكاتبات). ولا أقول إن ذلك العمل كان يسير بسهولة، فقد أثر تنابذ قائم، وكان يشعر بذلك مع الجانبين. لكن الوضع استقام تدريجيا.

فكما قلت من قبل، زار مصر وفود اتحاد المعماريين، واتحاد المؤلفين الموسيقيين بالاتحاد السوفييتى. كما تمت دعوة رئيس الكونسرفاتوار القاهرى لزيارة موسكو، كعضو شرف فى المسابقة الدولية الموسيقية السابعة، التى تحمل اسم ب.أ. تشايكوفسكى. كما حضر إلى القاهرة من يعملون عندنا فى السينما (بصفة خاصة، المخرج إليم كليموف، والممثلة جالينا بولسكيخ). أما السينمائيون المصريون، فقد شاركوا فى مهرجان موسكو السينمائى. وقد سارت تنمية العلاقات بين كلية الألسن بجامعة عين شمس، ومعهد موسكو للغة الروسية، المسمى بمعهد "بوشكين". كما ظهرت مجموعة متدربينا بجامعة القاهرة. وتزايد مع مرور السنوات، عدد المصريين الملتحقين للدراسة بالمعاهد والجامعات السوفييتية. وقد سافرت إلى مصر مجموعة من العلماء السوفييت، الأعضاء فى جمعية "زنانيا" (المعرفة). وقد سلمنا المصريين دعوة لبداية التعاون فى مجال نشر الكتب، ولإقامة علاقات عمل مع الوكالة العامة للاتحاد السوفييتى لحماية الملكية الفكرية. وظهرت

بعض المبادرات لإعادة الاتصالات فى خط النقابات والهيئات التعاونية. وتم فى يولية ١٩٨٥، توقيع خطة التعاون الثقافى لعامين.

وفى نفس الوقت، وبغض النظر عن التقدم الواضح إلى الأحسن، فإن العلاقات مع الاتحاد السوفييتى ظلت موجودة فى وضع خاص فى مصر. فعلى سبيل المثال، ها هى رواية إحدى معارف سفارتنا الكرام، راقصة الباليه المصرية "ماجدة صالح"، التى كانت قد درست بالمعهد العالى للباليه بمسرح البولشوى، التى حكتها لى... كانت فى وقت عملى بالقاهرة عميدة للمعهد العالى للباليه بأكاديمية الفنون بجمهورية مصر العربية. وكان يجب أن تسافر فى مهمة إلى موسكو، لكنها لم تسافر. وفى النهاية، تبين أنه لكى تسافر فى مهمة عمل إلى موسكو، كان مطلوبا منها الحصول على موافقة رئيس مجلس وزراء مصر، فى الوقت الذى كان السفر فى مهمة مماثلة إلى باريس يتطلب فقط موافقة وزير الثقافة. وقد أدى الروتين فى مكتب رئيس الوزراء إلى تأجيل المهمة عدة مرات. وفى النهاية، هذه مجرد صعوبات، لكنها مؤشر عن أسلوبهم للتعامل.

وقد ناقشت مع الأمين العام للحزب الوطنى الديموقراطى الحاكم "يوسف والى" عدة مرات إمكانية عمل اتصالات غير رسمية عن طريق الحزب. وفى النهاية، اتفقنا على البداية بالاتصالات بين هيئات الشباب بالحزب الوطنى الديموقراطى مع لجنة منظمات الشبيبة السوفييتية عندنا. فزار مصر وفد شبابى سوفييتى، برئاسة نائب رئيس لجنة منظمات الشبيبة بجمهورية روسيا الاتحادية السوفييتية الاشتراكية "محمد شينى". وقد عقدت جولتى مفاوضات مع رئاسة لجنة الشباب بالحزب الوطنى الديموقراطى، ثم استقبلها بعد ذلك يوسف والى. وقد حضرت هذا اللقاء. وقد سرتنى رؤية أن نائب رئيس مجلس الوزراء، سكرتير الحزب الحاكم، قد خصص أكثر من ساعة؛ لتعريف نشطائنا من الشباب بالواقع المصرى. وقد قام بذلك بموضوعية شديدة، فلم يجمل أى شىء. ثم قدم هو نفسه بعض الأسئلة، بخصوص مبادئ واتجاهات نشاط اتحاد الشبيبة الشيوعية اللينينية

لعموم الاتحاد السوفييتى، والهيئات الشبابية السوفييتية الأخرى. وكان هناك إحساس بأن ذلك كان بالفعل يهمه، كأحد قادة الحزب الحاكم بمصر. ثم قال لى إنه استخلص الكثير المفيد من الحديث. وقد قمنا أيضا بترتيب لقاء للوفد مع أحد أمناء الحزب الوطنى التقدمى المعارض، أى أننا حافظنا على التوازن السياسى. ولم يتسبب ذلك فى أية اعتراضات من جانب المسئولين الرسميين بالقاهرة. ويبدو أنهم كانوا مدركين فى رئاسة الدولة أننا لا ننوى التدخل فى الحياة السياسية للبلد، لكننا فقط نحافظ على اتصالاتنا الطبيعية مع الأحزاب الرئيسية بمصر.

وفى أبريل، حضر إلى مصر وفد القانونيين السوفييت، وقد أظهر المصريون تجاهه أيضا كرم ضيافة واضح. فقد استقبله وزير العدل "أحمد عطية"، ورئيس مجلس الشعب "رفعت المحجوب"، ورئيس مجلس الشورى "صبحى عبد الحكيم". وكان من الشيق لى، بما أنى تلقيت تعليمًا قانونيًا، المشاركة فى اللقاءات التى نظمت لوفدنا. فلم تتح لى الفرصة قبل ذلك للغوص فى خصائص العدل المصرى، وفى أسس المحاكمات، ونظام العقوبات، وغيرها. لذلك، وبفضل حضور وفدنا، أصبح جانب آخر من حياة المجتمع المصرى واضحا لى. وأتذكر أننى كنت أعتقد أنه لو اتسع تبادل الوفود بصورة أكبر، فسوف أصبح مع مرور الوقت خبيرا فى مختلف شئون مصر.

وأعطت أيضا أحاديثى عن جمعية الصداقة المصرية السوفيتية نتائج طيبة. ففى نهاية الأمر، قالت لى وزيرة الشئون الاجتماعية "آمال عثمان" إنه سوف يتم إنشاء الجمعية من جديد، حيث إن ذلك سيكون أسهل من إعادة إحياء الجمعية التى ألغاها ومنعها السادات، وإنها قد بدأت فى إنشائها. وقد استغرقت هذه العملية عدة أشهر. وقد بدأت الجمعية فى نشاطها فى ديسمبر ١٩٨٦. وقد رأسها وزير الدولة للشئون الخارجية بطرس غالى.

زيارة البرلمانيين السوفييت

أصبحت زيارة وفد مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي هي أهم الأحداث السياسية في العلاقات السوفييتية المصرية، في النصف الأول من عام ١٩٨٦. وقد انشغلنا بالتجهيز لها عدة شهور، وقابلنا عدة مرات رئاسة برلمان جمهورية مصر العربية لهذا الغرض، كما أننا قمنا بالمراسلات اللازمة مع موسكو. وقد رأس الوفد نائب رئيس مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي، رئيس مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية جورجيا "ب.ج. جيلاشفيلي". كما أنه كان يضم اثنين من أعضاء الحكومة، هما وزير الطاقة الكهربائية وكهربة الاتحاد السوفييتي "أ.أ. مايوريتس"، والمدير العام لوكالة تاس "أ. لوسيف". وكذلك رئيس مجلس إقليم لنينجراد "ف.أ.بوبوف"، ورئيس مزرعة تعاونية من أوزبكستان "أ.ى.يوسوبوف". وقد سررت، بصفة خاصة، بعضوية كل من مايورتس، ولوسيف في الوفد: حيث إن وجود الأول كان مطلوبا؛ للتباحث مع المصريين في شئون التعاون في مجال الطاقة الكهربائية. أما الثاني، فكان يتوقف عليه حجم ونوع المواد التي ترسلها تاس عن مصر. وقد كان ذلك هاما لتكوين رأي سليم، غير مشوه، عن هذا البلد في المستويات العليا للسلطة السوفييتية. وكنت آمل في أن وجود أعضاء الوفد في مصر، وبصفة خاصة لقاءاتهم مع الرئاسة المصرية (وقد اجتهدنا لكي يتم استقبال الوفد في المستويات العليا) سوف يكون لهما التأثير اللازم على أعضاء الوفد. وقد حاولنا نحن أيضا من جانبنا، عن طريق المناقشات مع أعضاء الوفد، أن يكون لديهم تصور موضوعي عن البلد التي حضروا إليها، وعن خصائص وضعها وسياستها. وما كان يؤرقنا هو أنه كانت ما تزال منتشرة في موسكو فكرة مشوشة، مرتبطة بأنماط ضجرنا العميق من السادات.

وكان بافل جيورجيفيتش جيلاشفيلي قد استعد جيدا لهذه المهمة، فقد درس الوثائق بإمعان. وكان كما دلت عليه المباحثات "على المستوى المطلوب تماما"،

كسياسى وكخطيب. وكان عليه، بصفته رئيسا للوفد، أن يتحدث هو أساسا باسمه فى المناقشات الرسمية، واللقاءات البروتوكولية.

وقد وصل الوفد إلى القاهرة فى يوم ١٨ مارس، وبقى فى مصر أسبوعا. وكان شريكه الرسمى هو وفد مجلس الشعب بجمهورية مصر العربية، الذى كان يرأسه "رفعت المحجوب". وقد جرت عدة مناقشات. كما جرى الحديث عن هيكل، وطريقة عمل البرلمانين، واللجان البرلمانية، والوضع فى البلدين، وخطط التنمية والمشاكل. وتحدث جيلاشفيلى كثيرا عن المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى، وعن قراراته المتعلقة بالسياسة الداخلية والخارجية، وعن بيان جورباتشوف فى ١٥ يناير. وعامة، فقد تناول الحديث أيضا العلاقات السوفييتية المصرية. كما استقبل الوفد أيضا رئيس مجلس الشورى "صبحى عبد الحكيم".

وفى الاستراحات بين الاجتماعات، تعرف الوفد على القاهرة، وبالطبع زار الأهرام. ثم طرنا إلى الأقصر، حيث زرنا معابد الضفة اليمنى للنيل، ومدافن الفراعنة على الضفة اليسرى. وفى المساء، حضرنا عرض "الصوت والضوء". أما فى اليوم التالى، فقد تناولنا الإفطار مع بطرس غالى، الذى طار لهذا الغرض إلى الأقصر، ثم سافرنا بالطائرة إلى أسوان. ولأول مرة، طرت فى سماء مصر فوق النيل، فنظرت من أعلى إلى واديه، واقتنعت بأنه ضيق جدا: ثعبان رفيع بين مساحات رملية صفراء لا نهائية. وزرنا فى أسوان السد العالى، والمحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء (الأخيرة من الخارج، ومن الداخل). وقد درسها مايورتس باحتراف، ووجه أسئلة كثيرة، أما الآخرون، فكانوا فقط متواجدين. أمضينا الليل فى فندق "نيو كاتاراكت"، على الضفة اليمنى للنيل، وزرنا بعض معالم المنطقة. ثم عاد الوفد سالما إلى القاهرة. وكانت توجد انطباعات كثيرة عند الجميع، اقتنعت بأنها إيجابية.

وكان أكثر الأيام المشحونة هو يوم ٢٤ مارس، الذى تمت فيه زيارات الوفد لنائبى رئيس مجلس الوزراء، ورئيس الوزراء، ثم فى النهاية للرئيس. وقد حدث هذا التركيز؛ لأنه كان يزور القاهرة، فى نفس الوقت، رئيس جمهورية الصين الشعبية، فكان لا يوجد اختيار آخر. لكن لم يتم إلغاء أى من المقابلات التى كانت محددة لنا، ولم يتم اختصار أى منها. وقد قام المصريون تماما بكل العناصر التى تم الاتفاق عليها لاستقبال الوفد البرلمانى السوفييتى.

وكان يتعامل جيلاشفيلى بمرونة، محاولا ألا يكرر نفسه بقدر الإمكان ولو فى الكلام حرفيا. لكن كان يظهر دائما فى حديثه المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى، وخطط التعجيل بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلد، وبرنامج نزع السلاح النووى. كما كان دائما يتم التأكيد على الرغبة المخلصة للشعب السوفييتى، ولرئاسة الحزب، وحكومة الاتحاد السوفييتى، فى السير على طريق تطبيع وتنمية التعاون الفعال مع جمهورية مصر العربية. ومن ناحيتهم، أعلن كل المسئولين الرسميين المصريين أن تطبيع العلاقات المصرية – السوفييتية، والتغلب على مشاكل المرحلة السابقة، تدريجيا وبإصرار، والاستمرار فى توسيع وتعميق التعاون مع الاتحاد السوفييتى فى كل المجالات، يمثلون الخطوط الرئيسية فى سياسة رئاسة دولة مصر.

وفى خلال المناقشات، كنت أدون ملاحظات فى مفكرتى، وأسجل ما يمثل لى أهم ما قاله المتحدثون المصريون. وسوف أعرض هنا ما قالوه مباشرة عن العلاقات السوفييتية- المصرية:

يوسف والى: (نائب رئيس الوزراء، أمين عام الحزب الوطنى الديموقراطى): يتذكرون جيدا فى مصر، ويقدرون ما فعله الاتحاد السوفييتى فى الماضى للشعب المصرى. فقد تم بناء أكبر المشاريع فى مصر بمساعدته، مثل: السد العالى، والمحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء فى أسوان، ومجمع حلوان للحديد والصلب، ومصنع الألومنيوم بنجع حمادى، التى يسير فيها العمل بنجاح،

وتعتبر "أهرامات خالدة للتعاون السوفييتي - المصرى". ولم ينقطع هذا التعاون أيضا فى مجالات الزراعة وصيد السمك. وما زال تدريب الكوادر المصرية مستمرا فى الاتحاد السوفييتى، وقد حافظ الاتحاد السوفييتى على وجوده الملموس فى مصر. وأساس العلاقات هو الصداقة المخلصة بين الشعبين. ويتم التغلب، تدريجيا، على المشاكل المتبقية من المرحلة السابقة. ويعتبر قرار رد المبنى السكنى للسفارة حركة تدل على هذه النية الحسنة.

وقد أعرب والى عن أمله فى مشاركة الاتحاد السوفييتى، والدول الاشتراكية، فى مشاريع استصلاح الأراضى الجديدة، فالشركات الغربية لا تبدى اهتماما بذلك، لأن هذه المشاريع لا تعد بسرعة دورة رأس المال، كما أنها تؤدى إلى زيادة الطبقة العاملة، ومن ثم تؤدى، فى النهاية، إلى تحرر البلد من أسر التبعية الغذائية للولايات المتحدة الأمريكية، والدول الغربية الأخرى.

وقال والى إنه جارية دراسة تجربة الحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى، كحزب حاكم، فى الحزب الوطنى الديموقراطى. وقد قال والى، معبرا عن الانطباع الإيجابى الذى تركته زيارة وفد لجنة المنظمات الشبابية السوفييتية فى مصر: "إن الحزب الوطنى الديموقراطى قد قرر، من فترة وجيزة، عمل الخطة التالية - إرسال دعوة لوفد اتحاد الشبيبة الشيوعية اللينينية لزيارة جمهورية مصر العربية، وطلب أن تقام اتصالات أيضا مع الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى نفسه.

عصمت عبد المجيد: (نائب رئيس الوزراء، وزير الخارجية): نحن نؤيد الوضوح والصراحة فى العلاقات بين مصر والاتحاد السوفييتى، ونؤيد الحوار بخصوص كل المواضيع المؤرقة لنا. ومصر تعبر بإخلاص ووضوح عن رغبتها فى الاستمرار فى تقوية أواصر الصداقة بين شعبي مصر والاتحاد السوفييتى، على أساس من الاحترام المتبادل، وعدم التدخل فى الشئون الداخلية. وسيسافر فى يوم ٢٥ مارس وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية "سلطان أبو علي"، على رأس وفد مصرى إلى موسكو؛ لإجراء مباحثات خاصة بالديون العسكرية، وبمواضيع

أخرى. وسوف يفعل الجانب المصرى كل شيء من أجل نجاحها. وتوجد مشاكل معقدة وجدية فى علاقاتنا، تتمثل فى ديون مصر عن القروض الخاصة، ومشكلة فائض الميزان التجارى المتراكم والميزان التجارى. ومصر مستعدة للوفاء بكل التزاماتها نحو الاتحاد السوفييتى. ونحن ننظر بتفاؤل وهدوء إلى مستقبل علاقاتنا مع الاتحاد السوفييتى.

وقد أجاب مجيد على سؤال جيلاشفيلى، عن موعد إلغاء إجراءات التفرقة نحو الاتحاد السوفييتى، والسفارة السوفييتية، بأن هذه المواضيع فى مرحلة الدراسة، وأنها سوف تحل بالتدريج.

على لطفى: (رئيس مجلس الوزراء): تربط بين مصر والاتحاد السوفييتى اليوم علاقات سياسية واقتصادية وتجارية، تتصف بأنها حسنة. ويأملون فى مصر فى أن زيارة وفد مجلس السوفييت الأعلى لمصر، ومباحثات سلطان أبو على فى موسكو، سوف تمنحان دفعة قوية لتنمية العلاقات. وسوف تعيد حكومة مصر بالتأكيد النظر فى موضوع حساب قيمة تحويل العملة الحسابية، وهو ما يلح عليه الاتحاد السوفييتى. ومن ناحيتها، تأمل القاهرة أن تجد تفهما من جانب موسكو لما يتعلق بالوضع الاقتصادى الصعب لمصر.

وقد طلب لطفى زيادة عدد المنح الدراسية التى تقدم لمواطنى مصر، لمختلف أنواع الدراسة والتدريب فى الاتحاد السوفييتى.

وقد خصص لطفى، مثل مجيد، جزءا كبيرا من الحديث للوضع فى الشرق الأوسط. وقد ركز رئيس مجلس الوزراء على أنه فى عام ١٩٧٩، لم توقع مصر اتفاقية منفصلة مع إسرائيل، لكنها اتفقت على الأطر العامة لإقامة سلام شامل وعادل فى الشرق الأوسط، وأكد أنه قد ظهرت، بعد عام ١٩٧٩، مشاكل كثيرة ومعقدة فى العلاقات بين مصر وإسرائيل. وكان أهمها: حرب لبنان، وحقوق

الشعب الفلسطينى، واسترجاع مصر لطابا. وكان ما قاله رئيس الوزراء عن الثلاثة مواضيع يحمل طابعًا عامًا، ولم يحتو على أية عناصر جديدة.

وفى آخر المقابلة التى سارت فى جو من حسن النوايا، طالب لطفى بتوسيع مختلف وسائل الاتصالات بين الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية. وقد قال مبتسما إنه هو نفسه على استعداد للسفر إلى موسكو، إذا تلقى مثل هذه الدعوة.

وكانت بالطبع أهم لحظة فى زيارة الوفد، هى مقابلة رئيس الدولة. وقد كانت هذه المقابلة متسمة بالدفء، وبحسن النوايا. وكان مع جيلاشفيلى رسالة لمبارك من رئاسة مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتى، وقد بدأت المقابلة بتسليمها له. وكانت عبارة عن مستند واسع إلى حد ما، يدور عامة حول المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى، وبيان جورباتشوف فى ١٥ يناير، مع التركيز على أهمية المقترحات السوفييتية للإنسانية عامة، حيث إنها موجهة لتسوية المشاكل الساخنة فى العصر الحديث، وإلى منع قيام حرب نووية، واستخدام الإمكانيات المتوفرة من أجل الاحتياجات الاقتصادية للدول، وحل مشاكل التنمية. وكانت توجد فى الرسالة عدة ملاحظات هامة، متعلقة بوضع ومستقبل العلاقات السوفييتية – المصرية. فقد جاء فيها، بصفة خاصة، أن تنمية العلاقات البرلمانية بين البلدين يعكس التحول العام فى العلاقات الثنائية إلى الأحسن. وأن هذه الاتصالات قد أصبحت عنصرا بناء لبناء الحوار السياسى بين الاتحاد السوفييتى وجمهورية مصر العربية، ولتبادل الآراء عن المواضيع التى تمثل أهمية مشتركة للجانبين. كما أشير بها إلى أن امتلاء العلاقات السوفييتية – المصرية بمحتويات إيجابية لن يفيد فقط الشعبين، بل سيفيد أيضا موضوع تحسين حالة المناخ العالمى عامة. وقد أضاف أيضا جيلاشفيلى إلى الرسالة المكتوبة التحيات الشخصية، وأطيب التمنيات من م.س. جورباتشوف، وأ.أ. جروميكو. وقد منح ذلك نبرة جيدة للمناقشة التى امتدت إلى ساعة ونصف كاملة.

وكان مبارك بسيطا وحميما طوال المناقشة. وكان يتذكر أيام دراسته التدريبية بقاعدة الطيران فى جمهورية "كيرجيزيا"، والنصف سنة التى أمضاها فى مدينة "ريازان"، حيث ارتقى بقدرته على الطيران، ثم فى النهاية، دراسته بالأكاديمية الحربية، التى تحمل اسم "فرونزى" بموسكو. وقد قال الرئيس إن جذور ذكريات زمن التعاون المخلص بين الاتحاد السوفييتى ومصر ممتدة بقوة فى قلوب المصريين، وإن الشعب ما زال، حتى الآن، يحتفظ للاتحاد السوفييتى بمشاعر الود والعرفان بالجميل. وقال مبارك إننا عندما نتعامل مع بعض، لا نضطر إلى بذل جهد من أجل ابتسامات مصطنعة، فهى تخرج من القلب؛ لأننا بالفعل ممتنون تماما على المساعدة والمساندة. فلنأخذ، على سبيل المثال، سد أسوان. لقد حمى مصر فعلا، مرة من الفيضان، وثلاث مرات من الجفاف والجوع، الذى أصاب الدول الأخرى لحوض النيل بقسوة.

وأكمل مبارك: "إننا لم نفكر أبدا فى "الطلاق" من الاتحاد السوفييتى، رغم أنه توجد أحيان صعبة بين الأصدقاء. وقد دخلت الآن علاقاتنا إلى مرحلة أخرى. فمن ناحيتنا، نحن منطلقون من أنه يجب عمل كل شيء بحذر، وأن نزنه، وبالتدريج؛ لكى نسير إلى الأمام بلا تعثر، وبلا سقوط للأمام، لأن مصر بلد به مشاكل وصعوبات كثيرة، وتقع فى منطقة غير هادئة. وسوف يعود الوفد السوفييتى إلى موسكو على نفس رحلة الطيران التى يتجه عليها الوفد المصرى إلى هناك، لإجراء المباحثات بخصوص الديون. وإذا سنحت الفرصة، فإنهم سيحدثونكم بتفاصيل أكثر عن الوضع الاقتصادى بمصر الآن، وكيف أنه صعب بصفة خاصة الآن. لقد عانت الخزينة، مرة واحدة، من ثلاث مصائب: من الهبوط الحاد فى أسعار النفط، ومن انخفاض دخل قناة السويس، ومن أن مئات الآلاف من المصريين الذين سافروا للعمل فى دول عربية أخرى، فقدوا عملهم هناك، واضطروا للعودة إلى وطنهم. وهذا قد عقد المشاكل الاجتماعية فى مصر. لذلك فإننا نأمل فى أن الجانب السوفييتى سوف يتعامل مع صعوباتنا بتفهم". وقد طلب

الرئيس توصيل م.س. جورباتشوف، وأ.أ.جروميكو، أنه يريد بإخلاص تقوية علاقات الصداقة والتعاون بين بلدينا وشعبينا، وكذلك تحياته الشخصية، وأحسن تمنياته.

وفى خلال الحديث، لمس مبارك الكثير من المواضيع، واهتم بمعرفة انطباعات الوفد عما شاهده فى مصر، وحكى عن المهمات التى يجب أن تحل فى بلده، كما أنه وجه أسئلة بخصوص خططنا. لذلك كان الحوار هو سمة المقابلة. وقد بقى عندى شخصيا انطباع جيد جدا. فقد خيل لى أن الرئيس يتصرف بصراحة أكبر، وبثقة أكبر، من مقابلة إلى أخرى، كما أنه يفعل ذلك بأمانة؛ بسبب مشاعره الحسنة تجاه بلدنا. كما أن الوفد أيضا كان مسرورا جدا بمسار المقابلة مع الرئيس.

وفى نهاية الزيارة، عقد الوفد مؤتمرا صحفيا للصحفيين المصريين والأجانب، فى فندق "ميريديان"، حيث أقام الوفد. وحضر المؤتمر حوالى ٤٠ صحفيا. وقد رد على أسئلتهم كل من جيلاشفيلى، ومايوريتس، ولوسيف. وقد ظهرت تقارير عن المؤتمر الصحفى فى عدد من وسائل الإعلام المصرية. وبالإضافة إلى ذلك، فقد قدم جيلاشفيلى أحاديث خاصة لكل من جريدة "الأهرام"، والمجلتين المصريتين الاجتماعيتين - السياسيتين "المصور"، و"روز اليوسف"، وكذلك لمجلة "الوطن العربى" التى تصدر باللغة العربية فى باريس، الذين قاموا بنشرها. وعامة، كانت زيارة الوفد قد حظيت طوال امتدادها على تغطية كاملة وحسنة في وسائل الإعلام المصرية، ومنها التليفزيون. وبذلك، من هذه الناحية أيضا، مرت بنجاح أول زيارة لمصر، فى السنوات الأخيرة الطويلة، لوفد برلمانى سوفييتى. كما أن الجانب المضيف كان راضيا عنها. وقد تمت تغطية جيدة للزيارة أيضا فى الصحافة السوفييتية، وهو ما قد يكون بسبب اشتراك المدير العام لوكالة تاس "أ. لوسيف" فى الوفد. وكنت، أنا نفسى، قد طلبت من موسكو أن تعتنى بهذا الجانب الهام من العمل. وقد أصبحت زيارة وفد المجلس الأعلى للاتحاد السوفييتى، كما توقعنا، حدثا سياسيا هاما فى العلاقات السوفييتية - المصرية.

تقريب المواقف فى مباحثات الديون

وحيث إنى قد تحدثت أعلاه عن زيارة سلطان أبو على لموسكو، فسأقول فورا، إنه رغم أنه لم تتم تسوية مشكلة الديون، والفائض المتراكم فى الميزان التجارى إلى النهاية، إلا أن الوفد المصرى عاد إلى القاهرة راضيا عن التقدم الذى تم التوصل إليه فى المباحثات، خاصة تحركنا فى موضوع الفائض المتراكم فى الميزان التجارى (فقد فرضنا، من حيث المبدأ، إمكانية استخدامه جزئيا من أجل حصول الجانب المصرى على منتجات يحتاجها من المصنوعات السوفييتية). وقد عبر لى الباز، أيضا، عن ارتياحه لذلك. وأسبق الأحداث للأمام لكى أقول إنه فى نوفمبر- ديسمبر ١٩٨٦، عقدت جولة أخرى للمفاوضات. وقد مثل فيها الاتحاد السوفييتى الرئيس الجديد للبنك المركزى "ف.ف. ديمنتسيف". وقد أدت هذه الجولة لتقريب الجانبين لحل وسط، تم التوصل إليه لصالح كلا الجانبين فى العام المقبل. لكن تم ذلك، فيما بعد، بدونى.

وقد اكتسبت نوايا المصريين تجديد التعاون العسكرى صورا جديدة أكثر تحديدا – ففى نوفمبر ١٩٨٦، زار موسكو وفد عسكرى؛ لإجراء مباحثات لشراء قطع غيار وأسلحة صناعة سوفييتية.

الضربة الأمريكية لليبيا

أتذكر أبريل عام ١٩٨٦ بعدة أمور. فأولا، الانفعالات السياسية الحادة المتفجرة حول ضرب الطيران الأمريكى لعدة مدن ليبية بالقنابل. وقد بدأ ذلك فى يوم ٥ أبريل، فى برلين الغربية، حيث قتل عدد كبير من الأشخاص نتيجة لعمل إرهابى. وكان من بين القتلى مواطنون أمريكيون. وبالطبع، كانت العملية الإرهابية موجهة ضدهم فى الأساس. وتوصلوا فى واشنطن إلى نتيجة تقول إن خيوط العملية الإرهابية ممتدة إلى ليبيا. ومن الجائز تماما أن تكون تلك هى الحقيقة فعلا، رغم أن ليبيا قد نفت مشاركتها فيها. وقد قام الطيران الأمريكى، المتمركز فى

بريطانيا العظمى، بشن هجوم على ليبيا من باب الانتقام، فضربت تلك الأماكن التى تقول أمريكا إن بها قواعد لتدريب الإرهابيين. كما أكدت السلطات الليبية أن ضحايا عمليات الطيران الأمريكى أصبحوا من المدنيين المسالمين. وكانت الثمانينيات سنوات كان الرأى العام العالمى لا يثار جدا نتيجة الأعمال الإرهابية من جانب المتطرفين العرب، معتبرا أن أعمالهم تعتبر إلى حد كبير كفاحًا ضد قوى الاستعمار الجديد والإمبريالية. لذلك فإن ضرب ليبيا، خاصة على خلفية التوتر الذى استمر لسنوات عديدة فى العلاقات الأمريكية – الليبية، أدى إلى انفجار حقيقى للمشاعر المعادية لأمريكا، رغم أنه لم يكن فى كل مكان.

وقد انضمت موسكو فورا إلى حملة الاعتراض، ليس فقط بقيامها بإصدار بيان رسمى حاد، واتخاذها خطوات فى مجلس الأمن بهيئة الأمم المتحدة، لكنها زادت عليها بنشر رسالة شخصية من جورباتشوف لمعمر القذافى فى يوم ١٨ أبريل. وقد وصف فيها عمل الولايات المتحدة الأمريكية بأنه "عدوان مسلح"، وبأنه "وحشى"، ودسائس "مجرمة"، وكذلك بأنه "تصرف شرير من الإمبريالية الأمريكية"، وأيضا "عمل عدوانى موجه لدولة عربية ذات سيادة". كما جاء فى خطاب جورباتشوف": إننا نؤكد لكم مرة أخرى، أيها الرفيق القذافى، ولكل الشعب الليبى تضامننا الكامل معكم، كما أريد أن أؤكد أن الاتحاد السوفييتى ينوى الآن، وفى المستقبل، تنفيذ الالتزامات التى أخذها على نفسه بالاستمرار فى تقوية القدرات الدفاعية لليبيا".

تلقت سفارتنا فى مصر، ككل ممثلياتنا الدبلوماسية، أوامر بالعمل على تحريك الرأى العام فى البلاد الموجودة بها؛ لتأييد ليبيا، ولتقف ضد الطغيان الأمريكي. ويجب أن أقول إنه فى نهاية مارس، وبسبب حدث آخر أمريكى– ليبى، تم فيه إسقاط مقاتلة ليبية، كنت قد توجهت إلى الباز أيضا، بناء على أوامر موسكو لكى أدفع القاهرة لاتخاذ موقف أقوى. وقد نقد الباز، فى ذلك الوقت، عمل الولايات المتحدة الأمريكية، لكنه قال إن الجانب المصرى لن يقوم بعمل أى شىء آخر،

غير الخطوة الدبلوماسية التى قامت بها القاهرة أمام واشنطن. وقد فسر ذلك بأنه فى أثناء تمرد جنود قوات الأمن المركزى، حث القذافى المصريين على تأييد المتمردين، مدعيا أن تصرفهم ليس إلا احتجاج على كامب ديفيد وعلى السلام مع إسرائيل. وقد أكد الباز أن القذافى على خلاف مع كل العرب، وأنه فيما يخص مصر، يستخدم أقل فرصة لكى يضرها. وقد قال الباز إن تصرفات القائد الليبى غير مسئولة، ولا عقلانية، ولا تمثل مصالح ليبيا نفسها. ويجب الاحتراس منه وصده، وليس إمداده بالأسلحة الحديثة على دفعات متتالية.

أما فى هذه المرة، فقد كان نقد المصريين لعمل واشنطن أقوى، كما تم إعلانه فى الصحافة، دون أن يقوموا بأى انحناءات لتحية القذافى. وفى المحادثات الخاصة مع المصريين، الذين كنت أتناقش معهم، كان الغالبية يلقون بالذنب على القذافى نفسه لما حدث، حيث إنه فى رأيهم يسمح لنفسه بالكثير، وإنه قد تمادى فى اللعب مع المنظمات الإسلامية المتطرفة، حيث يوفر لهم الحماية السياسية والمالية، والصور الأخرى منها. وكنت ميالاً فى داخلى إلى أن المصريين على حق فى الكثير من شدة الحذر من القذافى. كما أننى كنت أعلم أنهم فى موسكو ليسوا معجبين بقادة الجماهيرية الليبية. لكن عندما تلجأ واشنطن إلى استخدام القوة ضد أى أحد كان، فإنه تنشط عندنا بصورة آلية غرائز عميقة متأصلة ضد الأمريكان. ويمكن الإحساس بذلك حتى الآن، بعد حوالى ١٢ عامًا من الحوادث المذكورة. وفى ذلك الوقت، كانت هناك هستيريا حقيقية فى الكرملين، وفى القيادة الحزبية. وكما كان يحدث دائما من قبل، أثاروا ضجة كبيرة فى موسكو، ثم بعد ذلك بدؤوا مرة أخرى فى تحسين العلاقة مع أمريكا، كما كانت تتطلب الحياة والمصالح الوطنية. وفيما بعد، كتب جورباتشوف نفسه، فى مذكراته: "بدأنا، اعتبارا من عام ١٩٨٦، عمل تصحيحات تحد، خطوة بعد أخرى، من توريد الأسلحة، لكن بطريقة لا تغضب، بصفة خاصة، الدول العربية الصديقة. وبالمناسبة، كانت تدفعنا إلى ذلك

أيضا الاعتبارات المالية"[1] . أضيف إلى ذلك، أن المصريين أيضا دفعونا إلى ذلك. وقد عرضت موقفهم بطريقة وافية.

مع بولياكوف فى مناقشات عمل وعند حفريات "أبى صير"

حضر، أخيرا، إلى القاهرة فى شهر أبريل رئيس قسم بلدان الشرق الأوسط فى وزارة خارجية الاتحاد السوفييتى "ف.ب. بولياكوف". وأكتب" أخيرا"؛ لأننى كنت قد أرسلت عدة برقيات إلى موسكو طالبًا حضوره، محاولا التعجيل به. وكان الباز، فى خلال نصف سنة، قد وضع ثلاث مرات أمامى موضوع رغبته فى إجراء مشاورات تفصيلية، بخصوص كل مجموعة المشاكل الشرق أوسطية. لذلك كان من المطلوب أن يحضر إلى هنا "بولياكوف"، الذى يعرفونه جيدا. لكن كانت أمور لا يمكن تأجيلها تتسبب فى تأجيل سفره لفترة. وكانت قد جرت مشاورات فى وزارة الخارجية، لكن كانت قد تمت بكثرة، وفى مقابلات منفصلة.

إحداها كانت قد جرت مع بطرس غالى، وكانت لها سمة العمومية، وهو ما كان، عامة، يميز أسلوب تعامل وزير الدولة مع الممثلين الأجانب. ولاحظت من كلامه أن بطرس غالى قد أكد أنه "إذا كانت وزارة خارجية مصر فى عهد السادات وحدها هى المؤيدة لتطبيع العلاقات مع الاتحاد السوفييتى، فالآن هذه السياسة تعبر عن رغبة كل الرئاسة، وكل القوى السياسية، وكل الشعب المصرى". (بهذا الإعلان شوه وزير الدولة قليلا الحقيقة، حيث إنه كانت ما تزال توجد فى مصر قوى مؤثرة تقاوم تطبيع العلاقات المصرية – السوفييتية). وطبقا لكلمات بطرس غالى، فهم هنا "مدركون أنه للمحافظة على الاستقلال السياسى لمصر، وحرية اتخاذ رئاسة البلد للقرارات السياسية، وحماية وضع جمهورية مصر العربية، كدولة غير منحازة، يجب أن يكون هناك تنمية متوازنة للعلاقات مع كل من الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفييتى أيضا". وفى رأى وزير الدولة، أنه

---

[1] М.Горбачев. Жизнь и Реформы. Книга 2. М.1995

توجد الكثير من المشاكل فى السياسة الداخلية والدولية، التى يمكن بحلها تنمية التعاون المثمر بين جمهورية مصر العربية والاتحاد السوفييتى بنجاح. وقد ذكر منها: تسوية قضية الشرق الأوسط، والقضية الفلسطينية، والنزاع العراقى- الإيرانى، ومعاونة الدول الأفريقية على التغلب على الأزمة الاقتصادية الحادة.

وكانت المناقشات مع الباز ممتعة أكثر بكثير، وأغنى بالمضمون، فقد بينت أن مواقفنا كانت غير متطابقة، كما فى الماضى، بخصوص بعض عناصر الوضع الشرق الأوسطى، لكن كان من الواضح وجود اتجاه لتقريبها. وقد حدث ذلك، أيضا، بفضل تطوير آرائنا الخاصة بسمة السياسة الشرق أوسطية لأهم دول المنطقة. وكما بدا لى، كان هذا التطور ما زال ضعيفا جدا وبطيئا. وكانت موسكو قد خرجت بصعوبة من الحالة التى تسبب فيها السلام المنفصل لمصر مع إسرائيل، رغم أن هذا السلام قد جاءنا بمكاسب حقيقية على شكل إمكانية استخدام قناة السويس، وهو ما وفر لنا أموالاً ضخمة، وقلص، عامة، من خطر تفجر المنطقة القريبة من حدودنا. ورغم أن مشاورات بولياكوف لم تعمل أية "اكتشافات"، إلا أنها كانت بالتأكيد مفيدة، وأنها فى وقتها المناسب، حيث إنه كان قد ظهر فى موسكو أشخاص جدد عند دفة السياسة الخارجية، كان من الأسهل عليهم أن يلقوا بنفسهم بآراء جديدة فى المشاكل التى تقادمت، بغض النظر عن لمن، وكيف، وبمبادرة من اتخذت أية من القرارات؟ لذلك فقد أصر المصريون على المشاورات مع بولياكوف، كخبير مميز فى شئون الشرق الأوسط، على أمل أن يستوضحوا من ناحية، مدى ظهور شىء جديد فى موقف الاتحاد السوفييتى، ومن ناحية أخرى، أن يقدموا هم، من خلال بولياكوف، آراء محددة بخصوص أسباب التوتر فى الشرق الأوسط، وطرق إضعافها.

وأنا أتذكر حضور بولياكوف أيضا؛ لأننا ذهبنا معا إلى الحفريات، بمنطقة "أبوصير". وكان بولياكوف، الذى عاش فترة طويلة فى مصر، وسافر فى كل البلد، يريد أن يشاهد شيئا ما جديدا. ولم يكن الوقت متاحا للقيام بسفر بعيد. لذلك قررنا

الذهاب إلى الحفريات المشار إليها، القريبة من القاهرة، التى كان يقوم بها أثريون من تشيكوسلوفاكيا. وقد اتفقنا معهم بسهولة على الزيارة، خاصة أن "د. فيرنر" سبق أن دعانى للذهاب لمشاهدة ثمرات عملهم. وأمضينا تقريبا يوما كاملا هناك. وكان معنا أيضا بعض العاملين بوزارة الخارجية الذين طاروا إلى هنا مع بولياكوف. وشاهدنا مرة أخرى مصطبة "بتاح مبسيس". والآن، وبعد أن شاهدت مختلف الآثار المصرية فى الأقصر، وفى أماكن أخرى، أصبحت أنظر إلى "أبوصير" بنظرة أكثر استنارة. لذلك لم يمثل لى ذلك متعة أقل من المرة الأولى. لكنهم أرونا بعض الأشياء الجديدة. فعلى سبيل المثال، عرضوا علينا إحدى وسائل حماية المقابر من اللصوص. ولقد رويت من قبل أن بناء المصاطب يبدأ بحفر بئر ومنشأة على عمق غرفة الدفن. وقد تبين أنهم كانوا أحيانا يحفرون بجانبها بئرين، وكانوا يحدثون فتحة بينهما من أسفل. وبعد الانتهاء من عملية الدفن، وإغلاق غرفة الدفن، كانوا يملؤونهما، هما الاثنتين، برمال جافة ناعمة جدا. وكانت الآبار تعمل بعد ذلك طبقا لنظرية الأوانى المستطرقة: فإذا بدأ اللصوص فى إزالة الرمال من البئر التى يعثرون عليها، كانت تمتلئ فورا من أسفل بالرمال من البئر الأخرى. وقد نزلنا فى السراديب التى عثر عليها حديثا، والتى كان يدفن فيها قدماء المصريين الحيوانات المقدسة. وكانوا يحنطونها هى أيضا، ويضعونها فى توابيت. ولم يكن قد تم تجهيز أى شىء هناك للمشاهدة المريحة. لذلك كان علينا النزول إلى العمق، عن طريق بعض السلالم الطويلة غير الثابتة. لكن ذلك أدى فقط إلى تقوية انطباعاتنا، مثلما أدت حركتنا فى السراديب باستخدام الفوانيس.

وتسلقنا أيضا أحد أهرامات "أبو صير" مع د.فيرنر. وقد روى لنا، من على قمتها، وأرانا الأعمال الأثرية التى يقومون بها، ومدى النجاح الذى حققوه فى السنوات الأخيرة. وقد فكرت فى أنه سوف تمضى عشرات سنوات كثيرة أخرى، قبل أن يتمكن الأثريون من أن يقولوا إنه لم يتبق شىء آخر فى "أبو صير" لم يكتشفوه.

إعادة المبنى المصادر

أخيرا، انتقل فى شهر أبريل موضوع تسليمنا المبنى السكنى، الذى كان قد صادره السادات، إلى المستوى العملى. فقد أخطرنى وكيل وزارة الخارجية أ.ح. مخلوف أنه يمكننا أن نستلم المبنى. لكن عندما اتصلنا بالمقاول العام، الذى يبنى المبنى، "شركة سبيكو" (النيل للخرسانة)، بخصوص ذلك، أعلنت لنا أن وزارة الخارجية لا تمثل لها آمرًا، لكن يجب الحصول على أمر بتوقيع رئيس مجلس الوزراء. وقد استغرق الحصول عليه حوالى شهرين آخرين. وقد حدث ذلك مع العلم بأن قرار إعادة المبنى قد أصدره رئيس مصر منذ أكثر من نصف سنة. ويتفوق البيروقراطيون المصريون على غيرهم فى تعطيل الأعمال بشتى الوسائل.

وفى النهاية، فى يوم ٢٧ مايو، سلم ممثل إدارة البروتوكولات بوزارة خارجية جمهورية مصر العربية المستشار- المبعوث "تسفيجون"، ورئيس مجلس إدارة شركة سبيكو، مذكرة تفيد بالإعادة الرسمية للمنزل، وصورة من قرار رئيس مجلس الوزراء "على لطفى" بذلك. ومن تلك اللحظة، انتقل المبنى إلى ملكية السفارة، وبدأنا المفاوضات مع سبيكو، بخصوص استكمال بنائه.

فى الاجتماع العام بوزارة الخارجية بموسكو

لم أكن فى ذلك الوقت فى القاهرة، حيث إننى كنت قد تلقيت أمرًا بأن أكون فى موسكو، فى وزارة خارجية الاتحاد السوفييتى، لحضور اجتماع فى يومى ٢٣- ٢٤ مايو عن "مهمات الجهاز المركزى، والهيئات الخارجية بوزارة خارجية الاتحاد السوفييتى، لتنفيذ قرارات المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتى، فى مجال السياسة الخارجية". وكان يجب أن يعقد الاجتماع فى وجود كل السفراء السوفييت. وكان هذا أول اجتماع من هذا النوع، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، وممكن أن يكون لفترة أطول. وكان مكتوبًا فى برقية المنشور العام أن على كل من سيشارك فى الاجتماع أن يكون مستعدا لإلقاء كلمة.

وقد أسعدتنى تماما هذه الدعوة للذهاب إلى موسكو، وبصفة خاصة، إمكانية أن أكون مع والدى وأبنائى الذين لم أرهم من منتصف سبتمبر الماضى. وقررنا السفر، أنا وزوجتى معا، على أن تبقى ناتاشا فى موسكو طوال الصيف، وأن أنضم إليها أنا فى وقت ما فى شهر يوليو، عندما آخذ أنا أيضا إجازتى. أما ما يتعلق بإلقاء كلمة فى الاجتماع، فقد قررت أن آخذ فقط على سبيل الاحتياط إحصائية ما، وألا أجهز كلمة، حيث إننى افترضت أنه لن تعطى لى الكلمة غالبا. وكنت أفكر بهذه الطريقة: الاجتماع قصير، وعدد السفراء كبير. لذلك؛ فستكون فرصة إلقاء كلمة متاحة فقط لعدد قليل منهم، لن يزيد عن خمسهم. وعندما يتقرر لمن تعطى الكلمة من السفراء العاملين فى الدول العربية، ستكون الأفضلية للسفير الذى يعمل فى سوريا، أو العراق، أو الجزائر، حيث إن هذه هى الدول التى تمثل نقط ارتكاز لنا فى الشرق الأوسط، وفى شمال أفريقيا. لذلك، لماذا فى هذه الحالة الاستعداد؟ وانشغلت بأمر أهم عمليا، وهو الاستعداد للسفر؛ لأننا لم نكن مستعدين له، حيث إننا كنا نخطط للسفر فى شهر يوليو. وكان يجب شراء هدايا للأقارب والأصدقاء، وبعض الأشياء لنا، حيث إن ناتاشا سوف تبقى قريبا فى موسكو(حيث إنى لم أكن أنا أصلح لذلك، كمعظم الأزواج).

وقد طرنا إلى موسكو فى يوم ٢٠ مايو، ونحن سعداء بأنه قد أسعدنا الحظ بهذه المهمة. وكنت قد حصلت من الباز، قبل ذلك، على وعد بإلغاء تحديد عدد العاملين فى السفارة قبل نهاية العامين، يمكن أن أتحدث عن ذلك، وعن إعادة إحياء نشاط جمعية الصداقة المصرية – السوفييتية، والمخطط له الخريف، وكذلك عن إعادة المبنى كدليل مادى على رفض القاهرة للإجراءات العنصرية التى اتخذت فى عهد السادات. وقد كان التقدم فى المجال السياسى واضحا، وكان يتحدث عن نفسه. لذلك فقد طرت إلى موسكو، وأنا مطمئن تماما بأنه لا تنتظرنى هناك أية مفاجآت غير سارة متعلقة بعملى؛ فقد كان العمل فى السفارة يتم بصورة جيدة، وكنت أنا لم

أعمل فى القاهرة إلا أقل من عامين، من الأربع أو الخمس أو الست سنوات التى تمثل عادة مدة عمل السفير فى مكانه.

وفى اليوم التالى لوصولنا إلى موسكو، ذهبت إلى وزارة الخارجية. وتحدثت مع الرفاق بقسم دول الشرق الأوسط، وتأكدت من أنه لا توجد أية دعاوى تجاه السفارة. كما لم تنتظرنى مفاجآت فى سكرتارية الاجتماع العام بوزارة الخارجية، التى كان يجب أن أذهب إليها؛ لكى أسجل نفسى. وقيل لى إنه تم كتابة اسمى (احتياطيا) للحديث فى النصف الثانى من آخر أيام الاجتماع، وإننى أحتل مكانًا فى العشرة الثانية فى قائمة المتحدثين فى هذا الاجتماع، وإنه فى الغالب لن يصل الدور إلىَّ؛ ولذلك فإن أقصى ما يمكن أن أتوقعه هو أن أكتب صيغة مكتوبة للكلمة التى لن ألقيها؛ لكى يتم ضمها إلى مواد الاجتماع. فقلت إننى لا أسعى إلى ذلك، وانشغلت فى أعمالى، وأنا راض.

ولم يزعجنى أحد فى هذا اليوم أو فى اليوم التالى. لكن لا يقولون جزافا إن الهدوء يكون فى الحلم فقط. فقد اتصل بى، بمنزلى، النائب الجديد للوزير لشئون العاملين "فالنتين ميخايلوفيتش نيكيفوروف"(لم أكن قد تحدثت معه أبدا قبل ذلك، أو رأيته) فى وقت متأخر، فى مساء اليوم السابق للاجتماع، وبعد بضعة أسئلة عن أحوالى الصحية والنفسية فاجأنى تماما بإخبارى أنه فى الاجتماع الذى انتهى لتوه عند الوزير، والذى تمت فيه مناقشة المواضيع المتعلقة بتنظيم الاجتماع العام، تقرر أن ألقى كلمة فى صباح الغد بين أول خمسة متحدثين. وقد أبلغنى أننى سوف أتحدث فى وجود جورباتشوف، وأنه ليس هناك تحديد لموضوع الكلمة، كما أنه لو كانت عندى أية دعاوى من الجهاز المركزى لوزارة الخارجية، أو من أية هيئة أخرى، فعلىَّ عرضها مباشرة، حيث إن هذا الاجتماع يعقد لهذا الغرض. وحذرنى نيكوفوروف من أن أتخطى الزمن المقدر لكلمتى، وتمنى لى التوفيق، ثم علق السماعة.

وهنا ندمت تماما على أنى لم أضع أى شيء على الورق، فقد كان عندى وقت فى القاهرة، وفى موسكو، لعمل ذلك. واضطررت لأن أدفع ثمن الاستهتار غير المغتفر، بالعمل المتوتر تماما لعدة ساعات؛ لكى أعرض كل ما أريد أن أقوله عن مصر، وعن سياستنا تجاه هذا البلد، وعن الوضع فى الشرق العربى عامة، فى خلال الزمن المتاح لى. وعرضت فى أساس كلمتى الأفكار التى قدمتها إلى شيقرنادزة، فى رسالتى له فى الخريف. وكنت فى خلال الفترة التى مرت قد اقتنعت بها أكثر، وفى نفس الوقت، رأيت أن الذى تغير كان قليلا فى عمل عدد من الهيئات تجاه مصر. وكانت عندهم رغبة ملحة فى عدم رؤية الفرق بين مصر السادات، ومصر فى عهد مبارك، فاستمروا فى الاحتفاظ بهذه البلد الرائدة فى العالم العربى فى القائمة السوداء التى تضم من أغضبنا، وأعداءنا السياسيين. وهو ما كان فى صالح كل من واشنطن، والقوى الساداتية داخل مصر. وقد خسرنا كثيرا من هذا الأسلوب. وكنت مقتنعا أن الاستمرار فى الهيجان فى العالم العربى ليس مفيدا لنا سياسيا، وبأنه من التهور أن نضع كل البيض فى سلة تلك الدول العربية التى يصنف نظامها عندنا، تقليديا، فى فئة "التقدميين". واجتهدت لكى أبنى كلمتى حول هذه الأفكار وأشبعها بالطبع بأشياء محددة خاصة عن مصر، والعلاقات السوفييتية – المصرية.

وقد شعرت بصدمة فى اللحظة الأولى لصعودى إلى المنصة، حيث إننى فهمت أنى لا أستطيع استخدام الكلمة المصاغة، حيث إن خطى كان صغيرًا جدا، وأنه بعد عمل الكثير من التصحيحات، والتغييرات، والتبديلات، أصبح النص لا يقرأ أبدا. وبالإضافة إلى ذلك، فأنا عندى قصر نظر منذ ميلادى. لذلك فقد كان علىَّ تقريب الورق تماما من وجهى، أو على العكس، أن أميل فوقه على المنصة. ولم أكن أرغب فى عمل أى منهما فى وجود مثل هذا العدد الكبير من الحاضرين. لذلك فقد اضطررت للحديث من الذاكرة أحيانا، وأحيانا مرتجلا. لكن كان ذلك أحسن؛ فعادة يستمع للمتحدث أحسن عندما لا يكون يقرأ من ورقة، بل وبانتباه.

وقد أحسست أنه يستمع لى بانتباه. وغالبا لم يعجب ما قلته كل الجالسين فى الرئاسة (كان هناك رؤساء الهيئات، وأقسام اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى، وكانوا مدركين لمن يوجه النقد، خاصة أن ذلك تم فى وجود جورباتشوف، الذى توجهت إليه بحديثى مباشرة مرة أو مرتين)، ولكنى تحدثت. ويخيل لى أن كلمتى كانت جيدة. على أية حال، فقد بحث نيكيفوروف (كان شخصيا مسئولا عن الاجتماع) عنى فى أثناء الاستراحة، وهنأنى. وبذلك تعرفنا على بعضنا.

التكليف الجديد

فى هذا اليوم بالذات، رأيت لأول مرة "فى الحياة" جورباتشوف شخصيا، وتشيفرنادزة، وكذلك هما رأيانى لأول مرة. ولست أدرى، إلى الآن، هل كان لكلمتى أى دور لعبته فى التطورات التالية، أم أن ما يتعلق بى كان قد تقرر قبل ذلك بشكل ما؟ بيد أنه لم يتم وضعى على المنصة، أمام عينى السكرتير العام للحزب الشيوعى، عن طريق الصدفة. وقد يكون ذلك نوعًا من كشف الهيئة. ومن جهة أخرى، فإن مصر التى يعيش فيها ثلث تعداد العرب بلد مفتاحى فى هذه المنطقة. وقد يكون ذلك بالذات ما تمت مراعاته، عندما قرروا من أوائل من سيمنحون الكلمة (و قد تحدث قبلى سفيرانا فى بكين وبون).

أيًا ما كان ذلك، فبعد يومين أخبرنى ف. م. نيكوفوروف بأننى، على الأرجح، لن أعود إلى القاهرة لفترة طويلة، حيث يدرس موضوع نقلى إلى نيويورك. وقد اهتم بمعرفة رأيى. وكان ذلك، على الأرجح، للشكليات، حيث إن مثل هذا المقترح لا يرفض.

وكان هذا الاقتراح بالفعل مغريا ومرغوبا. فإن التعيين كممثل دائم للاتحاد السوفييتى بهيئة الأمم المتحدة، وممثل له فى مجلس الأمن، أحد أكثر المراكز هيبة، فى مجال العمل الدبلوماسى عندنا، وكذلك عند كل الدبلوماسيين فى الدول العظمى.

وقد كان أ.أ. جروميكو هو أول ممثل دائم فى هيئة الأمم المتحدة. أما باقى الممثلين الدائمين فهم: "ى.أ.ماليك"، و"ف.أ.زورين"، و"أ.ى. فيشينسكى"، و"أ.أ. سوبوليف"، و"ن.ت. فيدورنكو"، و"أ.أ.ترويانوفسكى". وقد ترك كل منهم بطريقته أثرًا فى الدبلوماسية السوفييتية. وكان هذا العرض بالنسبة لى ممتعا بشكل مزدوج، حيث إنى، قبل تكليفى فى القاهرة، كنت أعمل فى موسكو لمدة ١٧ سنة فى مجال واسع من المواضيع الدولية، التى كانت موجودة، بشكل أو بآخر، فى أجندة هيئة الأمم المتحدة. وكانت العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية، بكافة عناصرها، فى بؤرة مسئولياتى السابقة. لذلك فإذا كانت الرئاسة قد وجدت أن نيويورك مكان أنسب، يمكن أن أبذل فيه جهدى أكثر من القاهرة، فلا يوجد أى أساس عندى لرفض ذلك، حتى لو كانت الأمور تسير، بالنسبة لى، فى مصر بشكل حسن، وإذا كانت البلد تعجبنى.

عدنا إلى القاهرة، أنا وناتاشا، وهو ما أدهش بالطبع البعض، حيث إنها، عند سفرها إلى موسكو، كانت قد ودعتهم حتى الخريف. لكننا لم نكن نستطيع فى ذلك الوقت شرح السبب الحقيقى، فقد كان يجب انتظار القرار النهائى للجنة المركزية للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى.

وكان أول ما قمت بعمله عند عودتى إلى القاهرة هو أن عقدت اجتماعا مع نشطاء الحزب، حدثتهم فيه عن الاجتماع العام الذى عقد فى وزارة الخارجية، وعن كلمات جورباتشوف وشيفرنادزة به، وعن الواجبات التى قاموا بتحديدها، وما تعنيه بالنسبة لعملنا فى مصر، وكذلك عن كلمات المتحدثين فى الاجتماع بما فيها كلمتى. وفى خلال عدة أيام، جاءتنا برقية بها أمر رسمى بإنهاء عملى فى القاهرة، وعودتى إلى موسكو. وهذا كان يعنى صدور قرار المكتب السياسى للجنة المركزية بتعيينى فى نيويورك. لكن لم يتضح أى شىء بخصوص بديلى. وبذلك غادرت مصر، دون أن أحصل على موافقة الحكومة المصرية على قبوله. وقام

بذلك بعد شهرين القائم بالأعمال م.س. تسيفوجين. وأصبح نائب وزير التجارة الخارجية للاتحاد السوفييتى "ج.ك. جورافليف" بديلا لى.

وداعًا مصر

كان أسامة الباز هو أول مصرى أخبرته بموضوع مغادرتى لمصر. وهو قد فهم، كدبلوماسى، ما كانت تعنيه لى نيويورك، كخطوة إلى الأمام فى العمل الدبلوماسى. لذلك فقد هنأنى فورا بالتكليف الجديد، معبرا فى نفس الوقت، عن أسفه لفقده لى كسفير عمل معه بشكل وثيق. وبعد ذلك، بدأت عندى سلسلة من زيارات الوداع إلى رئيس مجلس الوزراء، ورئيس مجلس الشعب، ورئيس مجلس الشورى، ومجيد - وزير الخارجية، وبطرس غالى - وزير الدولة للخارجية، وبعض المسئولين الرسميين الآخرين. وفى نفس الوقت، قمت بزيارات وداع للسفراء. بالطبع ليس لكلهم، لكن للسفراء الذين كنت أتعامل معهم أكثر. وكثيرا ما كنا نقوم بذلك، أنا وناتاشا معا. فكان يحدث ذلك، فى الأساس، مع سفراء الدول الاشتراكية، ومع المصريين الذين كانت تربطنا بهم صداقة عائلية. وكان الوداع حارا. وقد أحسسنا، فى كثير من الأحيان، أن ذلك لم يكن فقط نابعا من الأخلاق الشرقية، أو من الأدب الدبلوماسى من جانب المصريين.

وفى يوم ١٥ يونية، كانت آخر مقابلة لى مع الرئيس مبارك فى القاهرة. وقد بدأها بسؤال كان غير متوقع بعض الشىء: "كيف ترى، هل يمكن أن أتوجه للرفيق جورباتشوف بطلب لكى يبقيك فى القاهرة؟". ولم ينتظر الرد، بل ضحك، وأضاف أنه يمزح، حيث إنه يفهم تماما ما تعنيه للاتحاد السوفييتى هيئة الأمم المتحدة، وخاصة مجلس الأمن بها. وتمنى لى النجاح فى عملى القادم، وطلب منى أن أراعى فيه بقدر الإمكان المصالح المصرية أيضا، ولذلك أن أقيم علاقة وثيقة مع المندوب الدائم لجمهورية مصر العربية بهيئة الأمم المتحدة، الذى أعرفه جيدا "بدوى"، والذى كان يشرف على العلاقات مع الاتحاد السوفييتى بوزارة الخارجية،

قبل سفره إلى نيويورك. وبعد ذلك، اهتم الرئيس بالسؤال عن نوع الانطباعات عن مصر التى أغادرها بها. وقد أتاح لى ذلك الفرصة لأن أقول ما أفكر فيه. وقد اجتهدت في ذلك، لكى يكون تقييمى موضوعيا ومتزنا. وفيما يتعلق بحسن النوايا، فهنا لم يكن علىّ أن أنافق، فقد كانت بالفعل تعجبنى البلد، وكذلك رئيسها. ثم عرض مبارك تقييمه (الإيجابى) للطريق الذى قطعته العلاقات السوفييتية - المصرية فى السنوات الأخيرة. وقد أشار إلى أن الأهم أن هذا التقدم الذى تم التوصل إليه يمثل فقط البداية، وأنه سوف يقوم بمتابعة العمل؛ لكى ترتفع علاقاتنا الثنائية إلى مستويات أعلى وأعلى. وبالطبع، لم ألبث أن شكرت مبارك على إرجاع المبنى السكنى للسفارة، الذى تحقق الآن ماديا وقانونيا، وطلبت أيضا سرعة إلغاء كل أنواع الحظر التى ما زالت موجودة. وقد أكد الرئيس أنه سوف يتم تنفيذ كل ما تحدثنا عنه فى مقابلاتنا. وقال: "احضر إلى القاهرة بعد عدة سنوات، وسوف تتأكد من أن كل شيء سيكون كما يجب أن يكون عليه". (وبالفعل حدث ذلك). ثم انتقل الحديث إلى مواضيع السياسة الخارجية. وكان لدى رسالة شفهية من جورباتشوف لمبارك بخصوص ذلك، وقد عرضتها عليه. وبصفة عامة، سارت زيارة الوداع مع الرئيس بشكل ليس بروتوكوليا بالمرة، لكنها كانت مثمرة، وكانت دافئة.

بعد ذلك، تقابلت مع مبارك مرتين - مرة فى نيويورك، ومرة فى القاهرة.

وبالإضافة إلى أن كل الشخصيات الهامة المصرية قد استقبلتنى بمناسبة سفرى، فإنه قد تم أيضا تنظيم احتفالين بروتوكوليين بهذا الخصوص. فأولا، أقام أمين عام الحزب الحاكم، نائب رئيس مجلس الوزراء، يوسف والى، حفل استقبال على شرفى، اشترك فيه السلك الدبلوماسى، وكبار المسئولين المصريين، وقد تبادلنا فيه الكلمات. ثانيا، تمت الدعوة إلى غداء، مثل فيه الجانب المصرى كل من "أسامة الباز"، ورئيس مجموعة شركات يونيميج "إبراهيم كامل"، ورئيس البنك المركزى، وقيادات وزارة الخارجية، وهيئات التجارة الخارجية. وعدد من المسئولين

الآخرين. وفى ١٧ يونية، أقمت حفل وداع كبيرا فى الهواء الطلق بحديقة مقر إقامتى، الذى كان قد زاره، بالإضافة إلى الدبلوماسيين، تقريبا كل صفوة المسئولين المصريين والحزبيين والمثقفين. وقد مثل ذلك تقريبا إشارة سياسية ببدء مرحلة أخرى فى العلاقات السوفييتية – المصرية، مخالفة تماما، بالمقارنة بما كانت عليه من سنتين مضتا.

وكانت عندى كل البواعث لأن أشعر، وأنا أغادر القاهرة، أننى قد قمت بواجبى جيدا؛ فقد تركت مصر التى قدر لى أن أحضر إليها؛ لأقوم بدور السفير بها لأول مرة فى حياتى. وقد كانت البداية ليست فقط ناجحة، لكنها أوصلتنى إلى طريق عمل أصعب، وأكثر متعة – إلى مقدمة خشبة المسرح الدبلوماسى، التى كانت تمثلها هيئة الأمم المتحدة، وستظل تمثلها. وأنا أشعر، الآن، بالامتنان لحسن ضيافة مصر، ولزملائى الدبلوماسيين السوفييت، ولباقى العاملين فى الهيئات السوفييتية بجمهورية مصر العربية؛ لتأييدهم ومعاونتهم لى. وأنا سعيد بأننى كنت مشاركا معهم فى بدء العملية التى أدت إلى علاقات ناضجة وقوية بين موسكو والقاهرة، على أساس من الاحترام، والثقة، والصداقة، والمنفعة المتبادلة. وأنا أتمنى، بأمانة، أن تظل كذلك دائما.

المؤلف فى سطور:

ألكسندر بيلانوجوف

- دبلوماسى سوفييتى وروسى متميز، أمضى أكثر من ٤٠ عاما فى العمل الدبلوماسى.
- ولد فى عام ١٩٣١ بمدينة موسكو، وتخرج فى عام ١٩٥٤ بمعهد موسكو الحكومى للعلاقات الدولية، والتحق فى نفس العام بوزارة خارجية الاتحاد السوفييتى.
- يعتبر أ.بيلانوجوف فترة عمله فى مصر (١٩٨٤-١٩٨٦) من أهم فترات عمله الدبلوماسى، حيث إنه أصبح أول سفير سوفييتى فى عهد الرئيس "محمد حسنى مبارك". وفى هذه الفترة، بدأ إحياء التعاون بين الاتحاد السوفييتى ومصر، حيث وضعت أسس جديدة لتطوره فى المستقبل.
- بعد نجاحه فى عمله بمصر، عين مندوبا دائما للاتحاد السوفييتى بهيئة الأمم المتحدة بنيويورك، وممثلا له بمجلس الأمن.
- اعتبارا من عام ١٩٩٠، أصبح نائبا لوزير خارجية الاتحاد السوفييتى لشئون دول الشرق الأوسط وأفريقيا.
- بعد انهيار الاتحاد السوفييتى، كان أول سفير لروسيا بكندا، وعمل فيها لمدة ٦ أعوام.
- شارك فى الكثير من المفاوضات الثنائية، وغيرها، وفى المؤتمرات الدولية المتعلقة بتسوية أزمة الشرق الأوسط.
- حصل على درجة الدكتوراه فى العلوم القانونية.
- قلد بعدة نياشين وأوسمة من بلده.
- ألف عدة كتب ومقالات عن العلاقات الدولية.
- بعد بلوغه سن التقاعد، بدأ يكتب مذكراته، التى نشر جزء منها، أو يعد للنشر.

المترجم فى سطور

أ.د. على فهمى عبد السلام

- أستاذ جامعي، ورئيس قسم هندسة التعدين والفلزات – معهد التبين للدراسات المعدنية.
- من مواليد الإسكندرية عام ١٩٤٧.
- درس فى "كوليج سان مارك" بالإسكندرية.
- حصل على بكالوريوس الهندسة بجامعة الإسكندرية عام ١٩٧٠، ثم الماجستير بمعهد التبين للدراسات المعدنية عام ١٩٧٢، ثم الدكتوراه فى الهندسة بمعهد موسكو للصلب والسبائك عام ١٩٨٠.
- يجيد اللغات الروسية والفرنسية والإنجليزية.
- عمل كمهندس إنتاج بشركة النصر للمسبوكات من يولية ١٩٧٠ إلى يولية ١٩٧٢، ثم بشركة الحديد والصلب من يوليو ١٩٧٢ إلى يوليو ١٩٧٣، ثم تدرج فى وظائف أعضاء هيئة التدريس بمعهد التبين للدراسات المعدنية.
- حصل على لقب أستاذ جامعي فى يناير عام ١٩٩٢.
- عمل من أكتوبر ١٩٨٠ إلى نوفمبر ١٩٨٣ كمساعد لمدير مركز الوثائق الفنية والجامعية = بعثة التعاون العلمى– سفارة فرنسا بالقاهرة.
- أعير إلى جامعة "يولا" التكنولوجية بنيجيريا، كمدرس وباحث بكلية علوم الشمس والأرض والتعدين، من نوفمير ١٩٨٣ إلى سبتمبر ١٩٨٤.
- عمل كمدير لمكتب جلاسكو بالقاهرة من يناير ١٩٩٦ إلى يناير ١٩٩٨، ثم نائب مدير فوسيكو من يناير ١٩٩٨ إلى يولية ١٩٩٨.
- له أكثر من ستين بحثا علميا منشورا فى الدورات والمؤتمرات العالمية.
- مؤسس معمل "الفرن الشمسي" بمعهد التبين للدراسات المعدنية.
- كان مسئولا، لفترة طويلة، فى جهة عمله عن التعاون العلمي مع روسيا، وفرنسا، وبولندا، وأوزبكستان، وأوكرانيا، والجزائر، ودول أخرى.

- تولى مهمة الترجمة الفورية، من الروسية إلى العربية والعكس، فى العديد من المؤتمرات واللقاءات الرسمية، أهمها مؤتمر "صناع السلام بشرم الشيخ".
- عضو الأكاديمية العالمية لعلوم البيئة وحماية الإنسان والطبيعة.
- عضو شرف بمجلس المستشارين بالمعهد الأمريكي البيوجرافى.
- رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية لخريجي الجامعات والمعاهد الروسية ودول الكومنولث.
- عضو مجلس إدارة وأمين عام الجمعية المصرية لسباكة المعادن.
- عضو لجنة بحوث الصناعات المعدنية بأكاديمية البحث العلمي.
- عضو بجمعية التنمية الصناعية.
- عضو بجمعية علوم الجوامد.
- عضو بجمعية تآكل الفلزات.
- رئيس تحرير النشرة العلمية لمعهد التبين للدراسات المعدنية.
- رئيس تحرير مجلة "السباكة"
- مشرف على إصدارات "تكنولوجيا السباكة".
- له أكثر من خمسين كتابا منشورا، بين المؤلفات العلمية، وقواميس المصطلحات العلمية، والترجمات من الروسية إلى العربية، ومن الروسية إلى الإنجليزية، ومن الفرنسية إلى العربية. بالإضافة إلى العديد من المقالات.

المراجع فى سطور:

أوليج إيفانوفيتش فومين

- ممثل المركز الروسي للتعاون العلمي والثقافي الدولي، التابع لوزارة الخارجية الروسية، والمدير العام للمراكز الثقافية الروسية، ومستشار سفارة روسيا الاتحادية فى ج.م.ع، اعتبارا من عام ٢٠٠٣.
- تخرج فى معهد الدراسات الدولية الحكومي بموسكو فى عام ١٩٦٢، ثم في معهد اللغات الشرقية عام ١٩٦٦.
- حصل على الدكتوراه فى العلوم التاريخية عام ١٩٧٨، من أكاديمية العلوم الاجتماعية.
- مستشرق، وخبير فى التاريخ الحديث للبلدان العربية.
- يتقن اللغة العربية واللغة الفرنسية.
- عمل كمترجم بإدارة السياحة، التابعة لمجلس وزراء الاتحاد السوفييتي، ثم في الجمهورية العربية اليمنية، فى الفترة من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٦.
- عمل في الوظائف التالية، فى الفترة من ١٩٦٦ إلى ٢٠٠٣: مشرف لجنة منظمة الشباب – مسئول عن العلاقات مع البلدان العربية (مدينة موسكو)، ممثل اتحاد جمعيات الصداقة السوفييتية – مدير المركز الثقافي السوفيتي فى الجمهورية العربية السورية – السكرتير الأول لسفارة الاتحاد السوفييتى فى الجمهورية العربية السورية، مستشار قسم الدعاية السياسية الخارجية للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي – مسئول الإعلام عن البلدان العربية، مستشار المركز الصحفي – كبير الخبراء للشركة السورية الروسية المتحدة "ليكسيكا"، ممثل المركز الروسى للتعاون العلمي والثقافى الدولى، مدير المركز الروسي للعلوم والثقافة، السكرتير الأول لسفارة روسيا الاتحادية فى جمهورية تونس.

- نائب رئيس الجمعية الفلسطينية الأورثوذكسية الإمبراطورية، منذ عام ١٩٨٣ حتى الآن.
- نائب رئيس جمعية الصداقة "السوفييتية- السورية"، فى أعوام ١٩٧٥-١٩٩١.
- نائب رئيس أكاديمية التراث الروحي الشرقي (مدينة موسكو).
- نائب رئيس اتحاد جمعيات الصداقة الروسية مع البلدان العربية، منذ عام ١٩٩٨ حتى الآن.
- عضو اتحاد الصحفيين الروسي.
- عضو اتحاد المترجمين الروسي.
- نشر له ٦ كتب، وكتيبات، وأكثر من ٤٠٠ مقالة عن: قضايا حركة التحرر الوطنية العربية، نزاع الشرق الأوسط، نضال الشعب الفلسطيني، العلاقات الروسية العربية.
- ترجم رواية "تغيان"، للكاتب محمد إبراهيم على (سورية)، وعددًا كبيرًا من المقالات الصحفية.
- حصل على الميداليات والشهادات التقديرية التالية:
  - شارة استحقاق "للصداقة بين الشعوب".
  - ميدالية"للعمل الشجاع".
  - ميدالية"مرور ٨٥٠ سنة على تأسيس موسكو".
  - ميدالية الجمهورية الألمانية الديموقراطية "للصداقة بين الشعوب".
  - شارة استحقاق من الجمهورية العربية السورية "للتلاحم الكفاحي".
  - شارة استحقاق، بمناسبة "مرور ٢٠٠ عام على تأسيس وزارة الخارجية الروسية".
  - شارة استحقاق من المركز الروسي للتعاون العلمي والثقافي الدولي "للمساهمة في توطيد الصداقة".
- شهادات تقديرية من البطريرك أليكسى الثاني، فى الفترة من عام ١٩٩٦ حتى ٢٠٠١ "مباركة للعمل المجتهد من أجل الكنيسة المقدسة".

التصحيح اللغوى: على أبو زيد
الإشراف الفنـــى: حســن كامل